التدبر والبيان

في

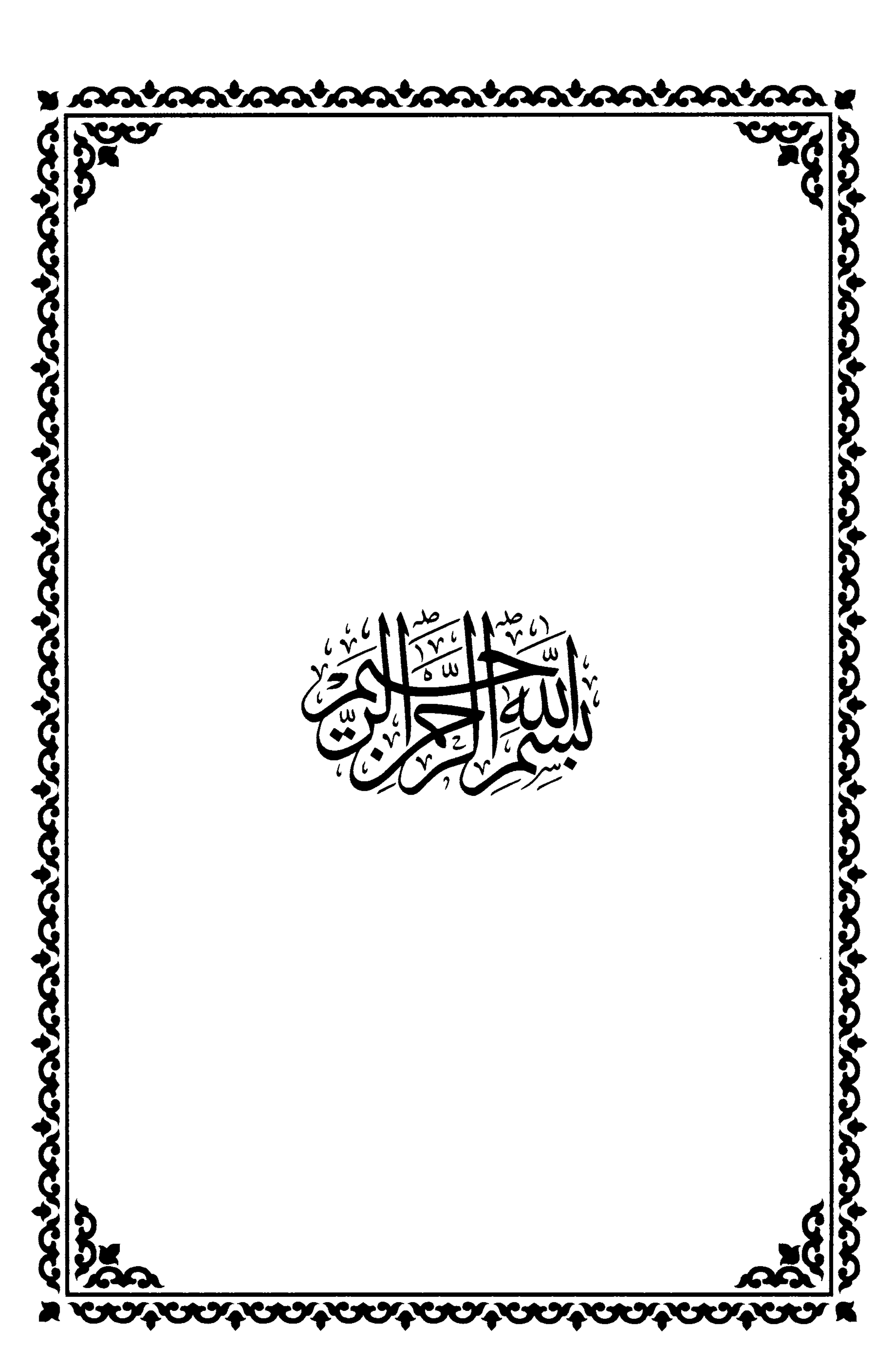
تفسير القرآن بصحيح السنن

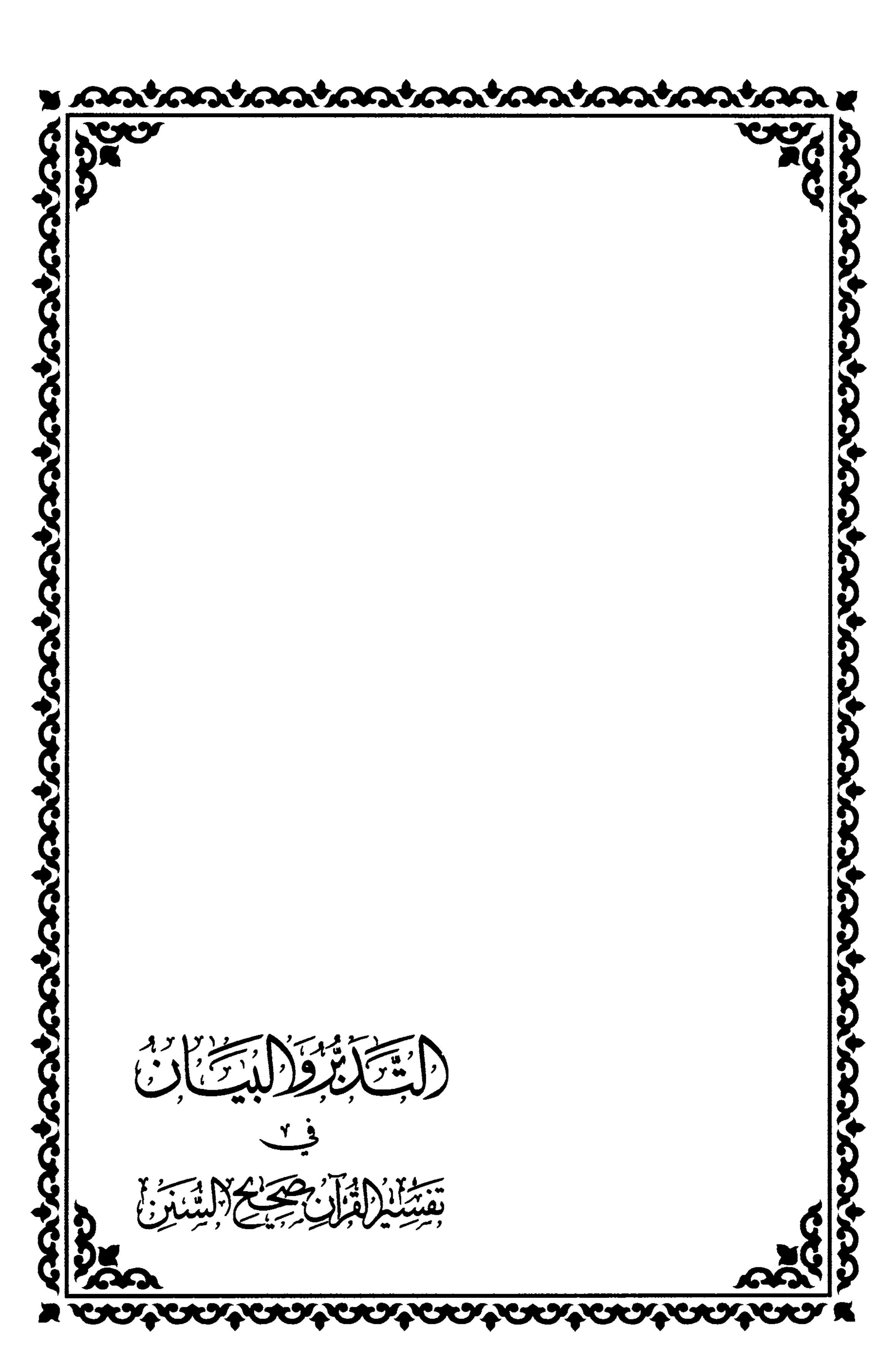
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد العشرون

الكهف - مريم


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨






سورة الكهف

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن، تطاولا من اللّه تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب. وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولدًا، وبشارة للمؤمنين، وتسلية رسول اللّه ﷺ عن أقوالهم حين تريّث الوحي؛ لما اقتضته سنة اللّه مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة. وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها، وأنها لا تكسب النفوس تزكية. وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه. وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده. وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم.

وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل، إذ تهمموا بخبر مِلِك من غير قومهم ولا من أهل دينهم، ونسوا خبرا من سيرة نبيهم -عليه الصلاة والسلام-، وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي ﷺ وتثبيته. وأن الحق فيما أخبر به، وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين، ومن الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرسل، وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله، ووعد المؤمنين بضدهم، والتمثيل لسعة علم اللّه تعالى، وختمت بتقرير أن القرآن وحي من اللّه تعالى إلى رسوله ﷺ، فكان في هذا الختام مُحسّن رد العجز

على الصدر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة الكهف

* عن أبي الدرداء ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عُصم من الدجال**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

عُصم: بصيغة المجهول؛ أي: وقي وحفظ.

فتنة الدجال: أي آفته.

* عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف كما أنزلت؛ كانت له نورًا من مقامه إلى مكة. ومن قرأ بعشر آيات من آخرها فخرج الدجال لم يسلط عليه**»[٣].

★ **فوائد الحديثين:**

قال القرطبي: «قوله ﷺ: «**من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**» وفي الرواية الأخرى: «**من آخر الكهف**» واختلف المتأولون في سبب ذلك؛ فقيل: لما في قصة أصحاب الكهف من العجائب والآيات، فمن علمها لم يستغرب أمر الدجال، ولم يهُله ذلك، فلا يفتتن به.

وقيل: لما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾[٤] إلى آخر السورة؛ من المعاني المناسبة لحال الدجال، وهذا على رواية من روى: من آخر الكهف.

وقيل: لقوله تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ﴾[٥] تمسكا بتخصيص البأس

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٦) ومسلم (١/ ٥٥٥/ ٨٠٩) وأبو داود (٤/ ٤٩٧-٤٩٨/ ٤٣٢٣) والترمذي (٥/ ١٤٩/ ٢٨٨٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٥/ ٨٠٢٥).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٦/ ١٠٧٨٨) والحاكم (١/ ٥٦٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٢٣٩) وقال: «رجاله رجال الصحيح إلا أن النسائي قال بعد تخريجه في «اليوم والليلة»: هذا خطأ. والصواب موقوفا».

(٤) الكهف: الآية (١٠٢).　　(٥) الكهف: الآية (٢).

بالشدة واللدنية، وهو مناسب لما يكون من الدجال من دعوى الإلهية، واستيلائه، وعظيم فتنته، ولذلك عظّم النبي ﷺ أمره، وحذر منه، وتعوذ من فتنته، فيكون معنى هذا الحديث: أن من قرأ هذه الآيات، وتدبرها، ووقف على معناها؛ حَذِره، فأمن من ذلك.

وقيل: هذا من خصائص هذه السورة كلها. فقد روي: **«من حفظ سورة الكهف، ثم أدرك الدجال، لم يسلط عليه»**، وعلى هذا تجتمع رواية من روى: **«من أول سورة الكهف»**، ورواية من روى: **«من آخرها»** ويكون ذكر العشر على جهة الاستدراج في حفظها كلها.

وقيل: إنما كان ذلك لقوله: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ فإنه يهوّن بأس الدجال، وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1]، فإنه يهون الصبر على فتن الدجال، بما يظهر من جنته وناره، وتنعيمه وتعذيبه. ثم ذمه تعالى لمن اعتقد الولد، يفهم منه: أن من ادعى الإلهية أولى بالذم، وهو الدجال. ثم قصة أصحاب الكهف، فيها عبرة تناسب العصمة من الفتن، وذلك أن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[2] فهؤلاء قوم ابتلوا فصبروا، وسألوا إصلاح أحوالهم، فأُصلحت لهم، وهذا تعليم لكل مدعو إلى الشرك. ومن روى: من آخر الكهف، فلِما في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[3] فإن فيه ما يهون ما يظهره الدجال من ناره.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾[4] تنبيه على أحوال تابعي الدجال، إذ قد عَمُوا عن ظهور الآيات التي تكذبه. والله أعلم»[5].

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه: قرأ رجل الكهف وفي الدار الدابة، فجعلت تنفِر. فسلّم فإذا ضَبابة أو سحابةٌ غَشِيته، فذكره للنبي ﷺ فقال: **«اقرأ فلان، فإنها السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت للقرآن»**[6].

---

(١) الكهف: الآية (٢). (٢) الكهف: الآية (١٠). (٣) الكهف: الآية (١٠٠).
(٤) الكهف: الآية (١٠١). (٥) المفهم (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٤) والبخاري (٦/ ٧٧١/ ٣٦١٤) ومسلم (١/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٧٩٥) والترمذي (٥/ ١٤٨/ ٢٨٨٥).

★ غريب الحديث:

غشيته: غطته.

السكينة: مأخوذة من السكون، وهو الوقار والطمأنينة.

★ فوائد الحديث:

قال أبو بكر بن العربي: «فبين بهذا فضلها (أي: سورة الكهف)، وأن الملائكة تنزلت لقراءتها، فبيّنت فضل القارئ؛ لأنه لم يكن ذلك لغيره ممن قرأها، يختص برحمته من يشاء»[1].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١١/١٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا﴾[١]

★ **غريب الآية:**

عوجًا: العوج: الميل عن حالة الانتصاب.

قيمًا: القيم: المستقيم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الحمد لله الذي خصّ برسالته محمدًا ﷺ، وانتخبه لبلاغها عنه، فابتعثه إلى خلقه نبيًّا مرسلًا، وأنزل عليه كتابه قيمًا، ولم يجعل له عوجًا، وعنى بقوله عز ذكره: ﴿قَيِّمًا﴾ معتدلًا مستقيمًا. وقيل: عنى به: أنه قيم على سائر الكتب يصدقها ويحفظها.. عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا﴾ يقول: أنزل الكتاب عدلًا قيمًا، ولم يجعل له عوجًا.. وعن الضحاك في قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ قال: مستقيمًا.

والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله ابن عباس ومن قال بقوله في ذلك؛ لدلالة قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ فأخبر جل ثناؤه أنه أنزل الكتاب الذي أنزله إلى محمد ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت، بل بعضه يصدق بعضًا، وبعضه يشهد لبعض، لا عوج فيه، ولا ميل عن الحق»[٢].

وقال عبدالكريم الخطيب: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ هو وجه آخر من وجوه الحمد لله تعالى، فإذا استوجب اللّه تعالى الحمد لجلاله وعظمته، وتنزهه عن أن يتخذ ولدًا، أو يكون له شريك في الملك، أو ولي من الذل، فإنه سبحانه مستوجب الحمد كذلك على تلك النعمة الجليلة التي أنعم

(١) الآيتان (١و٢).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٩٠).

اللَّه بها على عبده محمد، فأنزل عليه هذا الكتاب، الذي تستنير بآياته البصائر، وتعمر بتلاوته القلوب وتهتدي به العقول، فتلك النعمة الجليلة؛ هي التي تمّت بها نِعم اللَّه على الإنسان، إذ خلقه ورزقه، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[1] فالذي يجعل لهذه النعم ثمرات مباركة طيبة، والذي يجعل إلى يد الإنسان ميزانا يضبط به هذه النعم، على وجه الخير والإحسان؛ هو تلك الهداية التي يستمدها من هذا الكتاب الكريم، وبغير هذا لا يستطيع الانتفاع بهذه النعم، بل ربما تحولت هذه النعم في يده إلى أسلحة قاتلة له وللناس معه، فكان نزول هذا الكتاب، من تمام نعمة اللَّه على عباده، فاستوجب سبحانه الحمد والشكران.

وفي ذكر محمد -صلوات اللَّه وسلامه عليه- بالعبودية؛ تكريم له من ربه، ورفع لمقامه، إذ جعله عبدًا استحقّ أن يضاف إليه سبحانه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ إشارة إلى سماحة الشريعة الإسلامية، التي جاء بها محمد ﷺ، والتي حملها هذا الكتاب، الذي لا عوج فيه ولا خروج في أحكامه وتشريعاته عن سنن الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها، كما يقول اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[2]، فالقرآن الكريم لم يجئ بأي تكليف فيه حرج ومشقة، كما جاءت الشرائع السابقة التي حملت إلى المدعوّين إلى الإعنات والإرهاق، تأديبًا وإصلاحًا، لما فيهم من اعوجاج حادّ، كما في شريعة موسى، ووصايا عيسى، فقد حرم اللَّه في شريعة موسى على بني إسرائيل طيبات كانت أحلت لهم، كما يقول سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[3] وكما يقول سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[4]»[5].

قال الشنقيطي: «علم اللَّه -جل وعلا- عباده في أول هذه السورة الكريمة أن يحمدوه على أعظم نعمة أنعمها عليهم، وهي إنزاله على نبينا ﷺ هذا القرآن العظيم

(١) الأنعام: الآية (١).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٣) النساء: الآية (١٦٠).
(٤) الأنعام: الآية (١٤٦).
(٥) التفسير القرآني (٨/ ٥٧٩-٥٨٠).

الذي لا اعوجاج فيه، بل هو في كمال الاستقامة، أخرجهم به من الظلمات إلى النور، وبين لهم فيه من العقائد والحلال والحرام وأسباب دخول الجنة والنار، وحذرهم فيه من كل ما يضرهم، وحضهم فيه على كل ما ينفعهم، فهو النعمة العظمى على الخلق، ولذا علمهم ربهم كيف يحمدونه على هذه النعمة الكبرى بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. وما أشار له هنا من عظيم الإنعام والامتنان على خلقه بإنزال هذا القرآن العظيم، منذرًا من لم يعمل به، ومبشرًا من عمل به؛ ذكره -جل وعلا- في مواضع كثيرة كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[5] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[6] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[7] الآية. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[8]، وهو تصريح منه -جل وعلا- بأن إيراث هذا الكتاب فضل كبير، والآيات بمثل هذا كثيرة جدًا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: لم يجعل في القرآن عوجًا؛ أي: لا اعوجاج فيه ألبتة، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: ﴿عِوَجَا﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج، وما ذكره -جل وعلا- هنا من أنه لا اعوجاج فيه بينه في مواضع أخر

---

(١) النساء: الآيتان (١٧٤و١٧٥).
(٢) العنكبوت: الآية (٥١).
(٣) النمل: الآيتان (٧٦و٧٧).
(٤) الإسراء: الآية (٨٢).
(٥) فصلت: الآية (٤٤).
(٦) الأنبياء: الآيتان (١٠٦و١٠٧).
(٧) القصص: الآية (٨٦).
(٨) فاطر: الآية (٣٢).

كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١] وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٢] فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي في الأخبار، وقوله: ﴿وَعَدْلًا ۚ﴾ أي: في الأحكام، وكقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٣] والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا.

وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا لا ميل فيه ولا زيغ، وما ذكره هنا من كونه قيما لا ميل فيه ولا زيغ؛ بينه أيضًا في مواضع أخر كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٥] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٧] وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٨] وقوله: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٩] وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[١٠] إلى غير ذلك من الآيات»[١١].

وقال السعدي: «الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة، يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر

---

(١) الزمر: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٢) الأنعام: الآية (١١٥).
(٣) النساء: الآية (٨٢).
(٤) البينة: الآيات (١-٣).
(٥) الإسراء: الآية (٩).
(٦) يونس: الآية (٣٧).
(٧) يوسف: الآية (١١١).
(٨) البقرة: الآيتان (١و٢).
(٩) هود: الآية (١).
(١٠) الشورى: الآية (٥٢).
(١١) أضواء البيان (٣/ ١٩١-١٩٢).

إلا بأجل الإخبارات وهي الأخبار، التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا، كالإخبار بأسماء اللَّه وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها، وتنميها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمد اللَّه نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥-٦).

قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أنزل على عبده القرآن معتدلًا مستقيمًا لا عوج فيه؛ لينذركم أيها الناس بأسًا من اللَّه شديدًا، وعنى بالبأس العذاب العاجل، والنكال الحاضر والسطوة، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ يعني: من عند اللَّه. .

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ويبشر المصدقين اللَّه ورسوله ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو العمل بما أمر اللَّه بالعمل به، والانتهاء عما نهى اللَّه عنه؛ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يقول: ثوابًا جزيلًا لهم من اللَّه على إيمانهم باللَّه ورسوله، وعملهم في الدنيا الصالحات من الأعمال، وذلك الثواب هو الجنة التي وُعدها المتقون.

وقوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ خالدين، لا ينتقلون عنه، ولا ينقلون، ونصب ماكثين على الحال من قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ في هذه الحال، في حال مكثهم في ذلك الأجر»[(١)].

قال الشنقيطي: «أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أن هذا القرآن العظيم تخويف وتهديد للكافرين، وبشارة للمؤمنين المتقين، إذ قال في تخويف الكفرة به: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ وقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية. وقال في بشارته للمؤمنين: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ الآية. وهذا الذي ذكره هنا من كونه إنذارًا لهؤلاء، وبشارة لهؤلاء؛ بيّنه في مواضع أخر كقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[(٢)] وقوله: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٩٢).
(٢) مريم: الآية (٩٧).
(٣) الأعراف: الآيتان (١و٢).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بينت المراد به آيات أخر، فدلت على أن العمل لا يكون صالحًا إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون مطابقًا لما جاء به النَّبي ﷺ. فكل عمل مخالف لما جاء به صلوات اللَّه وسلامه عليه فليس بصالح بل هو باطل؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[1] الآية. وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2] وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[3] الآية. وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[4] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: أن يكون العامل مخلصًا في عمله لله فيما بينه وبين الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[5] الآية. وقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن يكون العمل مبنيًا على أساس الإيمان، والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[7] الآية. فجعل الإيمان قيدًا في ذلك، وبين مفهوم هذا القيد في آيات كثيرة كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[8] وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾[9] الآية. وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾[10] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: وليبشرهم بأن لهم أجرًا حسنًا. الأجر: جزاء العمل، وجزاء عملهم المعبر عنه هنا بالأجر: هو الجنة. ولذا قال ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ وذكر الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ لأنه راجع إلى الأجر

(١) الحشر: الآية (٧).
(٢) النساء: الآية (٨٠).
(٣) آل عمران: الآية (٣١).
(٤) الشورى: الآية (٢١).
(٥) البينة: الآية (٥).
(٦) الزمر: الآيات (١١-١٥).
(٧) النحل: الآية (٩٧).
(٨) الفرقان: الآية (٢٣).
(٩) النور: الآية (٣٩).
(١٠) إبراهيم: الآية (١٨).

وهو مذكر، وإن كان المراد بالأجر الجنة، ووصف أجرهم هنا بأنه حسن، وبين أوجه حسنه في آيات كثيرة. كقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾[1] إلى قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[2] وكقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[3]»[4].

* * *

(١) الواقعة: الآيات (١٣-١٦).
(٢) الواقعة: الآيتان (٣٩و٤٠).
(٣) السجدة: الآية (١٧).
(٤) الأضواء (٣/ ١٩٥-١٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويحذر أيضًا محمدٌ القوم الذين قالوا: اتخذ اللَّه ولدًا، من مشركي قومه وغيرهم؛ بأسَ اللَّه وعاجل نقمته، وآجل عذابه، على قيلهم ذلك. . .

وقوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ يقول: ما لقائلي هذا القول، يعني قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، ﴿بِهِۦ﴾: يعني باللَّه من علم، والهاء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ من ذكر اللَّه.

وإنما معنى الكلام: ما لهؤلاء القائلين هذا القول باللَّه -إنه لا يجوز أن يكون له ولد- من علم، فلجهلهم باللَّه وعظمته قالوا ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ يقول: ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم -على مثل الذي هم عليه اليوم- كان لهم باللَّه وبعظمته علم.

وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء القوم الذين قالوا: اتخذ اللَّه ولدا، والملائكة بنات اللَّه.

وقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يقول عز ذكره: ما يقول هؤلاء القائلون اتخذ اللَّه ولدًا بقيلهم ذلك؛ إلا كذبًا وفرية افتروها على الله»[1].

وقال الشنقيطي: «والآيات الدالة على شدة عظم فريتهم كثيرة جدا، كقوله هنا: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن

(١) جامع البيان (١٥/ ١٩٣-١٩٤).

دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[١] وقوله: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾[٢] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا أن القرآن بيّن أن الذين نسبوا الولد لله -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- ثلاثة أصناف من الناس: اليهود والنصارى قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾[٣] الآية. والصنف الثالث: مشركوا العرب؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾[٤]. والآيات بنحو هذا كثيرة معلومة..

قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ ما نفاه عنهم وعن آبائهم من العلم باتخاذه الولد ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٥] وقوله في آبائهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

قوله تعالى: ﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾

قال ابن كثير: «أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾»[٨].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير له شواهد في القرآن كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾[٩] ونحو ذلك من الآيات»[١٠].

وقال السعدي: «﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾[١١] ولهذا قال هنا: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ أي: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء

---

(١) مريم: الآيات (٨٨-٩٢).
(٢) الإسراء: الآية (٤٠).
(٣) التوبة: الآية (٣٠).
(٤) النحل: الآية (٥٧).
(٥) الأنعام: الآية (١٠٠).
(٦) المائدة: الآية (١٠٤).
(٧) الأضواء (٣/ ١٩٨-١٩٩).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٦).
(٩) آل عمران: الآية (١٦٧).
(١٠) الأضواء (٣/ ٢٠٠).
(١١) في كثير من المواضع منها في هذه السورة: الآية (١٥).

إلى أبطل منه، فأخبر أولًا أنه ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾، والقول على اللَّه بلا علم لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانيا، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ثم ذكر ثالثا مرتبته من القبح، وهو: الكذب المنافي للصدق»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

باخع: قاتل، هالك. والبَخْعُ: قتل النفس. قال ذو الرُّمة:

ألا أيّهذا الباخع الوجد نفسه ... لشيء نحته عن يديه المقادر

أسفًا: الأسف: المبالغة في الحزن والغضب. يقال: أسِف الرجل فهو أسِفٌ وأسيف.

قال الأعشى:

ترى رجلًا منهم أسيفًا كأنه ... يضم إلى كشحيه كفا مخضبًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك؛ فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[1] تمردًا منهم على ربهم، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك، فيصدقوا بأنه من عند اللَّه حزنًا وتلهفًا ووجدًا، بإدبارهم عنك، وإعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك. . وهذه معاتبة من اللَّه عزّ ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان باللَّه، والبراءة من الآلهة والأنداد، وكان بهم رحيما»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مسليا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[3]، وقال:

---

(١) الإسراء: الآية (٩٠).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٩٤-١٩٥).

(٣) فاطر: الآية (٨).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[١]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٢]»[٣].

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ قال القرطبي: «آثارهم جمع أثر، ويقال: إثر، والمعنى: على إثر توليهم وإعراضهم عنك»[٤].

وقال أبو حيان: «ومعنى ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ من بعدهم؛ أي: بعد يأسك من إيمانهم، أو بعد موتهم على الكفر، ويقال: مات فلان على إثر فلان أي: بعده»[٥].

وقال الزمخشري: «شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم؛ برجل فارقه أحبّته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجدًا عليهم، وتلهّفا على فراقهم»[٦].

وقال السعدي: «﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها، غمًّا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على اللّٰه، وهؤلاء لو علم اللّٰه فيهم خيرًا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غما وأسفا عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى اللّٰه، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على اللّٰه في ذلك، فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبي ﷺ يقول اللّٰه له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٧] وموسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾[٨] الآية، فمن عداهم من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٩]»[١٠].

* * *

---

(١) النحل: الآية (١٢٧).

(٢) الشعراء: الآية (٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٣٠).

(٥) البحر المحيط (٦/ ٩٦).

(٦) الكشاف (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٧) القصص: الآية (٥٦).

(٨) المائدة: الآية (٢٥).

(٩) الغاشية: الآيتان (٢١-٢٢).

(١٠) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٩-١٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

★ غريب الآية:

صعيدًا: الصعيد: ظهر الأرض.

جرزًا: الجُرُزُ: الأرض التي لا نبات فيها. أصله من الجَرْز: وهو القَطْع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره إنا جعلنا ما على الأرض زينة للأرض ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يقول: لنختبر عبادنا أيهم أترك لها، وأتبع لأمرنا ونهينا، وأعمل فيها بطاعتنا»[1].

قال الزمخشري: «﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا، وما يستحسن منها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وحسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها»[2].

وقال السعدي: «يخبر تعالى: أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله اللَّه زينة لهذه الدار، فتنة واختبارًا. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل اللَّه جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

وستعود الأرض صعيدًا جرزًا قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست

(١) جامع البيان (١٥/ ١٩٥).
(٢) الكشاف (٢/ ٤٧٣).

آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها اللَّه لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همّهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قَلِق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه يتناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور، لا محل حبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند اللَّه، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين»[1].

وقال عبدالكريم الخطيب: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها، هو أنه لما كان الذي صرف المشركين عن الإيمان باللَّه، وبالكتاب الذي أنزل على رسوله، وهو اشتغالهم بالحياة الدنيا، وبالتكاثر والتفاخر بينهم، فقد جاءت هذه الآية لتكشف لهم عن دنياهم هذه التي صرفتهم عن النظر في آخرتهم، وأن هذا المتاع الذي في هذه الدنيا، إنما جعله اللَّه ﷻ زينة لها، حتى يكون للناس نظر إليها، واشتغال بها، وعمل جادّ نافع فيها، وفي هذا ابتلاء لهم، وامتحان لما يحصّلون منها، فالذين يأخذون حظهم من الدنيا ولا ينسون نصيبهم من الآخرة هم الفائزون، والذين يجعلون الدنيا همّهم، دون التفات إلى الآخرة، هم الذين خسروا أنفسهم، وباعوها بالثمن البخس، فهذه الدنيا وما عليها كل هذا إلى زوال، ولا يبقى من ذلك إلا ما ادخره المؤمنون المحسنون من زاد طيب في دنياهم ليوم الحساب والجزاء»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٠-١١).

(٢) التفسير القرآني (٨/ ٥٨٤-٥٨٥).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإنا لمخرّبوها بعد عِمارتناها بما جعلنا عليها من الزينة، فمُصيروها صعيدا جرزا لا نبات عليها ولا زرع ولا غرس، وقد قيل: إنه أريد بالصعيد في هذا الموضع: المستوي بوجه الأرض؛ وذلك هو شبيه بمعنى قولنا في ذلك»[١].

قال أبو حيان: «﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾؛ أي: مصيّرون ﴿مَا عَلَيۡهَا﴾ مما كان زينة لها، أو ﴿مَا عَلَيۡهَا﴾ مما هو أعم من الزينة وغيره ﴿صَعِيدٗا﴾ ترابًا ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيه، وهذا إشارة إلى التزهيد في الدنيا والرغبة عنها، وتسلية للرسول ﷺ عن ما تضمنته أيدي المترفين من زينتها، إذ مآل ذلك كله إلى الفناء والمحاق»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينًا في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾[٤]»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
أن اللَّه تعالى زين الدنيا للناس ابتلاء واختبارا

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٦].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٩٦).

(٢) البحر (٦/ ٩٧).

(٣) يونس: الآية (٢٤).

(٤) الكهف: الآية (٤٥).

(٥) الأضواء (٣/ ٢٠٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٢١٩١) ضمن حديث طويل، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٤٠٠٠) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٦٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «والمعنى أن الدنيا مستطابة في ذوقها، معجبة في منظرها، كالثمر المستحلى المعجب المرأى، فابتلى اللَّه بها عباده لينظر أيهم أحسن عملًا؛ أي: من أزهد فيها وأترك لها، ولا سبيل للعباد إلى معصية ما زينه اللَّه إلا أن يعينه على ذلك. ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري: (اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه)[1]. فدعا اللَّه أن يعينه على إنفاقه في حقه. وهذا معنى قوله ﷺ: «**فمن أخذه بطيب نفس؛ بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع**»[2].

وهكذا هو المكثر من الدنيا، لا يقنع بما يحصل له منها، بل همته جمعها، وذلك لعدم الفهم عن اللَّه تعالى ورسوله؛ فإن الفتنة معها حاصلة، وعدم السلامة غالبة، و«**قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافا، وقنّعه اللَّه بما آتاه**»[3]»[4].

* * *

---

(١) الأثر أخرجه البخاري تعليقا (١١/ ٣١١) قال الحافظ: «وصله الدارقطني في «غرائب مالك» من طريق إسماعيل بن أبي أويس عن مالك عن يحيى بن سعيد الأنصاري» الفتح (١١/ ٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٤)، البخاري (١١/ ٣١١/ ٦٤٤١)، مسلم (٢/ ٧١٧/ ١٠٣٥)، والترمذي (٤/ ٥٥٣/ ٢٤٦٣)، والنسائي (٥/ ٦٤-٦٥/ ٢٥٣٠) من حديث حكيم ابن حزام.

(٣) هو لفظ حديث رواه أحمد (٢/ ١٦٨) ومسلم (٢/ ٧٣٠/ ١٠٤٥) والترمذي (٤/ ٤٩٧/ ٢٣٤٨) وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦/ ٤١٣٨) من حديث عبداللَّه بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٣٠)

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

الكهف: المغارة في الجبل، وهو النقب المتسع، فإذا صغر فهو غار.

الرقيم: الكتاب. أصله من الرَّقْم، وهو الكتابة. يقال: رَقَمْتُ الكِتَابَ أَرْقُمُهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، فإن ما خلقت من السماوات والأرض، وما فيهنّ من العجائب أعجب من أمر أصحاب الكهف، وحجتي بكل ذلك ثابتة على هؤلاء المشركين من قومك وغيرهم من سائر عبادي.. وأما الكهف؛ فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قصّ اللّه شأنهم في هذه السورة.

وأما الرقيم؛ فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنيّ به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك. وقال آخرون: الرقيم الكتاب.. وقال آخرون: بل هو اسم جبل أصحاب الكهف..

وأولى هذه الأقوال بالصواب في الرقيم أن يكون معنيا به: لوح، أو حجر، أو شيء كُتب فيه كتاب، وقد قال أهل الأخبار: إن ذلك لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وخبرهم حين أوَوْا إلى الكهف.

ثم قال بعضهم: رُفع ذلك اللوح في خزانة الملك. وقال بعضهم: بل جُعل على باب كهفهم. وقال بعضهم: بل كان ذلك محفوظا عند بعض أهل بلدهم. وإنما الرقيم: فعيل، أصله: مرقوم، ثم صُرف إلى فعيل، كما قيل للمجروح: جريح، وللمقتول: قتيل، يقال منه: رقمت كذا وكذا: إذا كتبته، ومنه قيل للرقم في الثوب رقم؛ لأنه الخطّ الذي يعرف به ثمنه، ومن ذلك قيل للحيَّة: أرقم، لما فيها من

الآثار، والعرب تقول: عليك بالرقمة ودع الضفة: بمعنى: عليك برقمة الوادي حيث الماء، ودع الضفة الجانبة. والضفتان: جانبا الوادي، وأحسب أن الذي قال الرقيم: الوادي، ذهب به إلى هذا، أعني به إلى رقمة الوادي»[١].

وما اختاره ابن جرير رحمه الله في معنى الرقيم استظهره الشنقيطي رحمه الله حيث قال: «وأظهر الأقوال عندي بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعى مفعول، من رقمت الكتاب إذا كتبته، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾[٢] الآية. سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهبٍ كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم. والعلم عند اللَّه تعالى.

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم طائفة واحدة[٣] أضيفت إلى شيئين: أحدهما معطوف على الآخر، خلافًا لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى، وأن اللَّه قص على نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئًا عن أصحاب الرقيم، وخلافًا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة، فسدّت عليهم باب الكهف الذي هم فيه، فدعوا اللَّه بأعمالهم الصالحة: وهم البارّ بوالديه، والعفيف، والمستأجر. وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح[٤]، غير أن تفسير الآية

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٩٨).
(٢) المطففين: الآية (٩).
(٣) وقد رجح الحافظ ابن حجر رحمه الله هذا المعنى حيث قال في الرد على من فرق بين أصحاب الكهف والرقيم: «وليس كذلك، بل السياق يقتضي أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم، واللَّه أعلم» الفتح (٦/ ٦٢٤).
(٤) وقد جاء في بعض ألفاظ هذه القصة ما يشير إلى أن الرقيم المذكور في: الآية، هو الغار الذي أصاب فيه الثلاثة ما أصابهم، وذلك فيما أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤-٢٧٥) والبزار (٨/ ٢٣٣/ ٣٢٩١) [البحر الزخار] والطبراني في الأوسط (٣/ ١٦٠-١٦٢/ ٢٣٢٨-٢٣٢٩) وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٦٢٧) من حديث النعمان بن بشير أنه سمع النبي ﷺ يذكر الرقيم فقال: «**إن ثلاثة كانوا في كهف فوقع الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم، قال قائل منهم: تذاكروا أيكم عمل حسنة لعل اللَّه ﷻ برحمته يرحمنا. .**» وذكر الحديث بطوله، وإلى هذا نحا البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، حيث عقّب قصة أصحاب الكهف بحديث الثلاثة أصحاب الغار، قال الحافظ: «عقّب المصنف قصة أصحاب الكهف بحديث الغار إشارة إلى ما ورد أنه قد قيل: إن الرقيم المذكور في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ هو الكهف الذي أصاب فيه الثلاثة ما أصابهم» ثم ذكر حديث النعمان بن بشير. الفتح (٦/ ٦٢٧). لكن الاستدلال بهذا الحديث على أن الغار الذي أوى إليه الثلاثة هو الرقيم المذكور في الآية=

بأنهم هم المراد بعيد كما ترى. واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسمائهم وفي أي محل من الأرض كانوا؛ كل ذلك لم يثبت فيه عن النَّبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها»[١].

قال السعدي: «وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي؛ أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم غريبة على آيات اللَّه، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل اللَّه يري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات اللَّه العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جدا، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات اللَّه، التي دعا اللَّه العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان»[٢].

* * *

= فيه نظر وبعد لا يخفى، «يدل على ذلك اختلاف القصتين، واختلاف أحداثهما واللَّه أعلم» صحيح القصص النبوي للأشقر (ص٢٠٧).

وأما الرقيم المذكور في الحديث «فالظاهر أن النبي ﷺ لما ذكر الكهف والرقيم المذكور في: الآية؛ ذكر الكهف المذكور في هذا الحديث واللَّه أعلم». تعليق الأرنؤوط على المسند (٣٠/ ٣٧٠).

(١) الأضواء (٣/ ٢٠٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أوى: لجأ. والمأوى: اسم لمكان. قال الشاعر:

أُطَوِّفُ مَا أُطَوِّفُ ثم آوِي ... إلى ماءٍ ويَرْوِينِي النَّقِيعُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هربا بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أووه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ رغبة منهم إلى ربهم، في أن يرزقهم من عنده رحمة. وقوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ يقول: وقالوا: يسر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعوننا إليها قومنا؛ ﴿رَشَدًا﴾ يقول: سدادًا إلى العمل بالذي تحبّ»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من صفة أصحاب الكهف أنهم فتية، وأنهم أووا إلى الكهف، وأنهم دعوا ربهم هذا الدعاء العظيم الشامل لكل خير وهو قوله عنهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ وبين في غير هذا الموضع أشياء أخرى من صفاتهم وأقوالهم، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[٢] إلى قوله: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[٣].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٠٠).

(٢) الكهف: الآية (١٣).

(٣) الكهف: الآية (١٦).

ومعنى قوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: جعلوا الكهف مأوى لهم ومكان اعتصام. ومعنى قوله: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: أعطنا رحمة من عندك. والرحمة هنا تشمل الرزق والهدى والحفظ مما هربوا خائفين منه من أذى قومهم والمغفرة»[١].

وفي الآية: «أن من آوى إلى اللَّه آواه اللَّه ولطف به، وجعله سببا لهداية الضالين؛ فإن اللَّه لطف بهم في هذه النومة الطويلة؛ إبقاء على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه القومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة اللَّه، وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد اللَّه حق»[٢].

قلت: وفي هذا الذي ذكره اللَّه عن أصحاب الكهف من فعل وقول في الهروب من الشرك وأهله، وفي اللجوء إلى اللَّه تعالى بالطلب أن يهيئ لهم الخير والرحمة، وأن يدلهم على الرشد والهداية؛ قدوة لكل داعية إلى اللَّه في زمن تشتد فيه عصابة الشرك والمشركين على التوحيد وأهله، وعلى السنة وأهلها. فالاعتصام بالكتاب والسنة، والتمسك بهما، والعض عليهما بالنواجذ، وسؤال اللَّه -تبارك وتعالى- الثبات عليهما؛ لهو من هذا الباب.

فمفارقة الباطل وأهله تكون بالقول وتكون بالجسد كما فعل أصحاب الكهف، وكما فعل الرسول ﷺ والصحابة في الهجرة، وكما هو الواجب إن أمكن في مفارقة كل مجتمع فيه مثل هذه الأوصاف الكفرية والشركية، واللجوء إلى التوحيد وأهله إن كان لهم مكان يتمكن فيه الموحد من البقاء على توحيده ونشره والتقوي بأصحابه، وإلا فارقهم بفعله وقوله وسمته ودعوته وعلائقه ما أمكن له، وتعامل معهم بالحكمة التي تنجيه من شرهم وإذايتهم، وعليه أن لا يقع في متاهات التهور التي توقعه في التهلكة الحسية والمعنوية، كما هو شأن بعض الجهلة والمغفلين الذين يحدثون لأنفسهم وأهليهم من القلاقل ما يفسدون به دينهم وعقيدتهم. فنموذج أصحاب الكهف ومن كان على طريقتهم يبقى دائما قدوة لكل هارب من الشرك وأهله، فيطبق حسب الاستطاعة والإمكان، وحسب ما ينفع وما يضر. فنرجو اللَّه أن يجعلنا ممن

---

(١) الأضواء (٣/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) تيسير اللطيف المنان (٣٩٣).

فارق الشرك وأهله، والفسوق والعصيان وأهله في الظاهر والباطن ولو كنا بين أظهرهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أنه ينبغي للعبد أن يسأل الله ﷻ أن يجعل عاقبة أمره رشدًا

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**يا عائشة! عليك بالكوامل**» -أو كلمة أخرى- فلما انصرفت عائشة سألته عن ذلك، فقال لها: «**قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله..**» الحديث. وفيه: «**وأسألك ما قضيت لي من أمرٍ أن تجعل عاقبته رشدًا**»[١].

* عن بسر بن أرطأة القرشي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»[٢].

⋆ **فوائد الحديثين:**

في الحديثين بيان لقوله تعالى: «﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: قدّر لنا من أمرنا هذا رشدًا؛ أي: اجعل عاقبة أمرنا هذا رشدا» وقد ساقهما ابن كثير رحمه الله في تفسيره، مستشهدًا بهما في توضيح الآية.

قوله: «**وما قضيتَ**» «أي: ما حكمت في أمر أو أمضيته فاجعل عاقبته رشدًا؛ أي: فيه الهداية، بعيدًا عن الغي والضلال»[٣].

وقوله: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها**» «أي: اجعل آخر كل عملٍ لنا حسنًا؛ فإن الأعمال بخواتيمها، وعاقبة كل شيء آخره»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٤/ ٣٨٤٦) وصححه الحاكم (١/ ٥٢١-٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨١) وصححه ابن حبان (٣/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٩٤٩).

(٣) شرح صحيح الأدب المفرد للعوايشة (٢/ ٢٩٤).

(٤) فيض القدير (٢/ ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فضربنا على آذانهم: أي سلطنا عليهم النوم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ فضربنا على آذانهم بالنوم في الكهف: أي: ألقينا عليهم النوم، كما يقول القائل لآخر: ضربك اللَّه بالفالج، بمعنى ابتلاه اللَّه به، وأرسله عليه. وقوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ يعني سنين معدودة»[١].

قال أبو حيان: «عبّر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم ومنه ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾[٢] وضرب الجزية، وضرب البعث.. وذكر الجارحة التي هي الأذن؛ إذ هي يكون منها السمع؛ لأنه لا يستحكم نوم إلاّ مع تعطل السمع. وفي الحديث: «**ذلك رجل بال الشيطان في أذنه**»[٣] أي: استثقل نومه جدًّا حتى لا يقوم بالليل»[٤].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه ضرب على آذان أصحاب الكهف سنين عددًا. ولم يبين قدر هذا العدد هنا لكنه بينه في موضع آخر. وهو قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾[٥]»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر الأذن في النوم

* عن عبد اللَّه ﷺ قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل؛ فقيل: ما زال نائما حتى

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٠٥).

(٢) آل عمران: الآية (١١٢).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) البحر (٦/ ٩٩).

(٥) الكهف: الآية (٢٥).

(٦) الأضواء (٣/ ٢٠٧).

أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: «**بال الشيطان في أذنه**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «أما تخصيص الآذان بالذكر؛ فلأنها الجارحة التي منها عُظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا مع تعطّل السمع»[٢].

قال الطيبي: «خصّ الأذن بالذكر؛ وإن كانت العين أنسب بالنوم؛ إشارة إلى ثقل النوم؛ فإن المسامع هي موارد الانتباه بالأصوات، ونداء (حي على الفلاح)، قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥) والبخاري (٣/ ٣٥/ ١١٤٤) ومسلم (١/ ٥٣٧/ ٧٧٤) والنسائي (٣/ ٢٢٥-٢٢٦/ ١٦٠٧) وابن ماجه (١/ ٤٢٢/ ١٣٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٣٦).

(٣) شرح الطيبي (٤/ ١٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحزبين: الحزب: الجماعة يناصر بعضهم بعضًا. جمعه أحزاب.

أمدًا: الغاية. قال النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ثم بعثنا هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عددا من رقدتهم، لينظر عبادي، فيعلموا بالبحث أيّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقودًا ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ يقول: أصوب لقدر لبثهم فيه أمدًا، ويعني بالأمد الغاية»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته، وهذا على نحو كلام العرب، أي لنعلم ذلك موجودا، وإلا فقد كان اللَّه تعالى علم أي الحزبين أحصى الأمد»[2].

قال الشنقيطي: «من أصرح الأدلة على أن اللَّه تعالى لا يستفيد من الاختبار والابتلاء علمًا جديدًا -ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا- قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3] بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ﴾ دليلٌ واضح في ذلك، وإذا حققت ذلك فمعنى ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ أي: نعلم ذلك علمًا يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك دون خلقه»[4].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٠٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٣٦).
(٣) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٤) الأضواء (٣/ ٢٠٩).

قال ابن عطية: «﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلًا، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين»[١].

قال الشنقيطي: «والذي يدل عليه ظاهر القرآن أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ﴾[٢]. وكأن الذين قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول. ولِقائل أن يقول: قوله عنهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبثهم. واللَّه تعالى أعلم.

وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلى اللَّه لا ينافي العلم، بدليل أن اللَّه أعلم نبيه بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ الآية. ثم أمره برد العلم إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ﴾»[٣].

وقال: «فإن قيل: أي فائدة مهمة في معرفة الناس للحزب المحصي أمد اللبث من غيره، حتى يكون علة غائية لقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ﴾ الآية؟ وأي فائدة مهمة في مساءلة بعضهم بعضًا حتى يكون علة غائية لقوله: ﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ﴾؟

فالجواب: أنّا لم نر من تعرض لهذا. والذي يظهر لنا واللَّه تعالى أعلم- أن ما ذكر من إعلام الناس بالحزب الذي هو أحصى أمدًا لما لبثوا، ومساءلة بعضهم بعضًا عن ذلك يلزمه أن يظهر للناس حقيقة أمر هؤلاء الفتية، وأن اللَّه ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، ثم بعثهم أحياء طرية أبدانهم، لم يتغير لهم حال، وهذا من غريب صنعه -جل وعلا- الدال على كمال قدرته، وعلى البعث بعد الموت، ولاعتبار هذا اللازم جعل ما ذكرنا علة غائية. واللَّه تعالى أعلم»[٤].

قلت: من له قدرة على حفظ هذه الأبدان وبقاء حياتها بدون أكل وشرب وحركة تمكنها من استكمال الحياة؛ قادر ولا شك على البعث وإحضار الإنسان بكل أجزائه

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٥٠٠).

(٢) الكهف: الآية (١٩).

(٣) الأضواء (٣/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٠٩-٢١١).

روحًا وبدنًا، ولا عجب ولا استحالة في ذلك. وضرب المثل بالموجود للمفقود هي طريقة قرآنية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾[١]. فأصحاب الكهف هم مثل حي تواتر ذكره في أهل الكتاب، وتناقله المؤرخون، وذكره اللّه في هذه السورة بهذا التفصيل لأخذ العبر منه، ومن أعظمها اليقين بركن من أركان الإيمان الذي هو البعث والنشور. فاللهم فقهنا في كتابك.

* * *

(١) الكهف: الآية (٥٤).

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف بالحق، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يقول: إن الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك؛ ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيمانا، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل»[١].

قال ابن كثير: «ذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يُسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ قال الشنقيطي: «يفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى؛ لأن الطاعة سبب المزيد من الهدى والإيمان، وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبينًا في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٣] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٠٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٠).
(٣) سورة محمد: الآية (١٧).
(٤) العنكبوت: الآية (٦٩).

فُرْقَانًا﴾[١] الآية. وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَنًا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَنًا مَّعَ إِيمَنِهِمْ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[٤] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد؛ مفهوم منها أنه ينقص أيضًا، كما استدل بها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك. وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى. والعلم عند اللَّه تعالى»[٥].

قلت: لا شك أن التمسك بالهدي القرآني والنبوي والاعتصام بهما يبعث روحًا جديدة في المتمسك، ويزداد قوة إلى قوته، فيلحظ هذا كل أحد من نفسه، فيحرص على أداء فرائضه، ويحرص على تطبيق السنن الواردة عن النبي ﷺ، ويحرص على المتابعة للنبي ﷺ، في يقظته ونومه، وحله وترحاله، وفي شأنه كله. وبقدر تهاونه في التمسك بقدر ما يحصل له الضعف والفتور، ويظهر النقص في إيمانه واضحًا، وربما قد يذهب به هذا النقص إلى الحضيض، ولا يبقى معه إلا اسم الإيمان. ولهذا فالذين يطرحون مسألة زيادة الإيمان ونقصانه وينفونها فلا شك أن هذا منهم مكابرة وتعنت؛ لأن هذا أمر محسوس يشعر به الإنسان في خاصة نفسه، فالطاعة لها حلاوة وطعم، وتزيد في إيمان العبد. أما من ينكر ذلك فلا شك في مرض قلبه، فليعرض نفسه على الطبيب، واللَّه المستعان.

وفي الآية «أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، من عمل بما يعلم؛ أورثه اللَّه تعالى علم ما لم يعلم»[٦].

* * *

(١) الأنفال: الآية (٢٩).

(٢) التوبة: الآية (١٢٤).

(٣) الفتح: الآية (٤).

(٤) الحديد: الآية (٢٨).

(٥) الأضواء (٣/ ٢١٤-٢١٥).

(٦) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص٢٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

شططا: الشطط: الإفراط في البعد، وعُبِّرَ به عن الجور والعدول عن الصواب. يقال: شَطَّتْ دارنا: إذا بعدت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره وألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان، حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش»[١].

قال ابن عطية: «قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدة عزم، وقوة صبر أعطاها اللّه لهم، ولما كان الفزع وخَوَر النفس يشبه بالتناسب الانحلال؛ حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط، ومنه يقال: فلان رابط الجأش إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها، ومنه الربط على قلب أم موسى»[٢].

قال ابن القيم: «والربط على القلب عكس الخذلان، فالخذلان حله من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه، ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا. والربط على القلب شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله»[٣].

وقال الشنقيطي: «يفهم من هذه الآية الكريمة أن من كان في طاعة ربه -جل وعلا- أنه تعالى يقوي قلبه، ويثبته على تحمل الشدائد والصبر الجميل، وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في أهل بدر مخاطبًا نبيه ﷺ وأصحابه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٠٧).
(٢) المحرر (٣/ ٥٠١).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٦٨).

وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [1] الآية. وكقوله في أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [2]»[3].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ قال ابن عطية: «يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدي الملك الكافر، فإنه مقام يحتاج إلى الربط على القلب، حيث صَلَبوا عليه وخالفوا دينه ورفضوا في ذات اللَّه هيبته. والمعنى الثاني أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى اللَّه ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا؛ إذا اعتزم عليه بغاية الجد»[4].

قال الشنقيطي: «وأكثر المفسرين على أن قوله: ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ أي: بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان»[5].

قال ابن عطية: «وبهذه الألفاظ التي هي ﴿قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ تعلقت الصوفية في القيام والقول»[6].

قال القرطبي معلقًا: «وهذا تعلق غير صحيح، هؤلاء قاموا فذكروا اللَّه على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم، خائفين من قومهم، وهذه سنة اللَّه في الرسل والأنبياء، والفضلاء الأولياء.

أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام، والرقص بالأكمام، وخاصة في هذه الأزمان، عند سماع الأصوات الحسان، من المرد والنسوان، هيهات بينهما -والله- ما بين الأرض والسماء.

ثم هذا حرام عند جماعة العلماء.. قال الإمام أبو بكر الطرطوشي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخَذ لهم عجلًا جسدًا له خوار؛ قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل»[7].

---

(١) الأنفال: الآيتان: (١١و١٢).
(٢) القصص: الآية (١٠).
(٣) الأضواء (٣/ ٢١٤).
(٤) المحرر (٣/ ٥٠١).
(٥) الأضواء (٣/ ٢١٤).
(٦) المحرر (٣/ ٥٠١).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٣٨).

قلت: هكذا تتوارد أقوال علماء المالكية في ذم أحوال الصوفية الذين اخترعوا لهم دينا جديدا، صفاته وعمدته الرخص، والغناء المسمى بالسماع، والاختلاط بالنسوان والمردان، وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتكاف على الأضرحة والطواف بها، والاستغاثة بأصحابها ودعائهم من دون اللَّه، وشد الرحال إليهم، والنذر لهم، بل ويفعلون فيها ما لم يفعله عباد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فأين دين الشرك الأكبر من دين التوحيد؟! وأين مشابهة السامري وأصحابه عباد العجل من أصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]؟! وكانوا إذا حدثهم رسول اللَّه ﷺ فكأنما على رؤوسهم الطير، وقال اللَّه لهم ولنا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2]، وأفعال الصوفية كلها اعتداء، وكذا أقوالهم، واللَّه المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

قال ابن جرير: «يقول تعالى: قالوا ربنا ملك السماوات والأرض وما فيهما من شيء، وآلهتك مربوبة، وغير جائز لنا أن نترك عبادة الربّ ونعبد المربوب ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ يقول: لن ندعو من دون ربّ السموات والأرض إلها؛ لأنه لا إله غيره، وإنّ كلّ ما دونه فهو خلقه، ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ يقول -جل ثناؤه-: لئن دعونا إلهًا غير إله السموات والأرض؛ لقد قلنا إذن بدعائنا غيره إلهًا شططًا من القول: يعني غاليًا من الكذب، مجاوزا مقداره في البطول والغلوّ»[3].

قال أبو حيان: «وما أحسن ما وحّدوا اللَّه بأنّ ربهم هو موجد السماوات والأرض، المتصرّف فيها على ما يشاء، ثم أكدوا هذا التوحيد بالبراءة من إله غيره بلفظ النفي المستغرق تأبيد الزمان»[4].

وقال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع

---

(١) الزمر: الآية (٢٣).
(٢) الأعراف: الآية (٥٥).
(٣) جامع البيان (١٥/ ٢٠٧).
(٤) البحر (٦/ ١٠٢).

خالق السماوات والأرض معبودًا آخر؛ فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود؛ لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه، وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينًا في آيات أخر كثيرة كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[3] أي: الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده -جل وعلا-. وقوله -جل وعلا-: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[5] الآية. إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢١و٢٢).

(٢) النحل: الآية (١٧).

(٣) الرعد: الآية (١٦).

(٤) الأعراف: الآية (١٩١).

(٥) الفرقان: الآية (٣).

(٦) الأضواء (٣/ ٢١٥).

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما وحدوا اللَّه تعالى ورفضوا ما دونه من الآلهة؛ أخذوا في ذم قومهم وسوء فعلهم، وأنهم لا حجة لهم في عبادة غير اللَّه، ثم عظموا جرم من افترى على اللَّه كذبًا، وهذه المقالة يحتمل أنهم قالوها في مقامهم بين يدي الملك تقبيحًا لما هو وقومهم عليه، وذلك أبلغ في التبرّي من عبادة الأصنام، وأفتّ في عضد الملك إذا اجترؤوا عليه بذم ما هو عليه، ويحتمل أن قالوا ذلك عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه»[1].

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ قال الشنقيطي: «﴿لَّوْلَا﴾ في هذه الآية الكريمة للتحضيض، وهو الطلب بِحَثٍّ وشدة، والمراد بهذا الطلب التعجيز؛ لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسلطان بيّن على جواز عبادة غير اللَّه تعالى. والمراد بالسلطان البيّن: الحجة الواضحة.

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من تعجيزهم عن الإتيان بحجة على شركهم وكفرهم، وإبطال حجة المشركين على شركهم؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3]، وقوله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[4]، وقوله -جل وعلا-: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ

---

(١) البحر (٦/ ١٠٢).

(٢) الأنعام: الآية (١٤٨).

(٣) الأحقاف: الآية (٤).

(٤) الزخرف: الآية (٢١).

يُشْرِكُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٣]، والآيات الدالة على أن المشركين لا مستند لهم في شركهم إلا تقليد آبائهم الضالين كثيرة جدًّا»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **قال القاسمي**: «أي: لا مساوي له في الظلم والكفر، إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان. فهم ظالمون في حق اللَّه، لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها»[٥].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي ذكره هنا من أن افتراء الكذب على اللَّه بجعل الشركاء له هو أعظم الظلم؛ جاء مبينًا في آيات كثيرة كقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ﴾[٦] الآية. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا»[٨].

قال محمد بن عبد الوهاب: «فيه أن مِثل هذا من افتراء الكذب على اللَّه، وأنه أعظم أنواع الظلم ولو كان صاحبه لا يدري، بل قصد رضا الله»[٩].

وقال أبو حيان: «فيما ذكروه دليل على أن الدين لا يؤخذ إلا بالحجة، والدعوى إذا لم يكن عليها دليل فاسدةٌ، وهي ظلم وافتراء على اللَّه وكذب بنسبة شركاء لله»[١٠].

قلت: الدعوة إلى الشرك باللَّه كلها دعوة فاسدة باطلة، ودعاتها لا يملكون عقلًا ولا فطرةً، فضلًا عن أن يكون لهم شرع، وهكذا كل داعية إلى ضلاله فهو فاقد للعقل والفطرة فضلا عن الشرع؛ لأن العقل دائما يهيئ الإنسان إلى وضع الشيء في موضعه، والعقل لا يخرج عن الفطرة.

---

(١) الروم: الآية (٣٥).
(٢) فاطر: الآية (٤٠).
(٣) المؤمنون: الآية (١١٧).
(٤) الأضواء (٣/ ٢١٦).
(٥) محاسن التأويل (١١/ ١٣).
(٦) الزمر: الآية (٣٢).
(٧) هود: الآية (١٨).
(٨) الأضواء (٣/ ٢١٦-٢١٧).
(٩) تفسير آيات من القرآن (ص٢٤٣).
(١٠) البحر (٦/ ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اعتزلتموهم: الاعتزال: التنحي عن الأمر وتركه. والتعزل بمعناه. قال الأحوص:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذي أتعزل حَذَرَ العِدَى وبه الفؤَادُ مُوَكَّلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ومضمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذ فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوىً، ونتكل على الله تعالى؛ فإنه سيبسط لنا رحمته وينشرها علينا، ويهيىء لنا من أمرنا مرفقًا، وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة من الله كانوا في أمر آخرتهم»[1].

قال أبو حيان: «﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب بعضهم لبعض، والاعتزال يشمل مفارقة أوطان قومهم ومعتقداتهم، فهو اعتزال جسماني وقلبي»[2].

وفي الآية «اعتزال أهل الشرك، واعتزال معبوديهم، وأن ذلك لا يحرك إلى ترك ما معهم من الحق كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]»[4].

وفيها: «أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته، وهذا المعنى يدل عليه أيضًا قوله تعالى في نبيه إبراهيم -عليه وعلى نبينا

(١) المحرر (٣/ ٥٠٢).
(٢) البحر (٦/ ١٠٣).
(٣) سورة المائدة: الآية (٨).
(٤) تفسير آيات من القرآن (ص٢٤٣).

الصلاة والسلام-: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1]. واعتزالهم إياهم هو مجانبتهم لهم وفرارهم منهم بدينهم»[2].

قال القاسمي: «زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقًا. وهو خطأ؛ فإنها تشير إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال، إذا اضطهد المرء في دينه وأريد على الشرك. وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة الإمام الغزالي؛ حيث قال في «إحيائه»: وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضًا وهم مؤمنون، وإنما اعتزلوا الكفار؛ أي: ولا ريب في مشروعيته فرارًا من الفتن.

فقول السيوطي في «الإكليل»: في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظَّلَمة، وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان؛ كلام مجمل لابد من التفصيل فيه. وأي عصر خلا من الفساد؟ وسياق الآية في الاضطهاد فحسبُ، فافهم ولا تغلُ»[3].

وفيها «دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن سلّمه اللّه منها، وأن من حرص على العافية عافاه اللّه، ومن أوى إلى اللّه آواه اللّه، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته؛ كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، وما عند اللّه خير للأبرار»[4].

وفيها «شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله»[5].

وفيها «شدة صلابتهم في دينهم حيث عزموا على ترك الرياسة العظيمة، والنعمة العظيمة، واستبدلوا بها كهفا في رأس جبل»[6].

وفيها «حسن ظنهم باللّه، ومعرفتهم ثمرة الطاعة ولو كان مباديها ذهاب الدنيا؛ حيث قالوا: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾»[7].

---

(١) مريم: الآيات (٤٨-٥٠).
(٢) الأضواء (٣/ ٢١٧).
(٣) محاسن التأويل (١١/ ١٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣).
(٥) المصدر السابق (٥/ ٢١).
(٦) تفسير آيات من القرآن (٢٤٤).
(٧) المصدر نفسه (٢٤٤).

وفيها «ما كان عليه أهل الكهف من التوكل حيث أووا إلى كهف، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة اللَّه عليهم، وتهيئة رِفقه تعالى بهم؛ لأن من أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعه، والمعنى أنه تعالى سيبسط علينا رحمته ويهيء لنا ما نرتفق به في أمر عيشنا»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مشروعية العزلة والفرار بالدين عند ظهور الفتن

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»**(٢).

★ **غريب الحديث:**

يوشك: تقريب منه للفتنة.

شعف الجبال: جمع شعفة وهي رؤوس الجبال.

مواقع القطر: بطون الأودية لأنه يوجد فيها الكلأ والماء فيشرب منها ويسقي غنمه وترعى غنمه من الكلأ.

* وعنه ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أيّ الناس خير؟ قال: **«رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شِعْب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»**(٣).

★ **غريب الحديث:**

شِعب: الشِّعب بالكسر الطريق، وقيل: الطريق في الجبل، والجمع شِعاب.

* عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! ما النجاة؟ قال: **«أمسك**

---

(١) البحر المحيط (٦/ ١٠٣) بتصرف.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٦)، البخاري (١٣/ ٥٠/ ٧٠٨٨)، وأبو داود (٤/ ٤٦١-٤٦٢/ ٤٢٦٧)، والنسائي (٨/ ٤٩٨-٤٩٩/ ٥٠٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٧/ ٣٩٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٤٠١/ ٦٤٩٤) ومسلم ٣/ ١٥٠٣/ ١٨٨٨) وأبو داود (٣/ ١١/ ٢٤٨٥) والترمذي (٤/ ١٦٠/ ١٦٦٠) والنسائي (٦/ ٣١٨/ ٣١٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٣١٦-١٣١٧/ ٣٩٧٨).

عليك لسانك، وليَسعْك بيتك، وابكِ على خطيئتك»[١].

* وعنه ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شظية بجبل، يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول اللَّه ﷻ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة»**[٢].

★ غريب الحديث:

شَظِيّة: بفتح الشين وكسر الظاء المعجمتين، وتشديد المثناة التحتية: قطعة مرتفعة في رأس الجبل.

★ فوائد الأحاديث:

«دلّت الأحاديث على أن اعتزال الناس عند ظهور الفتن والهرب عنهم؛ أسلم للدين من مخالطتهم»[٣].

قال ابن رجب الحنبلي: «قوله: «**يفر بدينه من الفتن**» يعني: يَهرُب خشية على دينه من الوقوع في الفتن؛ فإن من خالط الفتن وأهل القتال على الملك لم يسلم دينه من الإثم، إما بقتل معصوم، أو أخذ مال معصوم، أو المساعدة على ذلك بقول ونحوه، وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية حَسُن الفرار منه. وقد مدح اللَّه من فر بدينه خشية الفتنة عليه فقال حكاية عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾»[٤].

قال ابن كثير: «المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفا على دينه؛ كما جاء في الحديث (ثم ذكر حديث أبي سعيد)، ثم قال: ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨) والترمذي (٤/ ٥٢٣/ ٢٤٠٦) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٧) وأبو داود (٢/ ٩/ ١٢٠٣) والنسائي (٢/ ٣٤٨/ ٦٦٥) وصححه ابن حبان (٤/ ٥٤٥/ ١٦٦٠).

(٣) شرح ابن بطال لصحيح البخاري (١٠/ ٢٠٤) بتصرف.

(٤) فتح الباري (١/ ١٠٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤١-١٤٢).

قال ابن عبدالبر معلقا على حديث أبي سعيد الأول: «الحديث المذكور في هذا الباب من أحسن حديث في العزلة والفرار من الفتنة والبعد عن مواضعها من الحواضر وغيرها، والفتنة المذكورة في هذا الحديث تحتمل أن تكون فتنة الأهل والمال، وفتنة النظر إلى أهل الدنيا، وفتنة الدخول إلى السلطان، وغير ذلك من أنواع الفتن. ولم يرد الفتنة النازلة بين المسلمين الحاملة على القتال في طلب الإمارة دون غيرها من الفتن، بل أراد بقوله: «**يفر بدينه من الفتن**» جميع أنواع الفتن والله أعلم. وفي ذلك دليل على فضل العزلة والانفراد في آخر الزمان كزماننا هذا»[1].

قال ابن رجب: «وقد اعتزل جماعة من الصحابة في الفتن في البوادي. وقال الإمام أحمد: إذا كانت الفتنة فلا بأس أن يعتزل الرجل حيث شاء، فأما إذا لم يكن فتنة فالأمصار خير.

فأما سكنى البوادي على وجه العبادة وطلب السياحة والعزلة فمنهي عنه، كما في الترمذي وصحيح الحاكم[2]، عن أبي هريرة قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذب، فأعجبه طيبه وحسنه فقال: لو اعتزلت الناس وأقمت في هذا الشعب، ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمره فقال: «**لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله؛ أفضل من صلاته في أهله ستين عاما**»[3]»[4].

قال الحافظ: «قد اختلف السلف في أصل العزلة؛ فقال الجمهور: الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام، وتكثير سواد المسلمين، وإيصال أنواع الخير إليهم؛ من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك. وقال قوم: العزلة أولى لتحقق السلامة بشرط معرفة ما يتعين، وقد مضى طرف من ذلك في باب العزلة من كتاب الرقاق. قال النووي: المختار تفضيل المخالطة لمن

---

(١) التمهيد (١٩/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ١٥٥/ ١٦٥٠) والحاكم (٢/ ٦٨) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٥٢٤) والترمذي (٤/ ١٥٥/ ١٦٥٠) والحاكم (٢/ ٦٨) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) فتح الباري (١/ ١٠٩-١١٠).

لا يغلب على ظنه أنه يقع في معصية؛ فإن أشكل الأمر؛ فالعزلة أولى. وقال غيره: يختلف باختلاف الأشخاص؛ فمنهم من يتحتم عليه أحد الأمرين، ومنهم من يترجح، وليس الكلام فيه، بل إذا تساويا فيختلف باختلاف الأحوال، فإن تعارضا اختلف باختلاف الأوقات؛ فمن يتحتم عليه المخالطة من كانت له قدرة على إزالة المنكر، فيجب عليه إما عينًا وإما كفاية بحسب الحال والإمكان، وممن يترجح من يغلب على ظنه أنه يسلم في نفسه إذا قام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممن يستوي من يأمن على نفسه، ولكنه يتحقق أنه لا يطاع، وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة، فإن وقعت الفتنة ترجحت العزلة لما ينشأ فيها غالبا من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة فتعم من ليس من أهلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1] ويؤيد التفصيل المذكور حديث أبي سعيد أيضًا: «**خير الناس رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه، ويدع الناس من شره**»»[2].

وقال: «ذكر الخطابي في «كتاب العزلة» أن العزلة والاختلاط يختلف باختلاف متعلقاتهما، فتحمل الأدلة الواردة في الحض على الاجتماع على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين، وعكسها في عكسه. وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان؛ فمن عرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظة دينه؛ فالأولى له الانكفاف عن مخالطة الناس، بشرط أن يحافظ على الجماعة والسلام والرد وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة ونحو ذلك، والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحبة لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات، ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغَداء والعَشاء، فيقتصر منه على ما لا بد له منه، فهو أروح للبدن والقلب»[3].

قال شيخ الإسلام: «فحقيقة الأمر أن الخلطة تارة تكون واجبة أو مستحبة، والشخص الواحد قد يكون مأمورًا بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة. وجماع ذلك:

---

(١) الأنفال: الآية (٢٥).

(٢) الفتح (١٣/ ٥٣).

(٣) الفتح (١١/ ٤٠٤).

أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى؛ فهي مأمور بها . وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان؛ فهي منهي عنها . فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات : كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك؛ هو مما أمر اللّٰه به ورسوله . وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوارج المارقين؛ وإن كان أئمة ذلك فجارا ، وإن كان في تلك الجماعات فجار ، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيمانًا : إما لانتفاعه به ، وإما لنفعه له ونحو ذلك . ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه ، في دعائه ، وذكره ، وصلاته ، وتفكره ، ومحاسبة نفسه ، وإصلاح قلبه ، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره؛ فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه ، إما في بيته ، كما قال طاووس : (نعم صومعة الرجل بيته ، يكف فيها بصره ولسانه) ، وإما في غير بيته . فاختيار المخالطة مطلقا خطأ ، واختيار الانفراد مطلقا خطأ . وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا ، وما هو الأصلح له في كل حال؛ فهذا يحتاج إلى نظر خاص»[1] .

وفي الأحاديث أن اعتزال الناس «قد يكون مرة في الجبال والشعاب ومرة في البيوت وقد قال عقبة بن عامر : لرسول اللّٰه ﷺ : ما النجاة يا رسول الله؟ فقال : **«يا عقبة! أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك»** . . وقالت عائشة : (**كان أول ما بدئ برسول اللّٰه ﷺ** الرؤيا الصالحة ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يمكث الأيام في غار حراء يتعبد ويتزود لذلك من عند خديجة ، فيبقى الأيام ذوات العدد ثم يرجع إلى خديجة ، فتزوده فلم يزل كذلك حتى جاءه الوحي)[2] . . وعن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول الله! أيّ الأعمال أفضل؟ قال : **«الجهاد في سبيل اللّٰه ﷻ»** قيل : ثم مه؟ قال : **«رجل في شعب من الشعاب يتقي ربه ﷻ** ويذر الناس من شره»»[3] .

قال أبو عمر : «إنما جاءت هذه الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم -

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣) والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤) ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

(٣) التمهيد (١٧/ ٤٤٠) وما بعدها .

والله أعلم- لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها الناس، فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في هذا المعنى، مثل اسم الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس؛ لأن من نأى عنهم سلموا منه وسلم منهم، لما في مجالستهم ومخالطتهم من الخوض في الغيبة واللغو وأنواع اللغط. وبالله العصمة والتوفيق لا رب غيره»[1].

قلت: مما تقدم من نصوص القرآن والسنة وكلام أهل العلم في العزلة والاختلاط يتبين أن الأصل هو مخالطة جماعة المسلمين، والتعاون معهم على البر والتقوى، والصلاة جماعة معهم، وحضور جنائزهم وأفراحهم، والجهاد مع إمامهم، والتعلم من علمائهم، والاحتكاك بهم في كل صغيرة وكبيرة ينتفع بها المسلمون. وخطابات القرآن كلها تخاطب الجماعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. والاعتزال لا يكون إلا نادرا لحالة طارئة تحدث للإنسان. أما عندما تطغى الفتن وتندلع ولا يستطيع الإنسان التمسك بدينه إلا بالفرار كما وقع في المجتمعات الشيوعية والاشتراكية والبعثية؛ فهنا يجوز للمسلم أن يعتزل تلك الفتن، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك». فالإنسان في هذه الحالة معذور، وهو أدرى بنفسه. أما من كان ذا نفع للأمة في علم أو توجيه أو تربية أو إغاثة سواء لمجتمعه أو أسرته فعليه بالصبر، وإلا فهو خائن يحرم الناس من خيره ومن علمه إن كان ذا علم.

* * *

(١) المصدر السابق (١٧/ ٤٥٠).

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تزاور: تميل. يقال: تَزَاوَرَ عنه وازْوَرَّ عنه: إذا مال.

تقرضهم: القرض في الأصل: القطع. ومنه: قرض الفأر الثوب. وقرضت الموضع: إذا قطعته وجاوزته إلى أحد الجانبين.

فجوة: ناحية متسعة. والفجوة: المتسع بين الجبلين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «المعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين؛ أي: يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: شمال الكهف لا تصيبه. بل تعدل عن سَمْته إلى الجهتين»[1].

قال الرازي: «للمفسرين ههنا قولان: القول الأول: أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال؛ فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف، وإذا غربت كانت على شماله؛ فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل. والمقصود أن اللّه تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم، فهي مصونة عن العفونة والفساد. والقول الثاني: أنه ليس المراد ذلك، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع اللّه ضوء الشمس من الوقوع. وكذا القول حال غروبها، وكان ذلك فعلًا

(١) فتح القدير (٤/ ٣٨٩-٣٩٠).

خارقًا للعادة وكرامة عظيمة خص اللَّه بها أصحاب الكهف، وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: ولو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول؛ لكان ذلك أمرًا معتادًا مألوفًا فلم يكن ذلك من آيات الله»[1].

قال أبو حيان: «المعنى أنه تعالى دبر أمرهم، فأسكنهم مسكنًا لا يكثر سقوط الشمس فيه فيَحمى، ولا تغيب عنه غيبوبة دائمة فيعفن، والإشارة بذلك إلى ما صنعه تعالى بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته، يعني أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس، ولا تصيبهم اختصاصًا لهم بالكرامة. ومن قال إنه كان مستقبل (بنات نعش) بحيث كان له حاجب من الشمس؛ كان الإشارة إلى أن حديثهم ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو هدايتهم إلى توحيده وإخراجهم من بين عبدة الأوثان وإيواؤهم إلى ذلك الكهف، وحمايتهم من عدوّهم وإلقاء الهيبة عليهم، وصرف الشمس عنهم يمينًا وشمالًا لئلا تفسد أجسامهم، وإنامتهم هذه المدة الطويلة، وصونهم من البلى، وثيابهم من التمزّق»[2].

قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول ﷻ من يوفقه اللَّه للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق التي جعلها أدلة عليه؛ فهو المهتدي: يقول: فهو الذي قد أصاب سبيل الحقّ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يقول: ومن أضله اللَّه عن آياته وأدلته، فلم يوفقه للاستدلال بها على سبيل الرشاد ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ يقول: فلن تجد له يا محمد خليلا وحليفا يرشده لإصابتها؛ لأن التوفيق والخِذْلان بيد اللَّه، يوفق من يشاء من عباده، ويخذل من أراد، يقول: فلا يَحْزنك إدبار من أدبر عنك من قومك وتكذيبهم إياك، فإني لو شئت هَدَيْتهم فآمنوا، وبيدي الهداية والضلال»[3].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الهدى والإضلال بيده وحده -جل وعلا-، فمن هداه فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جدًّا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[4] الآية. وقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[5] وقوله:

---

(١) التفسير الكبير (٢١/ ١٠٠-١٠١).
(٢) البحر (٦/ ١٠٤).
(٣) جامع البيان (١٥/ ٢١٣).
(٤) الإسراء: الآية (٩٧).
(٥) الأعراف: الآية (١٧٨).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[١] الآية. وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[٢] الآية. وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[٤]... ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة اللَّه بل بمشيئة العبد. سبحانه -جل وعلا- عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته، وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا»[٥].

* * *

(١) القصص: الآية (٥٦).
(٢) المائدة: الآية (٤١).
(٣) النحل: الآية (٣٧).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٥).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

أيقاظا: جمع يقِظ. وهو خلاف النائم.

رقود: جمع راقد، يقال: رَقَدَ رَقْدًا وَرُقُودًا وَرُقَادًا نام ليلًا كان أو نهارًا وبعْضهم يخصّه بنوم الليل والأول هو الْحق.

الوصيد: الباب. وقيل: فِناءُ الكهف عند عَتَبَتِهِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وتحسب يا محمد هؤلاء الفتية الذين قصصنا عليك قصتهم، لو رأيتهم في حال ضربنا على آذانهم في كهفهم الذي أووا إليه؛ أيقاظًا. وقوله: ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ يقول: وهم نيام.. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ونقلب هؤلاء الفتية في رقدتهم مرّة للجنب الأيمن، ومرّة للجنب الأيسر..

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ اختلف أهل التأويل في الذي عنى اللَّه بقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ فقال بعضهم: هو كلب من كلابهم كان معهم، وقد ذكرنا كثيرًا ممن قال ذلك فيما مضى. وقال بعضهم: كان إنسانًا من الناس طباخًا لهم تَبِعهم.

وأما الوصيد؛ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: هو الفِناء.. وقال آخرون: الوصيد الصعيد.. وقال آخرون: الوصيد الباب.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الوصيد: الباب، أو فناء الباب حيث يغلق الباب،

(١) الآية (١٨).

وذلك أن الباب يُوصَد، وإيصاده: إطباقه وإغلاقه، من قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾[1]. . فكان معنى الكلام: وكلبهم باسط ذراعيه بفناء كهفهم عند الباب، يحفظ عليهم بابه»[2].

قال الشنقيطي: «فإن قيل: كيف يكون الوصيد هو الباب في الآية؟ والكهف غار في جبل لا باب له، فالجواب: أن الباب يطلق على المدخل الذي يدخل للشيء منه. فلا مانع من تسمية المدخل إلى الكهف بابًا. ومن قال: الوصيد الفِناء لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن فناء الكهف هو بابه. .

وقد قال بعض أهل العلم في هذه الآية الكريمة: إن المراد بالكلب في هذه الآية رجل منهم لا كلب حقيقي. واستدلوا لذلك ببعض القراءات الشاذة كقراءة: (وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد) وقراءة: (وكالئهم باسط ذراعيه)، وقوله -جل وعلا-: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ قرينة على بطلان ذلك القول؛ لأن بسط الذراعين معروف من صفات الكلب الحقيقي، ومنه حديث أنس المتفق عليه عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب**»[3] وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، فهو قرينة على أنه كلب حقيقي. وقراءة: (وكالئهم) بالهمزة لا تنافي كونه كلبًا؛ لأن الكلب يحفظ أهله ويحرسهم، والكلاءة الحفظ»[4].

وقال ابن كثير: «رَبَض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب. . وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربِض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب، كما ورد في الصحيح- ولا صورة[5] ولا جُنُب[6] ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن، وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم

---

(١) الهمزة: الآية (٨).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢١٣-٢١٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١١٥) والبخاري (٢/ ٣٨٣/ ٨٢٢) ومسلم (١/ ٣٥٥/ ٤٩٣) وأبو داود (١/ ٥٥٤/ ٨٩٧) والترمذي (٢/ ٦٦/ ٢٧٦) والنسائي (٢/ ٥٦٢/ ١١٠٩) وابن ماجه (١/ ٢٨٨/ ٨٩٢).

(٤) الأضواء (٣/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨-٢٩) والبخاري (٦/ ٣٨٣/ ٣٢٢٥) ومسلم (٣/ ١٦٦٥/ ٢١٠٦ [٧٤]) والترمذي (٥/ ١٠٦/ ٢٨٠٤) والنسائي (٧/ ٢١٠-٢١١/ ٤٢٩٣) وابن ماجه (٢/ ١٢٠٣/ ٣٦٤٩) من حديث أبي طلحة ﷺ.

(٦) أخرجه أبو داود (١/ ١٥٣-١٥٤/ ٢٢٧) والنسائي (٧/ ٢١٠/ ٤٢٩٢) من حديث علي ﷺ. وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٩/ ٧٦/ ٣٠).

من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن»[١].

قال الشنقيطي: «وما يذكره المفسرون من الأقوال في اسم كلبهم فيقول بعضهم: اسمه قطمير. ويقول بعضهم: اسمه حمران، إلى غير ذلك؛ لم نطل به الكلام لعدم فائدته. ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها اللَّه لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه. وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوى، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائمًا؛ كلون كلب أصحاب الكهف واسمه، وكالبعض الذي ضرب به القتيل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر وأنكر عليه موسى قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات؛ إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن اتخاذ الكلاب إلا ما استثناه الشرع

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من اقتنى كلبًا ليس بكلب ماشية أو ضارية نقص كل يوم من عمله قيراطان**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

ضارية: معدة للصيد من الضراوة وهي القعود على الشيء والتجرؤ عليه.

⋆ فوائد الحديث:

الغرض من الحديث بيان جواز اتخاذ الكلب كما اتخذه أصحاب الكهف.

قال القرطبي: «وكان اقتناء الكلاب جائزًا في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٤). (٢) الأضواء (٣/ ٢٢٦).
(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٧٥٩/ ٥٤٨٠) ومسلم (٣/ ١٢٠١/ ١٥٧٤) والترمذي (٤/ ٦٧/ ١٤٨٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤١).

قلت: جواز اقتناءها في شرعنا مقيد بكونه للزرع أو الماشية أو غيرها من المنافع، وأما فيما عدا ذلك فمنهي عنه كما دل عليه الحديث.

قال ابن عبدالبر: «في هذا الحديث من الفقه إباحة اتخاذ الكلاب للصيد والماشية، وكراهية اتخاذها لغير ذلك..

وفي معنى هذا الحديث تدخل عندي إباحة اقتناء الكلاب للمنافع كلها ودفع المضار، إذا احتاج الإنسان إلى ذلك، إلا أنه مكروه اقتناؤها في غير الوجوه المذكورة في هذه الآثار؛ لنقصان أجر مقتنيها. والله أعلم. وقد أجاز مالك وغيره من الفقهاء اقتناء الكلاب للزرع والصيد والماشية، ولم يجز ابن عمر اقتناءه للزرع ووقف عندما سمع. وزيادة من زاد في هذا الحديث الحرثَ والزرعَ مقبولة، فلا بأس باقتناء الكلاب للزرع والكرْم، وأنها داخلة في معنى الحرث، وكذلك ما كان مثل ذلك، كما يقتنى للصيد والماشية وما أشبه ذلك. وإنما كره من ذلك اقتناؤها لغير منفعة وحاجة وكِيدة، فيكون حينئذ فيه ترويع الناس وامتناع دخول الملائكة في البيت والموضع الذي فيه الكلب، فمن ههنا والله أعلم كره اتخاذها. وأما اتخاذها للمنافع فما أظن شيئًا من ذلك مكروها؛ لأن الناس يستعملون اتخاذها للمنافع ودفع المضرة قرنًا بعد قرن في كل مصر وبادية فيما بلغنا والله أعلم، وبالأمصار علماء ينكرون المنكر ويأمرون بالمعروف ويسمع السلطان منهم، فما بلغنا عنهم تغيير ذلك؛ إلا عند أذى يحدث من عقر الكلب ونحوه، وإن كنت ما أحب لأحد أن يتخذ كلبا ولا يقتنيه إلا لصيد أو ماشية في بادية أو ما يجري مجرى البادية من المواضع المخوِف فيها الطرق والسْرق، فيجوز حينئذ اتخاذ الكلاب فيها للزرع وغيره لما يخشى من عادية الوحش وغيره والله أعلم»[1].

* * *

(١) التمهيد (١٤/ ٢١٨-٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: لو اطلعت عليهم في رقدتهم التي رقدوها في كهفهم؛ لأدبرت عنهم هاربًا منهم فارًّا، ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ يقول: ولملئتْ نفسُك من اطلاعك عليهم فَزَعا، لما كان اللَّه ألبسهم من الهَيْبة، كي لا يصل إليهم واصل، ولا تلمِسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآية لمن أراد الاحتجاج بهم عليه من عباده، ليعلموا أن وعد اللَّه حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها»(٢).

قال أبو حيان: «قيل: سبب الرعب طول شعورهم وأظفارهم وصفرة وجوههم وتغيير أطمارهم. وقيل: لإظلام المكان وإيحاشه، وليس هذان القولان بشيء؛ لأنهم لو كانوا بتلك الصفة أنكروا أحوالهم ولم يقولوا ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ ولأن الذي بعث إلى المدينة لم ينكر إلاّ العالَم والبناء، لا حاله في نفسه، ولأنهم بحالة حسنة بحيث لا يفرّق الرائي بينهم وبين الأيقاظ ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ تتخرقه الرياح، والمكان الذي بهذه الصورة لا يكون موحشا»(٣).

* * *

---

(١) الآية (١٨).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢١٥).

(٣) البحر (٦/ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا، فكذلك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لنعرّفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا في خلقنا، وليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة اللّه وحده لا شريك له، إذا تبيّنوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا.

وقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: ليسأل بعضهم بعضا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يقول عزّ ذكره: فتساءلوا فقال قائل منهم لأصحابه: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يقول: فأجابه الآخرون فقالوا: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ ظنا منهم أن ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فسلّموا العلم إلى الله»[٢].

قال الزمخشري: «وكما أَنَمْناهم تلك النومة كذلك بعثناهم، ادّكارًا بقدرته على الإنامة والبعث جميعًا ليسأل بعضهم بعضًا، ويعرفوا حالهم وما صنع اللّه بهم، فيعتبروا، ويستدلوا على عظم قدرة اللّه تعالى ويزدادوا يقينًا، ويشكروا ما أنعم اللّه عليهم وكُرّموا به»[٣].

---

(١) الآية (١٩).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢١٦).
(٣) الكشاف (٢/ ٤٧٦).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه بعث أصحاب الكهف من نومتهم الطويلة ليتساءلوا بينهم؛ أي: ليسأل بعضهم بعضًا عن مدة لبثهم في الكهف في تلك النومة، وأن بعضهم قال: إنهم لبثوا يومًا أو بعض يوم، وبعضهم رد علم ذلك إلى اللَّه -جل وعلا-. ولم يبين هنا قدر المدة التي تساءلوا عنها في نفس الأمر، ولكنه بين في موضع آخر أنها ثلاثمائة سنة بحساب السنة الشمسية، وثلاثمائة سنة وتسع سنين بحساب السنة القمرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾[1]»[2].

وقد دلت هذه الآية على فوائد منها: «الحث على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون اللَّه بعثهم لأجل ذلك. ومنها الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حدّه»[3].

* * *

(١) الكهف: الآية (٢٥).

(٢) الأضواء (٣/ ٢٢٧).

(٣) تيسير الكريم (٥/ ٢٠-٢١).

قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[1]

★ غريب الآية:

ورقكم: الورِق: اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا.

أزكى: أطيب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: مدينتهم التي خرجوا منها هِرابًا.. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ ذكر أنهم خرجوا من رقدتهم جياعًا فلذلك طلبوا الطعام.. وأما قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله؛ فقال بعضهم معناه: فلينظر أي أهل المدينة أكثر طعامًا.. وقال آخرون: بل معناه: أيها أحلّ طعامًا.. وقال آخرون: بل معناه: أيها خير طعامًا..

وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أحلّ وأطهر، وذلك أنه لا معنى في اختيار الأكثر طعاما للشراء منه إلا بمعنى إذا كان أكثرهم طعاما؛ كان خليقًا أن يكون الأفضل منه عنده أوجد، وإذا شرط على المأمور الشراء من صاحب الأفضل، فقد أمر بشراء الجيد، كان ما عند المشتري ذلك منه، قليلًا الجيد أو كثيرًا»[2].

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير «هو الذي يدل له القرآن؛ لأن أكل الحلال

---

(١) الآية (١٩).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢١٦-٢٢٤).

والعمل الصالح أمر الله به المؤمنين كما أمر المرسلين؛ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[١] الآية. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٢]. ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة؛ كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٣] الآية. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[٤] الآية. وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[٥] وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[٦] وقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[٧] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. فالزكاة في هذه الآيات ونحوها: يراد الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي، فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في مأكلهم الحلّة والطهارة لا الكثرة»[٨].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ قال ابن جرير: «يقول: فليأتكم بقوت منه تقتاتونه، وطعام تأكلونه.. وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يقول: وليترفّق في شرائه ما يشتري وفي طريقه ودخوله المدينة. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يقول: ولا يُعلمِنّ بكم أحدًا من الناس»[٩].

وقد دلت هذه الآية على فوائد:

منها: «جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرج إلى حدّ الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين»[١٠].

ومنها: «أن السعي في إمساك الزاد أمر مهم مشروع، وأنه لا يبطل التوكل»[١١].

(١) المؤمنون: الآية (٥١).
(٢) البقرة: الآية (١٧٢).
(٣) الأعلى: الآية (١٤).
(٤) الشمس: الآية (٩).
(٥) النور: الآية (٢١).
(٦) الكهف: الآية (٨١).
(٧) الكهف: الآية (٧٤).
(٨) الأضواء (٣/ ٢٢٧).
(٩) جامع البيان (١٥/ ٢٢٤).
(١٠) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١).
(١١) التفسير الكبير (٢١/ ١٠٤).

ومنها: «جواز الشركة؛ لأن الورق كان لجميعهم.. وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معًا، وإن كان بعضهم أكثر أكلًا من الآخر»[1]. نقله القرطبي عن ابن خويز منداد.

قال ابن العربي: «وليس في الآية دليل على ما قالوه؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه وَرِقه مفردًا، فلا يكون فيه اشتراك»[2].

قال الشنقيطي: «وهذا الذي ذكره ابن العربي متجه كما ترى»[3].

ومنها: «صحة الوكالة في البيع والشراء؛ لأنهم بعثوا من وكّلوه بالشراء»[4].

فصل في الوكالة حَدُّها وحكمها وبعض مسائلها

حدُّها: «الوكالة: بفتح الواو وقد تكسر: التفويض والحفظ، تقول وكلت فلانًا إذا استحفظته، ووكَلت الأمر إليه بالتخفيف إذا فوضته إليه. وهي في الشرع إقامة الشخص غيره مقام نفسه مطلقا أو مقيدا»[5].

قال ابن العربي: «هو عقد نيابة أذن اللَّه فيه للحاجة إليه، وقيام المصلحة به، إذ يعجز كل أحد عن تناول أموره إلا بمعونة من غيره، أو يترفه فيستنيب من يريحه، حتى جاز ذلك في العبادات؛ لطفا منه سبحانه، ورفقا بضَعَفة الخليقة»[6].

حكمها: وقد دل على صحتها الكتاب والسنة والإجماع.

فمن الكتاب:

١- هذه الآية، **قال السيوطي**: «هذه الآية أصل في الوكالة والنيابة»[7].

وقال ابن العربي: «وهي أقوى آية في الغرض»[8]. وقال: «وفي هذه الآية نكتة، وهي أن الوكالة فيها إنما كانت مع التقية، وخوف أن يشعر بهم أحد، لما كانوا يخافون على أنفسهم منهم، وجواز توكيل ذي العذر متفق عليه، فأما من لا عذر له

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤٥).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٢٣٠).
(٣) الأضواء (٣/ ٢٣٢).
(٤) انظر تيسير الكريم (٥/ ٢١) والجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤٥).
(٥) الفتح (٤/ ٦٠٣).
(٦) أحكام القرآن (٣/ ١٢٢٨).
(٧) الإكليل (١٧٠).
(٨) أحكام القرآن (٣/ ١٢٢٨).

فأكثر العلماء على جواز توكيله. وقال أبو حنيفة: لا يجوز. وكان سحنون قد تلقفه عن أسد بن الفرات، فحكم به أيام قضائه. ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافا منهم، وإرذالا بهم. وهو الحق؛ فإن الوكالة معونة، ولا تكون لأهل الباطل»[١].

قال القرطبي معلقًا: «هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء.

والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: «**أعطوه**» فطلبوا له سنّه فلم يجدوا إلا سنًّا فوقها، فقال: «**أعطوه**» فقال: أوفيتني أوفى اللّه لك. قال النبي ﷺ: «**إن خيركم أحسنكم قضاء**»[٢]. لفظ البخاري.

فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن، فإن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يعطوا عنه السِّن التى كانت عليه، وذلك توكيد منه لهم على ذلك، ولم يكن النبي ﷺ مريضًا ولا مسافرًا.

وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما: أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلاف قولهما»[٣].

قال الشنقيطي معلقًا على كلام القرطبي: «ولا يخفى ما فيه؛ لأن أبا حنيفة وسحنونًا إنما خالفا في الوكالة على المخاصمة بغير إذن الخصم فقط، ولم يخالفا في الوكالة في دفع الحق»[٤].

٢- ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾[٥] فإن عملهم عليها توكيل لهم على أخذها.

٣- ومنه قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾[٦] فإنه توكيل لهم من يوسف على إلقائهم قميصه على وجه أبيه»[٧].

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٢٣١).
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤٥).
(٤) الأضواء (٣/ ٢٢٨).
(٥) التوبة: الآية (٦٠).
(٦) يوسف: الآية (٩٣).
(٧) الأضواء (٣/ ٢٢٩).

قال ابن العربي: «آية القميص ضعيفة، وآية العاملين حسنة»[(١)].

وقد «استدل بعض العلماء لذلك أيضًا بقوله تعالى عن يوسف: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] فإنه توكيل له على ما في خزائن الأرض»[(٣)].

ومن السنة:

١- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمّ به أصحابه فقال رسول اللَّه ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**». ثم قال: «**أعطوه سِنًّا مثل سنّه**». **قالوا: يا رسول الله! لا نجد إلا أمثل من سنه، فقال**: «**أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاء**»[(٤)]. (سنًّا يعني من الإبل).

قال ابن بطال تعليقًا على هذا الحديث: «الوكالة في قضاء الديون وفي جميع الحقوق جائزة»[(٥)].

٢- ومنها: ما رواه عقبة بن عامر أن النبي ﷺ أعطاه غنمًا يقسمها على صحابته، فبقي عَتود فذكره للنبي ﷺ فقال: «**ضحِّ به أنت، ضحّ به أنت**»[(٦)]. «وفيه الوكالة بقسمة الضحايا»[(٧)].

٣- ومنها عن عروة بن الجعد البارقي أن النبي ﷺ أعطاه دينارًا يشتري له به شاة، فاشترى له به شاتين، فباع إحداهما بدينار، وجاءه بدينار وشاة، فدعا له بالبركة في بيعه، وكان لو اشترى التراب لربح فيه[(٨)]. «وفيه التوكيل على الشراء»[(٩)].

٤- ومنها عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يقوم على بُدْنه وأن يقسم بدنه كلها

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٢٢٩).

(٢) يوسف: الآية (٥٥).

(٣) الأضواء (٣/ ٢٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٣) والبخاري (٤/ ٦٠٨/ ٢٣٠٦) والنسائي (٧/ ٣٣٦/ ٤٦٣٢).

(٥) شرح البخاري (٦/ ٤٤٠).

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٩) والبخاري (٤/ ٦٠٣/ ٢٣٠٠) ومسلم (٣/ ١٥٥٥/ ١٩٦٥) والترمذي (٤/ ٧٤/ ١٥٠٠) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٨/ ٣١٣٨) والنسائي في الكبرى (٣/ ٥٦/ ٤٤٦٩).

(٧) الأضواء (٣/ ٢٣٠).

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٦) والبخاري (٦/ ٧٨٤/ ٣٦٤٢) وأبو داود (٣/ ٦٧٧-٦٧٨/ ٣٣٨٤) والترمذي (٣/ ٥٥٩/ ١٨٥٨) وابن ماجه (٢/ ٨٠٣/ ٢٤٠٢).

(٩) الأضواء (٣/ ٢٢٩).

لحومها وجلودها وجلالها، ولا يعطي في جزارتها شيئًا[١]. «وفيه التوكيل على القيام على البدن والتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها»[٢].

قال ابن عبد البر: «وفي نحر غير رسول اللَّه ﷺ هديه دليلٌ على جواز الوكالة؛ لأنه معلوم أنه لم يفعل ذلك بغير إذنه، وإذا صح أنه كذلك؛ صحت الوكالة وجازت في كل ما يتصرف فيه الإنسان أنه جائز أن يوليه غيره فينفذ فيه فعله»[٣].

٥- ومنها عن زيد بن خالد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**واغد يا أنيس لامرأة هذا؛ فإن اعترفت فارجمها**»[٤]. «وهو صريح في التوكيل في إقامة الحدود»[٥]. وبوب عليه البخاري في كتاب الحدود: «باب الوكالة في الحدود». وأورد هذا الحديث وغيره.

قال الحافظ: «فإن الإمام لما لم يتولّ إقامة الحدّ بنفسه وولاّه غيرَه؛ كان ذلك بمنزلة توكيله لهم في إقامته»[٦].

٦- ومنها عن أبي رافع أن النبي ﷺ تزوج ميمونة حلالًا وبنى بها حلالًا وكنت الرسول بينهما[٧].

قال ابن عبدالبر: «فيه دليل على جواز الوكالة في النكاح، وهو أمر لا أعلم فيه خلافًا»[٨].

وأما الإجماع:

فقد أجمع المسلمون على جواز الوكالة وصحتها في الجملة. **قال ابن قدامة**: «وأجمعت الأمة على جواز الوكالة في الجملة؛ ولأن الحاجة داعية إلى ذلك؛ فإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٧٠٩/ ١٧١٧) ومسلم (٢/ ٩٥٤/ ١٣١٧) وأبو داود (٢/ ٣٧١/ ١٧٦٩) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٥/ ٣٠٩٩).

(٢) الأضواء (٣/ ٢٣٠).

(٣) التمهيد (٢/ ١٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ٦١٩/ ٢٣١٤-٢٣١٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٤/ ١٦٩٧و١٦٩٨[٢٥]) وأبو داود (٤/ ٥٩١/ ٤٤٤٥) والترمذي (٤/ ٣٠-٣١/ ١٤٣٣) والنسائي (٨/ ٦٣٢/ ٥٤٢٥).

(٥) الأضواء (٣/ ٢٢٩).

(٦) الفتح (٤/ ٦٢٠).

(٧) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٢-٣٩٣) والترمذي (٣/ ٢٠٠/ ٢٤١) وقال: هذا حديث حسن. وأخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس دون ذكر الشاهد.

(٨) التمهيد (٣/ ١٥٢).

لا يمكن كل واحد فعل ما يحتاج إليه، فدعت الحاجة إليه»[١].

مسائل تتعلق بالوكالة:

الأولى: «الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وُكِّل الغاصب لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرم فعله لا تجوز النيابة فيه»[٢].

الثانية: «العبادات البدنية المحضة كالصلاة والصيام والطهارة من الحدث؛ لا يجوز التوكيل فيها؛ لأنها تتعلق ببدن من هي عليه، فلا يقوم غيره مقامه فيها»[٣].

«أما الحج عن الميت والمعضوب والصوم عن الميت؛ فقد دلت أدلة أخر على النيابة في ذلك. وإن خالف كثير من العلماء في الصوم عن الميت لأن العبرة بالدليل الصحيح من الوحي لا بآراء العلماء إلا عند عدم النص من الوحي»[٤].

الثالثة: «يجوز التوكيل في مطالبة الحقوق وإثباتها، والمحاكمة فيها، حاضرًا كان الموكِّل أو غائبًا، صحيحًا أو مريضًا.

وبه قال مالك، وابن أبي ليلى، وأبو يوسف، ومحمد، والشافعي. وقال أبو حنيفة: للخصم أن يمنع من محاكمة الوكيل إذا كان الموكِّل حاضرا؛ لأن حضوره مجلس الحكم، ومخاصمته حق لخصمه عليه، فلم يكن له نقله إلى غيره بغير رضاء خصمه، كالدين عليه.

ولنا، أنه حق تجوز النيابة فيه، فكان لصاحبه الاستنابة بغير رضا خصمه»[٥].

قال الشنقيطي: «واحتج الجمهور بظواهر النصوص؛ لأن الخصومة أمر لا مانع من الاستنابة فيه. قال مقيده عفا اللَّه عنه: الذي يظهر لي واللَّه أعلم في مسألة التوكيل على الخصام والمحاكمة: أن الصواب فيها التفصيل؛ فإن كان الموَكَّل ممن عرف بالظلم والجبروت والادعاء بالباطل؛ فلا يقبل منه التوكيل لظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[٦]، وإن كان معروفًا بغير ذلك

---

(١) المغني (٧/ ١٩٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤٥).

(٣) المغني (٧/ ٢٠٢).

(٤) الأضواء (٣/ ٢٣١).

(٥) المغني (٧/ ١٩٩).

(٦) النساء: الآية (١٠٥).

فلا مانع من توكيله على الخصومة»[١].

الرابعة: «ويجوز التوكيل بجُعل وبدون جُعل، والدليل على التوكيل بغير جعل أنه ﷺ وَكّل أنيسًا في إقامة الحد على المرأة، وعروةَ البارقي في شراء الشاة من غير جعل. ومثال ذلك كثير في الأحاديث التي ذكرنا غيرها. والدليل على التوكيل بجعل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾[٢] فإنه توكيل على جباية الزكاة وتفريقها بجعل منها كما ترى»[٣].

ومسائل الوكالة معروفة مفصلة في كتب فروع المذاهب، والمقصود هنا الإشارة إلى أصولها وذكر بعض مسائلها، تنبيهًا بها على غيرها والله أعلم.

* * *

(١) الأضواء (٣/ ٢٣١).

(٢) التوبة: الآية (٦٠).

(٣) الأضواء (٣/ ٢٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم، يعني: أهل المدينة ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم، وهذه القتلة هي أخبث قتلة. وكان ذلك عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يردّوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم اللّه، أو المراد بالعود هنا: الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة (إلى) للدلالة على الاستقرار ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ في إذًا معنى الشرط. كأنه قال: إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذًا أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة»[١].

وقال الشنقيطي: «وهذا الذي ذكره هنا من فعل الكفار مع المسلمين من الأذى أو الرد إلى الكفر؛ ذكر في مواضع أخر أنه هو فعل الكفار مع الرسل وأتباعهم؛ كقوله -جل وعلا-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

وقال الرازي: «قال القاضي: ما على المؤمن الفارّ بدينه أعظمُ من هذين؛

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٩١).
(٢) إبراهيم: الآية (١٣).
(٣) الأعراف: الآيتان (٨٨و٨٩).
(٤) البقرة: الآية (٢١٧).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

فأحدهما فيه هلاك النفس، وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل. والآخر هلاك الدين؛ بأن يُردّوا إلى الكفر»[١].

قال محمد بن عبد الوهاب: «المسألة العظيمة وهي قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ عرفوا أنه لابد من أحد الأمرين: إما الرجم، وإما الإعادة في الملة، فإن وافقوا على الثانية لم يفلحوا أبدًا، ولو كان في قلوبهم محبة الدين وبغض الكفر»[٢].

قال الشنقيطي: «أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة؛ لأن قوله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم، ومع هذا قال عنهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾؛ فدل ذلك على أن الإكراه ليس بعذر. ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب في الذي دخل النار في ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل[٣]؛ لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذبابًا قتلوه. ويشهد له أيضًا دليل الخطاب، أي مفهوم المخالفة في قوله ﷺ: «**إن اللَّه تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٤]، فإنه يفهم من قوله: «**تجاوز لي عن أمتي**» أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك.. أما هذه الأمة فقد صرح اللَّه تعالى بعذرهم بالإكراه في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[٥]»[٦].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢١/ ١٠٤). (٢) تفسير آيات من القرآن (٢٤٤-٢٤٥).

(٣) أخرجه: أحمد في الزهد (ص١٥-١٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧٣/ ٣٣٠٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٣) عن سلمان الفارس موقوفًا بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩-٢٠٤٥) من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الإنقطاع والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن عمير في الطريق الثاني وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلس. والطريق التي أشار إليها البوصيري أخرجها الطحاوي (٣/ ٩٥) الدراقطني (٤/ ١٧٠-١٧١) ابن حبان (١٦/ ٢٠٢/ ٧٢١٩)الإحسان؛ الحاكم (٢/ ١٩٨)صححه على شرط الشيخين؛ ووافقه الذهبي من طريق عطاء بن أبي رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس به. وحسن النووي إسناده. انظر شرح الأربعين (ص١٢٩).

(٥) النحل: الآية (١٠٦). (٦) الأضواء (٣/ ٢٥١).

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

أعثرنا : أَطْلَعْنَا ، من عثر فلان على بغيته ، إذا اطلع عليها . وأصل العثور : السقوط من شيء يصيب الرجل .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا ليتساءلوا بينهم ، فيزدادوا بعظيم سلطان اللَّه بصيرة ، وبحسن دفاع اللَّه عن أوليائه معرفة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يقول : كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا في شكّ من قُدرة اللَّه على إحياء الموتى ، وفي مِرْية من إنشاء أجسام خلقه ، كهيئتهم يوم قبضهم بعد البِلَى ، فيعلموا أن وَعْد اللَّه حق ، ويُوقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها»[٢] .

وفي الآية «معرفة المؤمن إذا أعثر عليهم أن وعد اللَّه حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، كما ردّ سبحانه موسى إلى أمه لتعلم أن وعد اللَّه حق»[٣] .

* * *

(١) الآية (٢١) .

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٢٥) .

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (٢٤٥) .

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: الذين أعثروا على الفتية، يقول تعالى: وكذلك أعثرنا هؤلاء المختلفين في قيام الساعة، وإحياء اللَّه الموتى بعد مماتهم.. حين يتنازعون بينهم أمرهم فيما اللَّه فاعل بمن أفناه من عباده، فأبلاه في قبره بعد مماته، أمنشئهم هو أم غير منشئهم، وقوله: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ يقول: فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: ابنوا عليهم بنيانًا ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ يقول: ربّ الفتية أعلم بالفتية وشأنهم، وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ يقول -جلّ ثناؤه-: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. وقد اختلف في قائلي هذه المقالة، أهم الرهط المسلمون، أم هم الكفار؟»[٢].

قال ابن كثير: «والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لعن اللَّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**» يحذر ما فعلوا[٣]»[٤].

قال القاسمي معلقًا على كلام ابن كثير: «وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده، المسجل بلعن فاعل ذلك، وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي، والمقت الرباني، والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي ﷺ والوليّ مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه، ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة، وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك؟ كما قال ابن عباس

(١) الآية (٢١).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٢٥).
(٣) سيأتي تخريجه قريبا.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٧).

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[(١)] قال: (هؤلاء كانوا قوما صالحين في قومهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم)[(٢)]. فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى؛ قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام»[(٣)].

قال ابن رجب: «وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستند القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المتبعين لما أنزل الله على رسله من الهدى»[(٤)].

قال الألوسي: «واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها وجواز الصلاة في ذلك، وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي. وهو قول باطل عاطل، فاسد كاسد».

ونقل عن كتاب «المنهاج»: «وقد أفتى جمع بهدم كل ما بقرافة مصر من الأبنية، حتى قبة الإمام الشافعي عليه الرحمة التي بناها بعض الملوك، وينبغي لكل أحد هدمُ ذلك ما لم يخش منه مفسدة، فيتعين الرفع للإمام أخذًا من كلام ابن الرّفعة في «الصلح»».

ثم قال رحمه الله: «لا يقال: إن الآية ظاهرة في كون ما ذكر من شرائع من قبلنا وقد استدل بها، فقد روي أنه ﷺ قال: «**من نام عن صلاة أو نسيها**»[(٥)] الحديث، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[(٦)] وهو مقول لموسى عليه السلام، وسياقه الاستدلال.

واحتج محمد على جواز قسمة الماء بطريق المُهايأة بقوله تعالى: ﴿لَّهَا

---

(١) نوح: الآية (٢٣).
(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٦٢/ ٤٩٢٠).
(٣) محاسن التأويل (١١/ ٢١).
(٤) فتح الباري (٣/ ١٩٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦٩)، البخاري (٢/ ٨٩/ ٥٩٧)، مسلم (١/ ٤٧٧/ ٦٨٤)، أبو داود (١/ ٣٠٧/ ٤٤٢)، الترمذي (١/ ٣٣٥/ ١٧٨)، النسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٢)، ابن ماجه (١/ ٢٢٧/ ٦٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٦) طه: الآية (١٤).

شِرْبٌ﴾[١] الآية. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾[٢] وأبو يوسف على جري القَوَد بين الذكر والأنثى بآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾[٣] والكرخي على جريه بين الحر والعبد، والمسلم والذمي بتلك الآية الواردة في بني إسرائيل، إلى غير ذلك؛ لأنا نقول: مذهبنا في شرع من قبلنا وإن كان يلزمنا على أنه شريعتنا؛ لكن لا مطلقًا، بل إن قصه اللَّه تعالى علينا بلا إنكار، وإنكارُ رسوله ﷺ كإنكاره ﷻ، وقد سمعت أنه -عليه الصلاة والسلام- لعن الذين يتخذون المساجد على القبور، على أن كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع، وكيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة، مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. والآية ليست كالآيات التي ذكرنا آنفًا احتجاج الأئمة بها، وليس فيها أكثر من حكاية قول طائفة من الناس، وعزمهم على فعل ذلك، وليست خارجة مخرج المدح لهم والحض على التأسي بهم، فمتى لم يثبت أن فيهم معصومًا لا يدل فعلهم -فضلًا عن عزمهم- على مشروعية ما كانوا بصدده، ومما يقوي قلة الوثوق بفعلهم القول بأن المراد بهم الأمراء والسلاطين، كما روي عن قتادة؛ وعلى هذا لقائل أن يقول: إن الطائفة الأولى كانوا مؤمنين عالمين بعدم مشروعية اتخاذ المساجد على القبور، فأشاروا بالبناء على باب الكهف وسده وكفّ التعرض عن أصحابه، فلم يقبل الأمراء منهم وغاظهم ذلك حتى أقسموا على اتخاذ المسجد. .

وبالجملة؛ لا ينبغي لمن له أدنى رشد أن يذهب إلى خلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة، معولًا على الاستدلال بهذه الآية؛ فإن ذلك في الغواية غاية، وفي قلة النهي نهاية، ولقد رأيت من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالجص والآجرّ وتعليق القناديل عليها، والصلاة إليها، والطواف بها واستلامها، والاجتماع عندها في أوقات مخصوصة، إلى غير ذلك، محتجًا بهذه الآية الكريمة، وبما جاء في بعض روايات القصة من جعل الملك لهم في كل سنة عيدًا، وجعله إياهم في توابيت من ساج، ومُقيسا البعض على البعض،

---

(١) الشعراء: الآية (١٥٥).

(٢) القمر: الآية (٢٨).

(٣) المائدة: الآية (٤٥).

وكل ذلك محادة لله تعالى ورسوله ﷺ، وإبداع دين لم يأذن به اللَّه ﷻ. ويكفيك في معرفة الحق تتبع ما صنع أصحاب رسول اللَّه ﷺ في قبره عليه الصلاة والسلام، وهو أفضل قبر على وجه الأرض.. والوقوف على أفعالهم في زيارتهم له، والسلام عليه -عليه الصلاة والسلام-، فتتبعْ ذاك، وتأمل ما هنا وما هناك، واللَّه ﷻ يتولى هداك»[١].

قال الشيخ الألباني: «وقد استدَل بالآية المذكورة على الجواز المزعوم، بل على استحباب بناء المساجد على القبور بعضُ المعاصرين[٢]، لكن من وجه آخر مبتدَع مغاير بعض الشيء لما سبق حكايته ورده.فقال ما نصه: «والدليل من هذه الآية إقرار اللَّه إياهم على ما قالوا وعدم رده عليهم».

قلت: هذا الاستدلال باطل من وجهين:

الأول: أنه لا يصح أن يعتبر عدم الرد عليهم إقرارا لهم إلا إذا ثبت أنهم كانوا مسلمين وصالحين متمسكين بشريعة نبيهم، وليس في الآية ما يشير أدنى إشارة إلى أنهم كانوا كذلك، بل يحتمل أنهم لم يكونوا كذلك، وهذا هو الأقرب، أنهم كانوا كفارًا أو فجارًا كما سبق من كلام ابن رجب وابن كثير وغيرهما، وحينئذ فعدم الرد عليهم لا يعد إقرارا بل إنكارًا؛ لأن حكاية القول عن الكفار والفجار يكفي في رده عزوه إليهم، فلا يعتبر السكوت عليه إقرارا كما لا يخفى، ويؤيده الوجه الآتي:

الثاني: أن الاستدلال المذكور إنما يستقيم على طريقة أهل الأهواء من الماضين والمعاصرين الذين يكتفون بالقرآن فقط دينًا، ولا يقيمون للسنة وزنًا، وأما على طريقة أهل السنة والحديث الذين يؤمنون بالوحيين مصدقين بقوله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: **«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»**[٣] وفي رواية: **«ألا إن ما حرم رسول اللَّه مثل ما حرم الله»**.

---

(١) روح المعاني (١٥/ ٢٣٧-٢٤٠).

(٢) قال الشيخ الألباني في تعليقه على هذا: «هو الشيخ أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغماري في كتابه المسمى «إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد والقباب على القبور» وهذا الكتاب من أغرب ما ابتلي به المسلمون في هذا العصر، وأبعد ما يكون عن البحث العلمي النزيه..».

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٠) وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٥) والترمذي (٥/ ٣٦-٣٧/ ٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ٦-٧/ ١٣) وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

فهذا الاستدلال عندهم -والمستدل يزعم أنه منهم!- باطل ظاهر البطلان؛ لأن الرد الذي نفاه قد وقع في السنة المتواترة كما سبق، فكيف يقول: إن اللَّه أقرهم ولم يرد عليهم مع أن اللَّه لعنهم على لسان نبيه ﷺ، فأي رد أوضح وأبين من هذا؟

وما مثل من يستدل بهذه الآية على خلاف الأحاديث المتقدمة إلا كمثل من يستدل على جواز صنع التماثيل والأصنام، بقوله تعالى في الجن الذين كانوا مذللين لسليمان عليه السلام: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾[1] يستدل بها على خلاف الأحاديث الصحيحة التي تحرم التماثيل والتصاوير، وما يفعل ذلك مسلم يؤمن بحديثه ﷺ»[2].

وفي الآية: «أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلوّ في أصحاب القبور؛ لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد؛ لأنهم صاروا عندهم محلّ الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

وفيها: أن الغلو في القبور وإن قلّ قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي ﷺ لعليّ حين بعثه: «**ألاّ تدع قبرًا مشرفًا إلا سوّيته**»»[3].

وقد ساق بعض المفسرين أحاديث في تفسير هذه الآية، الغرض منها بيان تغليظ النهي عن اتخاذ المساجد على القبور، وبيان أن الغالبين القائلين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ مذمومون؛ لأنهم فعلوا مع الفتية ما يذم فاعله.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تغليظ النهي عن اتخاذ المساجد على القبور

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا، وذراعًا ذراعًا، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمَن**»[4].

---

(١) سبأ: الآية (١٣). (٢) تحذير الساجد (٥٥-٥٨).

(٣) مجموعة رسائل وفتاوى ابن عثيمين (٩/ ٤٦١).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٨٤) والبخاري (١٣/ ٣٧١/ ٧٣٢٠) ومسلم (٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩).

* عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «**لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مسجدا. قالت: لولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا**»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة**»[٢].

* عن جندب رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «**إني أبرأ إلى اللّه أن يكون لي منكم خليل، فإن اللّه تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»[٣].

* عن عطاء بن يسار رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**قاتل اللّه اليهود؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٥].

* عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نُزل برسول اللّه ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال -وهو كذلك-: «**لعنة اللّه على**

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٠) والبخاري (٣/ ٢٥٧/ ١٣٣٠) ومسلم (١/ ٣٧٦/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٥١)، والبخاري (١/ ٦٨٩/ ٤٦٧) ومسلم (١/ ٣٧٥-٣٧٦/ ٥٢٨) والنسائي (٢/ ٣٧١-٣٧٢/ ٧٠٣).

(٣) أخرجه: مسلم (١/ ٣٧٧-٣٧٨/ ٥٣٢).

(٤) أخرجه: مالك في الموطأ (١/ ١٧٢) ومن طريقه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٤٠-٢٤١) عن عطاء بن يسار مرسلا. ووصله أحمد (٢/ ٢٤٦) وأبو يعلى (١٢/ ٣٤/ ٦٦٨١)، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣-٤): «رواه أبو يعلى وفيه إسحاق بن أبي إسرائيل وفيه كلام لوقفه في القرآن، وبقية رجاله ثقات». وصحح إسناده الألباني في تحذير الساجد (٢٥-٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٤) ومسلم (١/ ٣٧٦/ ٥٣٠).

اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا[١].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد**»[٢].

* عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا عليها**»[٣].

* عن جابر رضي الله عنه قال: (نهى رسول اللَّه ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[٤].

★ فوائد الأحاديث:

الفائدة الأولى: في معنى اتخاذ القبور مساجد.

قال شيخ الإسلام: «واتخاذها مساجد يتناول شيئين: أن يبني عليها مسجدًا. أو يصلي عندها من غير بناء، وهو الذي خافه هو وخافته الصحابة إذا دفنوه بارزًا، خافوا أن يصلى عنده، فيتخذ قبره مسجدًا»[٥].

وذكر بعض العلماء معنيين آخرين مفهومين من لفظ (الاتخاذ) الوارد في الأحاديث.

المعنى الأول: الصلاة عليها بمعنى السجود عليها.

المعنى الثاني: السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء.

قال ابن حجر الهيتمي: «واتخاذ القبر مسجدًا معناه: الصلاة عليه أو إليه»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٥) والبخاري (٦/ ٦١٢/ ٣٤٥٣) ومسلم واللفظ له (١/ ٣٧٧/ ٥٣١) والنسائي (٢/ ٣٧٠-٣٧١/ ٧٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥) والطبراني (١٠/ ١٨٨/ ١٠٤١٣) والبزار (٤/ ١٥١/ ٣٤٢٠) [الكشف] وأورده الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٧) وقال: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٥) ومسلم (٢/ ٦٦٨/ ٩٧٢ [٩٨]) وأبو داود (٣/ ٥٥٤/ ٣٢٢٩) والترمذي (٣/ ٣٦٧/ ١٠٥٠) والنسائي (٢/ ٤٠١/ ٧٥٩).

(٤) أحمد (٣/ ٣٣٢) ومسلم (٢/ ٦٦٧/ ٩٧٠) والنسائي (٤/ ٣٩٢/ ٢٠٢٦) وابن ماجه (١/ ٤٩٨/ ١٥٦٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٠).

(٦) الزواجر (١/ ٣٢٨).

والظاهر أن لفظ (الاتخاذ) المذكور في الأحاديث يشمل هذه المعاني كلها، لذلك قال الصنعاني: «واتخاذ القبور مساجد أعمّ من أن يكون بمعنى الصلاة إليها أو بمعنى الصلاة عليها»[1].

وقال الشافعي مستدلًا ببعض الأحاديث المتقدمة على عموم معنى (الاتخاذ): «وأكره أن يبنى على القبر مسجد، وأن يسوّى، أو يصلّى عليه وهو غير مسوى، أو يصلى إليه، (قال): وإن صلى إليه أجزأه وقد أساء، أخبرنا مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«قاتل اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقى دينان بأرض العرب»** (قال): وأكره هذا للسنة والآثار. وأنه كره واللَّه تعالى أعلم أن يعظَّم أحد من المسلمين، يعني يُتخذ قبره مسجدًا، ولم تؤمن في ذلك الفتنة والضلال على ما يأتي بعد»[2].

الفائدة الثانية: في حكم اتخاذ المساجد على القبور.

قال القرطبي: «اتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز. ثم قال بعد سياقه بعض أحاديث الباب: قال علماؤنا: وهذا يحرّم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد»[3].

وقال شيخه صاحب «المفهم» في شرح حديث جابر: «وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجصّ على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه، ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور؛ أن ذلك مباهاة، واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبه بمن كان يعظم القبور ويعبدها، وباعتبار هذه المعاني، وبظاهر هذا النهي؛ ينبغي أن يقال: هو حرام، كما قد قال به بعض أهل العلم»[4].

قال ابن رجب معلقًا على حديث عائشة (حديث الكنيسة): «هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين، وتصوير صورهم فيها كما يفعله النصارى، ولا ريب أن كل واحد منهما محرم على انفراد، فتصوير صور الآدميين

---

(١) سبل السلام (٢/ ١٨٢).
(٢) الأم (١/ ٤٦٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤٧).
(٤) المفهم (٢/ ٦٢٦-٦٢٧).

محرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده محرم كما دلت عليه نصوص أخر يأتي ذكر بعضها . . فإن اجتمع بناء المسجد على القبور ونحوها من آثار الصالحين مع تصوير صورهم فلا شك في تحريمه، سواء كانت صورا مجسدة كالأصنام أو على حائط ونحوه، كما يفعله النصارى في كنائسهم، والتصاوير التي في الكنيسة التي ذكرتها أم حبيبة وأم سلمة أنهما رأتاها بالحبشة كانت على الحيطان ونحوها، ولم يكن لها ظل، وكانت أم سلمة وأم حبيبة قد هاجرتا إلى الحبشة.

فتصوير الصور على مثل صور الأنبياء والصالحين؛ للتبرك بها والاستشفاع بها محرم في دين الإسلام، وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذي أخبر النبي ﷺ أن أهله شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما بناء المساجد على القبور؛ فقد صرح عامة علماء الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي وغيرهما بتحريمه، ومن العلماء من أطلق فيه لفظ الكراهة، فما أدري عنى به التنزيه أو التحريم، ولا ريب في القطع بتحريمه»[2].

وقد صرح ابن حجر الهيتمي بأن اتخاذ المساجد على القبور من الكبائر حيث قال: «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثانا، والطواف بها، واستلامها والصلاة عليها . .».

ثم ذكر بعض أحاديث الباب ثم قال:

«**تنبيه**: عدّ هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية، وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من هذه الأحاديث، ووجه أخذ اتخاذ القبر مسجدًا منها واضح؛ لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند اللّه يوم القيامة، ففيه تحذير لنا كما في رواية (يحذر ما صنعوا): أي يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك، فيلعنوا كما لعنوا . .

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٠٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٢٩).

ومن ثَم قال بعض أصحابنا تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركًا وإعظامًا، فاشترطوا شيئين: أن يكون قبرَ معظّم، وأن يقصد بالصلاة إليه ومثلها الصلاة عليه التبركَ والإعظامَ، وكون هذا الفعل كبيرة ظاهر من الأحاديث المذكورة لما علِمت. قال بعض الحنابلة: قصد الرجلِ الصلاة عند القبر متبركًا بها عين المحادة لله ورسوله، وإبداع دين لم يأذن به اللَّه للنهي عنها إجماعًا، فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد أو بناؤها عليها.

والقول بالكراهة محمول على غير ذلك، إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي ﷺ لعن فاعله، وتجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور، إذ هي أضر من مسجد الضرار؛ لأنها أسست على معصية رسول اللَّه ﷺ لأنه نهى عن ذلك وأمر ﷺ بهدم القبور المشرفة، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره»[1].

الفائدة الثالثة: في حكم الصلاة في المساجد المتخذة على القبور.

قال شيخ الإسلام وقد سئل: «هل تصح الصلاة في المسجد إذا كان فيه قبر والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهد القبر، أو يعمل عليه حاجز، أو حائط؟

الجواب: الحمد لله، اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك». وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد، فإن كان المسجد قبل الدفن غُير؛ إما بتسوية القبر، وإما بنبشه إن كان جديدًا. وإن كان المسجد بني بعد القبر: فإما أن يزال المسجد، وإما أن تزال صورة القبر، فالمسجد الذي على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل، فإنه منهي عنه**»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق كلامه عن المساجد المتخذة على القبور: «وتكره الصلاة فيها من غير خلاف أعلمه. ولا تصح عندنا في ظاهر المذهب لأجل النهي واللعن الوارد في ذلك ولأحاديث أخر»[3].

(١) الزواجر (١/ ٣٢٦-٣٢٨).
(٢) الفتاوى الكبرى (٢/ ٢٢٦).
(٣) الاقتضاء (٢٣٠).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا تصح الصلاة في المقبرة ولا إليها، والنهي عن ذلك إنما هو لسدّ ذريعة الشرك. وذكر طائفة من أصحابنا أن وجود القبر والقبرين لا يمنع من الصلاة؛ لأنه لا يتناول اسم المقبرة، وإنما المقبرة ثلاثة قبور فصاعدًا. وليس في كلام أحمد وعامة أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم وتعليلهم واستدلالهم يوجب منع الصلاة عند قبر واحد من القبور، وهو الصواب؛ والمقبرة كل ما قبر فيه، لا أنه جمع قبر.

وقال أصحابنا: وكل ما دخل في اسم المقبرة مما حول القبور لا يصلى فيه، فهذا ينبني على أن المنع يكون متناولًا لتحريم الصلاة عند القبر المنفرد وفِنائه المضاف إليه. وذكر الآمدي وغيره أنه لا تجوز الصلاة فيه؛ أي: المسجد الذي قبلته إلى القبر، حتى يكون بين الحائط وبين المقبرة حائل آخر. وذكر بعضهم: هذا منصوص أحمد»[1].

وقال الشيخ صالح الفوزان في شرحه لحديث جندب: «في الحديث دليل على بطلان الصلاة عند القبور أو في المساجد المبنية على القبور؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك، والنهي يقتضي الفساد عند الأصوليين؛ فالذي يصلي عند القبر صلاته غير صحيحة، فعليه أن يعيد الفريضة؛ لأن صلاته عند القبر أو في المسجد المبني على القبر غير صحيحة؛ لأنها صلاة منهي عنها، والصلاة المنهي عنها غير مشروعة فهي لا تصح»[2].

وقد فصل الشيخ الألباني هذه المسألة فقال: «إن للمصلي في المساجد المذكورة حالتين:

الأولى: أن يقصد الصلاة فيها من أجل القبور والتبرك بها كما يفعله كثير من العامة وغير قليل من الخاصة.

الثانية: أن يصلي فيها اتفاقًا لا قصدا للقبر.

ففي الحالة الأولى لا شك في تحريم الصلاة فيها بل في بطلانها؛ لأنه إذا نهى ﷺ عن بناء المساجد على القبور ولعن من فعل ذلك؛ فالنهي عن قصد الصلاة

---

(١) الاختيارات الفقهية (٤٤).

(٢) إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (١/ ٤١١).

فيها أولى، والنهي هنا يقتضي البطلان كما سبق قريبا.

وأما في الحالة الثانية؛ فلا يتبين لي الحكم ببطلان الصلاة فيها، وإنما الكراهة فقط؛ لأن القول بالبطلان في هذه الحالة لا بد له من دليل خاص، والدليل الذي أثبتنا به البطلان في الحالة الأولى لا يمكن سحبه على هذه الحالة، ذلك لأن البطلان في الحالة السابقة؛ إنما صح بناء على النهي عن بناء المسجد على القبر، وهذا النهي لا يتصور إلا مع تحقق قصد البناء، فيصح القول بأن قصد الصلاة في هذا المسجد يبطلها. وأما القول ببطلان الصلاة فيه دون قصد فليس عليه نهي خاص يمكن الاعتماد عليه فيه، ولا يمكن أن يقاس عليه قياسًا صحيحًا بله أولويًّا، ولعل هذا هو السبب في ذهاب الجمهور إلى الكراهة دون البطلان. .

وأما القول بكراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور، فهذا أقل ما يمكن أن يقوله الباحث وذلك لأمرين:

الأول: أن في الصلاة فيها تشبها باليهود والنصارى الذين كانوا ولا يزالون يقصدون التعبد في تلك المساجد المبنية على القبور.

الثاني: أن الصلاة فيها ذريعة لتعظيم المقبور فيها تعظيمًا خارجًا عن حد الشرع، فينهى عنها احتياطًا وسدًّا للذريعة، لاسيما ومفاسد المساجد المبنية على القبور ماثلة للعيان»[1].

الفائدة الرابعة: في حكمة النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

قال القرطبي شارحًا حديث أبي مرثد: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» قال: «أي: لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»**»[2].

قال شيخ الإسلام: «واتخاذ المكان مسجدًا هو أن يتخذ للصلوات الخمس

(١) تحذير الساجد (١٢٢-١٢٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤٧).

وغيرها، كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجدا إنما يقصد فيه عبادة اللَّه ودعاؤه لا دعاء المخلوقين. فحرم ﷺ أن نتخذ قبورهم مساجد تقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة اللَّه وحده؛ لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده، فنهى رسول اللَّه ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة اللَّه وحده؛ لئلا يتخذ ذلك ذريعة إلى الشرك باللَّه. والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه؛ كما نهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة: وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك. وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات. ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات، وهو أظهر قولي العلماء؛ لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها، فتفوت مصلحتها، فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة؛ بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت، فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهي عنه. فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها -كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها- كان معلوما أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريما من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي ذلك إلى دعاء الكواكب. كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد -فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم- كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وبتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب، ونحو ذلك.

فلَأن يُشرَك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته أو صلاحه؛ أعظم من أن يشرك بخشبة

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل (ص٢١-٢٢).

أو حجر على تمثاله . ولهذا تجد أقواما كثيرين يتضرعون عندها ، ويخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السَّحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تشد إليها الرحال .

فهذه المفسدة -التي هي مفسدة الشرك كبيره وصغيره- هي التي حسم النبي ﷺ مادتها ، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا ، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة ، ونحو ذلك ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها ؛ لأنها الأوقات التي يقصد المشركون بركة الصلاة للشمس فيها ، فنهي المسلم عن الصلاة حينئذ -وإن لم يقصد ذلك- سدًّا للذريعة . فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء والصالحين، متبركًا بالصلاة في تلك البقعة ؛ فهذا عين المحادة لله ورسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن اللَّه به ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول اللَّه ﷺ، من أن الصلاة عند القبر -أيّ قبر كان- ؛ لا فضل فيها لذلك ، ولا للصلاة في تلك البقعة مزية خيرٍ أصلا ، بل مزية شر»[1] .

وقال الصنعاني : «وهذه الأخبار المعبّر فيها باللعن والتشبيه بالوثن بقوله : «**لا تجعلوا قبري وثنًا يعبد من دون الله**» تفيد التحريم للعمارة والتزيين والتجصيص ووضع الصندوق المزخرف ووضع الستائر على القبر وعلى سمائه والتمسح بجدار القبر ، وأن ذلك قد يفضي مع بعد العهد وفشو الجهل إلى ما كان عليه الأمم السابقة من عبادة الأوثان، فكان في المنع عن ذلك بالكلية قطع لهذه الذريعة المفضية إلى الفساد، وهو المناسب للحكمة المعتبرة في شرع الأحكام من جلب المصالح ودفع المفاسد، سواء كانت بأنفسها أو باعتبار ما تفضي إليه»[2] .

وقال القرطبي : «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر رسول اللَّه ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبَل المصلّين ، فتُتصور الصلاة إليه بصورة

---

(١) الاقتضاء (ص٣٣٤).

(٢) السبل (٣/ ٣٨٠).

العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرّفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره، ولهذا الذي ذكرناه كله قالت عائشة: (ولولا ذلك لأبرز قبره»)[١].

فصل في الرد على من ادعى أن علة النهي نجاسة المكان:

قال شيخ الإسلام: «واعلم أن من الفقهاء من اعتقد أن سبب كراهة الصلاة في المقبرة، ليس إلا لكونها مظنة النجاسة»[٢].

قال ابن القيم: «وهو باطل من عدة أوجه:

منها: أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة كما يقوله المعللون بالنجاسة. ومنها: أنه ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعًا أن هذا ليس لأجل النجاسة؛ فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، وليس للنجاسة عليها طريق ألبتة؛ فإن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طريون. ومنها: أنه نهى عن الصلاة إليها. ومنها: أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور. ومنها: أن موضع مسجده ﷺ كان مقبرة للمشركين، فنبش قبورهم وسواها واتخذه مسجدًا، ولم ينقل ذلك التراب بل سوّى الأرض ومهدها وصلى فيه..

ومنها: أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر، فإذا نهى عن ذلك سدا لذريعة التشبه التي لا تكاد تخطر ببال المصلي؛ فكيف بهذه الذريعة القريبة، التي كثيرًا ما تدعو صاحبها إلى الشرك، ودعاء الموتى، واستغاثتهم وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد، وغير ذلك مما هو محادة لله ورسوله، فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة؟ ومما يدل على أن النبي ﷺ قصد منع هذه الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم. ومنها: أنه

---

(١) المفهم (٢/ ١٢٨).

(٢) الاقتضاء (٣٣٢).

لعن المتخذين عليها المساجد، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر فتزول اللعنة، وهو باطل قطعا. ومنها: أنه قرن في اللعن بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها، فهما في اللعنة قرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صنوان؛ فإن كل ما لعن رسول اللَّه ﷺ فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها، وجعلها نُصُبا يوفِض إليه المشركون، كما هو الواقع. فهكذا اتخاذ المساجد عليها، ولهذا قرن بينهما، فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها، ولهذا حكى اللَّه ﷻ عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. ومنها: أنه ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1] فذكره ذلك عقيب قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**» تنبيه منه على سبب لحوق اللعن لهم، وهو توصلهم بذلك إلى أن تصير أوثانا تعبد.

وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده؛ جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه: صيغة «**لا تفعلوا**» وصيغة «**إني أنهاكم**»؛ ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكابًا لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيما وأشد فيهم غلوا؛ كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر اللَّه من هذا الباب بعينه دُخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى اللَّه أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم اللَّه إياها: من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية

---

(١) تقدم تخريجه.

تعظيمهم وطاعتهم»[١].

الفائدة الخامسة: في مفاسد اتخاذ المساجد على القبور.

قال ابن القيم: «والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعيادًا، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب؛ مناقضون لما أمر به رسول اللَّه ﷺ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها.. ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره. فمنها: تعظيمها الموقع في الافتتان بها. ومنها: اتخاذها عيدا. ومنها: السفر إليها. ومنها: مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها، والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها، وسدانتها، وعبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيّمها ليلة يُطفأُ القنديل المعلق عليها. ومنها: النذر لها ولسدنتها. ومنها: اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء، وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف، إلى غير ذلك. ومنها: الدخول في لعنة اللَّه تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها. ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها. ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم؛ فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة؛ كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرءون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾[٢] قال اللَّه للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾[٣] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[٤] الآية. وقال

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٩٤-٢٩٧).

(٢) الفرقان: الآيتان: (١٧و١٨).

(٣) الفرقان: الآية (١٩).

(٤) المائدة: الآية (١١٦).

تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1]. ومنها: مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها. ومنها: محادة اللَّه ورسوله، ومناقضة ما شرعه فيها. ومنها: التعب العظيم، مع الوزر الكثير والإثم العظيم. ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله؛ فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه. ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد، وخراب المساجد، ودين اللَّه الذي بعث به رسوله بضد ذلك، ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين، عمروا المشاهد وأخربوا المساجد.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور؛ إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقلَب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركات منه، ونصره لهم على الأعداء ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت، ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه اللَّه تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له. فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان، التي شرعها اللَّه تعالى على لسان رسوله ﷺ، ثم وازن بينها وبين زيارة أهل الإشراك التي شرعها لهم الشيطان، واختر لنفسك..».

ثم أورد أحاديث في الصلاة على الميت والدعاء والاستغفار له. ثم قال:

«فهذا مقصود الصلاة على الميت وهو الدعاء له والاستغفار والشفاعة فيه. ومعلوم أنه في قبره أشد حاجة فيه على نعشه؛ فإنه حينئذ معرّض للسؤال وغيره، وقد كان النبي ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: «**سلوا له التثبيت فإنه الآن**

---

(١) سبأ: الآيتان (٤٠و٤١).

يسأل». فعلم أنه أحوج إلى الدعاء له بعد الدفن، فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعو به، ونشفع له لا نشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى. فبدل أهل البدع والشرك قولا غير الذي قيل لهم: بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول اللَّه ﷺ إحسانًا إلى الميت، وإحسانًا إلى الزائر، وتذكيرًا بالآخرة؛ سؤالَ الميت والإقسام به على اللَّه، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد وأوقات الأسحار. ومن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعًا، وعملًا صالحًا؛ ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول اللَّه ﷺ، ثم يرزقه الخُلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فهذه سنة رسول اللَّه ﷺ في أهل القبور بضعًا وعشرين سنة حتى توفاه اللَّه تعالى، وهذه سنة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يُمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع: أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها؛ فضلًا أن يصلّوا عندها أو يسألوا اللَّه بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم، فليوقفونا على أثر واحد أو حرف واحد في ذلك، بلى يمكنهم أن يأتوا عن الخُلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك، وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر، حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول اللَّه ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك، بلى فيها من خلاف ذلك كثير كما قدمناه من الأحاديث المرفوعة. وأما آثار الصحابة فأكثر أكثر من أن يحاط بها.. فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحًا؛ لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر علمًا لذلك، ودعوا عنده وسنوا ذلك لمن بعدهم، ولكن كانوا أعلم باللَّه ورسوله ودينه من الخُلوف التي خلفت بعدهم، وكذلك التابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول اللَّه ﷺ بالأمصار عدد كثير وهم متوافرون، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه ولا دعا به ولا دعا عنده ولا استشفى به ولا استسقى به ولا استنصر به، ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه. وحينئذ فلا يخلو إما أن يكون الدعاء عندها

والدعاء بأربابها أفضل منه في غير تلك البقعة أو لا يكون؛ فإن كان أفضل؛ فكيف خفي علمًا وعملًا على الصحابة والتابعين وتابعيهم، فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم، وتظفر به الخلوف علما وعملا، ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه مع حرصهم على كل خير، لا سيما الدعاء؛ فإن المضطر يتشبث بكل سبب وإن كان فيه كراهة، فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ثم لا يقصدونه، هذا محال طبعا وشرعا. فتعين القسم الآخر، وهو أنه لا فضل للدعاء عندها، ولا هو مشروع، ولا مأذون فيه بقصد الخصوص، بل تخصيصها بالدعاء عندها ذريعة إلى ما تقدم من المفاسد، ومثل هذا مما لا يشرعه اللَّه ورسوله ألبتة، بل استحباب الدعاء عندها شرع عبادة لم يشرعها اللَّه ولم ينزل بها سلطانا، وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير»[1].

الفائدة السادسة: في وجوب إزالة المساجد المبنية على القبور.

قال شيخ الإسلام: «فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره. هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين»[2].

قال ابن القيم: «فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين: من شجرة أو عمود أو وثن أو قبر أو خشبة أو عين ونحو ذلك، والواجب هدم ذلك كله ومحو أثره، كما أمر النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض.. وعمّى الصحابة بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبر دانيال، وأخفوه عن الناس، ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول اللَّه ﷺ أصحابه أرسل فقطعها.. فإذا كان هذا فعل عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها اللَّه تعالى في القرآن، وبايع تحتها الصحابة رسول اللَّه ﷺ؛ فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قد عظمت الفتنة بها، واشتدت البلية بها. وأبلغ من ذلك: أن رسول اللَّه ﷺ هدم مسجد الضرار، ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فسادا منه كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها أن تهدم كلها حتى تسوى بالأرض، وهي أولى

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٠٨-٣١٠).

(٢) الاقتضاء (٣٣٠).

بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول؛ لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم، فبناءٌ أُسّس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعا. وقد أمر رسول اللَّه ﷺ بهدم القبور المشرفة كما تقدم، فهدْم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى؛ لأنه لعن متخذي المساجد عليها، ونهى عن البناء عليها، فيجب المبادرة والمسارعة، إلى هدم ما لعن رسول اللَّه ﷺ فاعله، ونهى عنه، واللَّه ﷻ يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما، ويذب عنهما، فهو أشد غيرة، وأسرع نصيرًا»[١].

وقد تقدم عن الهيثمي أن بعض الفقهاء أفتى بهدم جميع ما في قرافة مصر من الأوثان. ولله الحمد والمنة.

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تُمَار: تجادل وتحاجج. والمراد: المجادلة. قال الشاعر:

وإياك إياك المراءَ فإنّه ... إلى الشر دَعّاءٌ وللشَّرِّ جالِبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف، هم ثلاثة رابعهم كلبهم. ويقول بعضهم: هم خمسة سادسهم كلبهم. ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾: يقول: قذفا بالظنّ غير يقين علم، كما قال الشاعر: وأجْعَلُ مِنِّي الحَقَّ غيبًا مرجّمًا.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ يقول: ويقول بعضهم: هم سبعة وثامنهم كلبهم. ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ يقول عزّ ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجما منهم بالغيب: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ يقول: ما يعلم عددهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من خلقه.

وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تمار يا محمد: يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عدة أهل الكهف، وحُذفت العِدّة اكتفاء بذكرهم فيها لمعرفة السامعين بالمراد..

وقوله: ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا﴾ اختلف أهل التأويل في معنى المراء الظاهر الذي استثناه اللّه، ورخص فيه لنبيه ﷺ؛ فقال بعضهم: هو ما قصّ اللّه في كتابه أبيح له أن يتلوه عليهم، ولا يماريهم بغير ذلك.. وقال آخرون: المراء الظاهر هو أن يقول

ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول..

وقوله: ﴿تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولا تستفت في عدّة الفتية من أصحاب الكهف منهم، يعني من أهل الكتاب أحدًا؛ لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجمًا بالغيب، لا يقينًا من القول»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فقد اشتملت هذه الآية على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا. فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال: ضعّف القولين الأولين، وسكت عن الثالث فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه اللَّه عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم. فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضًا؛ فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلًا فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى؛ فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور. واللَّه الموفق للصواب»[2].

قلت: يستفاد من هذه القصة فائدة عظيمة، وهي أن الأمر إذا لم يكن فيه دليل واضح يدل عليه؛ فلا يجوز للإنسان أن يماري فيه ويجادل بظنه وحدسه وتخمينه أو رأيه الخالي من الدليل. ولهذا كانت أدلة القرآن في كل أبواب العلم من أوضح الأدلة وأكثرها تنوعًا. وكذلك سنة رسول اللَّه ﷺ، ولهذا قال: «**تركتكم على**

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٢٥-٢٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٧-٣٦٨).

البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»[1]. فسنته ﷺ واضحة، بخلاف المجادلات الكلامية، والآراء الفلسفية، والسفسطات الفقهية، والأوهام الخرافية، والكشوفات الشيطانية؛ كل ذلك سراب في سراب، من تبعه أهلكه العطش ومات. فالسنة السنة! لا تبغ بها بديلا؛ فإنها نورك وهدايتك.

وقال السعدي: «وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب، وعلموا إصابتهم. ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ أي: تجادل وتحاج ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أي: مبنيا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معاندا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضييعًا للزمان، وتأثيرًا في مودة القلوب بغير فائدة»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦/ ٤٣)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦) وقال: «صحيح ليس له علة»، ووافقه الذهبي.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا تأديب من اللَّه عز ذكره لنبيه ﷺ؛ عَهِد إليه أن لا يجزم على ما يَحدث من الأمور أنه كائن لا محالة، إلا أن يصله بمشيئة اللَّه؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله»(١).

قال الشنقيطي: «﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ نهى اللَّه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنه سيفعل شيئًا في المستقبل إلا معلّقًا ذلك على مشيئة اللَّه الذي لا يقع شيء في العالم كائنًا ما كان إلا بمشيئته -جل وعلا-، فقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل: إني فاعل ذلك الشيء غدًا. والمراد بالغد: ما يستقبل من الزمان لا خصوص الغد، ومن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان؛ ومنه قول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمي

يعني أنه لا يعلم ما يكون في المستقبل، إذ لا وجه لتخصيص الغد المعين بذلك. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا قائلًا في ذلك: (إلا أن يشاء الله) أي: معلقًا بمشيئة اللَّه. أو لا تقولنه إلا بإن شاء اللَّه؛ أي: إلا بمشيئة اللَّه. وهو في موضع الحال؛ يعني إلا متلبسًا بمشيئة اللَّه، قائلًا إن شاء اللَّه. قاله الزمخشري وغيره»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ **قال ابن كثير:** «قيل معناه: إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله أبو العالية والحسن البصري.. ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون اللَّه ﷻ قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٢٨).

(٢) الأضواء (٣/ ٢٥٣).

اللَّه تعالى ؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ وذِكر اللَّه تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر اللَّه تعالى سببٌ للذكر ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾»[1].

«وقال بعضهم: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى ذكرك لها»[2]. «وهذا قول السدي»[3].

وقال بعضهم: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا غضبت. وهذا قول عكرمة، ومعناه: التثبت عند الغضب ؛ فإنه موضِع عجلة، ومزلّة قدم، والمرء يؤاخذ بما ينطق به فمه[4]. وعلق الشنقيطي قائلا: «وهو قول ظاهر السقوط»[5].

والراجح القول الأول الذي ذكره ابن كثير. قال الشنقيطي: «وهو الظاهر ؛ لأنه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهو قول الجمهور»[6].

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾

قال ابن كثير: «أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل اللَّه فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك»[7].

قال ابن جرير: «وقد قيل: إن ذلك مما أمر النبيّ ﷺ أن يقوله إذا نسي الاستثناء في كلامه، الذي هو عنده في أمر مستقبل مع قوله: إن شاء اللَّه إذا ذكر»[8].

مسألة: ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه استنبط من هذه الآية الكريمة أن الاستثناء يصح تأخيره عن المستثنى منه زمنا طويلًا، وذلك لما رواه البيهقي في السنن والحاكم في المستدرك وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي[9] ؛ قال: (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثني ولو إلى سنة، وإنما نزلت هذه الآية في هذا ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال: إذا نسي استثنى).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٩-١٥٠).
(٢) الأضواء (٣/ ٢٥٥).
(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٥١).
(٤) انظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٢٦).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٥٥).
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٤).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٠).
(٨) جامع البيان (١٥/ ٢٣٠).
(٩) سنن البيهقي الكبرى (١٠/ ٤٨). المستدرك (٤/ ٣٠٣).

قال الشنقيطي: «ووجه أخذه ذلك من الآية أن اللَّه تعالى نهى نبيه أن يقول: إنه سيفعل شيئًا في المستقبل إلا من الاستثناء بإن شاء اللَّه. ثم قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ أي: إن نسيت تستثني بإن شاء الله؛ فاستثن إذا تذكرت من غير تقييد باتصال ولا قرب.

قال: والتحقيق الذي لا شك فيه؛ أن الاستثناء لا يصح إلا مقترنًا بالمستثنى منه. وأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين»[(١)].

وقال أبو عبيد في التعليق على أثر ابن عباس كما في «الفتح»[(٢)]: «وهذا لا يؤخذ على ظاهره؛ لأنه يلزم منه أن لا يحنث أحد في يمينه، وأن لا تتصور الكفارة التي أوجبها اللَّه تعالى على الحالف».

وقال الشوكاني: «فالرواية عن ابن عباس قد صحت، ولكن الصواب خلاف ما قاله، ويدفعه ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: «**من حلف على شيء فرأى غيره خيرًا منه فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه**»[(٣)] ولو كان الاستثناء جائزا على التراخي لم يوجب التكفير على التعيين، ولقال: فليستثن أو يكفر. وأيضًا هو قول يستلزم بطلان جميع الإقرارات والإنشاءات؛ لأن من وقع ذلك منه يمكن أن يقول من بعد: قد استثنيت؛ فيبطل حكم ما وقع منه، وهو خلاف الإجماع. وأيضًا يستلزم أنه لا يصح صدق ولا كذب؛ لجواز أن يرِد على ذلك الاستثناء فيصرفه عن ظاهره، وقد احتج لما قاله ابن عباس بما أخرجه أبو داود وغيره أنه ﷺ قال: «**لأغزون قريشًا**»[(٤)] ثم سكت. ثم قال: «**إن شاء الله**» وليس في هذا ما تقوم به الحجة؛ لأن ذلك السكوت يمكن أن يكون بعارض يعرض يمنع عن الكلام. وأيضًا غاية ما فيه أنه يجوز له أن يستثني في اليمين بعد سكوته وقتًا يسيرًا، ولا دليل على الزيادة على ذلك»[(٥)].

---

(١) الأضواء (٣/ ٢٥٥).   (٢) (١١/ ٧٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦١) ومسلم (٣/ ١٢٧٢/ ١٦٥٠[١٢]) والترمذي (٤/ ٩٠-٩١/ ١٥٣٠) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٢٦-١٢٧/ ٤٧٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن أبي موسى الأشعري وعبد الرحمن بن سمرة ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٩٠/ ٣٢٨٦) وصححه ابن حبان (١٠/ ١٨٥/ ٤٣٤٣) عن ابن عباس.

(٥) إرشاد الفحول (٢٥٣).

فإن قيل: فما الجواب الصحيح عن ابن عباس ﵄ فيما ثبت عنه من القول بصحة الاستثناء المتأخر؟ فالجواب: أن مراد ابن عباس ﵄ أنه «إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه إن شاء اللَّه، وذَكَر ولو بعد سنة، فالسُّنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسُنَّة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحِنْث، قاله ابن جرير ﵀، ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعًا لحنث اليمين ومسقطًا للكفارة»[1].

قال أبو عبيد كما نقله عنه الحافظ في «الفتح»[2]: «وجه الخبر سقوط الإثم عن الحالف لتركه الاستثناء؛ لأنه مأمور به في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال ابن عباس: إذا نسي أن يقول إن شاء اللَّه يستدركه، ولم يُرد أن الحالف إذا قال ذلك بعد أن انقضى كلامه أن ما عقده باليمين ينحلّ».

قلت: وبهذا جزم الطبري في تفسيره[3]، وابن القيم في «مدارج السالكين»[4] وقال ابن كثير: «وهو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه»[5].

فائدة: قال ابن العربي: «سمعت فتاة ببغداد تقول لجارتها: لو كان مذهب ابن عباس صحيحًا في الاستثناء ما قال اللَّه تعالى لأيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[6] بل يقول: استثن بإن شاء الله»[7].

قلت: ورأي ابن عباس على جلالة قدره ﵁ قد أخطأ فيه، فلا داعي للاشتغال به وتوجيهه، والأحكام دائما ينبغي أن تبقى على الأصل، فلا نميل عن ذلك إلا لدليل واضح، ولا دليل هنا، فالاستثناء في الأيمان يُرجَعُ فيه إلى الأصل واللغة والشرع والعرف، فكل هذه موارد يتمسك بها، وقولة ابن عباس لا ترجع إلى واحد من هذه الأصول، فلهذا لا ينبغي الاشتغال بها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٩).

(٢) (١١/ ٧٣٨).

(٣) (١٥/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٤) (٢/ ٤٣١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٩).

(٦) ص: الآية (٤٤).

(٧) نقلا عن الأضواء (٣/ ٢٥٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استحباب تعليق الفعل بالمشيئة

* عن أبي هريرة ﷺ أن نبي اللَّه سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان له ستون امرأة، فقال: لأطوفن الليلة على نسائي، فلتحمِلنّ كل امرأة، ولتلِدنّ فارسًا يقاتل في سبيل اللَّه، فطاف على نسائه، فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شِقّ غلام، قال نبي اللَّه ﷺ: **«لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن، فولدت فارسًا يقاتل في سبيل الله»**(١).

★ غريب الحديث:

لأطوفن: كناية عن الجماع، واللام جواب القسم وهو محذوف؛ أي: واللَّه لأطوفن.

استثنى: أي قال إن شاء اللَّه تعالى.

★ فوائد الحديث:

قال ابن الجوزي: «المراد بالاستثناء قول: (إن شاء الله)، وتعليق الأمر بالمشيئة تسليم للقدر، وإنما ترك سليمان الاستثناء نسيانًا، فلم يسامح بتركه وهو نبي كريم، حتى أثّر الترك فقْدَ الغرض، ونفع قول: إن شاء اللَّه قومًا كافرين؛ فإنه في حديث أبي هريرة: **«إن ياجوج وماجوج يحفرون السدّ كل يوم ويقولون: غدًا نتمّه، فيجيئون وقد عاد كما كان، فإذا أذن في خروجهم قال قائلهم: إن شاء اللَّه، فيجيئون وهو على حاله فيفتحونه»**(٢) فبان لهذا مرتبة المشيئة، وأدّب نبينا ﷺ فيما يتعلق بها، فقيل له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أن تقول: (إن شاء الله) فكان يقولها في المتيقّن كما يقولها في المظنون، فإذا مرّ على القبور قال: **«وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون»**(٣)»(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٩)، البخاري (١٣/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٧٤٦٩)، مسلم (٣/ ١٢٧٥/ ١٦٥٤)، والنسائي (٧/ ٣٢/ ٣٨٤٠).

(٢) سيأتي تخريجه في ذكر قصة يأجوج ومأجوج.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١) والبخاري (١/ ٣١٣/ ٦٣١)، ومسلم (١/ ٨١٢/ ٩٤٢)، وأبو داود (٣/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٣٢٣٧)، والنسائي (١/ ١٠١-١٠٢/ ١٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٩-١٤٤٠/ ٤٣٠٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) كشف المشكل (٣/ ٤٤٥-٤٤٦).

قال القاري: «والحديث يدل على أن من أراد أن يعمل عملًا يستحبّ أن يقول عقب قوله: إني أعمل كذا: إن شاء اللَّه، تبركًا وتيمنًا وتسهيلا لذلك العمل، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾»[1].

قال العيني: «فيه أن من قال: (إن شاء الله) وتبرّأ من مشيئته ولم يعط الحظ لنفسه في أعماله؛ فهو حريّ أن يبلغ أمله، ويعطى أمنيته، وليس كل من قال قولًا ولم يستثن فيه المشيئة بواجب ألا يبلغ أمله، بل منهم من شاء اللَّه بإتمام أمله، ومنهم من يشاء ألا يتمّه بما سبق في علمه، لكن هذه التي أخبر عنها سيدنا رسول اللَّه ﷺ أنها مما لو استثنى لتمّ أمله، فدل هذا على أن الأقدار في علم اللَّه ﷻ على ضروب، فقد يقدَّر للإنسان الرزق والولد والمنزلة إن فعل كذا، أو قال أو دعا، فإن لم يفعل ولا قال لم يُقدر ذلك الشيء، وأصل هذا في قصة يونس -عليه الصلاة والسلام-، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] فبان بهذا أن تسبيحه كان سبب خروجه من بطن الحوت، ولو لم يسبّح ما خرج منه»[3].

قال القاضي: «فيه أن الاستثناء لا يكون إلا متصلًا، إذ لو جاز منفصلًا على ما روي عن بعض السلف لم يحنث أحد في اليمين، ولا احتاج إلى كفارة»[4].

قال الحافظ: «فيه أن إتباع المشيئة باليمين يرفع حكمها»[5].

قال العيني: «قال ابن التين: ليس الاستثناء في قصة سليمان عليه السلام الذي يرفع حكم اليمين ويحلّ عَقده، وإنما هو بمعنى الإقرار لله بالمشيئة والتسليم لحكمه، فهو نحو قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وإنما يرفع حكم اليمين إذا نوى به الاستثناء في اليمين»[6].

* * *

(١) المرقاة (٩/ ٧٠٩).

(٢) الصافات: الآيتان (١٤٣و١٤٤).

(٣) عمدة القاري (١٠/ ١٢٩).

(٤) الإكمال (٥/ ٤١٦).

(٥) الفتح (٦/ ٥٧١).

(٦) العمدة (١٥/ ٧٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا خبر من اللَّه تعالى لرسول اللَّه ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم اللَّه إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإنّ تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من اللَّه ﷻ فلا تتقدم فيه بشيء، بل قُل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه اللَّه عليه من خَلْقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ هذا قول أهل الكتاب، وقد رده اللَّه تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ قال: وفي قراءة عبداللَّه: (وقالوا: ولبثوا)، يعني أنه قاله الناس. وهكذا قال، كما قال قتادة ومُطرف بن عبداللَّه.

وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر؛ فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان اللَّه قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار اللَّه، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ. ورواية قتادة قراءةَ ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة

الجمهور فلا يحتج بها. والله أعلم»[١].

وقد تقدم أن هذه الآية بيان لمجمل قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو المختص بعلم الغيب في السموات والأرض. وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[٥] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٦] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[١٠]. وبين في مواضع أخر: أنه يطلع من شاء من خلقه على ما شاء من وحيه؛ كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[١١] الآية. وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[١٢]. إلى غير ذلك من الآيات»[١٣].

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ قال ابن جرير: «يقول أبصر بالله وأسمع،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٠-١٥١).
(٢) الكهف: الآية (١١).
(٣) النمل: الآية (٦٥).
(٤) الرعد: الآية (٩).
(٥) آل عمران: الآية (١٧٩).
(٦) هود: الآية (١٢٣).
(٧) الأنعام: الآية (٥٩).
(٨) يونس: الآية (٦١).
(٩) سبأ: الآية (٣).
(١٠) آل عمران: الآية (٥).
(١١) الجن: الآيتان (٢٦و٢٧).
(١٢) آل عمران: الآية (١٧٩).
(١٣) الأضواء (٣/ ٢٥٧).

وذلك بمعنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه. وتأويل الكلام: ما أبصر اللَّه لكلّ موجود، وأسمعه لكلّ مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء»[١].

وقال الزمخشري: «وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصَرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجمًا، وأكثفها جرمًا، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر»[٢].

وقال الشنقيطي: «وما ذكره في هذه الآية الكريمة من اتصافه -جل وعلا- بالسمع والبصر ذكره أيضًا في مواضع أخر كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣] وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[٥]»[٦].

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾

قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه ما لخلقه دون ربهم الذي خلقهم وليّ، يلي أمرهم وتدبيرهم، وصرفهم فيما هم فيه مصروفون»[٧].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الكهف ليس لهم ولي من دونه -جل وعلا-، بل هو وليهم -جل وعلا-. وهذا المعنى مذكور في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٩] فبيّن أنه ولي المؤمنين، وأن المؤمنين أولياؤه. والولي: هو من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به، فالإيمان سبب يوالي به المؤمنين ربُّهم بالطاعة، ويواليهم به الثواب والنصر والإعانة»[١٠].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٢).
(٢) الكشاف (٢/ ٤٨١).
(٣) الشورى: الآية (١١).
(٤) المجادلة: الآية (١).
(٥) الحج: الآية (٧٥).
(٦) الأضواء (٣/ ٢٥٧).
(٧) جامع البيان (١٥/ ٢٣٢-٢٣٣).
(٨) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٩) يونس: الآية (٦٢).
(١٠) الأضواء (٣/ ٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ قال ابن جرير: «يقول: ولا يجعل الله في قضائه وحكمه في خلقه أحدا سواه شريكًا، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحب»[(1)].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه على كلتا القراءتين؛ جاء مبينا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[(2)] وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[(3)] الآية وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[(4)] الآية. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[(5)] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(6)] وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(7)] وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(8)]. وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾[(9)] إلى غير ذلك من الآيات. ويفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله. وهذا المفهوم جاء مبينًا في آيات أخر. كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[(10)] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم. وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى، هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[(11)] وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[(12)] وقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٣).
(٢) يوسف: الآية (٤٠).
(٣) يوسف: الآية (٦٧).
(٤) الشورى: الآية (١٠).
(٥) غافر: الآية (١٢).
(٦) القصص: الآية (٨٨).
(٧) القصص: الآية (٧٠).
(٨) المائدة: الآية (٥٠).
(٩) الأنعام: الآية (١١٤).
(١٠) الأنعام: الآية (١٢١).
(١١) يس: الآيتان (٦٠و٦١).
(١٢) مريم: الآية (٤٤).

إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا﴾[١] أي: ما يعبدون إلا شيطانًا؛ أي: وذلك باتباع تشريعه. ولذا سمى اللَّه تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾[٢] الآية. وقد بين النَّبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه[٣] لما سأله عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤] الآية. فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم اللَّه، وحرموا عليهم ما أحل اللَّه، فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أربابًا. ومن أصرح الأدلة في هذا: أن اللَّه -جل وعلا- في سورة النساء بيّن أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه اللَّه يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٥]. وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه؛ مخالفة لما شرعه اللَّه -جل وعلا- على ألسنة رسله -صلى اللَّه عليهم وسلم-؛ أنه لا يَشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس اللَّه بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.

تنبيه: اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك.

وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري وشرعي. أما الإداري الذي يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع فهذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة فمن بعدهم، وقد عمل عمر رضي الله عنه من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النَّبي ﷺ؛ ككتبه أسماء الجند في ديوان لأجل الضبط، ومعرفة من غاب ومن

---

(١) النساء: الآية (١١٧). (٢) الأنعام: الآية (١٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٩-٢٦٠/ ٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في بحث له نفيس في الصحيحة (رقم: ٣٢٩٣).

(٤) التوبة: الآية (٣١).

(٥) النساء: الآية (٦٠).

حضر، كما قدمنا إيضاح المقصود منه في سورة بني إسرائيل في الكلام على العاقلة التي تحمل دية الخطأ، مع أن النَّبي ﷺ لم يفعل ذلك، ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك إلا بعد أن وصل تبوك ﷺ. وكاشترائه -أعني: عمر رضي الله عنه- دار صفوان بن أمية وجعله إياها سجنًا في مكة المكرمة، مع أنه ﷺ لم يتخذ سجنًا هو ولا أبو بكر. فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخالف الشرع لا بأس به؛ كتنظيم شؤون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع. فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض؛ فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض. كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث. وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك. فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفُس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم؛ كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها، ﷻ عن أن يكون معه مشرع آخر علوًّا كبيرًا ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2] ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[3]»[4].

قلت: ما ذكره الشيخ الإمام محمد الأمين رحمه الله في تقسيمه القوانين إلى قسمين: إداري وشرعي؛ هو بلا شك تقسيم سديد، فالإداري هو ما تنضبط به أمور الإدارة والتسيير، ولا يخالف شرع الله؛ فعلى المسلمين أن يستفيدوا من غيرهم ما

(١) الشورى: الآية (٢١).

(٢) يونس: الآية (٥٩).

(٣) النحل: الآية (١١٦).

(٤) الأضواء (٣/ ٢٥٨-٢٦٠).

يضبط أحوالهم وأمورهم في دنياهم، وما يرقيهم ويجعلهم في المستوى الحضاري الذي يسعد الإنسانية، وتستفيد من نتائجه ومخترعاته.

وأما ما يخالف الشرع من أحكام إدارية سواء كانت جنائية أو مالية أو اجتماعية أو غيرها؛ فلا شك في بطلانه وأنه لا يجوز العمل به والالتجاء إليه، فاللَّه تعالى أنزل كتابه، وأوضح فيه ما يحتاجه عبده، وأرسل رسوله، وبيّن دين اللَّه وشرعه، وما ترك من خير إلا دل أمته عليه، وما ترك من شر إلا حذرها منه. فالاستفادة من الغير فيما ينفع، مع الابتعاد عن موافقته فيما يضر أمر جائز، فغير المسلمين قد نسوا الشرائع وفارقوها، بل ذموها وحذروا منها، واتبعوا شهواتهم ولذاتهم ولو كان ذلك محرما وفيه ضرر محقق، كالخمور والمخدرات، واستباحة الأعراض، وأكل الربا ولحم الخنزير، وإقامة مواسم وأعياد ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وشعارات وألبسة كلها تخالف الفطرة والشرع والعقل، فأحوالهم الظاهرة في ذواتهم فاسدة، وبواطنهم شرك وكفر ونجاسة، فلهذا يستفاد منهم فيما ينفع، ويبتعد عنهم فيما يضر من دين ودنيا.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ملتحدًا: مَلْجأً، أصله من: التحد إليه: إذا مال إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركنّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمر اللَّه ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه، فتكون من الهالكين، وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم»(١).

قال الرازي: «وفي الآية مسألة؛ وهي أن قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتّباع أيضًا، فيكون المعنى: الزم قراءة الكتاب الذي أوحي إليك، والزم العمل به»(٢).

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى نبيه ﷺ بتلاوة القرآن العظيم واتباعه؛ جاء مبينًا في آيات أخر. كقوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٣) الآية. وكقوله تعالى في آخر سورة النمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾(٤) الآية. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر بتلاوته، وكقوله تعالى في الأمر باتباعه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٣).
(٢) التفسير الكبير (٢١/ ١١٥).
(٣) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٤) النمل: الآيتان (٩١و٩٢).
(٥) المزمل: الآية (٤).
(٦) الأنعام: الآية (١٠٦).

بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر باتباع هذا القرآن العظيم، وقد بين في مواضع أخر بعض النتائج التي تحصل بسبب تلاوة القرآن واتباعه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٥] والعبرة في هذه الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[٦].

قال السعدي: «وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه»[٧].

قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾

قال ابن جرير: «لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحينا إليك»[٨].

قال الزجاج: «أي: ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له»[٩].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه لا مبدل لكلماته؛ أي: لأن أخبارها صدق، وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذبًا، ولا أن يبدل عدلها جورًا؛ وهذا الذي ذكره هنا جاء مبينًا في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١٠]. فقوله: صدقًا يعني في الأخبار. وقوله: عدلًا أي: في الأحكام. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ

(١) الزخرف: الآية (٤٣).
(٢) الأحقاف: الآية (٩).
(٣) يونس: الآية (١٥).
(٤) فاطر: الآية (٢٩).
(٥) البقرة: الآية (١٢١).
(٦) الأضواء (٣/ ٢٦١).
(٧) التيسير (٥/ ٢٨).
(٨) جامع البيان (١٥/ ٢٣٣).
(٩) معاني القرآن (٣/ ٢٨٠).
(١٠) الأنعام: الآية (١١٥).

جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[١]. وقد بين تعالى في مواضع أخر أنه هو يبدل ما شاء من الآيات مكان ما شاء منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾[٢] الآية. وقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾[٤]»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾

قال ابن جرير: «يقول: وإن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتمّ به؛ فنالك وعيد اللَّه الذي أوعد فيه المخالفين حدوده، لن تجد من دون اللَّه موئلا تئل إليه ومعدلا تعدل عنه إليه؛ لأن قدرة اللَّه محيطة بك وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمر أراده به»[٦].

قال الرازي: «اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ، قال أهل اللغة: هو من لحد وألحد إذا مال، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾[٧] والمُلحِد المائل عن الدين، والمعنى: ولن تجد من دونه ملجأ في البيان والرشاد»[٨].

قال الشنقيطي: «وهذا الذي ذكره هنا من أن نبيه ﷺ لا يجد من دونه ملتحدًا؛ أي: مكانًا يميل إليه ويلجأ إليه إن لم يُبلغ رسالة ربه ويطعه؛ جاء مبينًا في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾[٩] وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[١٠]»[١١].

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (٣٤).
(٢) النحل: الآية (١٠١).
(٣) البقرة: الآية (١٠٦).
(٤) يونس: الآية (١٥).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٦٢).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٢٣٣).
(٧) النحل: الآية (١٠٣).
(٨) التفسير الكبير (٢١/ ١١٥).
(٩) الجن: الآيات (٢١-٢٣).
(١٠) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٧).
(١١) الأضواء (٣/ ٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فرُطا: الفُرُطُ: تجاوز الحد. من قولك: فَرَسٌ فُرُطٌ؛ أي: سابقٌ غيره من الخيل. وأمرٌ فرطٌ: أي مُضَيَّعٌ مُتَهَاوَنٌ به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿نَفْسَكَ مَعَ﴾ أصحابك ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفعلهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ لا يريدون عرضًا من عرض الدنيا»[١].

قال الرازي: «نظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾[٢] ففي تلك الآية نهي الرسول ﷺ عن طردهم، وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم»[٣].

قال أبو حيان: «والأمر بالصبر هنا يظهر منه كبير اعتناء بهؤلاء الذين أمر أن يصبر نفسه معهم. وهي أبلغ من التي في الأنعام ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾»[٤].

قال السعدي: «فيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء؛ فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٤).
(٢) الأنعام: الآية (٥٢).
(٣) التفسير الكبير (٢١/ ١١٦).
(٤) البحر (٦/ ١١٣).
(٥) التيسير (٥/ ٢٩).

قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ولا تصرف عيناك عن هؤلاء الذين أمرتك يا محمد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تجاوزهم إليه..

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: لا تعدُ عيناك عن هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم إلى أشراف المشركين، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر»[1].

قال الرازي: «والمقصود من الآية أنه تعالى نهى رسول اللّه ﷺ عن أن يزدري فقراء المؤمنين، وأن تنبوَ عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم»[2].

قال الشنقيطي: «وما نهى اللّه عنه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة من طموح العين إلى زينة الحياة الدنيا مع الاتصاف بما يرضيه -جل وعلا- من الثبات على الحق كمجالسة فقراء المؤمنين؛ أشار له أيضًا في مواضع أخر كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[4]»[5].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: ولا تطع يا محمد من شغلنا قلبه من الكفار الذين سألوك طرد الرهط الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ عنك عن ذكرنا، بالكفر وغلبة الشقاء عليه، واتبع هواه، وترك اتباع أمر اللّه ونهيه، وآثر هوى نفسه على طاعة ربه»[6].

قال الشنقيطي: «وقد كرر في القرآن نهي نبيه ﷺ عن اتباع مثل هذا الغافل عن ذكر اللّه، المتبع هواه كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[7]

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٤).
(٢) التفسير الكبير (٢١/ ١١٦).
(٣) طه: الآيتان (١٣٠و١٣١).
(٤) الحجر: الآيتان (٨٧و٨٨).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٦٣).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٢٣٥).
(٧) الإنسان: الآية (٢٤).

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾[١] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[٢]»[٣].

وقال: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ يدل على أن ما يَعرِض للعبد من غفلة ومعصية إنما هو بمشيئة اللَّه تعالى؛ إذ لا يقع شيء ألبتة كائنًا ما كان إلا بمشيئته الكونية القدرية -جل وعلا- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤] الآية. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[٦] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٧] ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٨] الآيـــة. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل شيء من خير وشر لا يقع إلا بمشيئة خالق السموات والأرض. فما يزعمه المعتزلة ويحاول الزمخشري في تفسيره دائمًا تأويل آيات القرآن على نحو ما يطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته، فأفعاله دون مشيئة الله؛ لا يخفى بطلانه كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفًا وأمثالها في القرآن كثيرة»[١٠].

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

يقول ابن جرير: «فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: وكان أمره ضياعًا.. وقال آخرون: بل معناه هلاكًا..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ضياعا وهلاكا، من قولهم: أفرط فلان في هذا الأمر إفراطا: إذا أسرف فيه وتجاوز قدره، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ معناه: وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا في الرياء والكبر، واحتقار أهل الإيمان سرفًا قد تجاوز حدّه، فَضَيَّع بذلك الحقّ وهلك»[١١].

قال السعدي: «فهذا قد نهى اللَّه عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به،

---

(١) الأحزاب: الآية (٤٨).
(٢) القلم: الآيات (٩-١٣).
(٣) الأضواء (٣/ ٢٦٤).
(٤) الإنسان: الآية (٣٠).
(٥) الأنعام: الآية (١٠٧).
(٦) السجدة: الآية (١٣).
(٧) الأنعام: الآية (٣٥).
(٨) البقرة: الآية (٧).
(٩) الأنعام: الآية (٢٥).
(١٠) المصدر السابق (٣/ ٢٦٤).
(١١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٧).

ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به. ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس؛ من امتلأ قلبه بمحبة اللَّه، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر اللَّه، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منّ اللَّه به عليه، فحقيق بذلك أن يتبع ويجعل إماما. والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة اللَّه، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن اللَّه مدحهم بفعله، وكل فعل مدح اللَّه فاعله دلّ ذلك على أن اللَّه يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغّب فيه»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن سعد بن أبي وقاص قال: (كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما. فوقع في نفس رسول اللَّه ﷺ ما شاء اللَّه أن يقع، فحدث نفسه. فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[2])[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الشوكاني: «قد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ عن سعد..» ثم ساق الحديث[4].

قال القرطبي: «قول المشركين للنبي ﷺ **«اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا»** كان هؤلاء المشركون أشراف قومهم، وقيل: كان منهم: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، أنفوا من مجالسة ضعفاء أصحاب النبي ﷺ كصهيب، وسلمان،

---

(١) التيسير (٥/ ٣٠).
(٢) الأنعام: الآية (٥٢).
(٣) أخرجه: مسلم (٤/ ١٨٧٨/ ٢٤١٣[٤٦])، النسائي في الكبرى (٥/ ٦٦/ ٨٢٣٧)، ابن ماجه (٢/ ١٣٨٣/ ٤١٢٨).
(٤) فتح القدير (٣/ ٤٠٢).

وعمار، وبلال، وسالم، ومهجع، وسعد هذا، وابن مسعود، وغيرهم ممن كان على مثل حالهم استصغارا لهم، وكبرا عليهم، واستقذارا لهم؛ فإنهم قالوا: يؤذوننا بريحهم، وفي بعض كتب التفسير أنهم لما عرضوا ذلك على النبي ﷺ أبى، فقالوا له: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك، فهمّ النبي ﷺ بذلك، ودعا عليا ليكتب، فقام الفقراء، وجلسوا ناحية، فأنزل اللَّه تعالى الآية.

قلت: ولهذا أشار سعد بقوله: فوقع في نفس رسول اللَّه ﷺ ما شاء اللَّه أن يقع. وكان النبي ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعا في إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئًا، ولا ينقص لهم قدرا، فمال إليه، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، فنهاه عما هم به من الطرد، لا أنه أوقع الطرد، ووصف أولئك بأحسن أوصافهم، وأمره أن يصبر نفسه معهم بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ فكان رسول اللَّه ﷺ إذا رآهم بعد ذلك يقول: «**مرحبًا بقوم عاتبني اللَّه فيهم**» وإذا جالسهم لم يقم عنهم حتى يكونوا هم الذين يبدؤون حوله القيام»[١].

قال ابن هبيرة: «فيه من الفقه النهي عن طرد كل طالب للعلم، ولا يسوغ طردهم.

وفيه أيضًا ما يدل على كرامة هؤلاء النفر الستة، ومن لم يذكر اسمهم في هذا الحديث فقد ذكر في حديث آخر وهم: سعد، وابن مسعود، وبلال، وصهيب، وعمّار، والمقداد؛ فإن الآية الكريمة قد شهدت لهم: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وفي هذا دليل على أنهم كانوا من أهل محبة اللَّه ﷻ، لقصدهم وجهه سبحانه، وذلك أن أطيب الزمان وألذه هو الغدوات والعشيات، فإذا طاب لهم زمانهم تمنّوا أن يقطعوه بذكر ربهم سبحانه»[٢].

قلت: هذه الآية من أكبر الأدلة على معجزة الرسول ﷺ، وعلى صلاحية هذا الدين إلى يوم القيامة، وأنه دين العدل والإنصاف والهداية، فمن تحققت فيه الهداية وتنفيذ أمر اللَّه ونهيه، وتصديق خبره؛ كان هو العبد الصالح، وإلا فلا، فالإسلام

---

(١) المفهم (٦/ ٢٨٤-٢٨٥).
(٢) الإفصاح (١/ ٣٦٥).

لا يراعي المال والرئاسات، وإنما يراعي الانقياد والاستسلام للَّه ﷻ، فقد ذكر فرعون وهو من أكبر ملوك زمانه وكيف كانت عاقبته، وذكر قارون وهو من أكبر أغنياء زمانه وما آل إليه أمره، وذكر اقتراح كفار قريش في إنزال النبوة على أعظم رجل منهم ورد اقتراحهم، فالعبرة بالاستقامة ممن كانت: من غني أو فقير أو ملك أو مملوك، فهي التي يجب أن تراعى في الفرد والجماعة، فتأديب اللَّه تعالى لنبيه في هذه الآية تأديب لغيره من باب الأولى، فهو ﷺ أهل لكل عدل، وأهل لكل نزاهة عن الوقوع في أي محظور، فدعوة الفقراء والمساكين دعوة مباركة نافعة، وهم أكثر الناس قبولًا وانقيادًا، ولهذا جعلها هرقل من علامات النبوة، فمن شغل نفسه بالميل إلى الأغنياء وأرباب المناصب والرئاسات، وترك الفقراء والمساكين؛ فلا شك أنه من الظالمين، ودعوته لا يراد بها وجه الله؛ بل هي دعوة للذات والمصالح والنزوات، فنرجو اللَّه ﷻ أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يجعلنا من المحسنين والمتقين، وأن لا يجعلنا مع الظالمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سرادق: السرادق: كل ما أحاط بشيء، نحو: الفسطاط والخباء. وقد يقال للحائط المشتمل على الشيء: سُرَادِق. قال رؤبة:

يَا حَكَمَ بْنَ المُنْذِرِ بْنِ الجَارُودْ   سُرَادِقُ المَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودْ

المهل: كل ما أذيب من المعادن كالنحاس والرصاص. وقيل: خثارة الزيت.

مرتفقا: المرتفق ما يتكأ عليه. ويقال: ارْتَفَقَ: إذا اتّكأ على مرفقه. قال أبو ذؤيب:

بات الخلي وبت الليل مرتفقا   كأن عيني فيها الصاب مذبوح

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ وقل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم: الحقّ أيها الناس من عند ربكم، وإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء منكم للرشاد فيؤمن، ويضلّ من يشاء عن الهدى فيكفر، ليس إلي من ذلك شيء، ولست بطارد لهواكم من كان للحقّ متبعًا، وبالله وبما أنزل علي مؤمنا، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، فإنكم إن كفرتم فقد أعد لكم ربكم على كفركم به نارًا أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم به وعملتم بطاعته؛ فإن لكم ما وصف الله لأهل طاعته»(١).

وقال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي التخيير بين

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٣٧).

الكفر والإيمان، ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية. والدليل من القرآن العظيم على أن المراد في الآية التهديد والتخويف؛ أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ هذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف. إذ لو كان التخيير على بابه لما توعد فاعل أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم، وهذا واضح كما ترى»[(١)].

وهذه الآية -يقول الرازي-: «تدل على أنه تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين، ولا يستضر بكفر الكافرين، بل نفع الإيمان يعود عليهم، وضرر الكفر يعود عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾[(٢)]»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾

قال الشنقيطي: «المراد بالظالمين هنا الكفار، بدليل قوله قبله: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾، وقد قدمنا كثرة إطلاق الظلم على الكفر في القرآن؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٥)] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٦)] ونحو ذلك من الآيات»[(٧)].

قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾

قال ابن جرير: «يقول أحاط سرادق النار التي أعدّها اللّه للكافرين بربهم، وذلك فيما قيل: حائط من نار يطيف بهم كسرادق الفسطاط، وهي الحجرة التي تطيف بالفسطاط»[(٨)].

قال الزجاج: «أي: صار عليهم سرادق من العذاب والسرادق كل ما أحاط

---

(١) الأضواء (٣/ ٢٦٦).
(٢) الإسراء: الآية (٧).
(٣) التفسير الكبير (٢١/ ١٢١).
(٤) لقمان: الآية (١٣).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٦) يونس: الآية (١٠٦).
(٧) الأضواء (٣/ ٢٦٧).
(٨) جامع البيان (١٥/ ٢٣٨).

بشيء نحو الشقة في المضرب والحائط المشتمل على الشيء»(١).

قال الشنقيطي: «فمعنى الآية الكريمة أن النار محيطة بهم من كل جانب كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾(٢) وقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾(٣) وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٤) إلى غير ذلك من الآيات»(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة في النار من شدّة ما بهم من العطش، فيطلبونَ الماء يُغاثوا بماء المُهْل.

واختلف أهل التأويل في المهل، فقال بعضهم: هو كلّ شيء أذيب وانماع.. وقال آخرون: هو القيح والدم الأسود.. وقال آخرون: هو الشيء الذي قد انتهى حره..

وهذه الأقوال وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها فمتقاربات المعنى، وذلك أن كل ما أذيب من رصاص أو ذهب أو فضة فقد انتهى حرّه، وأن ما أوقدت عليه من ذلك النار حتى صار كدردي الزيت، فقد انتهى أيضًا حره»(٦).

قال الشنقيطي: «فإن قيل: أي إغاثة في ماء كالمهل، مع أنه من أشد العذاب وكيف قال اللَّه تعالى: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾؟ فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، ونظيره من كلام العرب.. قول عمرو بن معديكرب:

وخيل قد دَلَفْتُ لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

يعني لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع. وإذا كانوا لا يغاثون إلا بماء كالمهل؛ علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم ألبتة»(٧).

قوله تعالى: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول جل ثناؤه يشوي ذلك الماء الذي يغاثون به وجوههم»(٨).

---

(١) معاني القرآن (٣/ ٢٨٢).
(٢) الأعراف: الآية (٤١).
(٣) الزمر: الآية (١٦).
(٤) الأنبياء: الآية (٣٩).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٦٩).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٧) الأضواء (٣/ ٢٦٩).
(٨) جامع البيان (١٥/ ٢٤٠).

وقال الزجاج: «أي إذا قدم ليشرب أشوى الوجه من حرارته»[١].

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ **قال ابن جرير**: «بئس الشراب هذا الماء الذي يغاث به هؤلاء الظالمون في جهنم الذي صفته ما وصف في هذه الآية»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا الذي ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من صفات هذا الشراب الذي يسقى به أهل النار؛ جاء نحوه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[٦] والحميم الآني: الماء المتناهي في الحرارة. وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[٧] الآية. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾[٩]. وقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[١٠] الآية. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾[١١] إلى غير ذلك من الآيات»[١٢].

قوله تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-، وساءت هذه النار التي أعتدناها لهؤلاء الظالمين مرتفقًا»[١٣].

وللعلماء في المراد بالمرتفق في الآية أقوال متقاربة في المعنى.

قال القرطبي: «﴿مُرْتَفَقًا﴾، قال مجاهد معناه: مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة. ابن عباس: منزلا. عطاء: مقرا. وقيل مِهادا. وقال القتبي: مجلسا. والمعنى متقارب»[١٤].

---

(١) معاني القرآن (٣/ ٢٨٢).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٤١).
(٣) الأنعام: الآية (٧٠).
(٤) محمد: الآية (١٥).
(٥) الغاشية: الآية (٥).
(٦) الرحمن: الآية (٤٤).
(٧) إبراهيم: الآيتان (١٦و١٧).
(٨) الصافات: الآية (٦٧).
(٩) الواقعة: الآيتان (٥٤و٥٥).
(١٠) النبأ: الآيتان (٢٤و٢٥).
(١١) ص: الآيتان (٥٧و٥٨).
(١٢) الأضواء (٣/ ٢٧٠-٢٧١).
(١٣) جامع البيان (١٥/ ٢٤١).
(١٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٥٧).

قال الشنقيطي: «وحاصل معنى الأقوال: أن النار بئس المستقر هي، وبئس المقام هي، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1]»[2].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٦٦).

(٢) الأضواء (٣/ ٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

عدن: إقامة وثبوت، يقال: عَدَنَ بمكان كذا: أي أقام فيه.

أساور: واحدها: سوار، وهو ما تجعله المرأة في معصمها.

سندس: السندس: ما رَقَّ من الحرير. واحده: سُنْدُسَة.

إستبرق: الإستبرق: ما غلظ من الحرير، وهو الديباج. قال المرقش:

تراهن يلبسن المشاعر مرة ... وإستبرق الديباج طورًا لباسها

الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير. قال الشاعر:

حدود جفت في السير حتى كأنما ... يباشرن بالمعْزاء مس الأرائك

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «لما ذكر ما أعد للكافرين من الهوان؛ ذكر أيضًا ما للمؤمنين من الثواب»(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين صدقوا اللَّه ورسوله وعملوا بطاعة اللَّه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، إنا لا نضيع ثواب من أحسن عملا فأطاع اللَّه، واتبع أمره ونهيه، بل نجازيه بطاعته وعمله الحسن جنات عدن تجري من تحتها الأنهار»(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٥٧).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٤٢).

قال الشنقيطي: «بيّن هذا المعنى في آيات كثيرة جدًّا؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[3]»[4].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قال السعدي: «أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح؛ لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنّت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة؛ فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأيّ مرتفق أحسن من دار أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل اللَّه الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان»[5].

قال الشنقيطي: «وهذا الذي بينه هنا من صفات جزاء المحسنين الذين آمنوا وعملو الصالحات؛ جاء مبينًا في مواضع كثيرة جدًّا من كتاب اللَّه تعالى؛ كقوله

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٥).
(٢) آل عمران: الآية (١٧١).
(٣) الرحمن: الآية (٦٠).
(٤) الأضواء (٣/ ٢٧١).
(٥) التيسير (٥/ ٣٣-٣٤).

تعالى في سورة الإنسان ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[١] إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[٢] وكقوله في سورة الواقعة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٣] إلى قوله: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[٤] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن»[٥].

قال الألوسي: «وقدمت التحلية على اللباس؛ لأن الحلي في النفس أعظم، وإلى القلب أحب، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى، وبنى فعلَه للمفعول إشعارًا بأنهم لا يتعاطون ذلك بأنفسهم وإنما يفعله الخدم»[٦].

قال السعدي: «ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الحلية عامة للذكور والإناث كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ثياب أهل الجنة وحليهم وأن الحلية تبلغ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»[٨].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الملقن: «المراد بالحلية في هذا حلية أهل الجنة، وقد روى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**تبلغ حلية أهل الجنة مبلغ الوضوء**»[٩] فقوله: تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء؛ يحتمل أن يكون المراد به مثل هذا الحديث، فيُحلّى في الجنة في مواضع الوضوء تحلية تبلغ حيث بلغ الماء فيها»[١٠].

(١) الإنسان: الآية (٥).
(٢) الإنسان: الآية (٢٢).
(٣) الواقعة: الآيات (١٠-١٢).
(٤) الواقعة: الآية (٣٨).
(٥) الأضواء (٣/ ٢٧٢).
(٦) روح المعاني (١٥/ ٢٧٢).
(٧) التيسير (٥/ ٣٤).
(٨) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧١)، مسلم (١/ ٢١٩/ ٢٥٠)، النسائي (١/ ١٠٠-١٠١/ ١٤٩).
(٩) الإحسان (٣/ ٣٢٠/ ١٠٤٥).
(١٠) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١/ ٤١٥).

وقال الأبي: «قال أبو عبيد: المراد بالحلية هنا التحجيل من أثر الوضوء. وقال غيره: الأولى أنه من قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[1] ورُدّ بأنه لا ربط بين الحلية والتحلي؛ فإن الحلية السّيماء، والتحلي التزيين إلا أن في «النهاية»: حَلَّيتُه ألبسته الحلية»[2].

* عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير، ويقول: «**إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا**»[3].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «والمراد حليُّ الذهب والفضة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا فإن من لبسهما من الرجال وأمثالهم الخناثى في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة كما في خبر آخر ويحرم على الرجل والخنثى استعمال حلي النقدين والحرير لغير ضرورة أو حاجة»[4].

* عن أبي رافع ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من كفّن ميتًا، كساه اللَّه من سندس وإستبرق الجنة**»[5].

★ فوائد الحديث:

قال الألوسي: «في الجمع بين السندس والإستبرق إشعارٌ ما بأنّ لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون، ونُكّرا لتعظيم شأنهما، وكيف لا وهما وراء ما يشاهد من سندس الدنيا وإستبرقها، بل وما يُتخيل من ذلك»[6].

---

(١) الإنسان: الآية (٢١). (٢) إكمال إكمال المعلم (٢/ ٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٥)، النسائي (٨/ ٥٣٥/ ٥١٥١)، الحاكم (٤/ ١٩١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «لم يخرجاه لأبي عشانة».

(٤) فيض القدير (٣/ ٣٥-٣٦).

(٥) أخرجه: البيهقي (٣/ ٣٩٥)، الطبراني (١/ ٣١٥/ ٩٢٩)، الحاكم (١/ ٣٥٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢١) وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح». ويشهد له حديث أبي أمامة: أخرجه: الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨١/ ٨٠٧٧-٨٠٧٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢١) وقال: «رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو عبداللَّه الشامي روى عن أبي خالد ولم أجد من ترجمه»، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة وحسن إسناده.

(٦) روح المعاني (١٥/ ٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

حففناهما: أَطَفْنَاهُمَا. وحف القومُ بالشيء: إذا طافوا به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾[٢]»[٣].

قال ابن عطية: «وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع، وكان موجودًا، وعلى ذلك فسره أكثر أهل هذا التأويل، ويحتمل أن يكون مضروبًا بمن هذه صفته وإن لم يقع ذلك في وجود قط. والأول أظهر»[٤].

قال ابن عاشور: «والأظهر من سياق الكلام، وصنع التراكيب مثل قوله: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الخ. فقد جاء ﴿قَالَ﴾ غير مقترن بفاء، وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة، ومثل قوله: ﴿كَانَ مُنتَصِرًا﴾؛ أن يكون هذا المثل قصة معلومة؛ ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة، مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية»[٥].

قال السعدي: «ليس معرفة أعيان الرجلين وفي أيّ زمان أو مكان هما فيه فائدةٌ أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف»[٦].

---

(١) الآيات (٣٢-٣٤).
(٢) الكهف: الآية (٢٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٥٩).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٥١٥).
(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٧).
(٦) التيسير (٥/ ٣٥).

قال ابن كثير: «يقول تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلا برجلين، جعل اللّه ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بُستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: خرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار تَتَخرّق فيهما ههنا وههنا.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به المال. رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: (وكان له ثُمْر)[١] بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشْب، وقرأ آخرون: ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم.»[٢].

قال ابن عطية: «وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله؛ فإن المرء لا يكاد يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس: جنتا عنب أحاط بهما نخل، بينهما فسحة، هي مزدرع لجميع الحبوب، والماء الغَيْل[٣]، يُسقى جميع ذلك من النهر الذي قد جمل هذا المنظر، وعظم النفع، وقرب الكدّ، وأغنى عن النواضح وغيرها»[٤].

وقال الزمخشري: «جعلناها أرضا جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بماء وهو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب، فجعله أفضل ما يسقى به، وهو السيح بالنهر الجاري فيها»[٥].

قال السعدي: «فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما (الجنتين)، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته»[٦].

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو البصري.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٧).
(٣) هو الجاري على وجه الأرض. (القاموس المحيط).
(٤) المحرر (٣/ ٥١٦).
(٥) الكشاف (٢/ ٤٨٣).
(٦) التيسير (٥/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ۝٣٦﴾

★ **غريب الآية:**

يحاوره: المحاورة: مراجعة الكلام في المخاطبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَقَالَ﴾ أي: صاحب هاتين الجنتين ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا. قال قتادة: تلك -والله- أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر»[(١)].

قال ابن عطية: «وفي هذا الكلام من الكبر والزَّهْو والاغترار ما بيانه يغني عن القول فيه، وهذه المقالة بإزاء قول عيينة والأقرع للنبي ﷺ: (نحن سادات العرب وأهل الوبر والمدر، فنحِّ عنا سلمان وقرناءه)»[(٢)].

وقال عبد الكريم الخطيب: « ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ هذا موقف من مواقف الفتنة، يلقي بها هذا الكافر بين عيني المؤمن. إنه أكثر من صاحبه المؤمن مالًا وأعزُّ نفرًا! ولا سبب لهذا إلا لأنه كافر وصاحبه مؤمن، ذلك هو منطق من أعمى الله أبصارهم وختم على قلوبهم، يقول لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ ولو كنتَ على ما أدين به لكنتَ مثلي، ولكان لك ما لي من مال، وبنين، وجاه وقوة»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٧).

(٢) المحرر (٣/ ٥١٦).

(٣) التفسير القرآني (٨/ ٦١٧).

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف؛ وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة وَمَرَدٌّ إلى الله؛ ليكونَنّ لي هناك أحسن من هذا لأني مُحظى عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[(١)]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(٢)] أي: في الدار الآخرة، تألّى على الله ﷻ»[(٣)].

وقال السعدي: «فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو عن أحد أمرين؛ إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء؛ فيكون زيادة كفر إلى كفره. وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظا من العقل، فأيّ تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسّعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى؛ يدل على تمرده وعناده»[(٤)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وهكذا يذهب الضلال بأهله إلى تلك المذاهب الممعنة في السفه والجهالة، فيرون حقائق الأمور مقلوبة على وجوهها، وهم في

---

(١) فصلت: الآية (٥٠).
(٢) مريم: الآية (٧٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٧-١٥٨).
(٤) التيسير (٥/ ٣٧-٣٨).

هذا الوضع المنكوس الذي أقاموا فيه رؤوسهم مقام أرجلهم، وفي هذا يقول اللّه تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[2]»[3].

* * *

(١) فاطر: الآية (٨).

(٢) فصلت: الآيتان (٤٩و٥٠).

(٣) التفسير القرآني (٨/ ٦١٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1] أي: كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء؛ ولذا قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «فهذا هو محصل ما وقع في نفس المؤمن من هذا الحديث الطويل، الذي تحدث به الكافر، صاحب الجنتين، المدَلّ بجاهه وثرائه، إنه لم يستطع بحديثه هذا، وبما استعرض على الطبيعة من خيرات جنتيه، وما يؤمله في الآخرة من جنات خير منهما؛ لم يستطع أن يغير من موقف صاحبه، أو يؤثر في إيمانه شيئًا، فيلقاه صاحبه بما اعتاد أن يلقاه به، من إنكار عليه لهذا الضلال الذي هو غارق فيه، ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

---

(١) البقرة: الآية (٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٨).

وفي توجيه الخطاب إليه بصيغة الماضي، هكذا: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ بدلا من صيغة الحاضر: أتكفر، إشارة إلى أن هذا المنكر الذي هو فيه، ليس أمرًا مستحدثًا عنده، بل هو داء قديم، سكن في كيانه، واستقرّ بين مَسرى الدم من عروقه لا يغيره شيء. ولو كان ذلك مما يمكن أن يتغير لكان له في هذا الموقف الذي وقف من جنتيه، ورأى فيهما ما رأى من آيات اللّه وآلائه ما يخفق له قلبه، وترِقّ به مشاعره.

وفي هذه الصورة التي رسمها المؤمن لصاحبه، وأراه فيها وجوده كله منذ كان ترابًا، ثم كان نطفة، ثم كان علقة، فجنينًا، فوليدًا، فطفلًا، فرجلًا مكتمل الرجولة كما هو الآن، يختال تيها وعجبا في هذه الصورة ينظر المؤمن إلى صاحبه، فيكره أن يكون على سمت هذه الصورة التي شوهها الكفر، ومسخها الضلال، وفي سرعة خاطفة ينتزع نفسه من جنب صاحبه، ويعزل شخصه عنه، ثم وبسرعة خاطفة أيضًا يرسم لنفسه صورة ارتضاها، واطمأن إليها، فيقول: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ فها هو ذا أنا، أنا هو الذي تراه أيها الصاحب والذي عرفت موقفه من قبل ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ أما أنت فكما رأيتَ وعلمتَ»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني (٨/ ٦٢٠-٦٢١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «والمقصود أنه قال المؤمن للكافر: هلاّ قلت عند دخول جنتك: الأمرُ ما شاء اللَّه والكائنُ ما قدره الله؛ اعترافًا بأنها وكلّ خير فيها بمشيئة اللَّه وفضله، فإن أمرها بيده إن شاء تركها وإن شاء خربها، وهلا قلت: لا قوة إلا بالله؛ إقرارًا بأن ما قويتَ به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة اللَّه وتأييده، لا يقوى أحد في بدنه ولا في مِلك يده إلا بالله»[١].

قال ابن كثير: «هذا تحضيض منه وحث على ذلك؛ أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت اللَّه على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة»[٢].

قال الشنقيطي: «فإن قيل: ما وجه إفراد الجنة مع أنهما جنتان؟ فالجواب أنه قال ما ذكره اللَّه عنه حين دخل إحداهما، إذ لا يمكن دخوله فيهما معًا في وقت واحد»[٣].

«وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف أنه وحّد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون»[٤].

وقال عبدالكريم الخطيب: «وفي هذا العرض يكشف المؤمن لصاحبه الموقف

---

(١) التفسير الكبير (٢١/ ١٢٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٨).
(٣) الأضواء (٣/ ٢٧٤).
(٤) فتح البيان (٨/ ٥١).

الذي كان جديرًا به أن يقفه، حين دخل جنتيه، ورأى فيهما ما رأى من بديع صنع اللَّه، وروعة قدرته، فيقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا ما شاءه اللَّه وقدره لي، ولو شاء غير هذا لكان، فسبحانه له الحمد والشكران، وليس لي من هذا الذي بين يدي شيء، فأنا العاجز الضعيف، الذي لا يملك من أمره شيئًا، ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فما لم يكن للإنسان عون من اللَّه فهو الضائع المخذول»[(١)].

وفيها «أن من جملة الأوقات التي يستحب فيها ذكر اللَّه إذا دخل أحدنا منزله أو مسجده، وهي: المسألة الثانية: أن يقول كما قال الله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: منزلك قلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. قال أشهب: قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أنه ينبغي للعبد أن يتبرّأ من الحول والقوة في جميع أموره، وأن يجعل الحول والقوة لله ﷻ وحده

* عن أبي موسى ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبّرنا؛ فقال النبي ﷺ: **«أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، ولكن تدعون سميعا بصيرا. ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا باللَّه. فقال: «يا عبداللَّه بن قيس! قل: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها كنز من كنوز الجنة؟»** أو قال: **«ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»**[(٣)].

* عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟»** قلت: بلى. قال: **«لا حول ولا قوة إلا بالله»**. قال: أحسبه قال: **«يقول اللَّه ﷻ: أسلم عبدي واستسلم»**[(٤)].

---

(١) التفسير القرآني (٨/ ٦٢١-٦٢٢).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٣٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٢)، البخاري (١١/ ٢٢٤/ ٦٣٨٤)، مسلم (٤/ ٢٠٧٦/ ٢٧٠٤)، أبو داود (٢/ ١٨٢/ ١٥٢٦)، الترمذي (٥/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٣٤٦١) النسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٧٦٨٠-٧٦٨١)، ابن ماجه (٢/ ١٢٥٦/ ٣٨٢٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٢٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٧/ ٩٨٤١) والحاكم (١/ ٢١) وقال: حديث صحيح ولا يحفظ له علة. وقال الحافظ في الفتح: (١١/ ٦١٢) إسناده قوي.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم اللَّه، توكلت على اللَّه، لا حول ولا قوة إلا باللَّه. قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت ووقيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟!**»[(١)].

★ فوائد الأحاديث:

الغرض من الأحاديث قوله: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»

قال النووي: «قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى اللَّه تعالى واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئًا من الأمر، ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس، كما أن الكنز أنفس أموالكم. قال أهل اللغة: الحول الحركة والحيلة، أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة اللَّه تعالى. وقيل: معناه لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا باللَّه. وقيل: لا حول عن معصية اللَّه إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته. وحكي هذا عن ابن مسعود رضى اللَّه عنه وكله متقارب»[(٢)].

قال ابن القيم: «أجمع المسلمون على هذه الكلمة وتلقيها بالقبول وهي شافية كافية في إثبات القدر وإبطال قول القدرية، وفي بعض الحديث إذا قالها العبد قال الله: أسلم عبدي واستسلم، وفي بعضه: فوض إلي عبدي. قال بعض المنتسبين للقدر: لما كانت القدرة بالنسبة إلى الفعل وإلى الترك بحصول الدواعي على التسوية، وما دام الأمر كذلك؛ امتنع صدور الفعل، فإذا رجح جانب الفعل على الترك بحصول الدواعي وإزالة الصوارف حصل الفعل، وهذه القوة هي المشار إليها بقولنا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، وشأن الكلمة أعظم مما قال، فإن العالم العلوي والسفلي له تحول من حال إلى حال، وذلك التحول لا يقع إلا بقوة يقع بها التحول، فكذلك الحول، وتلك القوة قائمة باللَّه وحده ليست بالتحويل،

---

(١) أخرجه أبو داود (٥/ ٣٢٢/ ٥٠٩٥) والترمذي (٥/ ٤٥٧/ ٣٤٢٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) شرح مسلم (١٧/ ٢٢).

فيدخل في هذا كل حركة في العالم العلوي والسفلي، وكل قوة على تلك الحركة، سواء كانت الحركة قسرية أو إرادية أو طبيعية، وسواء كانت من الوسط، أو إلى الوسط، أو على الوسط، وسواء كانت في الكم أو الكيف أو في الأين، كحركة النبات وحركة الطبيعة وحركة الحيوان وحركة الفلك وحركة النفس والقلب، والقوة على هذه الحركات التي هي حول؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

* * *

(١) شفاء العليل (١/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾

★ غريب الآية:

حسبانا: أي صاعقة. والحسبان أيضًا: العذاب.

زلقًا: الأرض الملساء المستوية التي لا نبات فيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَعَسَىٰ﴾ في الدار الآخرة ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي عذابًا من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ أي: بلقعًا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجُرُز الذي لا ينبت شيئا»[(١)].

قال ابن عطية: «يعني أنها تُذهب أشجاره ونباته ويبقى أرضًا قد ذهبت منافعها، حتى منفعة المشي فيها، فهي وحل لا تنبت، ولا تثبت فيه قدم»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾

قال ابن كثير: «أي غائرًا في الأرض وهو ضد النابع الذي يَطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾[(٣)] أي: جار وسائح. وقال هاهنا: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٩).
(٢) المحرر (٣/ ٤١٨).
(٣) الملك: الآية (٣٠).
(٤) تفسير القرآن (٥/ ١٥٩).

قال القرطبي: «﴿غَوْرًا﴾ أي: غائرًا ذاهبًا فتكون أعدم أرضٍ للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء»(١).

وقال عبدالكريم الخطيب: «ثم إذ لم يكن من الكافر أن يقول هذا القول، ولم تحدثه نفسه بشيء منه، لوح له صاحبه بهذا النذير الشديد، وقرعه

بتلك القارعة المزلزلة فقال له انظر إلي ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ فذلك ليس بالذي تعجز عنه قدرة اللَّه، فاللَّه سبحانه يملك الناس ويملك ما بأيدي الناس، وبسلطان قدرته، وتقدير حكمته، يبدّل أحوال الناس كيف يشاء، فيُفقر ويغني، ويذل ويعز، ويضع ويرفع، فإذا كنت كما تراني الآن أقل منك مالًا وولدًا فغير بعيد على اللَّه أن أصبح أو أمسي فإذا أنا أكثر منك مالًا وأعزّ نفرًا.

وليس الأمر واقفا عند هذا؛ بل إنه من الممكن أن يقع في يديّ من المال والبنين أكثر مما معك، ثم إن هذا الذي معك يفرّ من بين يديك، وتلفت فلا تجد منه شيئًا.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ وأمعن النظر في هذا العطف بين الفعلين ﴿يُؤْتِيَنِ﴾ و﴿يُرْسِلَ﴾ حيث تتجلى من ذلك قدرة اللَّه في التبديل والتغيير، ففي الحال التي يرسل اللَّه فيها رحمة من رحمته إلى هذا الفقير المعدِم فيُلبسه ثوب الغنى، يرسل على هذا الغني ما يذهب بغناه، وإذا هذه الجنة الزاهية الزاهرة ينقضّ عليها حسبان من السماء، أي جائحة تجيء فجأة وتهبّ من حيث لا يدري أحد، فتعصف بها فتجعلها رمادًا، أو يغور هذا الماء المتدفق من هذا النهر الذي يقيم حياتها، فإذا هي وقد جفّت شرايين الحياة منها، وأخذت تموت موتًا بطيئا بين عيني صاحبها الذي لا يملك لدائها دواء، والذي تذهب نفسه حسرة مع كل يوم يطلع عليها وعليه»(٢).

وفي الآية «الدعاء بتلفِ مالِ مَن كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصا إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم»(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٦٥).
(٢) التفسير القرآني (٨/ ٦٢٢-٦٢٣).
(٣) تيسير الكريم (٥/ ٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألهته عن اللَّه ﷻ»[(١)].

قال أبو حيان: «وبلّغ اللَّه المؤمن ما ترجاه من هلاك ما بيد صاحبه الكافر وإبادته، على خلاف ما ظنّ في قوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾[(٢)] فأخبر تعالى أنه ﴿أُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وهو عبارة عن الإهلاك، وأصله من أحاط به العدّو، وهو استدارته به من جوانبه، ومتى أحاط به ملكه استولى عليه، ثم استعملت في كل إهلاك، ومنه ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن عطية: «الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد»[(٥)].

قال ابن عاشور: «أحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر؛ لأن اللَّه قد يمتع كافرين كثيرين طول حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم. وإنما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير؛ فإنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى التكذيب بوعد الله؛ استحق عقاب اللَّه بسلب تلك النعم عنه، كما سلبت النعمة عن قارون حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[(٦)]. وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة؛ لأنها تجمع قوما يرونهم أحط منهم، وطلبوا من النبي ﷺ طردهم

---

(١) تفسير القرآن (٥/ ١٦٠).
(٢) الكهف: الآية (٣٥).
(٣) يوسف: الآية (٦٦).
(٤) البحر (٦/ ١٢٣).
(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٥١٩).
(٦) القصص: الآية (٧٨).

عن مجلسه»(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال ابن عطية: «يريد يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى وذلك فعل المتلهف المتأسف على فائت وخسارة ونحوها، ومن عبر بيُصفق فلم يتقن»(٢).

قال أبو حيان: «ولما كان هذا الفعل كناية عن الندم عدّاه تعدية فعل الندم فقال: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ كأنه قال: فأصبح نادمًا على ذهاب ما أنفق في عمارة تلك الجنة»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال القرطبي: «أي: ساقطة على سقوفها، فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح مقابَلة له على بغيه»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ قال القرطبي: «أي: يا ليتني عرفت نِعَم اللَّه عليّ، وعرفت أنها كانت بقدرة اللَّه ولم أكفر به»(٥).

قال الألوسي: «كأنه تذكر موعظة أخيه، وعلم أنه إنما أتي من قبل شِركه، فتمنى لو لم يكن مشركًا فلم يصبه ما أصابه»(٦).

قال أبو حيان: «الظاهر أنه صدر منه ذلك في حالة الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة»(٧).

قال السعدي: «ولا يستبعد من رحمة اللَّه ولطفه أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها تحسنت حاله، ورزقه اللَّه الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن اللَّه أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد اللَّه بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضلُ اللَّه لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول»(٨).

---

(١) التحرير (١٥/ ٣٢٨).
(٢) المحرر (٣/ ٥١٩).
(٣) البحر (٦/ ١٢٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٦٦).
(٥) المصدر السابق (١٠/ ٢٦٦).
(٦) روح المعاني (١٥/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٧) البحر (٦/ ١٢٤).
(٨) التيسير (٥/ ٤١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: لما نزل العذاب بجنته ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئًا، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفس منتصرًا، وكيف ينتصر أو يكون له انتصار على قضاء اللَّه وقدره الذي إذا أمضاه وقدره؛ لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه؛ لم يقدروا»[1].

قال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- عن هذا الكافر من أنه لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله؛ ذكر نحوه عن غيره من الكفار كقوله في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[2] وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[3] والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا»[4].

وفي الآية: «أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة اللَّه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[5]»[6].

* * *

---

(١) تيسير الكريم (٥/ ٤٠)

(٢) القصص: الآية (٨١).

(٣) الطارق: الآية (١٠).

(٤) الأضواء (٣/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٥) سبأ: الآية (٣٧).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٢).

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحًا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك؛ تبين وتوضح أن الولاية الحق لله وحده، فمن كان مؤمنا به تقيا؛ كان له وليا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ولا يتولاه؛ خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي، خير ثواب يرجى ويؤمل»[1].

قال ابن كثير: «﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ اختلفوا في قراءة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله؛ أي: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾[2] وكقوله إخبارًا عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3]. ومنهم من كسر الواو من ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ أي: هنالك الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾[4]. ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله ﷻ، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[5]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله، ﷻ، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير»[6].

---

(١) التيسير (٥/ ٤١).

(٢) غافر: الآية (٨٤).

(٣) يونس: الآيتان (٩٠و٩١).

(٤) الفرقان: الآية (٢٦).

(٥) الأنعام: الآية (٦٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٠).

وفي هذه القصة من الفوائد زيادة على ما تقدم: «اعتبار بحال الذي أنعم اللَّه عليه نعما دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى اللَّه فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال»[١].

وفيها: «أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا، ولا يغتر بها ولا يثق بها، بل يجعل طاعة اللَّه والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه. وليكن بما في يد اللَّه أوثق منه بما في يديه.

وفيها: أن من قدم شيئًا على طاعة اللَّه والإنفاق في سبيله عُذب به، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده.

وفيها: أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة.

وفيها: أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر، ونفذ الأمر الحتم. باللَّه المستعان وعليه التكلان»[٢].

وفيها: «أن اللَّه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

وفيها: التنديد بالكبر والغرور حيث يفضيان بصاحبهما إلى الشرك والكفر»[٣].

وفيها: «أن ولاية اللَّه وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبة ومآلًا»[٤].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤١).

(٢) البداية والنهاية (٢/ ١١٠).

(٣) قصص القرآن (٣٨٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

هشيمًا: أي: فُتَاتًا متكسرًا. من هشمتُ الشيءَ؛ أي: فَتَّتُّهُ. والهشيم: النبات اليابس المتكسر. قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومِه ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

تذروه: تفرقه. وأذريت الرجل عن الدابة؛ أي: ألقيته عنها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: واضرب لحياة هؤلاء المستكبرين الذين قالوا لك: اطرد عنك هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ إذا نحن جئناك؛ الدنيا منهم مثلا يقول: شبها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ﴾ يقول: كمطر أنزلناه من السماء ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يقول: فاختلط بالماء نبات الأرض ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يقول: فأصبح نبات الأرض يابسًا متفتتا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ﴾ يقول تطيره الرياح وتفرقه..

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ وكان اللَّه على تخريب جنة هذا القائل حين دخل جنته: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وإهلاك أموال ذي الأَمْوَالِ الباخلين بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاء قادر، لا يعجزه شيء أراده، ولا يعْييه أمر أراده.

يقول: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترنّ أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابسًا تذروه الرياح فاسدا،

تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير»[١].

قال ابن كثير: «وكثيرًا ما يضرب اللَّه مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾[٢]، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣]، وقال في سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٤]»[٥].

وقال السعدي: «يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلًا ولمن قام بوراثته بعده تبعا: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزُخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيما تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أُعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها وديناراها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٥٢-٢٥٣).
(٢) يونس: الآية (٢٤).
(٣) الزمر: الآية (٢١).
(٤) الحديد: الآية (٢٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦١).

الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات. فالعاقل الجازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قَدِّري أنّكِ قد متِّ، ولا بد أن تموتي، فأي: الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة؟ أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟ فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه»(١).

قال ابن القيم: «والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد اللَّه بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الاغترار بالدنيا، والحث على التقلل منها

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

تضمن الحديث بيان حال الدنيا وأنها حلوة خضرة «أي حلوة في المذاق، خضرة في المرأى، والشيء إذا كان خضرًا حلوًا؛ فإن العين تطلبه أولًا، ثم تطلبه النفس ثانيًا، والشيء إذا اجتمع فيه طلب العين وطلب النفس؛ فإنه يوشك للإنسان أن يقع فيه، فالدنيا حلوة في مذاقها، خضرة في مرآها، فيغتر الإنسان بها، وينهمك فيها، ويجعلها أكبر همه، ولكن النبي ﷺ بيّن أن اللَّه تعالى مستخلفنا فيها، فينظر كيف نعمل؛ هل تقومون بطاعته وتنهون النفس عن الهوى، وتقومون بما أوجب اللَّه

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٣-٤٤). (٢) مدارج السالكين (٢/ ٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٢١٩١) ضمن حديث طويل، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٤٠٠٠) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٦٩).

عليكم ولا تغتروا بالدنيا، أو أن الأمر بالعكس.

ولهذا قال: «**فاتقوا الدنيا**» أي: قوموا بما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه، ولا تغرنكم حلاوة الدنيا ونضرتها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1]»[2].

وفي الحديث أنه «ينبغي الزهد في الدنيا وعدم الجري وراء حطامها، أو التعلق بأوهامها؛ فإنها تَعْرِض نفسها على العباد بحلاوتها وخضرتها وزينتها، فمن تعلق بها أهلكته، ولكن ينبغي ألا ينسى العبد نصيبه منها»[3].

* * *

(١) لقمان: الآية (٣٣).

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٤٨٤-٤٨٥).

(٣) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين للشيخ سليم الهلالي (١/ ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: المال والبنون أيها الناس التي يفخر بها عيينة والأقرع، ويتكبران بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يتزين به في الحياة الدنيا، وليسا من عِداد الآخرة»[(١)].

وقال ابن كثير: «﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[(٣)] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ **قال ابن جرير**: «ما يعمل سلمان وخباب وصهيب من طاعة اللّه ودعائهم ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمال الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خير يا محمد عند ربك ثوابا من المال والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ يقول: وما يؤمل من ذلك سلمان وصهيب وخباب؛ خير مما يؤمل عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما»[(٥)].

وقال ابن عاشور: «ونظير هذه الآية آية سورة مريم: قوله: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٥٣).
(٢) آل عمران: الآية (١٤).
(٣) التغابن: الآية (١٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦١).
(٥) جامع البيان (١٥/ ٢٥٣).

خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[١] فإنه وقع إثر قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[٢].

وتقديم المال على البنين في الذكر لأنه أسبق خطورًا لأذهان الناس؛ لأنه يرغَب فيه الصغير والكبير، والشاب والشيخ، ومن له من الأولاد ما قد كفاه..

ومعنى ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أن أمل الآمل في المال والبنين؛ إنما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله، ومقصور على مدته. وأما الآمل لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد، ويأمل شيئًا تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣]. فلا جرم كان قوله: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ بالتحقق والعموم تذييلًا لما قبله»[٤].

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في المعنى بالباقيات الصالحات اختلافهم في المعني بالدعاء الذي وصف جل ثناؤه به الذين نهى رسول اللَّه ﷺ عن طردهم وأمره بالصبر معهم؛ فقال بعضهم: هي الصلوات الخمس. وقال بعضهم: هي ذكر اللَّه بالتسبيح والتقديس والتهليل ونحو ذلك. وقال بعضهم: هي العمل بطاعة اللَّه. وقال بعضهم: الكلام الطيب.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هن جميع أعمال الخير؛ كالذي روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس؛ لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يجازى ويثاب، وإن اللَّه عز ذكره لم يخصص من قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ بعضًا دون بعض في كتاب ولا بخبر عن رسول اللَّه ﷺ؛ فإن ظن ظان أن ذلك مخصوص بالخبر الذي رويناه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ فإن ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الخبر عن رسول اللَّه ﷺ إنما ورد بأن قول سبحان اللَّه والحمد لله ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر هن من الباقيات

(١) مريم: الآية (٧٦). (٢) مريم: الآيتان (٧٣و٧٤).
(٣) النحل: الآية (٩٧).
(٤) التحرير والنوير (١٥/ ٣٣٣).

الصالحات، ولم يقل: هن جميع الباقيات الصالحات، ولا كل الباقيات الصالحات، وجائز أن تكون هذه باقيات صالحات، وغيرها من أعمال البر أيضًا باقيات صالحات»[١].

وقال السعدي: «وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق اللَّه، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند اللَّه ثوابا وخير أملا، فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب اللَّه مثل الدنيا وحالها واضمحلالها ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات»[٢].

وفي الآية: «أن كل ما كان زينة الحياة الدنيا فهو سريع الانقضاء؛ فالمال والبنون سريع الانقضاء، ومن بديهة العقل أن ما كان كذلك يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه، وهذا برهان على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد»[٣].

وفيها: «تنبيه الناس للعمل الصالح لئلا يشتغلوا بزينة الحياة الدنيا من المال والبنين عما ينفعهم في الآخرة عند اللَّه من الأعمال الباقيات الصالحات»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير من جملة الباقيات الصالحات

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «سبحان اللَّه، والحمد لله،

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٥٣-٢٥٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٤-٤٥).
(٣) البحر (٦/ ١٢٧).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٨١).

ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر؛ من الباقيات الصالحات»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خذوا جُنتكم**» قالوا: يا رسول الله! أمِن عدوٍّ قد حضر؟ قال: «**لا؛ ولكن جُنتكم من النار قول: سبحان اللَّه والحمد لله ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مجنِّبات ومعقبات، وهن الباقيات الصالحات**»[٢].

* عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سئل عن الباقيات الصالحات قال: (هن لا إله إلا اللَّه وسبحان اللَّه والحمد لله واللَّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٣].

★ فوائد الأحاديث:

في الحديث الأول ما يدل على أن التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير من جملة الباقيات الصالحات، وهو «يتفق مع التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فقد ذكر ابن جرير في تفسيرها عدة أقوال اختار منها ما يجمع أعمال الخير كلها، ومنها ما في هذا الحديث من الذكر، على روايته هو: «**من الباقيات الصالحات**».

وأما الرواية الأخرى هن الباقيات الصالحات، فإما أنها من باب المبالغة، كقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»[٤] وقوله: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[٥] ونحوه كثير معروف. أو أنه سقط من الراوي حرف «من» الدال على التبعيض»[٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١٥/ ٢٥٥) وصححه الشيخ الألباني بشواهده: الصحيحة (٧/ ٧٨٥/ ٣٢٦٤).

(٢) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٢١٢/ ١٠٦٨٤)، الحاكم (١/ ٥٤١) وقال: «صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٧١) والبزار (الكشف ٤/ ١١/ ٣٠٧٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٩) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجاله رجال الصحيح غير الحارث بن عبد مولى عثمان وهو ثقة».

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥/ ١٩٤٩)، والترمذي (٥/ ١٩٨/ ٢٩٧٥)، وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي (٥/ ٢٨٢/ ٣٠١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣/ ٣٠١٥)، من حديث عبدالرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٣) والبخاري (١/ ٧٣/ ١٠) وأبو داود (٣/ ٩/ ٢٤٨١) والنسائي (٨/ ٤٧٩/ ٥٠١١).

(٦) السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني (٧/ ٧٩٠-٧٩١).

قال صديق حسن خان: «وبهذا يعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث؛ لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها»[1].

وقال الطيبي: «ولعله -صلوات اللَّه عليه- خصها بالباقيات الصالحات؛ لكونها جامعات للمعارف الإلهية، فالتسبيح تقديس لذاته عما لا يليق بجلاله، وتنزيه لصفاته من النقائص. والتحميد منبّه على معنى الفضل والإفضال من الصفات الذاتية والإضافية. والتهليل توحيد للذات، ونفي للضد والند، وتنبيه على التبري عن الحول والقوة إلا به. واختتامها بالتكبير اعتراف بالقصور في الأفعال والأقوال، قال: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»»[2].

قال القاري: «ولعل وجه تسميتها بالباقيات مع أن كل أعمال الآخرة كذلك؛ مقابلتها للفانيات الفاسدات من المال والبنين في المثَل المضروب قبلها، إشعارًا بأن المال والبنين من أكمل أسباب أرباب الدنيا، فالمذكورات من أفضل عبادات أصحاب العقبى، فإنها زبدة صفات اللَّه، وعمدة كلمات الله»[3].

وفي الأحاديث بيان فضل هذه الكلمات العظيمة.

قال الطيبي: «والموجب لفضلها اشتمالها على جملة أنواع الذكر من التنزيه، والتحميد، والتمجيد، والتوحيد، ودلالتها على جميع المطالب الإلهية إجمالًا»[4].

وفيها: «حث على المواظبة عليها وتحريض على ملازمتها، وتعريض بأن سائر التكاليف صعبة شاقة على النفس ثقيلة، وهذه خفيفة سهلة عليها، مع أنها تثقل في الميزان ثقل غيرها من التكاليف، فلا يتركوها إذًا»[5].

وفيها: «الحث على التسبيح واستغراق الوقت به وأنه سبب إلى نجاة العبد ووصوله إلى الجنة»[6].

* * *

---

(١) فتح البيان (٨/ ٦٠).

(٢) شرح الطيبي (٦/ ١٨١٩).

(٣) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٢٢).

(٤) شرح الطيبي (٦/ ١٨١٩).

(٥) المصدر المتقدم (٦/ ١٨٢١).

(٦) العلم الهيب شرح الكلم الطيب (١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نغادر: نترك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ عن الأرض فنبسُّها بَسًّا، ونجعلها هباء منبثا ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة: وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها..

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ يقول: جمعناهم إلى موقف الحساب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقول: فلم نترك، ولم نبق منهم تحت الأرض أحدا»[١].

قال أبو حيان: «ولما ذكر ما يؤول إليه حال الدنيا من النفاد؛ أعقب ذلك بأوائل أحوال يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾[٢] وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٣] وقال: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[٤] وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[٥] والمعنى أنه ينفك نظام هذا العالم الدنيوي ويؤتى بالعالم الأخروي»[٦].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا، لا صغيرًا ولا كبيرًا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[٧]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٥٧).
(٢) الطور: الآيتان (٩و١٠).
(٣) النمل: الآية (٨٨).
(٤) طه: الآيتان (١٠٥و١٠٦).
(٥) التكوير: الآية (٣).
(٦) البحر (٦/ ١٢٧).
(٧) الواقعة: الآيتان (٤٩و٥٠).

وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾[1]»[2].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيبًا، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى، وتكون هباء منبثًّا، وتبرز الأرض فتصير قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمتا، ويحشر اللَّه جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحدًا، بل يجمع الأولين والآخرين، من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقًا جديدًا»[3].

* * *

(١) هود: الآية (١٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي اللَّه صفًّا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1] ويحتمل أنهم يقومون صفوفًا صفوفا، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[2]»[3].

قال الشنقيطي: «فإذا علمت أن اللَّه -جل وعلا- ذكر في هذه الآية حالًا من أحوال عرض الخلائق عليه يوم القيامة؛ فاعلم أنه بين في مواضع أخر أشياء أخر من أحوال عرضهم عليه؛ كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[4]، وبين في مواضع أخر ما يلاقيه الكفار، وما يقال لهم عند ذلك العرض على ربهم؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[5]»[6].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾

قال الشنقيطي: «والمعنى: يقال لهم يوم القيامة لقد جئتمونا؛ أي: واللَّه لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة؛ أي: حفاة عراة غرلًا؛ أي: غير مختونين، كل واحد منكم فرد لا مال معه ولا ولد ولا خدم ولا حشم»[7].

قال الرازي: «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم

---

(١) النبأ: الآية (٣٨).
(٢) الفجر: الآية (٢٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٥).
(٤) الحاقة: الآية (١٨).
(٥) هود: الآيتان (١٨و١٩).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).
(٧) المصدر السابق (٣/ ٢٨٥).

﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(٢)] إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارة إلى أن الناس يجيئون يوم القيامة ولا شيء معهم مما كان لهم في الحياة الدنيا من مال وبنين، وما كان بين أيديهم من جاه وسلطان، لقد جاءوا عراة حفاة عزلا من كل شيء، ضعافًا مجردين من كل قوة، كما ولدوا عراة حفاة لا شيء معهم. وفي قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارة إلى الخلق الأول للإنسان، وهو خلق الميلاد. وفيه إشارة أيضًا إلى أن الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان من الطفولة إلى الصبا والشباب، والكهولة والشيخوخة، وإلى ما يجدّ للإنسان في هذه الأطوار من أحوال التملّك والتسلّط وغيرها إنما هي جميعها من تدبير اللَّه ﷻ للإنسان، ومن صنعيه به، فكأنه في تنقله من طور إلى طور، ومن حال إلى حال هو خلق جديد له غير الخلق الأول التي وُلد به، ولكن البعث إنما يكون بصورة الميلاد من حيث التعري من كل شيء ملكه الإنسان في الدنيا»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾

قال ابن جرير: «هذا الكلام خرج مخرج الخبر عن خطاب اللَّه به الجميع، والمراد منه الخصوص، وذلك أنه قد يرِد القيامة خلق من الأنبياء والرسل، والمؤمنين باللَّه ورسله وبالبعث، ومعلوم أنه لا يقال يومئذ لمن وردها من أهل التصديق بوعد اللَّه في الدنيا، وأهل اليقين فيها بقيام الساعة: بل زعمتم أن لن نجعل لكم البعث بعد الممات، والحشر إلى القيامة موعدا، وأن ذلك إنما يقال لمن كان في الدنيا مكذّبا بالبعث وقيام الساعة»[(٦)].

قال الرازي: «أي: كنتم مع التعزز على المؤمنين بالأموال والأنصار تُنكرون البعث والقيامة، فالآن قد تركتم الأموال والأنصار في الدنيا، وشاهدتم أن البعث والقيامة حق»[(٧)].

---

(١) الأنعام: الآية (٩٤).
(٢) مريم: الآية (٧٧).
(٣) مريم: الآية (٨٠).
(٤) التفسير الكبير (٢١/ ١٣٥)
(٥) التفسير القرآني (٨/ ٦٢٩).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٢٥٧-٢٥٨).
(٧) التفسير الكبير (٢١/ ١٢٥).

وفي الآية: «تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا، كما خلقهم الله أول مرة

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ **«تحشرون حفاة عراة غرلًا»**، قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: **«الأمر أشد من أن يهمهم ذاك»**[٢].

⋆ غريب الحديث:

حفاة: بضم المهملة وتخفيف الفاء جمع حاف أي بلا خف ولا نعل.

غرلًا: جمع أغرل وهو الأقلف وزنه ومعناه وهو من بقيت غرلته وهي الجلدة التي يقطعها الخاتن من الذكر.

⋆ فوائد الحديث:

تضمنت الآية والحديث بيان الصفة التي يحشر الناس عليها يوم القيامة.

قال النووي: «المقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم، ولا يفقد منهم شيء، حتى الغرلة تكون معهم»[٣].

قال الوزير ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه أن ما يقع من بدن الآدمي في الدنيا يعاد إليه ولا يضاع»[٤].

تنبيه: تقدم الكلام على الحديث في سورة الأنعام.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٥).
(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٥٩-٤٦٠/ ٦٥٢٧)، مسلم (٤/ ٢١٩٤/ ٢٨٥٩)، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٥/ ١١٣٠٤)، ابن ماجه (٢/ ١٤٢٩/ ٤٢٧٦).
(٣) شرح مسلم (١٨/ ١٥٩).
(٤) الإفصاح (٣/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[١]

★ غريب الآية:

مشفقين: الإشفاق: الخوف من وقوع مكروه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره: ووضع اللَّه يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ يقول عزّ ذكره: فترى المجرمين المشركين باللَّه مشفقين، يقول: خائفين وجلين مما فيه مكتوب من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يؤاخذوا بها ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ يعني أنهم يقولون إذا قرءوا كتابهم، ورأوا ما قد كُتب عليهم فيه من صغائر ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب اللَّه، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣] وبين أن بعضهم يؤتى كتابه بيمينه، وبعضهم يؤتاه بشماله، وبعضهم يؤتاه وراء ظهره، قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾[٤] الآية. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[٥].. وما ذكره من وضع الكتاب هنا

---

(١) الآية (٤٩).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٥٨).

(٣) الإسراء: الآيتان: (١٣و١٤).

(٤) الحاقة: الآية (٢٥).

(٥) الانشقاق: الآيات (٧-١٢).

ذَكَره في الزمر في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[1]»[2].

وقال عبدالكريم الخطيب: «الكتاب هنا هو الكتاب الذي سُجّلت فيه الأعمال، كل الأعمال؛ الصالحة والسيئة، كما يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[3]، حيث ينكشف لكل إنسان عمله، من خير أو شر، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[4]، ويعجب الذين كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر مما يطلع عليهم به هذا الكتاب، لقد أحصى عليهم كل شيء، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ إنهم ما كانوا يحسبون أن شيئًا من هذا سيقع، وأنه إذا وقع فلن يكون على تلك الصورة التي فضحت كل شيء كان منه في دنياهم، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5]»[6].

وفي الآية: «إثبات صغائر وكبائر الذنوب، وهذا متفق عليه بين المسلمين»[7].

وفيها: ما يفهم منه «أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنهم وجدوا في كتاب أعمالهم صغائر ذنوبهم محصاة عليهم، فلو كانوا غير مخاطبين بها لما سجلت عليهم في كتاب أعمالهم»[8].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من محقرات الذنوب

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم ومحقَّرات الذنوب؛ فإنما مثل محقَّرات الذنوب كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم. وإن محقرات الذنوب متى يؤخذْ بها صاحبها تهلكْه»**[9].

---

(١) الزمر: الآية (٦٩).
(٢) الأضواء (٣/ ٢٨٧).
(٣) التكوير: الآية (١٠).
(٤) الزلزلة: الآيات (٦-٨).
(٥) الجاثية: الآية (٢٩).
(٦) التفسير القرآني (٨/ ٦٣٠).
(٧) التفسير الكبير (٢١/ ١٣٦).
(٨) أضواء البيان (٣/ ٢٨٩).
(٩) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١) والطبراني في الكبير (٦/ ١٦٥-١٦٦/ ٥٨٧٢) وفي الأوسط (٨/ ١٥٩/ ٧٣١٩) وفي الصغير (٨٨٧) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٥٦/ ٧٢٦٧) والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٩٩/ ٤٢٠٣) كلهم من طريق ابن عياض عن أبي حازم عن سهل بن سعد مرفوعا. =

★ **فوائد الحديث:**

تضمن الحديث التحذير من محقرات الذنوب «وهي صغائرها ؛ لأن صغائرها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبائرها ، كما أن صغار الطاعات تؤدي إلى تحري كبارها»[١] .

وعلاقته بالآية من جهة أنه ﷺ حذرنا من ارتكاب صغائر الذنوب لكونها تحصى على العبد كما تحصى عليه كبائرها ، فيعاقب عليها .

وفي الحديث : «الحث على عدم التهاون بالصغائر ، ومحاسبة النفس عليها ، وعدم الغفلة عنها ، فإن في إهمالها الهلاك»[٢] . وفيه «أن المحقَّرات إذا كثرت صارت كبائر للإصرار عليها»[٣] .

* * *

= قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠) : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبدالوهاب ابن عبدالحكم وهو ثقة . وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٤٠٠) .

(١) فيض القدير (٣/ ١٢٧) .

(٢) الفيض (٣/ ١٢٨) .

(٣) عمدة القاري (١٥/ ٥٦٥) .

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من خير أو شر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(٤) أي: تظهر المخبآت والضمائر»(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ **قال ابن جرير**: «ولا يجازي ربك أحدًا يا محمد بغير ما هو أهله، لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان، ولا بالسيئة إلا أهل السيئة، وذلك هو العدل»(٦).

قال ابن كثير: «أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا، ولا يظلم أحدًا من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم، ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخلِّد فيها الكافرون، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم»(٧).

قال الشنقيطي: «وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٩) وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١٠) وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(١١) وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

---

(١) الآية (٤٩).
(٢) آل عمران: الآية (٣٠).
(٣) القيامة: الآية (١٣).
(٤) الطارق: الآية (٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٦).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٢٥٩).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٦).
(٨) يونس: الآية (٤٤).
(٩) النساء: الآية (٤٠).
(١٠) الأنبياء: الآية (٤٧).
(١١) فصلت: الآية (٤٦).

وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من كمال عدل الله تعالى أن يقتص للخلائق بعضهم من بعض يوم القيامة

* عن جابر رضي الله عنه أنه حدث عن عبدالله بن أنيس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة (أو قال: العباد) عراةً غرلًا بُهمًا**» قال: قلنا: وما بُهما؟ قال: «**ليس معهم شيء. ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه مَن قرب: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق؛ حتى أُقِصّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أُقصه منه، حتى اللطمة**» قال: قلنا: كيف وإنّا إنما نأتي الله عز وجل عراة غرلا بهما؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[٥].

★ فوائد الحديثين:

تضمنت الآية والحديثان: بيان كمال عدل الله يوم القيامة، حيث يقتص لبعض الخلائق من بعض، فلا يدخل أهل الجنة الجنة، ولا أهل النار النار؛ حتى يقتص لبعضهم من بعض. وكذلك البهائم يحشرها الله تعالى فيُقاد لبعضها من بعض.

«وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين؛ فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف؛ فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف، والقوي والضعيف»[٦].

---

(١) النحل: الآية (٣٣). (٢) النحل: الآية (١١٨).

(٣) الأضواء (٣/ ٢٨٩).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥) والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) والحاكم (٢/ ٤٣٧-٤٣٨) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥) ومسلم (٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨٢) والترمذي (٤/ ٥٣٠/ ٢٤٢٠).

(٦) المرقاة شرح المشكاة (٨/ ٨٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

★ غريب الآية:

فسق: هنا خَرَجَ. والفِسْقُ: الخروج. يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قِشْرِهَا. وفَسَقَتِ الفأرة: إذا خرجت من جُحْرِهَا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه الآية مضمّنها تقريع الكفرة، وتوقيفهم على خطاياهم في ولايتهم العدو دون الذي أنعم بكل نعمه على العموم صغيرها وكبيرها»(١).

قال ابن عاشور: «وهذه القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذِكرُها في سورة البقرة -مثلًا- إعلام بمبادئ الأمور. وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقس على ذلك»(٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مذكّرا هؤلاء المشركين حسد إبليس أباهم ومعلمهم ما كان منه من كبره واستكباره عليه حين أمره بالسجود له، وأنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذي كان عليه لأبيهم: واذكر يا محمد ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي يطيعه هؤلاء المشركون ويتبعون أمره، ويخالفون أمر اللّه، فإنه لم يسجد له استكبارًا على اللّه وحسدًا لآدم»(٣).

قال الشنقيطي: «قدمنا في سورة البقرة أن قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾(٤)

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢١).

(٢) التحرير (١٥/ ٣٤٠).

(٣) جامع البيان (١٥/ ٢٥٩)

(٤) البقرة: الآية (٣٤).

محتمل لأن يكون أمرهم بذلك قبل وجود آدم أمرًا معلقًا على وجوده. ومحتمل لأنه أمرهم بذلك تنجيزًا بعد وجود آدم. وأنه -جل وعلا- بين في سورة الحجر وسورة (صٓ) أن أصل الأمر بالسجود متقدم على خلق آدم معلَّق عليه؛ قال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1] وقال في (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2] ولا ينافي هذا أنه بعد وجود آدم جَدَّدَ لهم الأمر بالسجود له تنجيزًا. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ محتمل لأن يكونوا سجدوا كلهم أو بعضهم، ولكنه بين في مواضع أخر أنهم سجدوا كلهم، كقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[3] ونحوها من الآيات»[4].

وقال السعدي: «يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن اللَّه أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكرامًا وتعظيمًا، وامتثالًا لأمر اللَّه، فامتثلوا ذلك ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[5] وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[6] فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدوا، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليًّا، وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾[7] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[8]»[9].

---

(١) الحجر: الآيتان (٢٨و٢٩).
(٢) ص: الآيتان (٧١و٧٢).
(٣) الحجر: الآية (٣٠).
(٤) الأضواء (٣/ ٢٩٠).
(٥) الإسراء: الآية (٦١).
(٦) الأعراف: الآية (١٢) وفي ص: الآية (٧٦).
(٧) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٨) الأعراف: الآية (٣٠).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٧-٤٨).

قال الشيخ ابن عثيمين: «قوله هنا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾؛ اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء؛ هل هو استثناء متصل، أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل؛ لأنه الأصل في الاستثناء، أي أن الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ومنهم من قال: إن الاستثناء منقطع، أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، واستدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾، فقال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ ويقول النبي ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[(١)] وهذا القول أرجح، لكنه يشكل عليه: كيف يكون إبليس من غير الملائكة، ويصح أن يتوجه إليه الخطاب في قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؟

والجواب عن هذا؛ نقول: صحّ أن يتوجه إليه الخطاب؛ لأنه كان في عامتهم، أي أنه كان معهم يعمل بعملهم، ويتعبد كما يتعبدون، لكن غلب عليه الطبع الخبيث، فلما أمر بالسجود لآدم رأى أنه فوق مرتبة آدم، وأن الأعلى لا يمكن أن يعظم الأدنى، فحمله إعجابه بنفسه، واحتقاره لآدم على أن يستكبر عن أمر اللَّه ﷻ، وبهذا يزول الإشكال»[(٢)].

قال أبو حيان: «﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ الظاهر من هذه الآية أنه ليس من الملائكة، وإنما هو من الجن»[(٣)].

قال الرازي: «وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة؛ أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلًا في هذه الآية وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة»[(٤)].

قال ابن كثير: «نبه تعالى ههنا على أنه من الجن أي: أنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[(٥)]»[(٦)].

والذي حققه ابن تيمية «أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله

---

(١) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.

(٢) أحكام من القرآن الكريم لابن عثيمين (١٦٣).

(٣) البحر (٦/ ١٢٩).

(٤) التفسير الكبير (٢١/ ١٣٧).

(٥) الأعراف: الآية (١٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٧).

ولا باعتبار مثاله»[١].

وقد نقلت كثير من كتب التفسير والتاريخ جملة من أقوال العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة، وأنه كان خازنًا للجنة أو للسماء الدنيا، وأنه كان من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة.. إلى آخر تلك الأقوال.

قال ابن كثير: «وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء، والأبرار النجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي، والمقام المحمدي، -خاتم الرسل، وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات- أن ينسب إليه كذب، أو يُحدّث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل»[٢].

قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾

قال ابن جرير: «يقول: فخرج عن أمر ربه وعدل عنه ومال»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده، وكفر نعمتي عليه، وغره حتى أخرجه من الجنة ونعيم عيشه فيها إلى الأرض وضيق العيش فيها، وتطيعونه وذريّته من دون الله مع عداواته لكم قديمًا وحديثًا، وتتركون طاعة ربكم الذي أنعم عليكم وأكرمكم، بأن أسجد لوالدكم ملائكته،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٩).

(٣) جامع البيان (١٥/ ٢٦١).

وأسكنه جناته، وآتاكم من فواضل نعمه ما لا يحصى عدده. وذرّية إبليس: الشياطين الذين يغرّون بني آدم»(١).

قال الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ دليل على أن للشيطان ذرية، فادعاء أنه لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى. وكل ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك! ولكن طريقة وجود نسله هل هي عن تزويج أو غيره؛ لا دليل عليها من نص صريح، والعلماء مختلفون فيها.. فقد دلت الآية الكريمة على أن له ذرية، أما كيفية ولادة تلك الذرية فلم يثبت فيه نقل صحيح، ومثله لا يعرف بالرأي»(٢).

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره: بئس البدل للكافرين باللَّه اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون اللَّه، وهم لكم عدوّ من تركهم اتخاذ اللَّه وليا باتباعهم أمره ونهيه، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم، المتفضّل عليهم من الفواضل ما لا يحصى بدلًا»(٣).

قال أبو حيان: «قوله ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ لأنهم اعتاضوا من الحق بالباطل وجعلوا مكان ولايتهم إبليس وذريته، وهذا نفس الظلم؛ لأنه وضع الشيء في غيره موضعه»(٤).

قال ابن كثير: «وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾(٥)»(٦).

وفي الآية: «الحث على اتخاذ الشيطان عدوا والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأيّ ظلم أعظمُ من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليًّا، وترك الولي الحميد»(٧).

---

(١) المصدر السابق (١٥/ ٢٦٢).
(٢) الأضواء (٣/ ٢٩٢).
(٣) جامع البيان (١٥/ ٢٦٢).
(٤) البحر (٦/ ١٢٩).
(٥) يس: الآيات (٥٩-٦٢).
(٦) تفسير القرآن (٥/ ١٦٩).
(٧) تيسير الكريم (٥/ ٤٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق إبليس، وذكر بعض وظائفه وأعوانه

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

دلت الآية الكريمة على أن إبليس كان من الجن، وبيّن الحديث أصل خلق الجن، وأنهم خلقوا من النار. والمراد بالجان في الحديث «جنسهم. وقيل: الجان أبو الجن، وهو المناسب لمقابلته بآدم. ثم قيل: إبليس»[2].

«وفي هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر الذي أبى أن يسجد لآدم وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3] فالجن كلهم مخلوقون من النار. ولهذا كثر منهم الطيش والعبث والعدوان على كل من يستطيعون العدوان عليه»[4].

وفيه دليل على أن إبليس لم يكن من الملائكة، لكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور، «قال الحسن البصري: (ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم، عليه السلام أصل البشر) رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه»[5].

* عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ باللَّه منه، واتفل على يسارك ثلاثا**». قال: ففعلت ذلك فأذهبه اللَّه عني[6].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٣) ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦).

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٦٧٤) بتصرف.

(٣) الأعراف: الآية (١٢).

(٤) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٤/ ٣٢٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٧).

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٦) ومسلم (٤/ ١٧٢٨/ ٢٢٠٣).

★ **غريب الحديث:**

خِنزَب: هو لقب له. والخنزب قطعة لحم منتنة. ويروى بالكسر والضم.

* عن سلمان رضي الله عنه قال: (لا تكونن -إن استطعت- أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها؛ فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته)(١).

* عن أبي موسى رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول: من أضلَّ اليوم مسلمًا ألبسته التاج. قال: فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته. فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقّ والديه. فيقول: أوشك أن يبَرّ. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك. فيقول: أنت أنت. ويجيء فيقول: لم أزل به حتى زنى. فيقول: أنت أنت. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل. فيقول: أنت أنت، ويلبسه التاج**»(٢).

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْم أنت**» قال الأعمش: أراه قال: «**فيلتزمه**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

نعم أنت: نِعم بكسر النون وإسكان العين، وهي نعم الموضوعة للمدح، فيمدحه لإعجابه بصنعه، وبلوغه الغاية التي أرادها.

★ **فوائد الأحاديث:**

اشتملت هذه الأحاديث على بيان بعض وظائف الشيطان، وأعماله الخبيثة من مثل إضلال الناس والتفريق بينهم، وإيقاعهم فيما يغضب اللّه ويسخطه. كما

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٠٦/ ٢٤٥١).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٦٨/ ٦١٨٩) والحاكم (٤/ ٣٥٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٤-٣١٥) ومسلم (٤/ ٢١٦٧/ ٢٨١٣).

تضمنت بعض الأماكن التي ينصب فيها الشيطان ألويته وأعلامه، كالأسواق، فهي مقره ومجتمع أعوانه، ومطية إغوائه، ومقام نزغه وكيده. كما تضمنت أن له جنودًا وأعوانًا وسرايا يبعثهم لإغواء بني آدم، فأكثرهم مزية عنده أكثرهم فتنة وإغواء.

كما دل حديث عثمان بن أبي العاص أن من أسماء بعض أعوانه: (خِنْزَب) وهذا أصح ما ورد في اسمه. وأما ما يذكره كثير من المفسرين من تعيين أسمائه ووظائفه كقولهم: «(زلنبور) صاحب الأسواق ويضع رايته في كلّ سوق ما بين السماء والأرض، و(ثبر) صاحب المصائب، و(الأعور) صاحب الزنا و(مسوط) صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلًا و(داسم) الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اللَّه بصره من المتاع ما لم يرفع، وإذا أكل ولم يذكر اسم اللَّه أكل معه»[1]. فقال ابن عطية: «هذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح. . ولم يمرّ بي في هذا صحيحٌ إلا ما في كتاب مسلم من أن للوسوسة شيطان يقال له: (خِنْزَب)»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٦٢).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٢).

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عضدًا: أعوانًا وأنصارًا. يقال: اعتضد به: أي استعان به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره: ما أشهدت إبليس وذريته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: ما أحضرتهم ذلك فأستعين بهم على خلقها، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: ولا أشهدت بعضهم أيضًا خلق بعض منهم، فأستعين به على خلقه، بل تفرّدت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوّهم أولياء من دوني، وهم خلق من خلق أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعم عليهم وعلى أسلافهم، وخالقهم وخالق من يوالونه من دوني، منفردا بذلك من غير معين ولا ظهير»[١].

قال ابن عطية: «الضمير في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ عائد على الكفار، وعلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباء، وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء.. وقيل: الضمير في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ عائد على ذرية إبليس، فهذه الآية، على هذا تتضمن تحقيرهم. والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض المقصود أولًا بالآية، هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي؛ إذ الجميع من هذه الفِرق متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمضلين، وتندرج هذه الطوائف في معناهم»[٢].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٦٣).
(٢) المحرر (٣/ ٥٢٣).

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية من أن الخالق هو المعبود وحده؛ جاء مبينًا في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيرًا منها في مواضع متعددة كقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2] وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾[4] الآية. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾[5] الآية. إلى غير ذلك من الآيات»[6].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

قال صديق حسن خان: «العضد يستعمل كثيرًا في معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد، ومنه قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[7] أي: سنعينك ونقويك به، ويقال: أعضدت بفلان إذا استعنت به، وذكر العضد على جهة المثل، وأصله العضو الذي هو من المرفق إلى الكتف، ففي الكلام استعارة. وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ، والمعنى: ما استعنتُ بهم على خلقهما، ولا شاورتهم، وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانًا»[8].

قال ابن عاشور: «والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرّفي في الإنشاء؛ فإن اللّه مفيض الهداية، وواهب الدراية، فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة؛ أي: لا يعين المعينُ إلا على عمل أمثاله، ولا يكون إلا قرينًا لأشكاله»[9].

قال الشنقيطي: «وفي هذه الآية الكريمة التنبيه على أن الضالين المضلين لا تنبغي الاستعانة بهم، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. والمعنى المذكور أشير له في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ

---

(١) النحل: الآية (١٧).
(٢) الرعد: الآية (١٦).
(٣) لقمان: الآية (١١).
(٤) فاطر: الآية (٤٠).
(٥) الأحقاف: الآية (٤).
(٦) الأضواء (٣/ ٢٩٤).
(٧) القصص: الآية (٣٥).
(٨) فتح البيان (٨/ ٦٨).
(٩) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٤).

ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[١]، والظهير المعين، والمضلون الذين يضلون أتباعهم عن طريق الحق»[٢].

* * *

(١) القصص: الآية (١٧).

(٢) الأضواء (٣/ ٢٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

موبقا: محبسًا. وقيل: هلاكًا. يقال: وَبِقَ يَوْبَقُ: إذا هلك. وأَوْبَقْتُهُ: أَهْلَكْتُهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ويوم يقول -عز ذكره- للمشركين به الآلهة والأنداد ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ يقول لهم: ادعوا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في العبادة لينصروكم ويمنعوكم مني ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم»[1].

وقال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من عدم استجابتهم لهم إذا دعوهم يوم القيامة؛ جاء موضحًا في مواضع أخر كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3] وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[4] وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّآ

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) القصص: الآيات: (٦٢-٦٤).

(٣) فاطر: الآيتان (١٣و١٤).

(٤) الأحقاف: الآيتان (٥و٦).

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[(٢)] والآيات في تبرؤهم منهم يوم القيامة وعدم استجابتهم لهم كثيرة جدًّا. وخطبة الشيطان المذكورة في سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[(٣)] من قبيل ذلك المعنى المذكور في الآيات المذكورة»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ قيل: راجع إلى أهل النار. وقيل راجع إلى أهل الجنة وأهل النار معًا. وقيل راجع للمشركين وما كانوا يعبدونه من دون اللَّه. وهذا هو أظهرها لدلالة ظاهر السياق عليه؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ثم قال مخبرًا عن العابدين والمعبودين: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي: مهلكًا يفصل بينهم ويحيط بهم. وهذا المعنى كقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[(٥)] الآية؛ أي: فرقنا بينهم»[(٦)].

قال ابن كثير: «وأما من جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ عائدًا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبداللَّه بن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[(٧)]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[(٨)]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[(٩)]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(١) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).
(٢) الأنعام: الآية (٩٤).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٤) الأضواء (٣/ ٢٩٥-٢٩٦).
(٥) يونس: الآية (٢٨).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٩٨).
(٧) الروم: الآية (١٤).
(٨) الروم: الآية (٤٣).
(٩) يس: الآية (٥٩).

أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[1]»[2].

قوله تعالى: ﴿مَّوْبِقًا﴾

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: معناه: وجعلنا بين هؤلاء المشركين وما كانوا يدعون من دون اللَّه شركاء في الدنيا يومئذ عداوة.. وقال آخرون: وجلعنا فعلهم ذلك لهم مهلكًا.. وقال آخرون: هو اسم واد في جنهم..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ القول الذي ذكرناه عن ابن عباس ومن وافقه في تأويل الموبق: أنه المهلك، وذلك أن العرب تقول في كلامها: قد أوبقت فلانا: إذا أهلكته، ومنه قول اللَّه ﷻ: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾[3] بمعنى يهلكهن»[4].

قال ابن كثير بعدما استظهر هذا القول: «إلا أن اللَّه تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم، وأمر كبير»[5].

* * *

(١) يونس: الآيات (٢٨-٣٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٠).
(٣) الشورى: الآية (٣٤).
(٤) جامع البيان (١٥/ ٢٦٤-٢٦٥).
(٥) تفسير القرآن (٥/ ١٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مواقعوها: مُلابِسُوهَا. والمواقعة: ملابسة الشيء بشدة.

مصرفًا: أي: مَعْدِلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وعاين المشركون النار يومئذ ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ يقول: فعلموا أنهم داخلوها..

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ يقول: ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلًا يعدلون عنها إليه. يقول: لم يجدوا من مواقعتها بدًا؛ لأن اللّه قد حتم عليهم ذلك»[١].

قال ابن عطية: «أخبر ﷻ عن رؤية المجرمين النار، ومعاينتهم لها، ووقوع العلم لهم بأنهم مباشروها، وأطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين»[٢].

قال الشنقيطي: «ومن إطلاق الظن على اليقين قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٣] أي: يوقنون أنهم ملاقوا ربهم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٥] فالظن في هذه الآيات كلها بمعنى اليقين»[٦].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٤).

(٣) البقرة: الآيتان: (٤٥و٤٦).

(٤) البقرة: الآية: (٢٤٩).

(٥) الحاقة: الآيتان (١٩و٢٠).

(٦) الأضواء (٣/ ٢٩٨-٢٩٩).

قال السعدي: «وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف المسافة التي يرى الكافر في القيامة نار جهنم منها

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ينصب للكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة**»[٢].

★ غريب الحديث:

مواقعته: آخذته بالغلبة والقهر.

★ فوائد الحديث:

أفاد الحديث وصف المسافة التي يرى الكافر منها النار يوم القيامة، وذلك مسيرة أربعين سنة، فإذا رآها المجرمون علموا لا محالة أنهم مواقعتهم، «ليكون ذلك من باب تعجيل الهمّ والحزن لهم؛ فإن توقّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز»[٣].

* * *

---

(١) التيسير (٥/ ٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (٢/ ٥٢٤/ ١٣٨٥) والحاكم (٤/ ٥٩٧) وصححه ووافقه الذهبي. وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٦) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن، على ما فيه من ضعف».
قلت: في سنده دراج أبو السمح وهو ضعيف في روايته عن أبي الهيثم دون غيره. ويشهد له حديث أبي هريرة عند ابن حبان (١٦/ ٣٤٩/ ٧٣٥٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، ووعظناهم فيه من كلّ عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكّروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك باللَّه وعبادة الأوثان ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة»[1].

وقال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي ذكره في هذه الآية الكريمة جاء مذكورًا في آيات أخر، كقوله في الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[3] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[4] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[5] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾[6] والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا»[7].

وقال السعدي: «يخبر اللَّه تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل؛ أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٦٦).
(٢) الإسراء: الآية (٨٩).
(٣) الإسراء: الآية (٤١).
(٤) طه: الآية (١١٣).
(٥) الزمر: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٦) الروم: الآية (٥٨).
(٧) الأضواء (٣/ ٣٠١).

الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادا، وطمأنينة، ونورا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾»[١].

وقال عبدالكريم الخطيب: «وفي الإشارة إلى القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ وهو معروف لهؤلاء المخاطبين تنويه بشأن هذا القرآن، وبمقامه العالي الرفيع، الذي لا يراه إلا من رفع رأسه عن تراب هذه الأرض، واستشرف ببصره إلى مطالع الحق في آفاقه العليا، عندئذ يأخذ الإنسان الوضع الذي يمكن أن يرى فيه من معالم الوجود، ما لم يكن يرى منها شيئًا، وهو ينظر إلى موقع قدميه»[٢].

قال الزجاج: «﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ معناه: كان الكافر. ويدل عليه قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾»[٣].

وقال الشنقيطي: «كثرة خصومة الكفار ومماراتهم بالباطل ليدحضوا به الحق هو السياق الذي نزلت فيه الآية الكريمة؛ لأن قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ليذكروا ويتعظوا وينيبوا إلى ربهم؛ بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾[٤] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥] فلما أتبع ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾؛ علمنا من سياق الآية أن الكفار أكثروا الجدل والخصومة والمراء لإدحاض الحق الذي أوضحه الله، بما ضربه في هذا القرآن من كل مثل، ولكن كون هذا هو ظاهر القرآن وسبب النزول لا ينافي تفسير الآية الكريمة بظاهر عمومها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[٦].

قال الشوكاني: «والظاهر العموم؛ وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يأتي منها الجدال جدلا»[٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٠).
(٢) التفسير القرآني (٨/ ٦٣٥).
(٣) معاني القرآن (٣/ ١٩٦).
(٤) الإسراء: الآية (٤١).
(٥) الحشر: الآية (٢١).
(٦) الأضواء (٣/ ٣٠٢).
(٧) فتح القدير (٣/ ٤١٨).

وقال ابن عاشور: «ولا يحسُن أن يحمل التفضيل في الآية على بابه؛ بأن يراد أن الإنسان أكثر جدلًا من الشياطين والجن مما يجوز على حقيقته الجدل؛ لأنه محمل لا يراد مثله في مثل هذا. ومَن أنبأنا أن للشياطين والجن مقدرة على الجدل؟!»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الجدل المذموم، وحمل الإنسان الوارد في الآية على العموم

* عن علي بن حسين أن حسين بن علي رضي الله عنهما أخبره: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن رسول اللَّه ﷺ طرقه وفاطمة عليها السلام بنت رسول اللَّه ﷺ فقال لهم: «**ألا تصلون؟!**». فقال علي: فقلت: يا رسول الله! إنما أنفسنا بيد الله؛ فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف رسول اللَّه ﷺ حين قال له ذلك ولم يرجع إليه شيئًا. ثم سمعه وهو مدبر يضرب فخذه وهو يقول: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾»[2].

★ غريب الحديث:

طرقه: أتاهما ليلًا، والطارق هو الآتي بالليل ومنه سمي النجم طارقًا في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾[3].

★ فوائد الحديث:

استشهد بالحديث من المفسرين من حمل ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ الوارد في الآية على العموم.

قال ابن عطية -بعد أن ذكر الحديث واستشهاد النبي ﷺ فيه بالآية-: «فقد استعمل ﷺ الآية على العموم في جميع الناس»[4].

وقال الألوسي بعد ذكره الحديث: «إنه ظاهر في حمل الإنسان على

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٩١) والبخاري (١٣/ ٣٨٧/ ٧٣٤٧) ومسلم (١/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٧٧٥) والنسائي (٣/ ٢٢٧-٢٢٨/ ١٦١١).

(٣) الطارق: الآية (١).

(٤) المحرر (٣/ ٥٢٤).

العموم»(١).

وقال الشنقيطي: «فإيراده ﷺ الآية على قول علي رضي الله عنه: (إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا)؛ دليل على عموم الآية الكريمة وشمولها لكل خصام وجدل، لكنه قد دلت آيات أخر على أن من الجدل ما هو محمود مأمور به لإظهار الحق؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٣)»(٤).

وقال القاضي عياض: «وضرْب النبي ﷺ فخذه، وقوْله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾؛ استشهاد بقول الله تعالى، وتسليم لحجتهما، وحجة في صحة الجدل بالحق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٥)»(٦).

وقد ترجم البخاري رحمه الله على الحديث في كتاب الاعتصام من صحيحه بهذه الآية وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

قال ابن المنير: «أدخل الجدال المذكور في الآية في كتاب الاعتصام؛ لينبه على أن المذموم منه ضد الاعتصام، فيجب تركه. والمحمود معدود من الاعتصام، مثّل الأول بالآية الأولى، والثاني بالثانية»(٧).

وقال ابن بطال نقلا عن المهلب: «الجدال موضوعه في اللغة: المدافعة، فمنه مكروه ومنه حسن، فما كان منه تثبيتًا للحقائق، وتثبيتًا للسنن والفرائض فهو الحسن، وما كان منه على معنى الاعتذار والمدافعات للحقائق فهو المذموم، وأما قول علي فهو من باب المدافعة، فاحتج عليه النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾»(٨).

قال الحافظ: «ويؤخذ منه أن عليًا ترك فعل الأولى وإن كان ما احتج به متّجها، ومن ثم تلا النبي ﷺ الآية ولم يلزمه مع ذلك بالقيام إلى الصلاة، ولو كان امتثل

---

(١) روح المعاني (١٥/ ٣٠٠).

(٢) النحل: الآية (١٢٥).

(٣) العنكبوت: الآية (٤٦).

(٤) الأضواء (٣/ ٣٠٢).

(٥) العنكبوت: الآية (٤٦).

(٦) إكمال المعلم (٣/ ١٤١).

(٧) المتواري في شرح تراجم البخاري (٤٠٦-٤٠٧).

(٨) شرح البخاري (١٠/ ٣٧٧).

وقام لكان أولى . ويؤخذ منه الإشارة إلى مراتب الجدال؛ فإذا كان فيما لا بد له منه تعين نصر الحق بالحق، فإن جاوز الذي ينكر عليه المأمور نسب إلى التقصير، وإن كان في مباح اكتفي فيه بمجرد الأمر والإشارة إلى ترك الأولى»[١] .

* * *

(١) الفتح (١٣/ ٣٨٨) .

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قُبلا: أي مقابلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه آية تأسف عليهم، وتنبيه على فساد حالهم؛ لأن هذا المنع لم يكن بقصد منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأن حالهم تقتضي التأسف عليهم»[١].

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره: وما منع هؤلاء المشركين يا محمد الإيمان بالله إذ جاءهم الهدى بيان الله: وعلموا صحة ما تدعوهم إليه وحقيقته، والاستغفار مما هم عليه مقيمون من شركهم، إلا مجيئهم سنتنا في أمثالهم من الأمم المكذبة رسلها قبلهم»[٢].

وقال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم، وكلاهما تدل على مقتضاه آيات من كتاب الله تعالى، وأحد الوجهين أظهر عندي من الآخر.

الأول منهما: أن معنى الآية: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إذ جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات؛ إلا ما سبق في علمنا: من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين؛ أي: سنتنا في إهلاكهم بالعذاب المستأصل، أو ياتيهم العذاب قبلًا. والظاهر أن ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية مانعة خلو،

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٥).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٦٦).

فهي تجوز الجمع لإمكان إهلاكهم بالعذاب المستأصل في الدنيا كسنة اللَّه في الأولين من الكفار، وإتيان العذاب إياهم يوم القيامة قبلًا. وعلى هذا القول؛ فالآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جدًّا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4]. والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة.

القول الثاني: أن في الآية الكريمة مضافًا محذوفًا، تقديره: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن تأتيهم سنة الأولين، أو يأتيهم العذاب قبلًا.

والآيات الدالة على طلبهم الهلاك والعذاب عنادا وتعنتًا كثيرة جدًّا، كقوله عن قوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5]، وكقوله عن قوم هود: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[6]، وكقوله عن قوم صالح: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[7] وكقوله عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[8] وكقوله عن قوم نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[9].

فهذه الآيات وأمثالها في القرآن؛ ذكر اللَّه فيها شيئًا من سنة الأولين: أنهم يطلبون تعجيل العذاب عنادًا وتعنتًا. وبين تعالى أنه أهلك جميعهم بعذاب مستأصل، كإهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم لوط بجعل عالي قراهم سافلها، وإرسال

---

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٢) يونس: الآية (١٠١).
(٣) النحل: الآية (٣٧).
(٤) المائدة: الآية (٤١).
(٥) الشعراء: الآية (١٨٧).
(٦) الأحقاف: الآية (٢٢).
(٧) الأعراف: الآية (٧٧).
(٨) العنكبوت: الآية (٢٩).
(٩) هود: الآية (٣٢).

حجارة السجيل عليهم، كما هو مفصل في الآيات القرآنية.

وبين في آيات كثيرة: أن كفار هذه الأمة كمشركي قريش سألوا العذاب كما سأله من قبلهم؛ كقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[2]..

والقول الأول أظهر عندي؛ لأن ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير، إلا بحجة يجب الرجوع إليها تُثبت المحذوف المقدر. والله تعالى أعلم»[3].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معناه: أو يأتيهم العذاب فجأة.. وقال آخرون: أو يأتيهم العذاب عيانًا»[4].

والذي حققه الشنقيطي أن معناه: «أو يأتيهم العذاب عيانًا. وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: قبلًا؛ أي: فجأة. والتحقيق: أن معناه عيانًا، وأصله من المقابلة؛ لأن المتقابلين يعاين كل واحد منهما الآخر»[5].

قال صديق حسن خان: «فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته»[6].

* * *

(١) الأنفال: الآية (٣٢).
(٢) ص: الآية (١٦).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٠٤-٣٠٥).
(٤) جامع البيان (١٥/ ٢٦٦).
(٥) الأضواء (٣/ ٣٠٥).
(٦) فتح البيان (٨/ ٧١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يدحضوا: يزيلوا. ومكان دحض؛ أي: مزلق لا تثبت عليه قدم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: قبل العذاب مبشرين مَن صدّقهم وآمن بهم، ومنذرين مَنْ كذبهم وخالفهم»[١].

قال الشنقيطي: «كرر تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢]»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾

قال ابن كثير: «أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أي: ليُضعفوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم»[٤].

وقال الشنقيطي: «وهذا الذي ذكره هنا من مجادلة الكفار للرسل بالباطل أوضحه في مواضع أخر: كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٥] الآية. وقوله -جل وعلا-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٧] وإرادتهم إطفاء نور الله بأفواههم إنما هي بخصامهم وجدالهم بالباطل. وقد بين تعالى في مواضع أخر أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٢).
(٢) الأنعام: الآية (٤٨).
(٣) الأضواء (٣/ ٣٠٦).
(٤) تفسير القرآن (٥/ ١٧٢).
(٥) الشورى: الآية (١٦).
(٦) التوبة: الآية (٣٢).
(٧) الصف: الآية (٨).

ما أراده الكفار من إدحاض الحق بالباطل لا يكون، وأنهم لا يصلون إلى ما أرادوا، بل الذي سيكون هو عكس ما أرادوه؛ فيحق الحق ويبطل الباطل كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1] وكقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[5] وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الحق سيظهر ويعلو، وأن الباطل سيضمحل ويزهق ويذهب جفاء، وذلك هو نقيض ما كان يريده الكفار من إبطال الحق وإدحاضه بالباطل عن طريق الخصام والجدال»[7].

قال السعدي: «ومن حكمة اللّه ورحمته أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء»[8].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾

قال ابن كثير: «أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب»[9].

وهذا المعنى «جاء مبينًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[10] وكقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ

(١) التوبة: الآية (٣٣).
(٢) التوبة: الآية (٣٢).
(٣) الصف: الآية (٨).
(٤) الأنبياء: الآية (١٨).
(٥) الإسراء: الآية (٨١).
(٦) الرعد: الآية (١٧).
(٧) الأضواء (٣/ ٣٠٧-٣٠٨).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٢).
(٩) تفسير القرآن (٥/ ١٧٢).
(١٠) الجاثية: الآية (٩).

إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾(٣) الآية. إلى غير ذلك من الآيات»(٤).

* * *

(١) يس: الآية (٣٠).

(٢) الأنعام: الآية (١٠).

(٣) التوبة: الآيتان (٦٥و٦٦).

(٤) الأضواء (٣/٣٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

★ غريب الآية:

وقرًا: الوقر: بالفتح الثِّقَلُ. وبالكسر: الحمل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «المعنى: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، أن يُعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، وينسى ويطرح كبائره التي أسلفها، هذه غاية الانهمال»[1].

قال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات اللَّه من أعظم الظلم؛ قد زاد عليه في مواضع أخر بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة، فمن نتائجه السيئة ما ذكره هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلمًا.

ومن نتائجه السيئة جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق، وعدم الاهتداء أبدًا كما قال هنا مبينا بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

ومنها انتقام اللَّه -جل وعلا- من المعرض عن التذكرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[2].

ومنها كون المعرض كالحمار، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾[3] الآية.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٥).

(٢) السجدة: الآية (٢٢).

(٣) المدثر: الآيتان (٤٩و٥٠).

ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] الآية.

ومنها المعيشة الضنك والعمى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

ومنها سلكه العذاب الصَّعد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[3].

ومنها تقييض القرناء من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[4] إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة، الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات اللَّه -جل وعلا-.

وقد أمر تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره، القاصر نظره على الحياة الدنيا، وبين أن ذلك هو مبلغه من العلم، فلا علم عنده بما ينفعه في معاده، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[5].

وقد نهى -جل وعلا- عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذكر الغافل عنه في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[6]»[7].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يعرضون عن آيات اللَّه إذا ذكروا بها أغطية لئلا يفقهوه؛ لأن المعنى أن يفقهوا ما ذكروا به، وقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يقول: في آذانهم ثقلا لئلا يسمعوه»[8].

وقال الشنقيطي: «وهذا المعنى أوضحه اللَّه تعالى في آيات أخر كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ﴾[9] وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ

---

(١) فصلت: الآية (١٣).
(٢) طه: الآية (١٢٤).
(٣) الجن: الآية (١٧).
(٤) الزخرف: الآية (٣٦).
(٥) النجم: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٦) الكهف: الآية (٢٨).
(٧) الأضواء (٣/ ٣١٠).
(٨) جامع البيان (١٥/ ٢٦٨).
(٩) البقرة: الآية (٧).

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[2] وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[3] وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾[4]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا.

فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون؛ لأن اللَّه جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم؛ فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟!

فالجواب: أن اللَّه -جل وعلا- بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم؛ أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم كالختم والطبع والغشاوة والأكنة ونحو ذلك؛ إنما جعلها عليهم جزاء وفاقًا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاغ اللَّه قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك؛ جزاء على كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[5] أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[6] وهو دليل أيضًا واضح على أن سبب إزاغة اللَّه قلوبهم هو زيغهم السابق. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[8] الآية. وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[9] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[10] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينفع؛ عقاب من اللَّه على الكفر السابق على ذلك. وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبه الجبرية التي يتمسكون بها في

---

(١) الجاثية: الآية (٢٣).
(٢) الإسراء: الآيتان (٤٥و٤٦).
(٣) محمد: الآية (٢٣).
(٤) هود: الآية (٢٠).
(٥) النساء: الآية (١٥٥).
(٦) الصف: الآية (٥).
(٧) المنافقون: الآية (٣).
(٨) البقرة: الآية (١٠).
(٩) الأنعام: الآية (١١٠).
(١٠) المطففين: الآية (١٤).

هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم»[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: وَإِنْ تَدْعُ يا مُحَمَّد هؤلاء المعرضين عن آيات اللَّه عند التذكير بها إلى الاستقامة على محجة الحق والإيمان باللَّه، وما جئتهم به من عند ربك ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ يقول: فلن يستقيموا إذًا أبدًا على الحقّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه؛ لأن اللَّه قد طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا مِن أن مَن أشقاهم اللَّه لا ينفع فيهم التذكير؛ جاء مبينًا في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[٧]. وهذه الآية وأمثالها في القرآن؛ فيها وجهان معروفان عند العلماء؛ أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم اللَّه أنهم أشقياء عياذًا باللَّه تعالى. والثاني: أن المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر، فإن هداهم اللَّه إلى الإيمان وأنابوا زال ذلك المانع، والأول أظهر. والعلم عند اللَّه تعالى»[٨].

وقال السعدي: «وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينه وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك؛ ما هو أعظم مرهّب وزاجر عن ذلك»[٩].

* * *

(١) الأضواء (٣/ ٣١١-٣١٢).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٦٨).
(٣) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٤) الشعراء: الآيتان (٢٠٠و٢٠١).
(٥) يونس: الآية (١٠١).
(٦) يونس: الآية (١٠٠).
(٧) النحل: الآية (٣٧).
(٨) الأضواء (٣/ ٣١٣-٣١٤).
(٩) التيسير (٥/ ٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

موئلا: أي ملجأ ومنجا. يقال: وَأَلَ فلان من العدو؛ أي: نَجَا منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «لما أخبر تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم، أنهم لا يهتدون أبدًا، عقب ذلك بأنه للمؤمنين ﴿ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، ويتحصل للكفار من صفته تعالى بالغفران والرحمة ترك المعاجلة، ولو أخذوا بحسب ما يستحقونه لبادرهم بالعذاب المبيد لهم، ولكنه تعالى أخرهم إلى موعد لا يجدون عنه منجًا»[(١)].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه غفور؛ أي كثير المغفرة، وأنه ذو الرحمة يرحم عباده المؤمنين يوم القيامة، ويرحم الخلائق في الدنيا. وبين في مواضع أخر أن هذه المغفرة شاملة لجميع الذنوب بمشيئته -جل وعلا- إلا الشرك؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(٢)] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾[(٣)]. وبين في موضع آخر: أن رحمته واسعة، وأنه سيكتبها للمتقين؛ وهو قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[(٤)] الآية. وبين في مواضع أخر سعة مغفرته ورحمته؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[(٥)] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[(٦)]. ونحو ذلك من الآيات وبين في مواضع أخر أنه مع سعة رحمته ومغفرته

---

(١) المحرر (٣/ ٥٢٦).
(٢) النساء: الآية (٤٨).
(٣) المائدة: الآية (٧٢).
(٤) الأعراف: الآية (١٥٦).
(٥) النجم: الآية (٣٢).
(٦) الزمر: الآية (٥٣).

شديد العقاب؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١] وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة: أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي؛ لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة، فهو يمهل ولا يهمل، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾[٤] وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه وإن لم يجعل لهم العذاب في الحال؛ فليس غافلًا عنهم ولا تاركًا عذابهم، بل هو تعالى جاعل لهم موعدًا يعذبهم فيه، لا يتأخر العذاب عنه ولا يتقدم. وبين هذا في مواضع أخر كقوله في النحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وقوله في آخر سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾[٦] وكقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[٧] وكقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾[٨]»[٩].

وقال السعدي: «ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد

(١) الرعد: الآية (٦).
(٢) غافر: الآية (٣).
(٣) الحجر: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٤) النحل: الآية (٦١).
(٥) فاطر: الآية (٤٥).
(٦) فاطر: الآية (٤٥).
(٧) إبراهيم: الآية (٤٢).
(٨) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٩) الأضواء (٣/ ٣١٦-٣١٧).

على ما قدمت أيديهم من الذنوب؛ لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه»[1].

وقال عبدالكريم الخطيب: «وإذ كشفت الآية السابقة عن جحود الإنسان، وكفره بآلاء ربه، وإعراضه عن الاستماع لدعوته إليه؛ فقد جاءت هذه الآية لتكشف عن سعة رحمة اللَّه ومغفرته لعباده، وهم على حرب معه ومع أوليائه، فقد وسعتهم رحمته ومغفرته، فلم يعجل ﷻ لهم العذاب، ولم يأخذهم بما هم أهل له من نقمة وبلاء، كما أخذ الأمم السابقة من قبلهم، بل أمهلهم، وأفسح لهم المجال لإصلاح ما أفسدوا من أمرهم، والرجوع إلى ربهم من قريب.

وهذا ولا شك من خصوصيات هذه الأمة، التي اختصها اللَّه بها، تكريمًا لرسوله الكريم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]، وأكثر أنبياء اللَّه ورسله قد شهدوا بأعينهم مصارع أقوامهم، ولكن هذه الأمة قد عافاها اللَّه من هذا الابتلاء، وأكرم نبيها فلم يفجعه في أهله وقومه، وكان من تمام هذه النعمة على النبي الكريم وعلى أمته، أنه ﷺ لم يدَع هذه الدنيا ويلحق بالرفيق الأعلى حتى رأى بعينيه قومه جميعًا يدخلون في دين اللَّه أفواجًا، ورأى العرب جميعًا أمة مؤمنة باللَّه، وحتى تلقّى من ربه ﷻ هذا الثناء العظيم على أمته بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٣-٥٤).
(٢) الأنفال: الآية (٣٣).
(٣) آل عمران: الآية (١١٠).

وفي قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ إشارة إلى أن مغفرة اللَّه ورحمته، لا يدفعان بأسه عن القوم المجرمين، فهناك حساب، وهناك جزاء، توفّى فيه كل نفس ما كسبت، وليس لأحد سبيل إلى الفرار من هذا الحساب وذاك الجزاء»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني (٨/ ٦٣٨-٦٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يعني ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدا موعدا، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم، سنتنا في الذين خلوا من قبلهم من ضُربائهم»[1].

وقال عبدالكريم الخطيب: «الإشارة هنا إلى تلك القرى التي أهلكها الله من قبل، كقرى عاد، وثمود، ولوط.. فهذه القرى وغيرها ممن كفروا بآيات الله وعصوا رسله، قد أهلكهم الله، وعجّل لهم العذاب في الدنيا، ولم يمهلهم كما أمهل أهل هذه القرية (مكة) والقرى التي حولها، رحمة منه سبحانه وإكرامًا لنبيه الكريم، وفي هذا تهديد لمشركي مكة، وإلفات لهم إلى أنهم واقعون تحت حكم القوم الهالكين، فتلك هي سنة الله التي قد خلت في عباده، لمن كفروا بالله وعصوا رسله، وقد كفر أهل مكة بالله وعصوا رسله، وإن فيما أخذ الله به القرى الظالمة من قبلهم لعبرة لهم، وعلى هذا فإنه وإن أمهل الله أهل هذه القرية، فلم يعجّل لها الهلاك، فإنهم هالكون لا محالة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

فالضمير في ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ يعود إلى أهل مكة، وهو أولى من عوده إلى أهل القرى المشار إليها في أول الآية، إذ كان قوله تعالى: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يحمل معه الموعد الذي أُهلكوا فيه، وهو عند ظلمهم، وكفرهم بالله، وعدوانهم على

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٧٠).

(٢) الأعراف: الآية (٣٤).

رسلهم، فعود الضمير إلى أهل مكة الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أولى من عوده على أهل القرى، إذ يحقق معنىً جديدًا، فيه تهديد لمشركي مكة، وقطع لآمالهم في هذه الحياة، وتصحيح لظنونهم الكاذبة، وأمانيهم الباطلة، وأنهم ليسوا خالدين في هذه الدنيا»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني (٨/ ٦٣٩-٦٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

لا أبرح: أي لا أَزالُ. قال الشاعر:

وأبرح ما أدام اللَّه قومي رخيّ البال منتطقا مَجيدا

حقبا: أي زمانا طويلا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

«هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها اللَّه في هذه السورة»[1].

قال ابن جرير: «يقول عز ذكره لنبيه ﷺ: واذكر يا محمد إذ قال موسى بن عمران لفتاه يوشع: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ يقول: لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾»[2].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن نبيه موسى ﷺ، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه -أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه اللَّه بعد ذلك-: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: لا أزال مسافرا وإن طالت عليّ الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد اللَّه العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه»[3].

قال القرطبي: «﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾: الفتى في كلام العرب: الشاب،

(١) التفسير الكبير (٢١/ ١٤٤).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٧١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٥).

ولما كان الخدَمَة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «**لا يقل: أحكم عبدي ولا أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي**»[١] فهذا ندب إلى التواضع، وقد تقدم هذا في (يوسف). والفتى في الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون»[٢].

وقال الحافظ: «وزعم ابن العربي أن ظاهر القرآن يقتضي أن الفتى ليس هو يوشع، وكأنه أخذ من لفظ الفتى أو أنه خاص بالرقيق، وليس بجيد لأن الفتى مأخوذ من الفتي وهو الشباب، وأطلق ذلك على من يخدم المرء سواء كان شابًّا أو شيخا؛ لأن الأغلب أن الخدم تكون شبانًا»[٣].

قوله تعالى: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾.

قال ابن جرير: «قيل: عنى بقوله: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ اجتماع بحر فارس والروم»[٤].

قال ابن عطية: «هو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمالٍ إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي الشام»[٥].

قال ابن كثير: «قال محمد بن كعب القرظي: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب»[٦].

قال أبو حيان: «والظاهر أن ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ هو اسم مكان جمع البحرين»[٧].

وقال الشنقيطي: «ومعلوم أن تعيين البحرين من النوع الذي قدمنا أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وليس في معرفته فائدة، فالبحث عنه تعب لا طائل تحته، وليس عليه دليل يجب الرجوع إليه»[٨].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦)، والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٥/ ٢٢٤٩[١٥])، وأبو داود (٥/ ٢٥٧/ ٤٩٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩).

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٢٩).

(٤) جامع البيان (١٥/ ٢٧١).

(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٧).

(٦) تفسير القرآن (٥/ ١٧٥).

(٧) البحر (٦/ ١٣٦).

(٨) الأضواء (٣/ ٣٢٢).

وقال الزمخشري: «ومن بدع التفاسير أن البحرين موسى والخضر؛ لأنهما بحرين في العلم»[١].

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

قال ابن جرير: «أي: أسير زمانًا ودهرًا.. وذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس: سنة، فأما أهل التأويل فإنهم يقولون في ذلك ما أنا ذاكره، وهو أنهم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو ثمانون سنة.. وقال آخرون: هو سبعون سنة.. وقال آخرون في ذلك بنحو الذي قلنا»[٢].

* * *

(١) الكشاف (٢/ ٤٩٠).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سربا: السرب: المسلك في جوف الأرض لا نفاذ له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين.. عن مجاهد، قوله: ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ قال بين البحرين.. وقوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ﴾ يعني بقوله ﴿نَسِيَا﴾ تركا..

قال بعض أهل العربية: إن الحوت كان مع يوشع، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما، كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1] وإنما يخرج من المَلِح دون العذب.

وإنما جاز عندي أن يقال: ﴿نَسِيَا﴾؛ لأنهما كانا جميعًا تزوّداه لسفرهما، فكان حمل أحدهما ذلك مضافًا إلى أنه حمل منهما، كما يقال: خرج القوم من موضع كذا، وحملوا معهم كذا من الزاد، وإنما حمله أحدهم، ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم أضيف ذلك إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله في موضع قيل: نسي القوم زادهم، فأضيف ذلك إلى الجميع بنسيان حامله ذلك، فيجري الكلام على الجميع، والفعل من واحد، فكذلك ذلك في قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ لأن اللَّه عزّ ذكره خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام.

وأما قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ فإن القول في ذلك عندنا بخلاف ما قيل فيه، وسنبينه إن شاء اللَّه تعالى إذا انتهينا إليه.

---

(١) الرحمن: الآية (٢٢).

وأما قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فإنه يعني أن الحوت اتخذ طريقه الذي سلكه في البحر سربا.. ويعني بالسرب المسلك والمذهب يسرب فيه: يذهب فيه ويسلكه.

ثم اختلف أهل العلم في صفة اتخاذه سبيله في البحر سربا، فقال بعضهم: صار طريقه الذي يسلك فيه كالحجر.. وقال آخرون: بل صار طريقه في البحر ماء جامدًا.. وقال آخرون: بل صار طريقه في البحر حجرًا.. وقال آخرون: إنما اتخذ سبيله سربا في البر إلى الماء حتى وصل إليه لا في البحر..

والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال اللَّه ﷿: واتخذ الحوت طريقه في البحر سربا. وجائز أن يكون ذلك السرب كان بانجياب عن الأرض، وجائز أن يكون كان بجمود الماء، وجائز أن يكون كان بتحوله حجرًا.

وأصح الأقوال فيه ما رُوي الخبر به عن رسول اللَّه ﷺ الذي ذكرنا عن أبيّ عنه»[١].

وقال أبو حيان: «والظاهر أن السرب كان في الماء، ولا يفسر إلاّ بما ورد في الحديث الصحيح أن الماء صار عليه كالطاق، وهو معجزة لموسى ﵇»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٧٢-٢٧٤).

(٢) البحر (٦/ ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نصبا: تعبًا. وهو الوهن الذي يكون من الكد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه يوشع: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ يقول: جئنا بغدائنا وأعطناه..

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا عناء وتعبًا، وقال ذلك موسى -فيما ذُكر- بعد ما جاوز الصخرة، حين ألقي عليه الجوع ليتذكر الحوت، ويرجع إلى موضع مطلبه»[1].

وقال القرطبي: «﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألة واحدة: وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتحمون المهامِه والقفار، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على اللَّه الواحد القهار، هذا موسى نبي اللَّه وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد.

وفي صحيح البخاري: (إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾[2])[3]»[4].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٧٤).

(٢) البقرة: الآية (١٩٧).

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٤٨٩/ ١٥٢٣) وأبو داود (٢/ ٣٤٩/ ١٧٣٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٠/ ١١٠٣٣) عن ابن عباس.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- قال فتى موسى لموسى حين قال له: آتنا غداءنا لنطعم: أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت هنالك ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يقول: وما أنساني الحوت إلا الشيطان ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ فـ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب ردًّا على الحوت؛ لأن معنى الكلام: وما أنساني أن أذكر الحوت إلا الشيطان سبق الحوت إلى الفعل، وردّ عليه قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ وقد ذكر أن ذلك في مصحف عبدالله: وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يعني: كان سرب الحوت في البحر لموسى عجبًا»[1].

وفي الآية «دليل على جواز النسيان على الأنبياء، وكذلك على الخلق في معاني الدين، وهو عفو عند الله سبحانه»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٧٥).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فقال موسى لفتاه ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني بذلك: نسيانك الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ﴾ يقول: الذي كنا نلتمس ونطلب؛ لأن موسى كان قيل له: صاحبك الذي تريده حيث تنسى الحوت.

وقوله: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يقول: فرجعا في الطريق الذي كانا قطعاه ناكصين على أدبارهما يقصان آثارهما التي كانا سلكاهما»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٧٥-٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أعطاه اللَّه رحمة خاصة، بها زاد علمه، وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم اللَّه على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال موسى للعالِم: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ من العلم الذي علمك اللَّه ما هو رشاد إلى الحقّ ودليل على هدى»[١].

قال القرطبي: «هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل، المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما في الحديث: (هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول اللَّه ﷺ يتوضأ؟)[٢] وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٣]»[٤].

وفي الآية «دليل على أن المتعلم تبع للعالم ولو تفاوتت المراتب»[٥]. وفيها «دليل على التواضع للعالم»[٦].

وقال السعدي: «أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك اللَّه، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه اللَّه من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت، حتى على موسى ﷺ، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٨)، والبخاري (١/ ٣٨٣-٣٨٤/ ١٨٥)، ومسلم (١/ ٢١٠/ ٢٣٥)، وأبو داود (١/ ٨٦-٨٧/ ١١٨)، والترمذي (١/ ٤٧/ ٣٢)، والنسائي (١/ ٧٥-٧٦/ ٩٧)، وابن ماجه (١/ ١٤٩-١٥٠/ ٤٣٤). من حديث عبداللَّه بن زيد بن عاصم المازني.

(٣) المائدة: الآية (١١٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٣).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٤٥).

(٦) البحر المحيط (٦/ ١٣٩).

من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله؟

فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر»[1].

قال ابن العربي: «حكم عليه بعادة الخلق في عدم الصبر عما يخرج عن الاعتياد، وهو أصل في الحكم بالعادة»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «ويبدأ اللقاء بين العبدين الصالحين، بأن يعرض موسى على صاحبه أن يقبله تابعا له، يتعلم من علمه، ويغترف من بحره، وذلك في تواضع كريم، وأدب نبوي عظيم، فيقول: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وفي هذا العرض أمور:

١- استئذان مصحوب برجاء وتلطف.

٢- أن يكون موسى تابعا يقفو أثر متبوعه، ويمشي في ظله.

٣- أن تكون غاية هذه الصحبة، وتلك المتابعة، تحصيلَ العلم والمعرفة، فيفيد موسى علمًا، وينال العبد الصالح أجرًا.

٤- هذا العلم الذي عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه، بل هو علم عُلّمه، وإذن فهو مطالَب بأن يعلّم كما عُلّم.

٥- هذا العلم المطلوب تعلُّمُه؛ هو مما يكمل به الإنسان ويرشُد، فهو علم يهدي إلى الحق، وإلى الرشاد، لا إلى الضلال والفساد.

ويستمع العبد الصالح إلى هذا العرض من موسى، فيرى أن العلم الذي عنده، والذي يطلب موسى تناول شيء منه؛ هو علم لا يستسيغه عقله، ولا يقبله منطقه، فيقول له في وداعة ولطف: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي: إن العلم الذي معي، هو علم فوق إدراك العقول وتصوراتها، وإذن فلم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧-٥٨).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٢٤٥).

يكون مبعث اطمئنان لك، إذ يرفضه عقلك، ويتأبّى عليه منطقك، والعلم الذي يفيد صاحبه، هو العلم الذي يحيط به عقله، وتتسع له مداركه، فنزل عنده منزل القبول والاطمئنان، فإذا لم يكن كذلك أضرّ ولم ينفع، وأثار في النفس قلقًا، واضطرابًا، وعقد في سماء الفكر سُحبًا من الشكوك والريب.

وإذ يتلقى موسى هذا الردّ؛ يجد أن الفرصة تكاد تفلت منه، ويرى سعيه الذي سعاه قد جاء بغير طائل، ولكنه لابد أن يمضي في التجربة إلى غايتها، خاصة وقد أثار هذا القول غريزة حبّ الاستطلاع عنده، وأغراه بأن يخوض عباب هذا البحر، ولو خاطر بنفسه، فقال في أدب نبوي رفيع: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ هكذا ينبغي أن يكون أدب الطلب والتحصيل»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني (٨/ ٦٥٢-٦٥٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تبارك وتعالى: قال العالم لموسى فإن اتبعتني الآن فلا تسألني عن شيء أعمله مما تستنكره، فإني قد أعلمتك أني أعمل العمل على الغيب الذي لا تحيط به علمًا ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يقول: حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي أفعلها التي تستنكرها أذكرها لك وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها»[1].

قال القرطبي: «وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٨٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خرقها: نقبها وثقبها.

إِمرًا: أي: عظيمًا منكرًا. من أَمِرَ الأَمْرُ: إذا عَظُمَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فانطلق موسى والعالم يسيران يطلبان سفينة يركبانها، حتى إذا أصاباها ركبا في السفينة، فلما ركباها، خرق العالم السفينة، قال له موسى: أخرقتها بعد ما لَجَجنا في البحر ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ يقول: لقد جئت شيئًا عظيما، وفعلت فعلا منكرا»[1].

قال ابن جرير: «يقول العالم لموسى إذ قال ما قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ على ما ترى من أفعالي؛ لأنك ترى ما لم تُحِط به خبرا، قال له موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ فاختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: كان هذا الكلام من موسى ﷺ للعالِم معارضة، لا أنه كان نسي عهده، وما كان تقدّم فيه حين استصحبه بقوله: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تؤاخذني بتركي عهدك، ووُجه أن معنى النسيان: الترك..

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن موسى سأل صاحبه أن لا يؤاخذه بما نسي فيه عهده من سؤاله إياه على وجه ما فعل وسببه، لا بما سأله عنه، وهو لعهده

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٨٤).

ذاكر للصحيح عن رسول اللَّه ﷺ، بأن ذلك معناه من الخبر. . عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول اللَّه ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ قال: كانَتِ الأولى مِنْ مُوسَى نسيانا.

وقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يقول: لا تُغْشِني من أمري عسرًا، يقول: لا تضيق علي أمري معك، وصحبتي إياك»[1].

قال القرطبي: «فيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٨٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

★ غريب الآية:

نكرًا: منكرًا فظيعًا جدًّا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ العالِم، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾.

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الحجاز والبصرة: «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً» وقالوا معنى ذلك: المطهرة التي لا ذنب لها، ولم تذنب قطّ لصغرها. وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل الكوفة: ﴿نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ بمعنى: التائبة المغفور لها ذنبها.. وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل الكوفة يقول: معنى الزكية والزاكية واحد، كالقاسية والقسية، ويقول: هي التي لم تَجْنِ شيئًا، وذلك هو الصواب عندي؛ لأني لم أجد فرقا بينهما في شيء من كلام العرب. فإذا كان ذلك كذلك، فبأيّ القراءتين قرأ ذلك القارئ فمصيب؛ لأنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار بمعنى واحد.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقول بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قَوَدا بها، وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ يقول: لقد جئت بشيء منكر، وفعلت فعلا غير معروف»[1].

قال الشوكاني: «وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٨٦).

العلة، فقيل: إنه كان بالغًا وقد استحق ذلك بكفره. وقيل: كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك، ويكون معنى ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾: أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية، وقد يؤدّي ذلك إلى الكفر والارتداد. والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغًا كافرًا أو قاطعًا للطريق، هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند اللَّه سبحانه تسوّغ له ذلك، وأما إذا كان الغلام صبيًا غير بالغ؛ فقيل: إن الخضر علم بإعلام اللَّه له أنه لو صار بالغًا لكان كافرًا يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه؛ فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله؛ لا يحلّ في الشريعة المحمدية، ولكنه حلّ في شريعة أخرى، فلا إشكال»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال العالم لموسى: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ على ما ترى من أفعالي التي لم تحط بها خبرا، قال موسى له: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ يقول: بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ يقول: ففارقني، فلا تكن لي مصاحبا ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ يقول: قد بلغت العذر في شأني»[2].

* * *

(١) فتح القدير (٣/ ٤٢٩-٤٣٠).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٨٧).

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧﴾

★ غريب الآية:

ينقضّ: يسقط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾

قال القرطبي: «اختلف العلماء في القرية؛ فقيل: هي الأبلّة.. وقيل: أنطاكية. وقيل: جزيرة الأندلس. وقيل: برقة.. وقيل: ناصرة»[(١)].

قال الحافظ: «وهذا الاختلاف قريب من الاختلاف في المراد بمجمع البحرين، وشدة المباينة في ذلك تقتضي ألا يوثق بشيء من ذلك»[(٢)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فانطلق موسى والعالم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ من الطعام فلم يطعموهما، واستضافاهم ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يقول: وجدا في القرية حائطا يريد أن يسقط ويقع، يقال منه: انقضّت الدار: إذا انهدمت وسقطت، ومنه انقضاض الكوكب، وذلك سقوطه وزواله عن مكانه..

واختلف أهل العلم بكلام العرب في معنى قول اللّه ﷻ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؛ فقال بعض أهل البصرة: ليس للحائط إرادة ولا للمَوات؛ ولكنه إذا كان في هذه الحال من رثة فهو إرادته..

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧-١٨) باختصار.
(٢) الفتح (٨/ ٥٣٦).

وقال آخر منهم: إنما كلم القوم بما يعقلون، قال: وذلك لما دنا من الانقضاض، جاز أن يقول: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، قال: ومثله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾[1].. ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[2] والغضب لا يسكت، وإنما يسكت صاحبه، وإنما معناه: سكن، وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾[3] يعزم أهله.

وقال آخر منهم: هذا من أفصح كلام العرب؛ وقال: إنما إرادة الجدار: ميله، كما قال النبيّ ﷺ: «لا تَرَاءى نارَاهُما»[4] وإنما هو أن تكون ناران كلّ واحدة من صاحبتها بموضع لو قام فيه إنسان رأى الأخرى في القُرب، قال: وهو كقول اللَّه ﷻ في الأصنام ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[5].. وكذلك قوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ﴾ قد علمت أن معناه: قد قارب من أن يقع أو يسقط، وإنما خاطب -جل ثناؤه- بالقرآن من أنزل الوحي بلسانه، وقد عقلوا ما عنى به وإن استعجم عن فهمه ذوو البلادة والعمى، وضل فيه ذوو الجهالة والغبى»[6].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بأن المجاز في القرآن؛ زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هي مجاز. وقد دلت آيات من كتاب اللَّه على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة؛ لأن اللَّه تعالى يعلم للجمادات إرادات وأفعالًا وأقوالًا لا يدركها الخلق، كما صرح تعالى بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله -جل وعلا-: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[7] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو -جل وعلا- ونحن لا نعلمها، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة. فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

---

(١) مريم: الآية (٩٠).
(٢) الأعراف: الآية (١٥٤).
(٣) محمد: الآية (٢١).
(٤) أخرجه من حديث جرير بن عبدالله: أبو داود (٣/ ١٠٤-١٠٥/ ٢٦٤٥)، والترمذي (٤/ ١٣٢-١٣٣/ ١٦٠٤)، والنسائي (٨/ ٤٠٤-٤٠٥/ ٤٧٩٤) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء حديث (١٢٠٧).
(٥) الأعراف: الآية (١٩٤).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٢٨٩-٢٩٠).
(٧) الإسراء: الآية (٤٤).

﴿خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[١] الآية. فتصريحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية اللَّه دليل واضح في ذلك؛ لأن تلك الخشية بإدارك يعلمه اللَّه ونحن لا نعلمه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[٢] الآية. فتصريحه -جل وعلا- بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت أي: خافت؛ دليل على أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه هو -جل وعلا- ونحن لا نعلمه. ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم: أن النَّبي ﷺ قال: «**إني لأعرف حجرًا كان يسلم علي بمكة**»[٣] وما ثبت في صحيح البخاري[٤] من حَنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعًا لفراقه، فتسليم ذلك الحجر وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه اللَّه ونحن لا نعلمه، كما صرح بمثله في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٥]. وزَعْم من لا علم عنده أن هذه الأمور لا حقيقة لها وإنما هي ضرب أمثال زعمٌ باطل؛ لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وأمثال هذا كثيرة جدًّا. وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون اللَّه علم منه إرادة الانقضاض وإن لم يعلم خلقُه تلك الإرادة. وهذا واضح جدًّا كما ترى. مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشيء؛ كما في قول الشاعر:

في مَهْمَهٍ فُلِقَت به هاماتُها فَلْق الفؤوس إذا أردن نضولا

فقول: إذا أردن نضولا؛ أي: قاربنه. وقول الآخر:

يُريد الرمحُ صدرَ أبي براء ويعدِل عن دماء بني عَقيل

أي: يميل إلى صدر أبي براء. وكقول راعي نمير:

إن دهرًا يَلُفُّ شملي بسعدى لَزمانٌ يَهُمّ بالإحسان

---

(١) البقرة: الآية (٧٤). (٢) الأحزاب: الآية (٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٨٩) ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٩) والبخاري (٦/ ٦٤٧/ ٣٨٥٣)، والترمذي (٢/ ٣٧٩/ ٥٠٥) من حديث ابن عمر. وفي الباب عن أنس وجابر، وسهل بن سعد وأبي بن كعب وابن عباس وأم سلمة والحديث متواتر كما ذكر ابن كثير في التفسير (٦/ ٦١٥).

(٥) الإسراء: الآية (٤٤).

فقوله: لزمان يهُمّ بالإحسان؛ أي: يقع الإحسان فيه. وقد بينا في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز» أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز؛ أن ذلك لا يتعين في شيء منها. وبينا أدلة ذلك. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾:

قال ابن جرير: «ذكر عن ابن عباس أنه هدمه ثم قعد يبنيه.. وقال آخرون: رفع الجدار بيده فاستقام. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه عزّ ذكره أخبر أن صاحب موسى وموسى وجدا جدارًا يريد أن ينقضّ فأقامه صاحب موسى، بمعنى: عَدّل ميله حتى عاد مستويا.

وجائز أن يكون كان ذلك بإصلاح بعد هدم، وجائز أن يكون كان برفع منه له بيده؛ فاستوى بقدرة اللَّه، وزال عنه مَيْلُه بلطفه، ولا دلالة من كتاب اللَّه ولا خبر للعذر قاطع بأي ذلك كان من أيٍّ.

وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يقول: قال موسى لصاحبه: لو شئت لم تُقم لهؤلاء القوم جدارهم حتى يعطوك على إقامتك أجرًا، فقال بعضهم: إنما عَنَى موسى بالأجر الذي قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ القِرى: أي حتى يَقْرُونا، فإنهم قد أبوا أن يضيفونا. وقال آخرون: بل عنى بذلك العوض والجزاء على إقامة الحائط المائل»[2].

«وفي الآية دليل على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل؛ لأنه شرع من قبلنا وحكاه القرآن ولم يَرد ما ينسخه..

وفي الآية: مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية. وفي حديث الموطإ أن النبي ﷺ قال: «**ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة**»[3] أي: يتحفه ويبالغ في بره. وضيافته ثلاثة أيام، أي إطعام وإيواء

---

(١) الأضواء (٣/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٩٠-٢٩١).

(٣) أخرجه من حديث أبي شريح الكعبي ﷺ: أحمد (٤/ ٣١)، والبخاري (١٠/ ٥٣١/ ٦١٣٥)، ومسلم (١/ ٦٩/ ٤٨)، وأبو داود (٤/ ١٢٧-١٢٨/ ٣٧٤٨)، والترمذي (٤/ ٣٠٤/ ١٩٦٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٢/ ٣٦٧٥).

بما حضر من غير تكلف كما يتكلف في أول ليلة، فما كان بعد ذلك فهو صدقة.

واختلف الفقهاء في وجوبها فقال الجمهور: الضيافة من مكارم الأخلاق، وهي مستحبة وليست واجبة، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي. وقال سحنون: الضيافة على أهل القرى والأحياء. ونُسب إلى مالك. قال سحنون: أما الحضر فالفندق ينزل فيه المسافرون. وقال الشافعي ومحمد بن عبد الحكم من المالكية: الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي. وقال الليث وأحمد: الضيافة فرض يوما وليلة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٧-٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قال صاحب موسى لموسى هذا الذي قلته وهو قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ يقول: فرقة ما بيني وبينك: أي: مُفرّق بيني وبينك.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ يقول: سأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ يقول: بما يئول إليه عاقبة أفعالي التي فعلتها، فلم تستطع على تَرك المسألة عنها، وعن النكير علي فيه صبرًا»[1].

وقال عبدالكريم الخطيب: «كان لا بد للمعلم أن يكشف لتلميذه عن خفايا هذه التجربة المثيرة، التي أراه منها ظاهرًا لا يستقيم على أي منطق، ولا يتفق مع أي عاقل، ولا يلتقي مع تقدير أي إنسان سليم الإدراك، إنها أمور تدور لها الرءوس، وتضطرب معها العقول، وإن موسى لفي حيرة بالغة من أمر صاحبه هذا، الذي جاءه ليطلب العلم عنده، بتوجيه من ربه، وحيًا أو إلهامًا.

وقد فعل المعلِّم ما تقضي به الحكمة، ويعتدل به ميزان التربية السليمة، فلم يدَع تلميذه نهبًا للوساوس والشكوك، بل إنه ما كاد يؤذنه بالفراق، وبإنهاء هذه التجربة التي أدخله فيها؛ حتى أخذ يشرح له حقيقة الموقف، ويكشف به عن الوجه الخفيّ من كل حدَث من تلك الأحداث الثلاثة، فكانت قولته له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ مشفوعًا بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وهنا في هذه الآيات تأويل كل حدَث منها. وفي كلمة (تأويل) إشارة إلى أن هذه الأحداث كما بدت في ظاهرها؛ لا تعدو أن تكون أشبه بالأحلام، التي لها مفهوم يغاير منطوقها في

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٩١).

صورته، وأن هذا المفهوم لا يعلمه إلا اللَّه والراسخون في العلم، وذلك كتأويل يوسف لرؤيا الملك، التي عجز العلماء عن تأويلها، و﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[١].

فالأحداث التي أجراها العبد الصالح بين يدي موسى أشبه بهذه الرؤى، وإن كانت أبعد في المفارقة بين منطوقها ومفهومها»[٢].

* * *

(١) يوسف: الآية (٤٤).

(٢) التفسير القرآني (٨/ ٦٥٨-٦٥٩).

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

★ غريب الآية:

وراءهم: الوراء: الخلف، وهو نقيض القدام. وقد يأتي بمعناه. قال لبيد:

أَلَيْسَ ورائي إن تراخت منِيّتي   لزوم العصا تحنو عليها الأصابع

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: أما فعل ما فعلت بالسفينة؛ فلأنها كانت لقوم مساكين ﴿لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بالخرق الذي خرقتها..

وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ وكان أمامهم وقدامهم ملك..

وقوله: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فيقول القائل: فما أغنى خَرْق هذا العالم السفينة التى ركبها عن أهلها، إذ كان من أجل خرقها يأخذ السفن كلها، مَعِيبها وغير معيبها، وما كان وجه اعتلاله في خرقها بأنه خرقها؛ لأن وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا؟ قيل: إن معنى ذلك، أنه يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا، ويدع منها كلّ معيبة، لا أنه كان يأخذ صحاحها وغير صحاحها. فإن قال: وما الدليل على أن ذلك كذلك؟ قيل: قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأبان بذلك أنه إنما عابها؛ لأن المعيبة منها لا يعرِض لها، فاكتفى بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا، على أن ذلك في بعض القراءات كذلك»[1].

وقال عبد الكريم الخطيب: «إنه كما يبدو الآن عمل من أعمال البر والرحمة لأصحاب السفينة، قد كان يُرى من قبل عدوانًا عليهم وظلمًا صارخًا لهم، إن هذا الخرق الذي أحدثه العبد الصالح في السفينة قد جعلها سفينة معطوبة معيبة،

(١) جامع البيان (١٦/ ٢).

لا تصلح للغرض الذي من أجله كان الملك يستولي على السفن، وينتزعها من يد أصحابها قهرا وقسرًا، وبهذا تخطّت عين الملك هذه السفينة حين رآها على تلك الحال، وبهذا أيضًا سلمت السفينة من هذا العدوان، وبقيت في يد أصحابها المساكين، الذين يعلمون عليها ويرزقون منها، أما هذا العطب الذي لحق بالسفينة أيًّا كان فإنه ممكن إصلاحه.

وفيه قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لا تعني كلمة (وراءهم) أن الملك نفسه كان على أثرهم، وإنما تعني أن سلطان الملك قائم عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾[1] أي أنها مسلطة على هذا الظالم محيطة به، لا يفلت منها، هذه واحدة، وقد تلقاها موسى بأذن واعية، وقلب متفتح، وأشرق وجهه، ولمعت عيناه ببريق السكينة والرضا»[2].

* * *

(١) إبراهيم: الآية (١٦).

(٢) التفسير القرآني (٨/ ٦٥٩-٦٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

⋆ غريب الآية:

يرهقهما: يُلحقهما. وأرهقه عسرًا كلفه إياه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأما الغلام فإنه كان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما يقول: يغشيهما طغيانا، وهو الاستكبار على اللَّه، وكفرا به..

قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه جماعة من قرّاء المكيين والمدنيين والبصريين: ﴿فَأَرَدْنَآ أَنْ يُبَدِّلَهُمَا﴾. وكان بعضهم يعتلّ لصحة ذلك بأنه وجد ذلك مشدّدًا في عامّة القرآن، كقول اللَّه ﷻ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[1] وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾[2] فألحق قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ به. وقرأ ذلك عامّةُ قُراء الكوفة: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بتخفيف الدال. وكان بعض من قرأ ذلك كذلك من أهل العربية يقول: أبدل يبدل بالتخفيف وبدَّلَ يُبدِّل بالتشديد: بمعنى واحد.

والصواب من القول في ذلك عندي: أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلّ واحدة منهما جماعة من القرّاء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب..

وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ يقول: خيرًا من الغلام صلاحًا ودينًا.. وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأقرب رحمة بوالديه وأبرّ بهما من المقتول.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأقرب أن

(١) البقرة: الآية (٥٩).
(٢) النحل: الآية (١٠١).

يرحمه أبواه منهما للمقتول»[١].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وأما قول صاحبه: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ فإنه محمول على أمرين:

أولهما: أن هذا الغلام الذي هو شرّ كله، وبلاء على الإنسانية، بما يحمل في كيانه من طغيان وفساد وكفر، هذا الغلام -وذلك شأنه- تأذى به المجتمع الذي يعيش فيه، فإن ما ينضح منه من الأذى النفسي على أبويه المؤمنين، هو أضعاف مضاعفة لما يجده غيرهما من شروره وآثامه، إذ كان هو غرسهما الذي غرساه، وكان الشر الواقع على المجتمع منه، هما -لسبب أو لآخر- شركاء فيه.

فالخشية التي يصورها العبد الصالح هنا؛ هي خشيته على هذين الأبوين الصالحين المؤمنين، وما يدخل على قلبيهما من حسرة وكمد على مصابهما في ابنهما هذا، ثم في مصاب الناس به، وإذا كان ذلك لم يقع بعد، فهو مما يخشى أن يقع لو ترك الغلام يأخذ مسيرته في الحياة، والخشية لا تكون إلا مما لم يقع، لا مما وقع.

وثانيهما :اأن هذا الغلام، هو بلاء على نفسه، وأنه نبتة سوء، لو تركت حتى تبلغ مداها، لأوردت صاحبها موارد الهالكين، فكان موته في هذه المرحلة من عمره رحمة به، إذ عاجله الموت قبل أن يبلغ مبلغ التكليف، وقبل أن يأتي ما كان يمكن أن يأتي به من آثام، فالخشية هنا خشية منه كما أنها خشية عليه.

أما عزاء هذين الأبوين الصالحين المؤمنين عن فقد هذا الغلام فهو ما كشف عنه العبد الصالح في قوله: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ والزكاة الطهر والنقاء والصلاح والتقوى. والرحم: الرحمة التي تكون بين المتراحمين من أبناء وآباء وإخوة وأصدقاء..

فهذا الولد الذي سيُرزَقُه هذان الأبوان خلفًا لابنهما القتيل؛ سيكون لهما فيه قرة عين، وأنس نفس، ومسرّة قلب، مما يريان فيه من صلاح وتقوى، وما يجدان منه من برّ بهما، وإحسان إليهما.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢-٤).

ثم إن بين يدي موسى مع هذا كله؛ مثلًا ماثلا له، فيما كان بين نوح وابنه، فقد جلعه اللَّه ﷻ في المغرقين، ولم يُقدّر له أن يكون في الناجين المؤمنين، لقد أغرقه اللَّه أمام عيني أبيه، وكان العزاء الذي عزّى اللَّه ﷻ به نوحًا قوله سبحانه له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[1].

فماذا يبدو من فرق بين هذا الغلام الذي قتله العبد الصالح، وبين ابن نوح الذي أغرقه الله؟ إنه القدر الذي أجرى حكمه على هذين الابنين، ولم ينكشف أمر القدر لنوح إلا بعد أن أنبأه اللَّه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ تماما كما لم ينكشف أمر القدر لموسى إلا بعد أن أنبأه العبد الصالح بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾»[2].

قال القرطبي: «ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قِطَعًا من الأكباد، ومن سلّم للقضاء؛ أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد، وحزنًا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما. فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء اللَّه تعالى، فإن قضاء اللَّه للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب»[3].

* * *

(١) هود: الآية (٤٦).
(٢) التفسير القرآني (٨/ ٦٦١-٦٦٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قول صاحب موسى: وأما الحائط الذي أقمته، فإنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. اختلف أهل التأويل في ذلك الكنز فقال بعضهم: كان صُحُفا فيها علم مدفونة.. وقال آخرون: بل كان مالا مكنوزًا..

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب القول الذي قاله عكرمة؛ لأن المعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يكنز من مال، وإن كلّ ما كنز فقد وقع عليه اسم كنز؛ فإن التأويل مصروف إلى الأغلب من استعمال المخاطبين بالتنزيل، ما لم يأت دليل يجب من أجله صرفه إلى غير ذلك.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ يقول: فأراد ربك أن يدركا ويبلغا قوتهما وشدّتهما، ويستخرجا حينئذ كنزهما المكنوز تحت الجدار الذي أقمته رحمة من ربك بهما، يقول: فعلت فعلي هذا بالجدار؛ رحمة من ربك لليتيمين.

وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر اللَّه إياي به..

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ يقول: هذا الذي ذكرت لك من الأسباب التي من أجلها فعلت الأفعال التي استنكرتها مني؛ تأويل: يقول: ما تؤول إليه وترجع الأفعال التي لم تسطع على ترك مسألتك إياي عنها وإنكارك لها

صبرًا»[1].

قال ابن كثير: «فإن قيل: فما بال فتى موسى ذُكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟

فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى، عليه السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال: (حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يَذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب) إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف[2]»[3].

قال عبدالكريم الخطيب: «﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إنها رحمة اللَّه، ينزلها حيث يشاء، ويختص بها من يشاء، حسب ما تقضي به حكمته، ويحكم به علمه في خلقه، كما يقول سبحانه: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾[4] وكما يقول -جل وعلا-: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[5].

والأمر كله في الحقيقة قائم على الرحمة؛ فخرق السفينة كان كما آل إليه الأمر رحمة بأصحابها. وقتل الغلام؛ كان كما آل إليه الأمر رحمة به وبأبويه، ورحمة بالناس. وإقامة الجدار؛ كا كما آل إليه الأمر رحمة بالغلامين اليتيمين.

إن أمر اللَّه وقضاءه في خلقه حيث كان وعلى أية صورة وقع؛ هو رحمة من رب رحيم، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[6].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٦-٧).

(٢) وضعف إسناده الحافظ في الفتح (٨/ ٥٢٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨٨).

(٤) يوسف: الآية (٥٦).

(٥) البقرة: الآية (١٠٥).

(٦) الأعراف: الآية (١٥٦).

ورحمة اللَّه إنما تجري بأسباب، وتنزل حيث تنزل بقوى مسخّرة، تدفع بها إلى المواطن المسوقة إليها، بقدر مقدور، وتقرير معلوم.

وهذا حكم يقرره الأستاذ لتلميذه، فيرى من هذا الحكم أن أستاذه ليس إلا سحابة تحمل غيثا، تدفع بها قدرة اللَّه، إلى حيث يراد لها أن تنزل فيقول له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ إنه لا أمر له مع أمر اللَّه، وما هو إلا رسول يفعل ما أمر اللَّه به فيمن أرسله إليه، شأنه في هذا شأن تلميذه موسى الذي أمر بأن يبلّغ رسالة ربه إلى من أرسله اللَّه إليهم من عباده»[1].

وقال: «وهنا إشارة لابد منها، إلى هذا الاختلاف الذي جاء عليه النظم في قول العبد الصالح لموسى، حين وصل الأمر بينهما مداه، فقال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فهناك قولتان تبدوان وكأنهما على سواء: (تستطع) و(تسطع) وهما كذلك في غير القرآن الكريم، ولكنهما في كلام اللَّه ليستا على سواء في الميزان الذي جاء عليه النظم القرآني، وإعجازه القاهر المتحدي! فكلمة (تستطع) فيها شدة وقسوة، ومصارحة مكشوفة بالعجز عن الاستطاعة، وقد قالها العبد الصالح هكذا صريحة مكشوفة ليقطع بها الرحلة مع تلميذه. ولكن حين جلس إلى تلميذه مجلس المعلِّم، الذي يكشف لتلميذه معالم الطريق المظلم أو المشرق، الذي كان يُطوّف به فيه، جاء بهذه الكلمة (تسطع) وقد اقتطع منها هذا المقطع الحادّ، فإذا هي كلمة وديعة رقيقة فيها هروب من المواجهة الصريحة المتحدية، وعليها مسحة من الحياء والخفر»[2].

مجمل ما تضمنته هذه القصة من الفوائد والعبر زيادة على ما تقدم

قال السعدي: «وفي هذه القصة العجيبة الجليلةمن الفوائد، والأحكام والقواعد، شيء كثير ننبه على بعضه بعون اللَّه.

فمنها: فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل

---

(١) التفسير القرآني (٨/ ٦٦٥-٦٦٦).

(٢) المصدر نفسه (٨/ ٦٦٧).

مسافة طويلة ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له، واتخاذ عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة؛ كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾. وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء اللَّه وقدره، لقول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصَبٍ وجوعٍ أو عطشٍ، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقًا، لقول موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكيًّا فطنًا كيسًا، ليتم له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافةٌ إلى الجميع؛ أنه أكل هو وهو جميعا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر اللَّه يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين. وأما الأول فلم يشتك منه التعب مع طوله؛ لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة. فالظاهر أنهم باتوا عندها ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًا، بل عبدًا صالحًا[١]؛ لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منّة اللَّه عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيا لذكر ذلك، كما ذكره غيره. وأما قوله في آخر القصة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٢]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[٣].

ومنها: أن العلم الذي يُعلّمه اللَّه لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه اللَّه لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه. بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه بل يدعون أنهم يتعاونون هم وإياه، بل ربما ظن أحدهم أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جدًا. فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه؛ فإن موسى -بلا شك- أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه؛ وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم اللَّه وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص؛ كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا؛ لا ينبغي للفقيه المحدّث إذا كان قاصرًا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوهما من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثا ولا فقيها.

---

(١) التحقيق أنه نبي ﷺ كما سيأتي توضيحه.
(٢) القصص: الآية (٧).
(٣) النحل: الآية (٦٨).

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر اللَّه عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك اللَّه تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك؛ فإنه من العلم النافع. وما سوى ذلك فإما أن يكون ضارا، أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك؛ أنه ليس بأهل لتلقي العلم. فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر -يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه-: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علما وخبرة بذلك الأمر الذي أُمر بالصبر عليه. وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته؛ ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؛ فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: إن شاء اللَّه.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطّن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم، أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تُتبع؛ كما إذا كان فهمه قاصرا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالا، لا يتعلق بموضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق اللَّه، ولا في حقوق العباد؛

لقوله : ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها ، وما سمحت به أنفسهم ، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون ، أو يشق عليهم ويرهقهم ؛ فإن هذا ، مدعاة إلى النفور منه والسآمة ، بل يأخذ المتيسر ، ليتيسر له الأمر .

ومنها : أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها ؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة ، وقتل الغلام ، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر . وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر ، فاستعجل عليه السلام ، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة ، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار .

ومنها : القاعدة الكبيرة ، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير ، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما ؛ فإن قتل الغلام شر ، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شرا منه . وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته -وإن كان يظن أنه خير- ؛ فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر . وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ، ما لا يدخل تحت الحصر . فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا .

ومنها : القاعدة الكبيرة أيضًا وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ، ولو بلا إذن ، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير ، كما خرق الخضر السفينة لتُعيّب فتسْلَم من غصب الملك الظالم ، فعلى هذا لو وقع حرق ، أو غرق ، أو نحوهما ، في دار إنسان أو ماله ، وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي ؛ جاز للإنسان بل شرع له ذلك حفظا لمال الغير . وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسانٌ بعض المال افتداء للباقي ؛ جاز ولو من غير إذن .

ومنها : أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر ؛ لقوله : ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم .

ومنها : أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأن اللَّه أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها : أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾. ومنها : أن القتل قصاصا غير منكر لقوله : ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها : أن العبد الصالح يحفظه اللَّه في نفسه وفي ذريته.

ومنها : أن خدمة الصالحين أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها؛ لأنه علل استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأن أباهما صالح.

ومنها : استعمال الأدب مع اللَّه تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله : ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلى اللَّه تعالى لقوله : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[(١)]، وقالت الجن : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[(٢)] مع أن الكل بقضاء اللَّه وقدره.

ومنها : أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته، حتى يُعتبه ويُعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها : أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة؛ مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة؛ سبب لقطع المرافقة»[(٣)].

ومنها : «أن لا يعجب المرء بعلمه، ويبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه؛ فلعل فيه سرًّا لا يعرفه، وأن يداوم على العلم، ويتذلل للمعلم، ويراعي الأدب في المقال، وأن ينبّه المجرم على جرمه، ويعفو عنه، حتى إصراره ثم يهاجر عنه»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفصيل قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وذكر السبب الذي من أجله سمي الخضر خضرا

* عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى

---

(١) الشعراء: الآية (٨٠).
(٢) الجن: الآية (١٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٦٣-٧٢).
(٤) تفسير البيضاوي (١٤).

صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو اللَّه، حدثني أبيّ بن كعب أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول:

«إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب اللَّه عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى اللَّه إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب! فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل؛ فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ، فأخذ حوتا فجعله في مكتل، ثم انطلق، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك اللَّه عن الحوت جِرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد؛ قال موسى لفتاه: آتنا غدائنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا. قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر اللَّه به. فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة؛ فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبًا. قال: فكان للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي. فارتدا على آثارهما قصصًا. قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبًا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا. يا موسى! إني على علم من علم اللَّه علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم اللَّه علمك اللَّه لا أعلمه. فقال موسى: ستجدني إن شاء اللَّه صابرًا، ولا أعصي لك أمرًا. فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول. فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقَدوم. فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها! لقد جئت شيئًا إمرا. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا. قال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسرًا. قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة،

فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينا هما يمشيان على الساحل؛ إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده فقتله. فقال له موسى: أقتلت نفسا زاكية بغير نفس؟! لقد جئت شيئًا نكرا. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا. قال: وهذه أشد من الأولى. قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذرا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض، قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لا تخذت عليه أجرًا. قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ -إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا). وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين))[1].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء»[2].

★ غريب الحديث:

الخضر: بفتح أوله وكسر ثانيه، أو بكسر أوله وإسكان ثانيه، ثبتت بهما الرواية.

كذب عدو الله: محمولة على إرادة المبالغة في الزجر والتنفير عن تصديق تلك المقالة.

مكتل: بكسر الميم الزنبيل الكبير.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١١٧-١١٨)، والبخاري (٨/ ٥٢٢/ ٤٧٢٥)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠/ ٢٣٨٠)، والترمذي (٥/ ٢٨٩-٢٩٢/ ٣١٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٩-٣٩٠/ ١١٣٠٨). وأخرجه أبو داود مختصرا (٥/ ٨١/ ٤٧٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٢) والبخاري (٦/ ٥٣٥/ ٣٤٠٢) والترمذي (٥/ ٢٩٣/ ٣١٥١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

جِرية الماء: بالكسر حالة جريان الماء.

مسجّى: مغطى بثوب كله، كتغطية الميت وجهه ورجليه، وأصله من سجى الليل، إذا غطى سواده النهار.

بغير نول: أي: بغير أجر ولا جعل، وهو مصدر ناله ينوله؛ إذا أعطاه.

قدوم: التي ينحت بها مخففة والعامة تخطئ فيها، فتثقّل وإنما القدّوم بالتشديد موضع.

★ فوائد الحديثين:

الفائدة الأولى: في حديث ابن عباس دليل على أن موسى المذكور في الآية؛ هو موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل، خلافا لمن زعم أنه موسى آخر.

قال ابن عطية: «وموسى هو موسى بن عمران بمقضى الأحاديث والتواريخ وبظاهر القرآن، إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران ولو كان في هذه الآية غيره لبينه، وقالت فرقة منها نوف البكالي أنه ليس موسى بن عمران، وهو موسى بن مشنى، ويقال: ابن منسى.. ولكنه قول غير صحيح رده ابن عباس وغيره»[1].

الفائدة الثانية: في الحديث دليل على أن صاحب موسى المعبر عنه في الآية بقوله تعالى: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هو الخضر عليه السلام، وفي رواية لهذا الحديث عند البخاري في كتاب العلم: عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر.. الحديث.

قال الحافظ: «لم يذكر ما قاله الحرّ بن قيس، ولا وقفت على ذلك في شيء من طرق هذا الحديث»[2].

قال ابن كثير: «﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول اللّه ﷺ، بذلك قال البخاري» ثم ذكر حديث ابن عباس[3].

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٧).
(٢) الفتح (١/ ٢٢٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٥).

قال القرطبي: «العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة. وخالف من لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر. . وقال قوم: هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر، بذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ»[١].

الفائدة الثالثة: في حديث أبي هريرة ذكر السبب الذي من أجله سمي الخضر خضرًا، وذلك أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء.

قال ابن الأثير: «الفروة: الأرض اليابسة. وقيل: الهشيم اليابس من النبات»[٢]. وقال الخطابي: «ويقال: إنما سمي الخضر خضرًا لحسنه وإشراقه»[٣].

قال ابن كثير معلقًا على كلام الخطابي بعد إيراده له: «هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح؛ فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه»[٤].

الفائدة الرابعة: هل الخضر عليه السلام ملك أو ولي أو نبي؟

اختلف المفسرون والمؤرخون في الخضر عليه السلام بهذا الصدد على ثلاثة أقوال مشهورة:

القول الأول: أنه ملك من الملائكة. حكاه الماوردي في تفسيره[٥]

قال النووي: «هذا غريب باطل»[٦]. وقال ابن كثير: «أما كونه ملَكًا من الملائكة؛ فغريب جدًّا»[٧].

القول الثاني: أنه ولي، وهو قول عامة الصوفية، وبه قال بعض أهل السنة كالخازن في تفسيره[٨]، والبغوي في معالم التنزيل[٩]، وشيخ الإسلام بن تيمية في إحدى فتاويه، وهي ضمن مجموع الفتاوى[١٠] وسيأتي ذكرها وتعليق العلماء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٢).
(٢) النهاية (٣/ ٤٤١).
(٣) غريب الحديث (١/ ٧١١).
(٤) البداية والنهاية (١/ ٣٠٥).
(٥) (٣/ ٣٢٥).
(٦) شرح مسلم (١٥/ ١١١).
(٧) البداية والنهاية (١/ ٣٠٦).
(٨) (٣/ ٢٠٨).
(٩) (٥/ ١٨٨).
(١٠) (٤/ ٣٣٦).

عليها، والسعدي في تفسيره(١).

قال الحافظ: «وذهب إلى أنه كان وليا جماعة من الصوفية، وقال به أبو علي بن أبي موسى من الحنابلة، وأبو بكر بن الأنباري في كتابه «الزاهر» بعد أن حكى عن العلماء قولين: هل كان نبيًّا أو وليًّا. وقال أبو القاسم القشيري في رسالته: لم يكن الخضر نبيا وإنما كان وليا»(٢).

«وكثير من الصوفية يفضّل الولي في زعمه إما مطلقا وإما في بعض الوجوه على النبي، زاعمين أن في قصة الخضر حجة لهم»(٣).

ومن يفضل بعض الأولياء أمثال الخضر عليه السلام على الأنبياء؛ الحكيم الترمذي في كتاب «ختم الولاية»، وابن عربي صاحب «الفصوص» و«الفتوحات المكية» القائل:

مقام النبوة في برزخ ... فويق الرسول ودون الولي

وسعد الدين بن حمويه وغيرهم.

قال شيخ الإسلام: «لما تكلم الحكيم الترمذي في كتاب «ختم الأولياء» بكلام وذَكر أنه يكون في آخر الأولياء من هو أفضل من الصحابة، وربما لوح بشيء من ذكر الأنبياء؛ قام عليه المسلمون وأنكروا ذلك عليه، ونفوه من البلد بسبب ذلك، ولا ريب أنه تكلم في ذلك بكلام فاسد باطل لا ريب فيه. ومن هناك ضل من اتبعه في ذلك حتى صار جماعات يدعي كل واحد أنه خاتم الأولياء، كابن عربي صاحب «الفصوص» وسعد الدين بن حمويه وغيرهما»(٤).

فصل في الرد على من قال بتفضيل الولاية على النبوة والرسالة:

قال القرطبي: «وقع لبعض الجهال أن الخضر أفضل من موسى عليه السلام متمسكًا بهذه القصة بما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة،

---

(١) (٥/ ٥٧).

(٢) الزهر النضير في أخبار الخضر (ص٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٦٧).

ولم ينظر في شيء من أحوال موسى عليه السلام، ولا فيما خصه اللَّه تعالى من الرسالة وسماع كلام اللَّه تعالى.. وإعطائه التوراة التي فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، مخاطبون بأحكام توراته، حتى عيسى عليه السلام، ألا ترى أن اللَّه تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[1] والإنجيل وإن كان هدى فليس فيه من الأحكام إلا قليل، ولم يجئ عيسى عليه السلام ناسخًا لأحكام التوراة، بل معلمًا لها، ومبينا أحكامها، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[2] وعلى هذا فهو أمامهم وإمامهم، وأعلمهم وأفضلهم، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[3] وأن موسى من أولي العزم من الرسل، وأن أول من ينشق عنه القبر نبينا ﷺ فيجد موسى عليه السلام متعلقا بساق العرش، وأنه ليس في محشر يوم القيامة أكثر من أمته بعد أمة نبينا ﷺ إلى غير ذلك من فضائله. فأما الخضر عليه السلام فلم يتفق على أنه نبي، بل هو أمر مختلف فيه: هل هو نبي أو ولي، فإن كان نبيًا فليس برسول بالاتفاق؛ إذ لم يقل أحد أن الخضر عليه السلام أرسل إلى أمة، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، وإن تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم، وأمته أكثر فهو أفضل، فإن قلنا: إن الخضر كان وليًا، فلا إشكال أن النبي أفضل من الولي، وهذا أمر مقطوع به عقلًا ونقلًا، والصائر إلى خلافه كافر، فإنه أمر معلوم من الشرائع بالضرورة، ولأنه واحد من أمة موسى أو غيره من الأنبياء، ونبي كل أمة أفضل منها قطعًا؛ آحادًا أو جمعًا، وإنما كانت قصة موسى مع الخضر امتحانًا لموسى، ليتأدب ويعتبر كما قد ابتلي غيره من الأنبياء بأنواع من المحن والبلايا»[4].

قال شيخ الإسلام بعد ذكر كلام الصوفية في تفضيل مقام الولاية على مقام النبوة: «وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات، بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر»[5].

---

(١) المائدة: الآية (٤٤).
(٢) آل عمران: الآية (٤٨).
(٣) الأعراف: الآية (١٤٤).
(٤) المفهم (٦/ ٢١٦-٢١٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٢٢).

وقال أبو حيان: «وفي كتاب «التحرير والتحبير» ما نصه: تعلق بعض الجهال بما جرى لموسى مع الخضر ﷺ على أن الخضر أفضل من موسى وطردوا الحكم، وقالوا: قد يكون بعض الأولياء أفضل من آحاد الأنبياء، واستدلوا أيضًا بقول أبي يزيد: خضت بحرًا وقف الأنبياء على ساحله. وهذا كله من ثمرات الرعونة والظنة بالنفس. انتهى. وهكذا سمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين المضلين وهو ابن عربي الطائي الحاتمي صاحب «الفتوح المكية»، فكان ينبغي أن يسمى بالقبوح الهُلْكية، وأنه كان يزعم أن الولّي خير من النبيّ، قال: لأن الولي يأخذ عن اللَّه بغير واسطة، والنبيّ يأخذ بواسطة عن اللَّه، ولأن الولي قاعد في الحضرة الإلهية، والنبيّ مرسل إلى قوم، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة. إلى أشياء من هذه الكفريات والزندقة، وقد كثُر معظِّموا هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة، نسأل اللَّه السلامة في أدياننا وأبداننا»[١].

قلت: الحمد للَّه على فضله وإحسانه، فهؤلاء المفسرون تواطأت كلمتهم على ذم هذه النحلة الضالة التي أهلكت الحرث والنسل، والتي طار شررها إلى كل إقليم ومصر، وتعلق بها كل زنديق مارق، فصار ينفخ في هذه الزندقة، ويروج لها حتى إنه بلغني أن طالبًا تخرج من المدينة النبوية وصار رأسًا في بلده (الكويت)، وأصله رافضي خبيث؛ حضر في مجلس ألقيت فيه محاضرة، فجاء ذكر ابن عربي الزنديق، فقام الخبيث يدافع عنه ويقول: «كنا نسمع ذم ابن تيمية له، ثم تبين لنا أنه طود شامخ»! وأمثال هذا الخبيث ممن تنفق عليهم المملكة العربية السعودية فيظهرون بهذه المظاهر الفاسدة، ويستغلون مكثهم في المملكة وشهاداتهم منها فيفسدون ولا يصلحون، فبدل أن يعترفوا للمملكة بالفضل والجميل، وينشروا ما أسست عليه من التوحيد والسنة؛ يعيثون في الأرض فسادًا، واللَّه المستعان. ولكن هكذا حال اللئام، فهم يأكلون من المائدة ويسبون صاحبها، كما قال القائل:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي ... وأنت لشاتنا ابن ربيب
غذيت بدرّها ونشأت معها ... فمن أنباك أن أباك ذئب

(١) البحر المحيط (٦/ ١٤٨).

إذا كان الطباع طباع سوءٍ   فلا أدب يفيد ولا أديب

فهذا الخبيث أصله رافضي، ولهذا لما تمكن بعدما كان نكرة لا يُعرف، وحقيرًا فقيرًا يتسول؛ صار رأسًا في الشر والضلال. يقول الخبيث: لا فرق بين الطواف بالبيت والطواف بالقبور، فكلاهما سيان! فعليه لعنة اللَّه وملائكته والناس أجمعين، هو ومن كان على شاكلته من دعاة الشرك والزندقة.

وقال ابن أبي العز: «وأما ما يتعلق بقصة موسى مع الخضر ﷺ في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق؛ فإن موسى ﷺ لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى حيّين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى ﷺ إلى الأرض إنما يحكم بشريعة محمد ﷺ فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوّز ذلك لأحد من الأمة فليجدّد إسلامه، وليشهد شهادة الحق؛ فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلا عن أن يكون من أولياء اللَّه، وإنما هو من أولياء الشيطان، وهذا الموضع مفرّق بين زنادقة القوم، وأهل الاستقامة، وحَرِّك تَرَ»[١].

القول الثالث: أنه نبي، وهذا أصح الأقوال وأقواها. وبه قال جمهور المحققين من العلماء.

قال ابن عطية: «الخضر نبي عند الجمهور»[٢]. وعزاه أيضًا للجمهور القرطبي في تفسيره[٣]، والألوسي في روح المعاني[٤]، والرازي في «مفاتح الغيب»[٥]، بل قال الثعلبي: «هو نبي على جميع الأقوال» حكاه عنه النووي في شرح مسلم[٦]. وممن رجح أنه نبيّ الحافظان: ابن كثير في «البداية والنهاية»[٧]، وابن حجر في كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة»[٨]، حيث قال:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٥١١-٥١٢).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٢).
(٤) (١٥/ ٣٢٠).
(٥) (٢١/ ١٤٩).
(٦) (١٥/ ١١١).
(٧) (١/ ٣٠٥).
(٨) (٣/ ١٠٣).

«كان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تحلّ من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيًّا؛ لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي كما قال قائلهم:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي».

ذكر الأدلة على نبوة الخضر عليه السلام:

استدل القائلون بنبوة الخضر عليه السلام بأدلة:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

قال القرطبي: «الرحمة في هذه الآية: النبوة. وقيل: النعمة. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي علم الغيب»[1].

قال ابن عطية: «كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها. وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم»[2].

وقال أبو السعود: «الرحمة هي الوحي والنبوة، كما يُشعِرُ به تنكيرُ الرحمة، واختصاصُها بجناب الكبرياء»[3].

قال الألوسي: «﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الجمهور على أنه الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن»[4].

قال الشنقيطي: «فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله تعالى في الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[5] الآية. أي نبوتَه حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل عظيم من القريتين. وقوله تعالى في سورة الدخان: . . ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٣).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٩).
(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٣٤).
(٤) روح المعاني (١٥/ ٣٢٠).
(٥) الزخرف: الآيتان (٣١و٣٢).

مِن رَّبِّكَ﴾(١) الآية. وقوله تعالى في آخر القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(٢) الآية. ومن إطلاق إيتاء العلم على النبوة قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٣) وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾(٤) الآية. إلى غير ذلك من الآيات»(٥).

«الثاني: قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فلو كان وليًّا وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يردّ على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه اللَّه به دونه، فلو كان غير نبي لم يكن معصومًا، ولم تكن لموسى -وهو نبي عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة- كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حقبًا من الزمان؛ قيل: ثمانين سنة، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه؛ دل على أنه نبي مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية، والأسرار النبوية، بما لم يطلع اللَّه عليه موسى الكليم، نبي بني إسرائيل الكريم»(٦).

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

قال أبو حيان: «هذا يدل على أنه نبي أوحي إليه»(٧).

قال الحافظ: «ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وينبغي اعتقاد كونه نبيًّا لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي؛ حاشا وكلا»(٨).

قال الشنقيطي: «﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: وإنما فعلته عن أمر اللَّه -جل

---

(١) الدخان: الآيات (٤-٦).
(٢) القصص: الآية (٨٦).
(٣) النساء: الآية (١١٣).
(٤) يوسف: الآية (٦٨).
(٥) الأضواء (٣/ ٣٢٢-٣٢٣).
(٦) البداية والنهاية (١/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٧) البحر (٦/ ١٤٧).
(٨) الفتح (١/ ٢٩٣).

وعلا-، وأمر اللَّه إنما يتحقق عن طريق الوحي إذ لا طريق تعرف بها أوامر اللَّه ونواهيه إلا الوحي من اللَّه -جل وعلا-، ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من اللَّه تعالى. وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾[1] وإنما صيغة الحصر»[2].

تنبيه: قال السعدي: «وأما قوله في آخر القصة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[3]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[4]»[5].

قلت: المحققون من أهل العلم على خلاف ما قرره السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة.

قال الحافظ ابن حجر: «﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وهذا ظاهره أنه فعله بأمر اللَّه والأصل عدم الواسطة. ويحتمل أن يكون بواسطة نبي آخر لم يذكر وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام؛ لأن ذلك لا يكون من غير النبي وحيًا حتى يعمل به من قتل النفس وتعريض الأنفس للغرق.

فإن قلنا إنه نبي فلا إنكار في ذلك، وأيضًا فكيف يكون غير النبي أعلم من النبي، وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن اللَّه قال لموسى: «**بلى عبدنا خضر**»، وأيضًا فكيف يكون النبي تابعًا لغير النبي»[6].

وقال الشنقطي: «المقرر في الأصول: أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به. وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهَم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضًا من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع،

---

(١) الأنبياء: الآية (٤٥).
(٢) الأضواء (٣/ ٣٢٣).
(٣) القصص: الآية (٧).
(٤) النحل: الآية (٦٨).
(٥) تيسير الكريم (٥/ ٦٥-٦٦).
(٦) الإصابة (٣/ ١٠٢-١٠٣).

مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[١] وبخبر: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[٢]؛ كله باطل لا يعول عليه لعدم اعتضاده بدليل. وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يَأمن دسيسة الشيطان. وقد ضُمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات.

والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي، ولا نظر في حجة عقلية يختص اللَّه به من يشاء من خلقه. أما ما يُلهَمه الأنبياء مما يلقيه اللَّه في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم..

وبالجملة؛ فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر اللَّه ونواهيه وما يتقرب إليه به من فعل وترك إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل وما جاؤوا به ولو في مسألة واحدة؛ فلا شك في زندقته. والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٣] ولم يقل: حتى نلقي في القلوب إلهامًا. وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾[٥] الآية. والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جدًّا.. وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقًا باطنة توافق الحق عند اللَّه ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع؛ كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى زندقة، وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره»[٦].

قال القرطبي: «ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هدّ الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية إنما يحكم بها على الأغنياء

(١) الأنعام: الآية (١٢٥).

(٢) الحديث ضعيف، وقد سبق تخريجه في فصل الفوائد المستفادة من قصة آدم من كلام ابن عبدالوهاب، في سورة الأعراف.: الآية (٢٢).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

(٤) النساء: الآية (١٦٥).

(٥) طه: الآية (١٣٤).

(٦) الأضواء (٣/ ٣٢٣-٣٢٤).

والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم، قالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوّها عن الأغيار، فتتجلّى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع والكليات، كما اتفق للخضر؛ فإنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: «**استفت قلبك وإن أفتاك المُفتون**»[1].

قلت: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع؛ فإن اللَّه تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته، فإن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله، السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالاته وكلامه، المبيّنون شرائعه وأحكامه، واختارهم لذلك وخصهم لما هنالك، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2] وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[3] وقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[4] وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به، وأخبر أن الهدى في طاعتهم والاقتداء بهم، في غير موضع من كتابه، وعلى ألسنة رسله، كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[5] وكقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[6] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[7] وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[8] وقال ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب اللَّه وسنة نبيه**»[9] ومثل هذا لا يحصى كثرة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤) والطبراني (٢٢/ ٢١٩/ ٥٨٥) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٥-١٧٦) وقال: «رواه أحمد والطبراني، وفي الصحيح طرف من أوله، ورجاله ثقات» وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٨١).

(٢) الحج: الآية (٧٥).

(٣) الأنعام: الآية (١٢٤).

(٤) البقرة: الآية (٢١٣).

(٥) المائدة: الآية (٩٢).

(٦) النساء: الآية (٦٤).

(٧) الأنعام: الآية (٩٠).

(٨) النور: الآية (٥٤).

(٩) أخرجه مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨) ضمن حديث جابر في حجة النبي ﷺ.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السلف والخلف، على أن لا طريق لمعرفة أحكام اللّٰه تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها؛ إلا من جهة الرسل الكرام، فمن قال: إن هناك طريقًا آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل، بحيث يستغني بها عن الرسل؛ فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي قد جعله اللّٰه خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول، وبيان ذلك أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما وقع هو حكم اللّٰه، وأنه يعمل بمقتضاه، وإنه لا يحتاج في ذلك إلى كتاب ولا سنة؛ فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة؛ فإن هذا نحو مما قاله الرسول ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي**». ولقد سمعنا عن بعض الممخرقين المتظاهرين بالدين أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وإنما أروي عن قلبي عن ربي. ومثل هذا كثير، فنسأل اللّٰه الهداية والعصمة، وسلوك طريق سلف هذه الأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

الرابع: قوله ﷺ: «**إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك**».

قال القاضي عياض: «وقد يُحتج بنبوته بكونه أعلم من موسى، ويبعد أن يكون الولي أعلم من النبي»[2].

الخامس: قال ابن كثير: «أن الخضر أقدمَ على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملِك العلام. وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خَلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق. ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم؛ علم منه بأنه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر؛ لشدة محبتهما له، فيتّبعانه عليه. ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته؛ دل ذلك على نبوته، وأنه مؤيد من اللّٰه بعصمته»[3].

---

(١) المفهم (٦/ ٢١٧-٢١٩).

(٢) الإكمال (٧/ ٣٦٥).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٣٠٦).

وقال أيضًا: «وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه؛ لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر؛ مستندٌ يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه»[١].

الفائدة الخامسة: هل الخضر ﷺ مات أم هو حيّ موجود إلى الآن؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الخضر ﷺ حي موجود إلى الآن، وعلى ذلك كثير من أهل العلم.

قال النووي: «قال الأكثرون من العلماء هو حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه، وسؤاله وجوابه، ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر.

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك. قال: وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين»[٢].

وممن نصر القول بحياته القرطبي في تفسيره[٣]، والنووي في شرح مسلم[٤] أيضًا، وأبو بكر النقاش في تفسيره[٥].

قال ابن عطية: «وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، كلها لا تقوم على ساق»[٦].

مستند القائلين بحياته:

استند القائلون بحياة الخضر ﷺ إلى طائفة كبيرة من الأخبار والروايات والحكايات تذكر حياته ﷺ، واجتماعه بالنبي ﷺ، وببعض أصحابه رضي الله عنهم، ولقاءات الصالحين معه، وزياراتهم إياه في الفلوات والبراري والأودية،

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٦).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٧).

(٣) (١١/ ٢٩).

(٤) (١٥/ ١١١).

(٥) واسمه: شفاء الصدور.

(٦) المحرر الوجيز (٣/ ٥٣٧).

والصحاري، وعلى رحلاته وتنقلاته من بلد إلى بلد، وأحاديثه مع الناس، وتعليمهم الأدعية وما شاكل ذلك.

وقد تتبع الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تلك الروايات في كتابيه: «الإصابة في تمييز الصحابة»[١]، و«فتح الباري في شرح صحيح البخاري»[٢]، وابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تاريخه «البداية والنهاية»[٣]، وبيّنا أنها روايات ضعيفة ساقطة، لا تقوم بمثلها حجة.

قال ابن كثير: «وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدا، لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره؛ لأنه يجوز عليه الخطأ. واللَّه أعلم.. وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات؛ فبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبيّن ضعف أسانيدها ببيان أحوالها، وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد»[٤].

وقال ابن القيم: «والأحاديث التي ذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد»[٥].

وقال أبو الخطاب ابن دحية، كما نقل عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة[٦]: «ولا يثبت اجتماع الخضر مع أحد من الأنبياء إلا مع موسى كما قصه اللَّه من خبره.

قال: وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء باتفاق أهل النقل وإنما يذكر ذلك من يروي الخبر ولا يذكر علته إما لكونه لا يعرفها وإما لوضوحها عند أهل الحديث قال: وأما ما جاء عن المشايخ فهو مما ينقم منه كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصًا لا يعرفه فيقول له: أنا فلان فيصدقه؟.

قال: وأما حديث التعزية الذي ذكره أبو عمر فهو موضوع[٧]».

---

(١) (٣/ ١٠٥).

(٢) (٦/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٣) (١/ ٣٠٦-٣١١).

(٤) البداية (١/ ٣١١-٣١٢).

(٥) المنار المنيف (٥٨).

(٦) (٣/ ١١٠).

(٧) من أشهر الحكايات والأحاديث التي يحتج بها من يزعم حياة الخضر ﷺ إلى الآن حديث التعزية، وذلك حين توفي النبي ﷺ. ذكره ابن عبدالبر في «التمهيد» (٢/ ١٦٢) عن علي رضي الله عنه قال: لما توفي النبي ﷺ=

قال شيخ الإسلام: «وكثير من الناس من رأى من قال: إني أنا الخضر وإنما كان جِنّيا. ثم صار من الناس من يُكذب بهذه الحكايات إنكارا لموت الخضر، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر، وكلا الطائفتين مخطئ؛ فإن الذين رأوا من قال: إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون، والحكايات متواترات، لكن أخطؤوا في ظنهم أنه الخضر وإنما كان جنيًا، ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى، فكثيرًا ما يأتيهم في كنائسهم من يقول: إنه الخضر. وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول: إنه الخضر، وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبيّن صدق من رأى شخصًا وظنّ أنه الخضر، وأنه غلط في ظنه أنه الخضر وإنما كان جنّيا»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذين يقولون إنه حي كبعض العباد وبعض العامة وكثير من اليهود والنصارى؛ غالطون في ذلك غلطا لا ريب فيه، وسبب غلطهم أنهم يرون في الأماكن المنقطعة وغيرها من يظن أنه من الزهاد، ويقول: أنا الخضر، وقد يكون ذلك شيطانا قد يتمثل بصورة آدمي، وهذا مما علمنا في وقائع كثيرة، حتى في المكان الذي كتبْتُ فيه هذا عند الربوة بدمشق، رأى شخص بين الجبلين صورة رجل قد سد ما بين الجبلين، وبلغ رأسه رأس الجبل، وقال: أنا الخضر، وأنا نقيب الأولياء، وقال للرجل الرائي: أنت رجل صالح، وأنت ولي اللَّه، ومدّ يده إلى فأس كان الرجل نسيه في مكان، وهو ذاهب إليه، فناوله إياه، وكان بينه وبين ذلك المكان نحو ميل. ومثل هذه الحكاية كثير. وكل من قال: إنه رأى الخضر وهو

= وسُجّي بثوب، هتف هاتف من ناحية البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه.. الحديث. وفي تفسير القرطبي (١١/ ٣٠): «فكانوا يرون أنه الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ». قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده ضعيف». تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨٧).

وأخرجه من حديث أنس الطبراني في الأوسط (٩/ ٥٥/ ٨١١٦) والبيهقي في الدلائل (٧/ ٢٦٩) وفي إسناده عباد بن عبدالصمد، قال البيهقي: «ضعيف، وهذا منكر بمرة». وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٣٧): «في إسناده عباد بن عبدالصمد وهو واهٍ». قال ابن كثير: «عباد بن عبدالصمد هذا هو ابن معمر البصري، روى عن أنس نسخة. قال ابن حبان والعقيلي: أكثرها موضوع». البداية والنهاية (١/ ٣٠٩).

وأخرجه من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده البيهقي في الدلائل (٧/ ٢٦٩) «وفيه شيخ الشافعي القاسم العمري وهو متروك. قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين: يكذب. زاد أحمد: ويضع الحديث. ثم هو مرسل ولا يعتمد عليه ههنا. واللَّه أعلم». البداية والنهاية (١/ ٣٠٩).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٩٣).

صادق؛ إما أن يتخيل له في نفسه أنه رآه ويظن ما في نفسه كان في الخارج، كما يقع لكثير من أرباب الرياضات. وإما أن يكون جنيا يتصور له بصورة إنسان ليضله، وهذا كثير جدا قد علمنا منه ما يطول وصفه. وإما أن يكون رأى إنسيا ظن أنه الخضر، وهو غالط في ظنه، فإن قال له ذلك الجني أو الإنسي إنه الخضر؛ فيكون قد كذب عليه. لا يخرج الصدق في هذا الباب عن هذه الأقسام الثلاثة. وأما الأحاديث فكثيرة؛ ولهذا لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ولا اجتمع به؛ لأنهم كانوا أكمل علمًا وإيمانًا من غيرهم، فلم يكن يمكن الشيطان التلبيس عليهم كما لبس على كثير من العبّاد، ولهذا كثير من الكفار اليهود والنصارى يأتيهم من يظنون أنه الخضر، ويحضر في كنائسهم، وربما حدثهم بأشياء، وإنما هو شيطان جاء إليهم ليضلهم»[(١)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يقال: يستفاد من هذه الأخبار التواتر المعنوي؛ لأن التواتر لا يشترط ثقة رجاله ولا عدالتهم، وإنما العمدة على ورود الخبر بعدد يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب؛ فإن اتفقت ألفاظه فذاك، وإن اختلفت فمهما اجتمعت فيه فهو التواتر المعنوي.

وهذه الحكاية تجتمع في أن الخضر حي، لكن يطرق حكاية القطع بحياته قولُ بعضهم: إن لكل زمان خضرًا وإنه نقيب الأولياء وكلما مات نقيب أقيم نقيب بعده مكانه ويسمى الخضر.

وهذا قول تداولته جماعة من الصوفية من غير نكير بينهم ولا يقطع مع هذا بأن الذي ينقل عنه أنه الخضر هو صاحب موسى بل هو خضر ذلك الزمان.

ويؤيده اختلافهم في صفته فمنهم من يراه شيخًا أو كهلًا أو شابًا وهو محمول على تغاير المرئي وزمانه واللَّه أعلم»[(٢)].

وأما الحديث الذي أخرجه مسلم وابن حبان[(٣)] وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ يومًا حديثًا طويلًا عن الدجال.. ثم ذكر

---

(١) الرد على المنطقيين (١٨٤-١٨٥).

(٢) الإصابة (٣/ ١٠٨).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٦/ ٢٩٣٨). الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٢١٢/ ٦٨٠١).

الحديث وفيه: «**فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، أتَشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا. قال: فيقتله ثم يحييه. فيقول حين يحييه: واللّه ما كنت قبل قط أشد بصيرة مني الآن. قال: فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه**.

قال أبو إسحاق: يقال: إن هذا الرجل هو الخضر ﷺ. وعند ابن حبان: قال معمر: يرون أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال ثم يحييه الخضر.

فقال ابن كثير: «وقول معمر وغيره: بلغني؛ ليس فيه حجة، وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث: «**فيأتي بشاب ممتلئ شبابًا فيقتله**»»[١].

وقال الحافظ: «قال ابن العربي: وسمعت من يقول: إن الذي يقتله الدجال هو الخضر؛ وهذه دعوى لا برهان لها. قلت: وقد تمسك من قاله بما أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي عبيدة بن الجراح رفعه في ذكر الدجال: «**لعله أن يدركه بعض من رآني أو سمع كلامي**» الحديث. ويعكر عليه قوله في رواية لمسلم تقدم التنبيه عليها: «**شاب ممتلئ شبابا**» ويمكن أن يجاب بأن من جملة خصائص الخضر أن لا يزال شابًّا، ويحتاج إلى دليل»[٢].

وفي التعليق على صحيح ابن حبان ما نصه: «لا يثبت هذا عن المعصوم الذي يجب الأخذ بقوله»[٣].

سبب استمرار حياته لدى من يرى ذلك:

ذكر المؤرخون سببين لتعميره واستمرار حياته:

أحدهما: «أنه دفن آدمَ بعد خروجهم من الطوفان، فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة»[٤]. وهذا السبب ردّه ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما نقله عنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المنار المنيف»[٥] وسيأتي.

الثاني: أنه شرب من عين الحياة فحيي.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولعل هذا العين -إن ثبت النقل فيها- مستندُ من

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٣١١).
(٢) الفتح (١٣/ ١٢٩-١٣٠).
(٣) الإحسان (١٥/ ٢١٣) بتحقيق شعيب الأرنؤوط.
(٤) البداية والنهاية (١/ ٣٠٦).
(٥) ص (٦٢).

زعم أن الخضر شرب من عين الحياة فخلد، وذلك مذكور عن وهب بن منبه وغيره ممن كان ينقل من الإسرائيليات. وقد صنف أبو جعفر بن المنادي في ذلك كتابًا، وقرر أنه لا يوثق بالنقل فيما يوجد من الإسرائيليات»[١].

القول الثاني: أن الخضر عليه السلام مات.

وهذا أصح الأقوال وأقواها، وبه قال جمهور المحققين من العلماء وأصحاب الحديث، منهم الإمام البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو الحسين ابن المنادي، وشرف الدين أبو عبدالله المريسي، وأبو طاهر العبادي، والقاضي أبو يعلى الحنبلي، وأبو الفضل ابن ناصر، والقاضي أبو بكر بن العربي، والشيخ أبو الفرج بن الجوزي، واقد انتصر لذلك وألف فيه كتابًا سماه: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»[٢]، وعزاه للجمهور ابن عطية[٣]، وكذا أبو حيان[٤].

وقال صديق حسن خان: «والحق ما ذكرنا عن البخاري وأضرابه في ذلك، ولا حجة في قول أحد كائنًا من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ، ولم يرد في ذلك نصّ مقطوع به، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه، وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد وطول التعمير لأحد من البشر، وهما قاضيان على غيرهما، ولا يقضي غيرهما عليهما»[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت، وأنه لم يدرك الإسلام، ولو كان موجودا في زمن النبي ﷺ؛ لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره، ولكان يكون في مكة والمدينة، ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم وإعانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم، ولم يكن مختفيًا عن خير أمة أخرجت للناس، وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم. ثم ليس للمسلمين به وأمثاله حاجة لا في دينهم ولا في دنياهم؛ فإن دينهم أخذوه عن الرسول النبي الأمي ﷺ، الذي علمهم الكتاب والحكمة، وقال لهم نبيهم: «**لو كان موسى حيا ثم**

---

(١) الفتح (٨/ ٥٣٠).

(٢) انظر البداية والنهاية (١/ ٣١٢) والإصابة (٣/ ١١٣-١١٤).

(٣) المحرر (٣/ ٥٣٧).

(٤) البحر (٦/ ١٣٩).

(٥) فتح البيان (٨/ ١٠١).

اتبعتموه وتركتموني لضللتم» وعيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل من السماء إنما يحكم فيهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، فأي حاجة لهم مع هذا إلى الخضر وغيره، والنبي ﷺ قد أخبرهم بنزول عيسى من السماء وحضوره مع المسلمين، وقال: «**كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها**» فإذا كان النبيان الكريمان اللذان هما مع إبراهيم وموسى ونوح أفضل الرسل، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم ولم يحتجبوا عن هذه الأمة لا عوامّهم ولا خواصهم؛ فكيف يحتجب عنهم من ليس مثلهم، وإذا كان الخضر حيا دائما فكيف لم يذكر النبي ﷺ ذلك قط، ولا أخبر به أمته ولا خلفاؤه الراشدون. وقول القائل إنه نقيب الأولياء، فيقال له: من ولاه النقابة، وأفضل الأولياء أصحاب محمد ﷺ، وليس فيهم الخضر، وعامة ما يحكى في هذا الباب من الحكايات بعضها كذب، وبعضها مبني على ظن رجل مثل شخص رأى رجلا ظن أنه الخضر وقال إنه الخضر، كما أن الرافضة ترى شخصا تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم، أو تدعي ذلك»[١].

وسئل رحمه الله عن الخضر وإلياس هل هما معمّران؟ فأجاب: «إنهما ليسا في الأحياء ولا معمران، وقد سأل إبراهيم الحربي أحمد ابن حنبل عن تعمير الخضر وإلياس، وأنهما باقيان يُريان ويروى عنهما، فقال الإمام أحمد: من أحال على غائب لم ينصِف منه، وما ألقى هذا إلا شيطان. وسئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ: «**لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد**»[٢]. وقال أبو الفرج بن الجوزي: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[٣] وليس هما في الأحياء والله أعلم»[٤].

ونقل عنه ابن القيم رحمه الله فقال: «سئل عنه شيخ الإسلام فقال: لو كان الخضر حيًا لوجب عليه أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»[٥] وكانوا ثلاث مئة

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٠٠-١٠٣).
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) الأنبياء: الآية (٣٤).
(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٣٧).
(٥) سيأتي تخريجه.

وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟!»[١].

ومن الغريب جدًا صدور فتوى عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقرر فيها حياة الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ووجوده إلى الآن وأنه ولي وليس بنبي.

«سئل رَحِمَهُ اللَّهُ: هل كان الخضر نبيًا أو وليًا؟ وهل هو حي إلى الآن؟ وإن كان حيًا فما تقولون فيما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو كان حيًّا لزارني»** هل هذا الحديث صحيح أم لا؟

فأجاب: أما نبوته فمِن بعد مبعَث رسول اللَّه ﷺ، لم يوح إليه ولا إلى غيره من الناس. وأما قبل مبعث النبي ﷺ فقد اختلف في نبوته، ومن قال إنه نبي لم يقل إنه سلب النبوة، بل يقول: هو كإلياس نبيّ لكنه لم يوح إليه في هذه الأوقات، وترْك الوحي إليه في مدة معينة ليس نفيا لحقيقة النبوة، كما لو فتر الوحي عن النبي ﷺ في أثناء مدة رسالته، وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبيا، مع أن نبوة من قبلنا يقرب كثير منها من الكرامة والكمال في الأمة، وإن كان كل واحد من النبيين أفضل من كل واحد من الصديقين كما رتبه القرآن، وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين؛ أفضل من أبي بكر الصديق»**[٢] وروي عنه أنه قال: **«إن كان الرجل ليسمع الصوت فيكون نبيًا»**[٣] وفي هذه الأمة من يسمعه ويرى الضوء وليس بنبي؛ لأن ما يراه ويسمعه يجب أن يعرضه على ما جاء به محمد ﷺ؛ فإن وافقه فهو حق، وإن خالف تيقن أن الذي جاء من عند اللَّه يقين لا يخالطه ريب ولا يحوجه أن يشهد عليه بموافقة غيره. وأما حياته فهو حي، والحديث المذكور لا أصل له، ولا يعرف له إسناد، بل المروي في مسند الشافعي وغيره أنه اجتمع بالنبي ﷺ، ومن قال: إنه لم يجتمع بالنبي ﷺ؛ فقد قال ما لا علم له به؛ فإنه من العلم الذي لا يحاط به، ومن احتج على وفاته بقول النبي ﷺ:

---

(١) المنار المنيف ص (٥٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٥) وقال: «غريب من حديث عطاء عن أبي الدرداء تفرد به عنه ابن جريج ورواه عنه بقية بن الوليد وغيره عن ابن جريج» وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٣٥٢/ ٥٠٨).

(٣) لم أجده فيما بين يدي من مراجع.

«أرأيتكم ليلتكم هذه؛ فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد» فلا حجة فيه؛ فإنه يمكن أن يكون الخضر إذ ذاك على غير وجه الأرض؛ ولأن الدجال وكذلك الجساسة؛ الصحيح أنه كان حيا موجودا على عهد النبي ﷺ، وهو باق إلى اليوم لم يخرج، وكان في جزيرة من جزائر البحر. فما كان من الجواب عنه كان هو الجواب عن الخضر، وهو أن يكون لفظ الأرض لم يدخل في هذا الخبر، أو يكون أراد الآدميين المعروفين، وأما من خرج عن العادة فلم يدخل في العموم، كما لم تدخل الجن، وإن كان لفظا ينتظم الجن والإنس، وتخصيص مثل هذا من مثل هذا العموم كثير معتاد»[١].

فهذه الفتوى مخالفة لفتاويه السابقة التي تقدم ذكرها، وقد علق عليها بعض أهل العلم:

قال الشيخ الألباني: «هذه الفتوى، كأنها كانت منه قبل أن يتمكن من العلم الصحيح؛ فإن أكثر فتاويه على خلافها، وأن الخضر مات، وأنه لو أدرك النبي ﷺ لوجب عليه أن يأتيه وينصره..

وقوله: إنه اجتمع بالنبي ﷺ؛ كأنه يعني بعد وفاته معزيًا به، وهذا هو الذي رواه الشافعي وغيره كما رأيت، وسكوته عن إسناده، بل واحتجاجه به على حياته ورده على من قال بوفاته ونسبته إلى القول بغير علم؛ من شطط القول، لا سيما وهو ممن يشمله رده»[٢].

قال الشيخ بكر أبو زيد: «هذه الفتوى، لم نر من نقلها عن شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه اللَّه تعالى- قبل الشيخ ابن قاسم -رحمه اللَّه تعالى- جامع الفتاوى، وقد علق عليها بقوله: هكذا وجدت هذه الرسالة، ومعلوم أن الشيخ ابن قاسم رحمه الله لا يعلق على الفتاوى بمثل ذلك، فلولا أنه في شك من هذه الفتوى لما علّق عليها؛ لأنها تخالف سائر فتاويه وأقواله في الخضر، وما ينقله عنه الكافة، وبخاصة أخص تلامذته به ابن القيم -رحمه اللَّه تعالى-»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة (١١/ ٦٤٥-٦٤٦).

(٣) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (ص٥٨).

مستند القائلين بموت الخضر ﷺ:

استند القائلون بموته ﷺ إلى أدلة من القرآن والسنة والمعقول.

١- الأدلة من القرآن.

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[1]

قال الشنقيطي: «فقوله: ﴿لِبَشَرٍ﴾ نكرة في سياق النفي فهي تعمّ كل بشر، فيلزم من ذلك نفي الخلد عن كل بشر من قبله، والخضر بشر من قبله. فلو كان شرب من عين الحياة وصار حيًّا خالدًا إلى يوم القيامة؛ لكان اللّه قد جعل لذلك البشر الذي هو الخضر من قبله الخلد»[2].

وقال ابن كثير نقلا عن ابن الجوزي: «فالخضر إن كان بشرًا فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح. انتهى. والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن المعصوم يجب قبوله»[3].

الدليل الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4]

قال ابن كثير: «فالخضر إن كان نبيا أو وليا فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حيا في زمن رسول اللّه ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل اللّه عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان وليا فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيا فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده.. عن جابر بن عبد اللّه، أن رسول اللّه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[5]. وهذا الذي يقطع به، ويعلم من الدين علم الضرورة.

---

(١) الأنبياء: الآية (٣٤).
(٢) الأضواء (٣/ ٣٢٨).
(٣) البداية والنهاية (١/ ٣١٢).
(٤) آل عمران: الآية (٨١).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٨٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢-٣١٣/ ٢٦٤٢١)، والدارمي (١/ ١١٥-١١٦)، وابن أبي عاصم (٥٠). وفي سنده مجالد، قال فيه ابن حجر في التقريب: «ليس بالقوي» وقد تغير في آخر عمره. وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن، انظرها في الإرواء (ح ١٥٨٩).

وقد دلت هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول اللَّه ﷺ لكانوا كلهم أتباعا له، وتحت أوامره، وفي عموم شرعه. كما أنه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- لما اجتمع معهم ليلة الاسراء، رُفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة، أمره جبريل عن أمر اللَّه أن يأمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم؛ فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا علم هذا -وهو معلوم عند كل مؤمن- علم أنه لو كان الخضر حيا لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك، هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين، وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول اللَّه ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالا في مشهد من المشاهد.

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه ﷻ، واستنصره واستفتحه على من كفره: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض**» وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب:

وثبير بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حيا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته، وأعظم غزواته.

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض أصحابنا عن الخضر؛ هل مات؟ فقال: نعم. قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيا لجاء إلى رسول اللَّه ﷺ. نقله ابن الجوزي في العجالة.

فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرًا في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه؟

فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص

العمومات بمجرد التوهمات. ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء وظهورُه أعظم لأجره، وأعلى في مرتبته، وأظهر لمعجزته، ثم لو كان باقيا بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة، والآراء البدعية، والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جُمَعهم، وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام؛ أفضل ما يقال عنه من كنونه[1] في الأمصار، وجَوْبه الفيافي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[2].

٢- الأدلة من السنة:

الدليل الأول: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلى لنا رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء، وهي التي يدعو الناس العتمة، ثم انصرف فأقبل علينا فقال: «**أرأيتم ليلتكم هذه؛ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد**»[3].

الدليل الثاني: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «**تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة**»[4].

الدليل الثالث: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: لما رجع النبي ﷺ من تبوك سألوه عن الساعة. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تأتي مائة سنة، وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم**»[5].

قال الشنقيطي: «**فهذا الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ ابن عمر وجابر وأبو سعيد، فيه تصريح النَّبي ﷺ بأنه لا تبقى نفس منفوسة حية على وجه الأرض بعد مائة**

---

(١) أي اختفائه، في القاموس المحيط: «كَنَّهُ كَنًّا وكُنُونًا وأكَنَّهُ وكَنَّنَهُ واكْتَنَّهُ: سَتَرَهُ».

(٢) البداية والنهاية (١/ ٣١٢-٣١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٨ و١٢١ و١٣١)، البخاري (٢/ ٥٦/ ٥٦٤)، مسلم (٤/ ١٩٦٥/ ٢٥٣٧)، أبو داود (٤/ ٥١٦/ ٤٣٤٨)، الترمذي (٤/ ٤٥١/ ٢٢٥١)، النسائي في الكبرى (٣/ ٤٤١/ ٥٨٧١).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٤) ومسلم (٤/ ١٩٦٦/ ٢٥٣٨) والترمذي (٤/ ٤٥١/ ٢٢٥٠).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٦٧/ ٢٥٣٩).

سنة. فقوله: «نفس منفوسة» ونحوها من الألفاظ في روايات الحديث؛ نكرة في سياق النفي، فهي تعم كل نفس مخلوقة على الأرض، ولاشك أن ذلك العموم بمقتضى اللفظ يشمل الخضر؛ لأنه نفس منفوسة على الأرض»[١].

وقال الحافظ: «وأجاب من أثبت حياته بأنه كان حينئذ على وجه البحر، أو هو مخصوص من الحديث كما خص منه إبليس بالاتفاق»[٢].

أما ما ذكره الحافظ من جوابهم بأن الخضر كان حينئذ على وجه البحر، فقال صديق حسن خان: «ما أبرد هذا الجواب، وأبعده عن الصواب»[٣].

قال الألوسي: «الظاهر ممن على ظهر الأرض من هو من أهل الأرض، ومتوطّن فيها عرفًا، ولا شك أن هذا شامل لمن كان في البحر.. وأن الخضر لو كان موجودًا لكان ممن يشاهده الناس، كما هو الأمر المعتاد في البشر. وكونه ﵇ خارجًا عن ذلك لا يثبت إلا بدليل، وأنّى هو! فتأمل»[٤].

وقد أورد القرطبي صاحب «المفهم» على العموم الوارد في الأحاديث حياة الدجال بدليل حديث الجساسة، وحياة عيسى ﵇، لكونه لم يمت ولم يقتل بنص القرآن، وأن الخضر ممن لم يشاهده الناس.. وتبعه على ذلك تلميذه القرطبي المفسّر. انظر «المفهم» و«الجامع لأحكام القرآن»[٥].

وقد أجاب على ذلك الشنقيطي ﵀ حيث قال: «قوله: (إن عيسى لم يتناوله عموم الحديث) فيه أن لفظ الحديث من أصله لم يتناول عيسى؛ لأن النَّبي ﷺ قال فيه: «**لم يبق على ظهر الأرض ممن هو بها اليوم أحد**» فخصص ذلك بظهر الأرض، فلم يتناول اللفظ من في السماء، وعيسى قد رفعه اللَّه من الأرض كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾[٦] وهذا واضح جدًّا كما ترى.. وأما قوله: إن الخضر لم يشاهده الناس ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضًا؛ يقال فيه: إن الاعتراض يتوجه عليه من جهتين: الأولى: أن دعوى كون الخضر محجوبًا عن أعين الناس كالجن والملائكة؛ دعوى لا دليل عليها، والأصل

---

(١) الأضواء (٣/ ٣٣٠).
(٢) الفتح (٦/ ٥٣٧).
(٣) فتح البيان (٨/ ٩٨).
(٤) روح المعاني (١٥/ ٣٢٣).
(٥) المفهم (٦/ ٤٩٠)، الجامع (١١/ ٢٩-٣٠).
(٦) النساء: الآية (١٥٨).

خلافها؛ لأن الأصل أن بني آدم يرى بعضهم بعضًا؛ لاتفاقهم في الصفات النفسية ومشابهتهم فيما بينهم. الثانية: أنا لو فرضنا أنه لا يراه بنو آدم؛ فاللَّه الذي أعلم النَّبي بالغيب الذي هو هلاك كل نفس منفوسة في تلك المائة؛ عالِمٌ بالخضر وبأنه نفس منفوسة. ولو سلمنا جدليًا أن الخضر فرد نادر لا تراه العيون، وأن مثله لم يقصد بالشمولي في العموم، فأصح القولين عند علماء الأصول شمول العام والمطلق للفرد النادر والفرد غير المقصود، خلافًا لمن زعم أن الفرد النادر وغير المقصود لا يشملهما العام ولا المطلق.. وما ذكره القرطبي من خروج الدجال من تلك العمومات بدليل حديث الجساسة؛ لا دليل فيه؛ لأن الدجال أخرجه دليل صالح للتخصيص وهو الحديث..» ثم ذكر حديث الجساسة، ثم قال:

«فهذا نص صحيح صريح في أن الدجال حي موجود في تلك الجزيرة البحرية المذكورة في حديث تميم الدارمي المذكور، وإنه باق وهو حي حتى يخرج في آخر الزمان. وهذا نص صالح للتخصيص يخرج الدجال من عموم حديث موت كل نفس في تلك المائة. والقاعدة المقررة في الأصول: أن العموم يجب إبقاؤه على عمومه، فما أخرجه نص مخصص خرج من العموم وبقي العام حجة في بقية الأفراد التي لم يدلّ على إخراجها دليل، كما قدمناه مرارًا، وهو الحق ومذهب الجمهور، وهو غالب ما في الكتاب والسنة من العمومات يخرج منها بعض الأفراد بنص مخصص، ويبقي العام حجة في الباقي..

وبهذا كله يتبين أن النصوص الدالة على موت كل إنسان على وجه الأرض في ظرف تلك المائة، ونفي الخلد عن كل بشر قبله؛ تتناول بظواهرها الخضر، ولم يخرج منها نص صالح للتخصيص كما رأيت. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

الدليل الرابع: عن ابن عباس ﷺ قال حدثني عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض....**» الحديث[2].

---

(١) الأضواء (٣/ ٣٣٤-٣٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠)، ومسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٤/ ١٧٦٣)، والترمذي (٥/ ٢٥١/ ٣٠٨١). وأخرجه أبو داود مختصرا دون ذكر محل الشاهد (٣/ ١٣٨/ ٢٦٩٠).

الشاهد من الحديث قوله: «**لن تعبد في الأرض**» قال الحافظ: «فلو كان الخضر موجودًا؛ لم يصح هذا النفي»[١].

وقال الشنقيطي: «فاعلم أن ذلك النفي يشمل بعمومه وجود الخضر حيًّا في الأرض؛ لأنه على تقدير وجوده حيًّا في الأرض فإن اللَّه يعبد في الأرض، ولو على فرض هلاك تلك العصابة من أهل الإسلام؛ لأن الخضر مادام حيًّا فهو يعبد اللَّه في الأرض»[٢].

الدليل الخامس: عن ابن عباس ﵄ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يرحم اللَّه موسى؛ لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما**»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «فلو كان الخضر موجودًا لما حسن هذا التمني، ولأحضره بين يديه وأراه العجائب، وكان أدعى لإيمان الكفرة سيما أهل الكتاب»[٤].

قال ابن الجوزي: «فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر»[٥].

قال الألوسي: «إن الأخبار الصحيحة النبوية، والمقدمات الراجحة العقلية، تساعد القائلين بوفاته ﵇ أيّ مساعدة، وتعاضدهم على دعواهم أيّ معاضدة، ولا مقتضى للعدول عن ظواهر تلك الأخبار»[٦].

٣- الأدلة من المعقول:

قال ابن الجوزي: «أما الدليل من المعقول؛ فمن عشرة أوجه: أحدها: أن الذي أثبت حياته يقول إنه ولد آدم لصلبه وهذا فاسد لوجهين: أحدهما: أن يكون عمره الآن ستة آلاف سنة فيما ذكر في كتب بعض المؤرخين ومثل هذا بعيد في العادات أن يقع في حق البشر. والثاني: أنه لو كان ولده لصلبه أو الرابع من ولد

---

(١) الفتح (٦/ ٥٣٧). (٢) الأضواء (٣/ ٣٢٩).
(٣) طرف من حديث ابن عباس في قصة موسى مع الخضر، وقد تقدم تخريجه.
(٤) الفتح (٦/ ٥٣٧).
(٥) عجالة المنتظر بواسطة البداية والنهاية (١/ ٣١٣).
(٦) روح المعاني (١٥/ ٣٢٨).

ولده كما زعموا، وأنه كان وزير ذي القرنين؛ فإن تلك الخلقة ليست على خلقتنا، بل مفرط في الطول والعرض. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**خلق اللَّه آدم، طوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص بعد**» وما ذكر أحد ممن رأى الخضر أنه رآه على خلقة عظيمة وهو من أقدم الناس. الوجه الثالث: أنه لو كان الخضر قبل نوح لركب معه في السفينة، ولم ينقل هذا أحد. الوجه الرابع: أنه قد اتفق العلماء أن نوحا لما نزل من السفينة مات من كان معه، ثم مات نسلهم، ولم يبق غير نسل نوح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[1] وهذا يبطل قول من قال: إنه كان قبل نوح. والوجه الخامس: أن هذا لو كان صحيحًا -أن بشرًا من بني آدم يعيش من حين يولد إلى آخر الدهر ومولده قبل نوح- لكان هذا من أعظم الآيات والعجائب، وكان خبره في القرآن مذكورا في غير موضع؛ لأنه من أعظم آيات الربوبية، وقد ذكر اللَّه ﷻ من أحياه ألف سنة إلا خمسين عاما وجعله آية، فكيف بمن أحياه إلى آخر الدهر، ولهذا قال بعض أهل العلم: ما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان. والوجه السادس: أن القول بحياة الخضر قول على اللَّه بلا علم، وذلك حرام بنص القرآن. أما المقدمة الثانية فظاهرة، وأما الأولى فإن حياته لو كانت ثابتة لدل عليها القرآن أو السنة أو إجماع الأمة، فهذا كتاب اللَّه تعالى فأين فيه حياة الخضر، وهذه سنة رسول اللَّه ﷺ فأين فيها ما يدل على ذلك بوجه، وهؤلاء علماء الأمة هل أجمعوا على حياته. الوجه السابع: أن غاية ما يتمسك به من ذهب إلى حياته حكايات منقولة يخبر الرجل بها أنه رأى الخضر، فيا لله العجب!! هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه؟! وكثير من هؤلاء يغتر بقوله: أنا الخضر، ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من اللَّه، فأين للرائي أن المخبر له صادق لا يكذب. الوجه الثامن: أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن ولم يصاحبه، وقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾؛ فكيف يرضى لنفسه بمفارقته لمثل موسى، ثم يجتمع بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة الذين لا يحضرون جمعة ولا جماعة، ولا مجلس علم، ولا يعرفون من الشريعة شيئًا، وكل منهم يقول: قال الخضر، وجاءني الخضر، وأوصاني الخضر؟! فيا

---

(١) الصافات: الآية (٧٧).

عجبا له! يفارق كليم اللَّه تعالى ويدور على صحبة الجهال، ومن لا يعرف كيف يتوضأ ولا كيف يصلي! الوجه التاسع: أن الأمة مجمعة على أن الذي يقول: أنا الخضر؛ لو قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول كذا وكذا؛ لم يلتفت إلى قوله، ولم يحتج به في الدين، إلا أن يقال: إنه لم يأت إلى رسول اللَّه ﷺ ولا بايعه، أو يقول هذا الجاهل إنه لم يرسل إليه، وفي هذا من الكفر ما فيه. الوجه العاشر: أنه لو كان حيا؛ لكان جهاده الكفار، ورباطه في سبيل اللَّه، ومقامه في الصف ساعة، وحضوره الجمعة والجماعة، وتعليمه العلم؛ أفضل له بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات، وهل هذا إلا من أعظم الطعن عليه والعيب له؟»[١].

خطورة القول بولاية الخضر وحياته:

قال الشيخ بكر أبو زيد: «اعلم أن القول بولاية الخضر، والقول بأنه ما زال حيًّا؛ قد جرّ هذان القولان من البلايا والمحن والدعاوى الكاذبة والتلبيس على العامة، بل وعلى الخاصة؛ ما لا يصدّقه عقل، ولا يقبله دين، من دعوى فضل الولاية والأولياء على النبوة والأنبياء، وأن فلانًا لقي الخضر عليه السلام واستلهمه كذا وكذا. والقول بولايته وحياته أبد الدهر هما معتمد الصوفية في جعل الشريعة لها ظاهر وباطن، وأن علماء الباطن ينكرون على علماء الظاهر، ولا عكس، وبه قالوا بحجية الإلهام، وأن الولي أفضل وأعلم من النبي، والدعوى الواسعة للقاء الخضر والأخذ عنه، فمنهم من لقي الخضر يصلي على المذهب الحنفي، وآخر رآه يصلي على المذهب الشافعي، وهذا الحصكفي يذكر في مقدمة كتابه: «الدر المختار» أن الخضر أودع أوراق المذهب الحنفي في نهر جيحون إلى وقت نزول عيسى عليه السلام، ليحكم بها آخر الزمان. ويظهر أن أول من فتح باب الفتنة في نسج الخرافات والضلالات حول الخضر عليه السلام وولايته هو الحكيم الترمذي في كتابه «ختم الولاية»»[٢].

قال ابن عاشور: «اعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة.

---

(١) العجالة بواسطة المنار المنيف ص(٦١-٦٤).

(٢) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (٦٥).

فأول ما أسسوه منها: أن الخضر لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا، وأن العلم الذي أوتيه ليس وحيًا ولكنه إلهام، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه اللَّه البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا، ليكون مرجعا لتلقي العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء؛ فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه.

وبنوا على ذلك: أن الإلهام ضرب من ضروب الوحي، وسموه الوحي الإلهامي، وأنه يجيء على لسان ملك الإلهام.. وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجة. وعرفوه بأنه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصومًا، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم. وقد تعرض لها النسفي في عقائده، وكل ما قاله النسفي في ذلك حق، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

والأظهر أن الخضر نبي ﷺ، وأنه كان موحى إليه بما أوحي لقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قُصت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض، وأن يحمل ما يعزى إليه من بعض الصوفية الموسومين بالصدق أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التي قد تخيم عليهم، فكونوا على حذر ممن يقول: أخبرني الخضر»[1].

قلت: ومما تقدم من البحوث والأقوال والمصادر التي ألفها علماء الإسلام في الرد على من قال بحياة الخضر، أو من نفى نبوته؛ يتبين أن الإسلام دخل فيه من لا يريد نصرته؛ بل يريد إفساده وتشويهه، ويريد أن يعيش الناس على أوهام لا حقيقة لها؛ بل القول بحياة الخضر منافٍ لنصوص القرآن والسنة وسنن اللَّه في خلقه في أحب عباده، وأنه لا بقاء لأحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، مات الأنبياء كلهم وذكرت وفاتهم في القرآن، وذكر رسوله ﷺ وفاتهم في أحاديثه الصحيحة، وذكر اللَّه موت نبينا ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾[2]، واستدل بها أبو بكر رضي الله عنه -وهو الملهم

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥-١٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٤٤).

المحدث الثابت على الدين منذ أسلم، وما زادته حياة النبوة إلا ثباتًا متجدّدًا- وبيّن لعمر ﷺ أنه لا بقاء لأحد مهما علا شأنه وقربت منزلته من ربه، ولو كانت الحياة تستمر لأحد من البشر لكان الأحق بذلك نبينا محمد ﷺ، فهو الهدى والنور، وقوله هو القول الفصل ليس بالهزل، فيستضيء الكون بأقواله، ولا يقع الاختلاف الذي يؤدي بالأمة إلى الحروب والسفك الذي يتضمن كل المفاسد في الدنيا والآخرة، فما هذه الحماقة التي يروج لها المخرفون ويجعلونها عمدة في ضلالهم، وردًّا لصريح النصوص وصحيحها وأدلة العقل والفطرة الصحيحة؟! فقد احتالوا على الناس بما يريدون، وضللوا من شاءوا بما شاءوا بمثل هذه الحماقة التي لا أصل لها في دليل صحيح؛ بل هذا الزعم الباطل لم يكن للخضر فقط؛ بل أصبح يدعى لكل من شاءوا وزعموا أنه ولي، ولعلها فكرة الرافضة الخبثاء في أصلهم الباطل القول بالرجعة، حيث نسبوها لكثير من أئمتهم وهم مفارقون لهم في كل صغيرة وكبيرة، بل هم زنادقة مارقون، لا يعول على شيء من نقلهم ولا كلامهم، فالصوفية امتداد للرافضة في كل الأصول والفروع، ففكرة حياة الخضر هي تمامًا ما يزعمه الرافضة في رجعة علي وأنه يرجع ويفعل كذا وكذا من هذيانهم الذي يستحيي الإنسان من كتابته وتسطيره، فليس القصر فقط على الخضر؛ بل كل الفرق الصوفية يزعمون لشيوخهم وأوليائهم الحياة الأبدية، ولهذا تجدهم يستعينون بهم في ملماتهم ورخائهم وشدتهم، بل في كل لحظاتهم، وبعض أوليائهم يزعم أنه أقرب إلى مريديه بعد وفاته من حبل وريده، ولولا خشية الإطالة لنقلنا من كتبهم من هذا النوع الكثير، ولكننا سطرناه في غير هذا الموضع والحمد لله. والذي ينبغي أن يعلم أن هذه مكيدة دبرها الرافضة أولًا، ثم تبعهم الصوفية على ذلك، وما يزال أمرهم على هذا الباطل إلى يومنا هذا، والله المستعان.

الفائدة السادسة: قال القرطبي: «في هذا الحديث تنبيه على أصول عظيمة:

منها: أن الله تعالى بحكم مُلكه ومِلكه أن يفعل ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء مما ينفعنا أو يضرنا، فلا مدخل لعقولنا في أفعاله، ولا معارضة لأحكامه، بل يجب علينا الرضا والتسليم؛ فإن إدراك العقل لأسرار أحكام الربوبية قاصر سقيم، فلا يتوجه عليه في فعله (لِم) و(كيف)..

ومنها: أن لله تعالى فيما يجريه حكمًا وأسرارًا راعاها، ومصالح راجعة إلى

خلقه اعتبرها، كل ذلك بمشيئته وإرادته من غير وجوب عليه، ولا حكم عقلي يتوجه إليه، بل ذلك بحسب ما سبق في علمه، ونافذ حكمه، فما أطلع عليه من تلك الأسرار عُرف، وما لا فالعقل عنده يقف، وحذار من الاعتراض والإنكار؛ فإن مآل ذلك إلى الخيبة وعذاب النار.

ومنها: أنه عالم بما كان وبما يكون، وبما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون.

وفوائد هذا الحديث كثيرة، وعلومه غزيرة، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق للهداية»[1].

* * *

(١) المفهم (٦/ ٢١٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذو القرنين: الراجح فيه أنه مَلِك مسلم صالح من ملوك اليمن، آتاه اللَّه العلم والحكمة.

ذكرًا: أي: علمًا وخبرًا.

سببًا: السبب: في الأصل الحبل الذي يُصْعَدُ به إلى النخل. ثم عُبِّرَ به عن كل ما يتوصل به إلى غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة»[١].

قال ابن كثير: «ذكر اللَّه تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل، وأنه بلغ المشارق والمغارب، وملك الأقاليم وقهر أهلها، وسار فيهم بالمعدلة التامة، والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط»[٢].

قال ابن جرير: «اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله قيل لذي القرنين: ذو القرنين، فقال بعضهم: قيل له ذلك من أجل أنه ضُرِب على قَرنْه فهلك، ثم أُحْيِي فضُرب على القرن الآخر فهلك.. وقال آخرون: لأنه ملك فارس والروم.. وقال آخرون: إنما سمي ذلك؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس»[٣].

«وقيل: يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته، كما يسمى الشجاع كبشًا؛ لأنه ينطح

(١) التفسير الكبير للرازي (٢١/ ١٦٤).
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٩٥).
(٣) جامع البيان (١٦/ ٨).

أقرانه»[١].

وقيل: سمي بذلك لأنه كان ذا ضفيرتين من شعرهما قرناه فسمي بهما. ومنه حديث في غسل بنت النبي ﷺ. واستحسنه ابن عطية[٢].

وقيل: «هذا اللقب من الكناية عن كل ذي قوة وبأس وسلطان؛ لأن ذا القرون من المواشي أقواها وأشدها، والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود الذين هم السائلون»[٣].

وقيل: «لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرني الدنيا»[٤].

«وهذا أقرب الأقوال إلى الصحة، وهو أشبه من غيره، ويدل عليه ظاهر القرآن. واللَّه أعلم»[٥].

قلت: هكذا تجد المفسرين أحيانًا يحكون أقوالًا لا حقيقة لها ولا أصل، فذو القرنين هو من بني آدم لا يخرج عنهم، ووصفه بهذه الصفة إنما هو لمعنى قام به عند أولئك الأقوام، فسمي ذا القرنين فسواء قلنا: إن له ظفيرتين تميز بهما -ولعل هذا أشبه وأقرب إلى الحقيقة- فقد كانوا في القديم يفتلون شعر رؤوسهم، وكان هذا من مفاخرهم وصفاتهم، فلعل ذا القرنين كان معتنيًا بشعره فسمي بذلك، وسواء قيل: إنه ملك الشرق والغرب وهما قرنا الدنيا؛ لما استبعد ذلك. فكل المعاني التي تحتملها الكلمة في صفة شخص يمكن الاستئناس بها. أما أن يُذكر بصفة لا علاقة لبني آدم بها؛ فهذا من الشطط في القول الذي ينبغي إبعاده عن المؤلفات والكتب، واللَّه أعلم.

واختلف المفسرون في ذي القرنين من هو؟

قيل: الإسكندر بن فيليبس المقدوني. حكاه الرازي[٦] وغيره.

قال السهيلي: «الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم. والآخر كان على عهد عيسى»[٧].

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٩٧).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٣٨،).
(٣) محاسن التأويل (١١/ ٩٢-٩٣).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٥٣٨).
(٥) البداية والنهاية (٢/ ٩٦) بتصرف.
(٦) التفسير الكبير (٢١/ ١٦٤).
(٧) تفسير القرطبي (١١/ ٣٢).

قال الحافظ: «الأشبه أن المذكور في القرآن هو الأول»[1].

وقد أورد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ترجمة ذي القرنين في كتاب الأنبياء من صحيحه قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. **قال الحافظ:** «وفي إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم؛ إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليوناني؛ لأن الإسكندر كان قريبا من زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبين زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة، والذي يظهر أن الإسكندر المتأخر لُقب بذي القرنين تشبيهًا بالمتقدم لسعة ملكه، وغلبته على البلاد الكثيرة، أو لأنه لما غلب على الفرس وقتل ملكهم انتظم له ملك المملكتين الواسعتين الروم والفرس، فلقب ذا القرنين لذلك، والحق أن الذي قص اللَّه نبأه في القرآن هو المتقدم»[2].

قال ابن كثير بعد أن نبه على الفرق بين ذي القرنين والإسكندر المقدوني: «وإنما نبهنا عليه؛ لأن كثيرًا من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطا طاليس وزيرَه، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير، فإن الأول كان عبدا مؤمنًا صالحًا، وملكًا عادلًا.. وأما الثاني فكان مشركًا، وكان وزيره فيلسوفا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة.

فأين هذا من هذا؟! لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور»[3].

وقال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفلاسفة: «وقد يظنون أن هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن، وأن أرسطو كان وزيرا لذي القرنين المذكور في القرآن، وهذا جهل؛ فإن هذا الإسكندر بن فيلبس لم يصل إلى بلاد الترك، ولم يبْنِ السّد وإنما وصل إلى بلاد الفرس. وذو القرنين المذكور في القرآن وصل إلى شرق الأرض وغربها، وكان متقدما على هذا، يقال: إن اسمه الإسكندر بن دارا، وكان موحّدا مؤمنًا، وذاك مشركًا، كان يعبد هو وقومه الكواكب والأصنام ويعانون السحر، كما كان أرسطو وقومه من اليونان مشركين يعبدون الأصنام ويعانون

(١) الفتح (٦/ ٤٧٣).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٤٧١).

(٣) البداية (٢/ ٩٧).

السحر، ولهم في ذلك مصنفات، وأخبارهم مشهورة، وآثارهم ظاهرة بذلك، فأين هذا من هذا»[١].

واختلفوا فيه أيضًا هل كان نبيًّا أم لا؟

«فقيل: كان نبيا، وهذا مروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وعليه ظاهر القرآن.. وقيل: كان عبدًا صالحًا.. وقيل: كان ملَكًا من الملائكة. حكاه الثعلبي، وهو مروي عن عمر رضي الله عنه.. وقيل: كان من الملوك وعليه الأكثر»[٢].

قال الخازن: «الأصح الذي عليه الأكثرون: أنه كان ملِكًا صالحًا عادلًا، وأنه بلغ أقصى المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، وهذا هو القدر المعمور من الأرض»[٣].

قلت: والتعمق في وصف ذي القرنين بما لا دليل عليه من الكتاب والسنة مما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، وهو من التقول على الله بلا علم. فيكتفى في وصفه بما ذُكر في القرآن، وأما من وصفه ونسبه إلى غير ما جاء في القرآن فقد أخطأ. فظاهر القرآن أنه كان رجلًا صالحًا داعيًا إلى الله بالتوحيد، ومتبعًا في ذلك الرسل والأنبياء الذين أدركهم، وكان على دينهم وشريعتهم. وأما من وصفه بأرسطو طاليس الفيلسوف المعروف، الذي شغل به المشركون والضالون من الناس، وعظموه وأكثروا من تفخيمه وتبجيله والثناء عليه؛ فإنما أرادوا صرف الناس عن تراجم الأنبياء والصالحين وذكر مناقبهم، وكذا تراجم الصحابة وبيان مناقبهم وفضائلهم رضي الله عنهم، وتراجم العلماء. وهكذا يريد هؤلاء المنافقون أن يتصل الناس بالمشركين والزنادقة، ويتركوا خيار خلق الله، فيأخذون منهم القدوة والأسوة، ولا سيما في وقتنا الحاضر؛ فإنهم أغرقوا في تراجم الزنادقة وذكر أخبارهم باسم الفكر الإسلامي! وهؤلاء مغربون والإسلام مشرق، فشتان بين مشرق ومغرب! والله المستعان.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٦١).

(٢) الفتح (٦/ ٤٧٢) بتصرف يسير.

(٣) لباب التأويل (٣/ ٢٠٩).

فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.. يسر اللَّه له الأسباب؛ أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضي، وكسْر الأعداء، وكبْت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا»[١].

وقال السعدي: «وهذه الأسباب التي أعطاه اللَّه إياها، لم يخبرنا اللَّه ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عَدد وعُدد ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) تيسير الكريم (٥/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

حمئة: أي: كثيرة الحَمْأة. وهي: الطين الأسود المنتن. يقال: حمئتِ البئر إذا صارت فيها الحمأة. قال أبو الأسود:

تجيء بملئها طورًا وطورًا   تجيء بحمأة وقليل ماء

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: فسلك طريقًا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدّة والشمسُ تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلَك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه.

والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1] أي: طين أملس.. كان ابن عباس يقول: ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسئل

(١) الحجر: الآية (٢٨).

عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد.. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وجدها تغرب في عين حامية، يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمِئةً في ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره..

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ﴾ أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم»[1].

قلت: بعد ظهور علم الفلك والاطلاع على كثير من الكواكب، والرجوع إلى النصوص الصحيحة في سجود الشمس لرب العالمين عند العرش، وظاهر أدلة القرآن في دوران الفلك والكواكب والأرض؛ فإن ما يقال في هذا وما ينقل عن أهل الكتاب فلا حقيقة له. والشمس كما وصفها اللَّه في القرآن: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾[2]، فلا نصفها إلا بما وصفها اللَّه، فهي تظهر للناظر بشكل وهي في واقع أمرها شكل آخر، كما ظهر لذي القرنين أنها تغرب في عين حمئة، فهو على حسب ما يرى الرائي، وإلا فالشمس لها شأن آخر، فهي تنتقل في الكون وتسير من شرق الأرض إلى غربها حسب تسخير اللَّه لها، واللَّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

قال ابن كثير: «معنى هذا أن اللَّه تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظفره بهم وخيّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى. فعُرف عدله وإيمانه، فيما أبداه عدله وبيانه، في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٩١-١٩٣).

(٢) يس: الآية (٣٨).

نُعَذِّبُهُۥ﴾ قال قتادة: بالقتل.. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا. وفيه إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند اللّه ﷻ، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفا»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٩٣-١٩٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

★ غريب الآية:

سَدًّا: السّد: المانع والحاجز بين الشيئين.

رَدْما: ما تسدّ به الثلمة من حجر ونحوه. وعني به السدّ والحاجز.

زُبَر: جمع زُبْرة، وهي القطعة العظيمة.

قِطْرًا: القطر النحاس المذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم سلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى اللّه ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم. . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال اللّه تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يُكنهم، ولا أشجار تُظلهم وتسترهم من حر الشمس. .

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد والسدي: علمًا؛ أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت

أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1]»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام»[3].

قال أبو حيان: «وقد اختلف في عددهم وصفاتهم، ولم يصح في ذلك شيء»[4].

«قوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس. ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾: عن ابن عباس: أجرًا عظيمًا، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني اللَّه من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[5] وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ والزبر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وهي كاللبنة.. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولا وعرضًا. واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي: أجج عليه النار حتى صار كله نارًا، ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والضحاك وقتادة والسُّدي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾[6] ولهذا يشبه بالبُرْد المحبّر»[7].

(١) آل عمران: الآية (٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٩٣-١٩٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٩٥).
(٤) البحر (٦/ ١٥٤).
(٥) النمل: الآية (٣٦).
(٦) سبأ: الآية (١٢).
(٧) تفسير القرآن (٥/ ١٩٥).

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

نقبًا: خرقًا وثقبًا.

دكّاء: أي: مدكوكًا مسوىً بالأرض. من دكَكْتُه إذا دَققته.

تركنا: الترك: التخلية، وهو ضدّ الأخذ. قال الشاعر:

أَمرتُكَ الخيْرَ فافْعَلْ ما ائْتَمَرْتَ بِهِ   فَقَدْ تركْتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

يموج: يختلط ويضطرب. والموج: اضطراب الماء بعضه على بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كُلاًّ بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه..

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس؛ حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: ساواه بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[2] أي: مساويًا للأرض. وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ قال: طريقًا كما كان. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي:

---

(١) الآيات: (٩٧-٩٩).

(٢) الأعراف: الآية (١٤٣).

كائنًا لا محالة.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: الناس يومئذ أي: يوم يُدكّ هذا السد ويخرج هؤلاء، فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾[1] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾. قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن »[2].

مجمل ما تضمنته هذه القصة من فوائد

قال القاسمي: «فمن فوائدها: الاعتبار برفع بعض الناس درجات على بعض. ورزقه من يشاء بغير حساب ملكًا ومالًا؛ لما لَه من خفيّ الحكم، وباهر القدرة. فلا إله سواه.

ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة اللّه في الكون من الجدّ والعمل. وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر، فإن ما قصّ عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار، الذي لا يشق له غبار، أكبر عبرة لأولي الأبصار.

ومنها: تنشيط الهمم لرفع العوائق. وأنه ما تيسرت الأسباب؛ فلا ينبغي أن يُعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر عذرًا في الخمول والرضاء بالدون، بل ينبغي أن ينشط ويمْثُل في مرارته، حلاوة عقباه من الراحة والهناء. كما قضى الإسكندر عمره ولم

(١) الأنبياء: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٢) تفسير القرآن (٥/ ١٩٧-١٩٩).

يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : إذ لم يكن من الذين تُقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون . .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغي له أن تُسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال ؛ بل يعامل المحسن بإحسانه ، والمسيء بقدر إساءته . فإن ما حكي عن الإسكندر من قوله : ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ إلى آخره نهايةٌ في العدل وغايةٌ الإنصاف .

ومنها : أن على الملِك إذا اشتكي إليه جور مجاورين ، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن ، دفاعًا عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والخراب ، قياما بفريضة دفع المعتدين ، وإمضاء العدل بين العالمين ؛ كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكِين في بناء السد ؛ وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لردّ غارات البرابرة وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعففَ عن أموال رعيته ، والزهد في أخذ أجرة في مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه اللَّه عنه ، ففي ذلك حفظ كرامته ، وزيادة الشغف بمحبته ، كما تأبّى الإسكندر تفضّلا وتكرّما .

ومنها : التحدث بنعمة اللَّه تعالى إذا اقتضاه المقام ؛ كقول الإسكندر في مقام تعففه عن أموالهم والشفقة عليهم : ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ كقول سليمان : ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾(١) . .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون في الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص ، وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم ، صدقا في العمل ونصحًا فيه ؛ ليُنتفع به على تطاول الأجيال ؛ فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال في الأعمال ، ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطًا لهمتهم ، وتجرئة لهم ، وترويحًا لقلوبهم . وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتعاب ، ويدير العمل بنفسه ، كما بينه الذكر الحكيم في قوله : ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ .

---

(١) النمل : الآية (٣٦).

ومنها: تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

ومنها: الإعلام بالدور الأخرويّ، وانقضاء هذا الطور الأوليّ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي، والنعيم السرمدي. ولذا قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾.

ومنها: الاعتذار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار؛ فإن من أنعم النظر فيما قصّ عنه في هذه الآيات الكريمة؛ يتضح له جليا حسن سجاياه، وسموّ مزاياه؛ من الشجاعة، وعلو الهمة، والعفة والعدل، ودأبه على توطيد الأمن، وإثابة المحسنين، وتأديبه للظالمين، والإحسان إلى النوع البشريّ، لا سيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة وحشيةٌ فاسدة.

ومنها: الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمما متباينة، كما كان يرمي إليه سعي الإسكندر؛ فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب، ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد.. لتوثيق عرى المحبة والارتباط، وإزالة البغض والشحناء.

ومنها: الاعتبار بما يبلغه الإنسان، وما فيه من بليغ الاستعداد، يُقضى على المرء أن يعيش أولًا طفلًا مُرضعًا، لا يعلم ما حوله، ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة، قيامًا بما تقتضيه أسباب الحياة، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له، وعرضة لأسقام تذيقه الآلام، وقد تجرعه كأس الحِمام، قبل أن يرى ويدرك شيئًا من هذا النظام، فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي الممات، وسرت بجسمه قوى الشبيبة، وصرف ما أنعم اللَّه عليه إلى ما خلق لأجله؛ ترعرع إنسانًا عظيمًا ظافرًا بمنتهى أمله»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر يأجوج ومأجوج وأنهم من بني آدم

* عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش ﵄ أن النبي ﷺ دخل عليها فزِعا يقول: «**لا إله إلا اللَّه، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم**

(١) محاسن التأويل (١١/ ٨٨-٩٠).

يأجوج ومأجوج مثل هذه». وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها. فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال «نعم. إذا كثر الخبث»[١].

★ غريب الحديث:

ردم: الردم السدّ، ورَدمت الثّلمة إذا سددتها.

يأجوج ومأجوج: يهمزان ولا يهمزان، لغتان قرىء بهما، فمن همزهما جعلهما من أجيج النار، وهو ضوؤها وحرارتها، وسموا بذلك لكثرتهم وشدتهم. وقيل: من الأجاج، وهو الماء الشديد الملوحة. وقيل: هما اسمان أعجميان غير مشتقين.

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**فتح اللَّه من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه». وعقد بيده تسعين**[٢].

★ غريب الحديث:

عقد بيده تسعين: هو أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها -أي: أصل الإبهام- ويضمها ضمًّا محكمًا بحيث تطوى عقدتها حتى تصير مثل الحية المطوقة.

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقول اللَّه تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعَمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير،** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٣]. قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ قال: «**أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**». فكبرنا! فقال: «**أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**». فكبّرنا! فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢٨) والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٧/ ٢٨٨٠) والترمذي (٤/ ٤١٦-٤١٨/ ٢١٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ١١٣١١) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥/ ٣٩٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤١) والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٧) ومسلم (٤/ ٢٢٠٨/ ٢٨٨١[٣]).

(٣) سورة الحج: الآية (٢).

«أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة». فكبّرنا! فقال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السّد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس؛ قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، فيعودون إليه كأشد ما كان. حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد اللَّه أن يبعثهم على الناس؛ حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس؛ قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء اللَّه، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فيُنشفّون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث اللَّه عليهم نغفًا في أقفائهم فيقتلهم بها. فقال رسول اللَّه ﷺ: والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمَن وتَشكَر شكرا من لحومهم ودمائهم»[٢].

★ غريب الحديث:

نَغَفًا: بفتح النون والغين المعجمة: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، جمع نغفة.

أقفائهم: جمع قفا، وهو وراء العنق.

تَشْكر شَكرًا: أي: تسمَن وتمْتلئ شحْمًا. يقال شكِرت الشاةُ بالكسر تَشكَر شَكَرًا بالتحريك إذا سَمِنَتْ وامْتلأ ضَرْعُها لبَنًا.

★ فوائد الأحاديث:

الغرض من هذه الأحاديث «ذكر يأجوج ومأجوج، والإشارة إلى كثرتهم، وأن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢-٣٣) والبخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨) ومسلم (١/ ٢٠١/ ٢٢٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٠-٥١١)، الترمذي (٥/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٣١٥٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، ابن ماجه (٢/ ١٣٦٤-١٣٦٥/ ٤٠٨٠) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٢٤٢-٢٤٣/ ٦٨٢٩)، والحاكم (٤/ ٤٨٨) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عشر عُشر العشر، وأنهم من ذرية آدم، ردًّا على من قال خلاف ذلك»[١].

قال ابن كثير: «ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم، فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك، وأنهم ليسوا من حواء؛ فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوي في شرح مسلم وغيره وضعفوه، وهو جدير بذلك؛ إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن. وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة، وأطوال متباينة جدا؛ فمنهم من هو كالنخلة السحوق. ومنهم من هو غاية في القصر. ومنهم من يفترش أذنا من أذنيه ويتغطى بالأخرى؛ فكل هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان.

والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم. وقد قال النبي ﷺ: «**إن اللَّه خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن**»[٢]. وهذا فيصل في هذا الباب وغيره»[٣].

وقد استشكل قوله في حديث زينب: «**فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه**» وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. وقوله في الآية: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾، وأجاب ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

«أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن، وإن هذا استعارة محضة وضرب مثل فلا إشكال.

وأما على قول من جعل ذلك إخبارا عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر؛ فلا إشكال أيضًا؛ لأن قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي في ذلك الزمان؛ لأن هذه صيغة خبر ماض، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن اللَّه لهم في ذلك قدرًا، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلا قليلا حتى يتم الأجل، وينقضي الأمر المقدور، فيخرجون كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[٤] ولكن

---

(١) الفتح (٦/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٦/ ٤٤٦/ ٣٣٢٦)، ومسلم (٤/ ٢١٨٣/ ٢٨٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البداية والنهاية (٢/ ١٠١).

(٤) الأنبياء: الآية (٩٦).

الحديث الآخر أشكل من هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد . . » ثم ذكر حديث أبي هريرة الأخير .

ثم قال : «فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه ، حتى يكادوا ينظرون شعاع الشمس من ورائه لرقته ؛ فإن لم يكن رفْع هذا الحديث محفوظا وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم ؛ فقد استرحنا من المؤنة ، وإن كان محفوظًا فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم ؛ كما هو المروي عن كعب الأحبار ، أو يكون المراد بقوله : ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي : نافذا منه ، فلا ينفى أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم . وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة : «**فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وعقد تسعين ؛ أي : فتح فتحا نافذًا فيه . والله أعلم»[١] .

* * *

(١) البداية والنهاية (٢/ ١٠٢-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور أعاد اللَّه الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين؛ ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم»(٢).

قال ابن عطية: «والصور في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصحاح، هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة»(٣).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٤)، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٥)»(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى الصُّور

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «**قرنٌ ينفخ فيه**»(٧).

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فيَنفخ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: «قولوا: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على اللَّه توكلنا**»(٨).

---

(١) الآية (٩٩).
(٢) التيسير (٥/ ٨٠).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٥٤٤).
(٤) الواقعة: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٥) الكهف: الآية (٤٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠٠).
(٧) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢) وأبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤٢) والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣٠) وحسنه. والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٦) والحاكم (٢/ ٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبي.
(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٧) والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣١) وحسنه. والحاكم (٤/ ٥٥٩) وصححه.

★ **فوائد الحديثين:**

الحديثان مفسران لمعنى الصور في الآية الكريمة، وأنه قرن ينفخ فيه. وأما كون إسرافيل هو النافخ كما أشار إلى ذلك السعدي؛ فلم يرد فيه دليل صحيح والله أعلم. وسيأتي المزيد من التفصيل في هذه المسألة في تفسير سورة الزمر: الآية (٦٨) بإذن الله تعالى.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم»(١).

قال السعدي: «﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾(٢) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تُبكم له القلوب، وتُصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة جهنم أعاذنا اللَّه منها

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها**»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

«في هذا الحديث عظم خلق جهنم، وأنها موكلة بالكفار المشركين والمنافقين.

وفيه تفصيل لخلق جهنم، وأن لها أزمة تقاد بها، ولها من يقودها من الملائكة»(٥).

وسيأتي مزيد كلام على هذا الحديث عند تفسير الآية (٢٣) من سورة الفجر إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠١).
(٢) الشعراء: الآية (٩١).
(٣) تيسير الكريم (٥/ ٨٠).
(٤) أخرجه: مسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٢)، الترمذي (٤/ ٦٠٤/ ٢٥٧٣).
(٥) بهجة الناظرين (١/ ٤٧٢) للشيخ سليم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ۝١٠١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: «﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ الذين كانوا لا ينظرون في آيات اللَّه فيتفكَّرون فيها، ولا يتأمَّلون حججه فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون إلى توحيد اللَّه، وينقادون لأمره ونهيه، ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾، يقول: وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر اللَّه الذي ذكَّرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آي كتابه، بخذلان اللَّه إياهم، وغلبة الشقاء عليهم، وشُغلهم بالكفر باللَّه وطاعة الشيطان، فيتعظون به ويتدبَّرونه، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان»[1].

وقال ابن كثير: «ثم قال مخبرًا عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي: تعاموا وتغافلوا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[2] وقال ههنا: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي: لا يعقلون عن اللَّه أمره ونهيه»[3].

وقال عبدالكريم الخطيب: «وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ﴾ هو وصف كاشف لهؤلاء الكافرين، الذين عرضت عليهم جهنم عرضا تنخلع منه قلوبهم فزعًا، وتمتلئ به نفوسهم رعبًا، فهؤلاء الكافرون كانوا في غفلة عن اللَّه، وعن دعوة الحق التي كان يحملها إليهم رسل اللَّه، إذ كانت أعينهم في غطاء عن ذكر اللَّه، فلم ينظروا فيما خلق اللَّه في السموات والأرض، ثم إنهم إذ عَمُوا عن آيات اللَّه، ولم تتجه إليها عقولهم، ولم تتفتح لها قلوبهم، أصمّوا آذانهم عن آيات

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٣١).

(٢) الزخرف: الآية (٣٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠١).

اللَّه التي يحدثهم بها رسل اللَّه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ إشارة إلى ما ختم اللَّه به على سمعهم، فهم -والحال كذلك- مصابون بهذا الصمم عن كل ما هو حق وعدل وخير، أما ما كان من واردات السوء والشرّ، فهم أسمع الناس له، وأكثرهم استجابة لندائه»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني (٨/ ٧١٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾

★ غريب الآية:

نزلًا: أي مكانًا ينزلونه. وقيل: ثوابًا وعقابًا. والنزل: ما يهيأ للنزيل وهو الضيف. قال الشاعر:

نزيل القوم أعظمهم حقوقا   وحق الله في حق النزيل

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا برهان وبيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله. يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ أي: لا يكون ذلك ولا يوالي ولي الله معاديا لله أبدا؛ فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابها لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾[1] فمن زعم أنه يتخذ ولي الله وليا له وهو معادٍ لله فهو كاذب، ويحتمل وهو الظاهر- أن المعنى: أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسله أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسبان باطل، وظن فاسد؛ فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾[2] ﴿وَلَا يَمۡلِكُ

---

(١) سبأ: الآيتان (٤٠و٤١).   (٢) الإسراء: الآية (٥٦).

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات التي يذكر اللَّه فيها أن المتخذ من دونه وليا ينصره ويواليه؛ ضال خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وقرى، فبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم»[2].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٨٦).

(٢) التيسير (٥/ ٨١-٨٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يبغون عنتك، ويجادلونك بالباطل، ويحاورونك بالمسائل من أهل الكتابين: اليهود، والنصارى ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أيها القوم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يعني بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ربحًا وفضلًا فنالوا به عَطَبًا وهلاكًا ولم يدركوا طلبًا، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلًا وربحًا، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله. .

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة، بل كان على جور وضلالة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم اللَّه به بل على كفر منهم به، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا: يقول: وهم يظنون أنهم بفعلهم ذلك لله مطيعون، وفيما ندب عباده إليه مجتهدون، وهذا من أدَل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر باللَّه أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته، وذلك أن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية؛ أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالًا، وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم. ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر باللَّه أحد إلا من حيث يعلم؛ لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر اللَّه عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه؛ كانوا مثابين مأجورين عليها، ولكن القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم باللَّه كفرة، وأن أعمالهم حابطة. وعنى بقوله: ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ عملًا»[1].

(١) جامع البيان (١٦/ ٣٢-٣٥).

وقال عبدالكريم الخطيب: «الاستفهام هنا خبري، يراد به الكشف عن المجرمين، وعن الطريق الذي ركبوه، حتى وصلوا إلى هذا الذي هم فيه من كفر وضلال.

وفي سوق الخبر في مساق الاستفهام، إثارة الانتباه إلى ما وراء هذا الاستفهام من جواب عليه، ولو جاء الخبر مباشرًا لما كان له هذا الوقع على النفس، حين تتلقاه بعد هذا الاستفهام المثير لحبّ الاستطلاع.

والآيتان تقرران حكمًا هو أن أخسر الناس أعمالًا، وأبخسهم حظًّا بما علموا؛ هم هؤلاء الذين يركبون الطريق المعوج، طريق الضلال، وهي في حسابهم وتقديرهم أنها طريق خير وفلاح، فمثل هؤلاء لا يرجى لفسادهم صلاح أبدًا، إذ لا تكون منهم لفتة إلى أنفسهم، ولا نظر إلى ما هم فيه من سوء، حيث يروْن أنهم على أحسن حال وأقوم سبيل.

إن الذي يركب الشرّ، وهو عالم أنه على طريق الشرّ، لا يعيش مع نفسه في حال من السِّلم والرضا، بل يظلّ هكذا قلقًا مضطربًا، من تلك الحال التي هو عليها، وقد يبلغ به الأمر إلى حدّ يستطيع معه أن يكسر القيد الذي قيّده به ضعفه، في مواجهة شهوات نفسه الأمارة بالسوء، وعندها يجد أنه قادر على التحرك في الاتجاه الصحيح الذي كان يهمّ به، ولا يستطيعه، فما أكثر ما يعرف الناس أنهم على غير طريق الهدى، وأن ما هم في من ضلال هو من واردات الضعف المستولي عليهم، وأنهم والحال هذه يودّون لو كانت بهم قوة تمكن لهم من تخطّي هذه الحدود التي أقامهم فيها ضعف العزيمة، وغلبة الهوى، كما يقول الشاعر:

أهُمّ بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العَيْر والنزوان

أما من يركب الضلال، ويأتي المنكر، وهو على هذا الفهم السقيم، الذي يزين له الباطل، ويبيح له المنكر؛ فإنه لن ينتهي أبدًا عن غيه، ولن يُفيق أبدًا من سكرة ضلاله، وفي هذا يقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

(١) فاطر: الآية (٨). (٢) يونس: الآية (١٢).

فهؤلاء الذين زين لهم سوء عملهم، فلم يروا ما هم فيه من كفر وضلال، فمضوا في كفرهم وضلالهم، ولم يستمعوا لنصح ناصح، ولم يستجيبوا لدعوة داع يدعوهم إلى الهدى، وينذرهم بلقاء يومهم هذا؛ هؤلاء الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، لن يقام لأعمالهم وزن يوم القيامة ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر من قال: إن الأخسرين أعمالا هم اليهود والنصارى

* عن عمرو عن مصعب قال: سألت أبي (سعد بن أبي وقاص): ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ هم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود: فكذبوا محمدا ﷺ. وأما النصارى: كفروا بالجنة؛ وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾[(٣)]. وكان سعد يسميهم الفاسقين[(٤)].

★ من فوائد الأثر:

دل الأثر على أن الأخسرين أعمالا هم اليهود والنصاري وقد اختلف أهل التأويل في ذلك؛ فقال بعضهم بنحو قول سعد رضي الله عنه في ذلك.

وقال آخرون منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم الحرورية.

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه عز وجل عنى بقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ كلّ عامل عملًا يحسبه فيه مصيبًا، وأنه لله بفعله ذلك مطيع مرض، وهو بفعله ذلك لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان به جائر كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الإجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم باللَّه كفرة من أهل أي دين كانوا»[(٥)].

قال القسطلاني: «والذي يقتضيه التحقيق أنها عامة، فأما قول عليّ أنهم

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٩).
(٢) التفسير القرآن (٨/ ٧١٥-٧١٦).
(٣) البقرة: الآية (٢٧).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٤٣/ ٤٧٢٨)، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٢/ ١١٣١٣).
(٥) جامع البيان (١٦/ ٣٤).

الحرورية فمعناه أن الآية تشملهم، كما تشمل أهل الكتابين وغيرهم، إلا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، بل أعم من ذلك؛ لأنها مكية قبل خطاب أهل الكتاب ووجود الحرورية، وإنما هي عامة في كل من دان بدين غير الإسلام، وكل من راءى بعمله، أو أقام على بدعة، فكلٌّ من الأخسرين، وقد قال ابن عطية: ويضعف قولَ من قال أن المراد أهل الأهواء والحرورية قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ وليس في هذه الطوائف من يكفر بآيات اللَّه، وإنما هذه صفة مشركي عبدة الأوثان، فاتضح بهذا ما قلناه أن الآية عامة»[1].

وقال ابن الجوزي: «وجه خسرانهم أنهم تعبدوا على غير أصل فابتدعوا فخسروا الأعمال والأعمار»[2].

قلت: رحم اللَّه الإمام ابن الجوزي على هذه القولة الطيبة: خسروا الأعمال والأعمار! فتراهم ينفقون من الأموال ما تقوم به دول بجميع أجهزتها ومقوماتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، تنفق في العبث كالبنايات الضخمة والفخمة، ويوظف لها من أعداد الموظفين، وتلبس من حلية الزينة، ويوضع لها من الذهب والفضة، وفيها من النقوش ما تبلغ النفقة عليه النفقة على بناء المدن والقرى، ومن الأثاث ما يملأ بيوت الفقراء والمساكين، ومن الأعمال ما لو بذل في الدعوة إلى اللَّه لاهتدى معظم البشرية الضالين التائهين، ولكن كما في هذه الآية: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ إلخ، فإنها تنطبق على كل العابثين من المسيحيين واليهود والطرقيين من أهل الإسلام البانين للزوايا والمعابد والأضرحة، والمقيمين للمواسم والموالد في القبور والمشاهد، فلا تسأل عن كثرة العبث في الطعام والشراب، ولا تسأل عما يحدث هناك من زنا ولواط وسكر وعربدة وكل معصية نهى اللَّه عنها، ومخالفات للأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين، فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من داع إلى اللَّه إلا ردّوا دعوته، واستماتوا في الردّ، حتى في وقتنا الحاضر الذي قويت فيه وسائل الإعلام، ووصل الحق إلى كل الآذان، فسبحان من أضل هذا وهدى هذا، فالتوفيق إلى الحق نعمة، والغواية والضلال نقمة، يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) إرشاد الساري (١٠/ ٤٥٥).

(٢) نقله عنه الحافظ في «الفتح».

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم الأخسرون أعمالا الذين كفروا بحُجج ربهم وأدلته، وأنكروا لقاءه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يقول: فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها في الآخرة، بل لهم منها عذاب وخزي طويل ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلا نجعل لهم ثقلا. وإنما عنى بذلك: أنهم لا تثقل بهم موازينهم؛ لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة، وليس لهؤلاء شيء من الأعمال الصالحة، فتثقل به موازينهم»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله واتخاذهم آيات كتابه وحجج رسوله سخريًّا واستهزائهم برسله»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقارة الكفار، وأن الله تعالى لا يقيم لهم وزنا يوم القيامة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال: اقرؤوا: «﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾**»[3].

★ فوائد الحديث:

معنى الآية والحديث: أن الكافر وغيره من أهل الشقاوة لا يقيم الله لهم يوم

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٣٥). (٢) جامع البيان (١٦/ ٣٥).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٤٤/ ٤٧٢٩)، مسلم (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٥).

القيامة وزنا، وأن المنعّم السمين اللحيم[١] لا يزن عند اللَّه جناح بعوضة. «وقد استدل بهذا الحديث من قال بوقوع الوزن على الأشخاص»[٢].

واستدل به أيضًا «على أن الكفار لا يحاسبون؛ لأنه إنما يحاسب من له حسنات وسيئات، والكافر ليس له في الآخرة حسنات فتوزن»[٣]. وتفصيل هذه المسألة قد تقدم في سورة الأعراف[٤].

«وفي هذا الحديث من الفقه: ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن.. ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «**خيركم قرني ثم الذين يلونهم**» قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة «**ثم إن من بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**»[٥] وهذا ذم وسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشره والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبْد نفسِه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولّد عن سُحت فالنار أولى به، وقد ذم اللَّه تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[٦] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم ويتنعم بتنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان والقيام بوظائف الإسلام، ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهارَه هائمًا، وليلَه نائمًا»[٧].

* * *

(١) لَحُم الرجل من باب ظرف فهو لَحِيم، إذا صار كثير اللحم في بدنه. (المختار).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٤٥).

(٣) إرشاد الساري للقسطلاني (١٠/ ٤٥٦).

(٤) عند قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾: الآية (٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦)، والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٨)، ومسلم (٤/ ١٩٦٤/ ٢٥٣٥)، والنسائي (٧/ ٢٣-٢٤/ ٣٨١٨).

(٦) محمد: الآية (١٢).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾

★ **غريب الآية:**

الفردوس: قال الفراء: البستان الذي فيه الكرم. وقيل: كل بستان. وقيل: مكان مخصوص في الجنة هو أعلاها. قال حسان:

فإن ثواب اللَّه كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد

حِوَلًا: أي تحولًا وزوالًا. يقال: حَالَ عن مكانه حولًا: إذا زال عنه إلى غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة. فهؤلاء -على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح- لهم جنات الفردوس. يحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون. ويحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين والأبرار والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزُل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأيّ ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب والأرواح والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة

الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله التنعم بالقرب من الرحمن، ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها! وأدومها وأكملها! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًّا يصل إلى قلوبهم؛ لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانًا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغَّصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلافٌ مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة وَهت، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم»[1].

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قال ابن كثير: «أي: مقيمين فيها ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدًا، ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْبِ لا أنَا بَاغيًا سواها ولا عَنْ حُبّها أتَحوّلُ

وفي قوله: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولًا ولا انتقالًا ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلًا»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة جنة الفردوس

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**من آمن باللَّه وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان؛ كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة. جاهد في سبيل اللَّه أو جلس في أرضه التي ولد فيها**. فقالوا: يا رسول الله! أفلا نبشر الناس؟ قال: **إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيل اللَّه، ما بين الدرجتين كما بين**

---

(١) تيسير الكريم (٥/ ٨٤-٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠٤).

السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة. أُراه قال: وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[١].

* عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس»[٢].

* عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من صام رمضان، وصلى الصلوات، وحج البيت -لا أدري أذكر الزكاة أم لا- إلا كان حقًّا على اللَّه أن يغفر له إن هاجر في سبيل اللَّه أو مكث بأرضه التي ولد بها. قال معاذ: ألا أخبر بهذا الناس؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: ذر الناس يعملون، فإن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوق ذلك عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس»[٣].

* **فوائد الأحاديث:**

قال ابن القيم: «الفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس البستان، والفراديس البساتين، قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس؛ أي: معرش. وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس. قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام. وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا ... يا بعدَ يبرينَ منْ بابِ الفراديسِ

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٥)، البخاري (٦/ ١٣/ ٢٧٩٠)، الترمذي (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٣٠) مختصرا.
(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٦)، الترمذي (٤/ ٥٨٣/ ٢٥٣١)، وصححه الحاكم (١/ ٨٠)، ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٠-٢٤١)، الترمذي (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٣٠) وأعله. وابن ماجه (٢/ ١٤٤٨/ ٤٣٣١) بنحوه. وصححه الألباني وردّ على الترمذي تعليله الحديث. انظر الصحيحة (٢/ ٥٩٢/ ٩٢٢).

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية. واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية، منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين. قال حسان:

وأن ثواب اللَّه كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد»[1].

وقال أيضًا: «فإن قيل: فالجنة جميعها تحت العرش، والعرش سقفها؛ فإن الكرسي وسع السماوات والأرض، والعرش أكبر منه!

قيل: لما كان العرش أقرب إلى الفردوس مما دونه من الجنات، بحيث لا جنة فوقه دون العرش، كان سقفًا له دون ما تحته من الجنات، ولعظم سعة الجنة وغاية ارتفاعها يكون الصعود من أدناها إلى أعلاها بالتدريج شيئًا فشيئًا، درجة فوق درجة، كما يقال لقارئ القرآن: «**اقرأ وارق؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها**»[2] وهذا يحتمل شيئين أن تكون منزلته عند آخر حفظه، وأن تكون عند آخر تلاوته المحفوظة. واللَّه أعلم»[3].

وفي الأحاديث: «الحث على ما يحصل به أقصى درجات الجنان، وهي الفردوس الأعلى من المجاهدة مع العدو والنفس والشيطان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[4]»[5].

* * *

---

(١) حادي الأرواح (ص ٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٢) وأبو داود (٢/ ١٥٣/ ١٤٦٤) والترمذي (٥/ ١٦٣/ ٢٩١٤) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٣/ ٤٣/ ٧٦٦) والحاكم (١/ ٥٥٢-٥٥٣) وصححاه، ووافقه الذهبي من حديث عبداللَّه بن عمرو بن العاص.

(٣) حادي الأرواح (٥٩-٦٠).

(٤) الحج: الآية (٧٨).

(٥) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٢٣).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله؛ فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأيُّ سعة وعظمة تصورتها القلوب، فاللَّه فوق ذلك، وهكذا سائر صفات اللَّه تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن اللَّه له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تُكتب به كلمات ربي وحِكمه وآياته الدالة عليه؛ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: لفرغ البحر قبل أن يُفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بُحور تمده ويكتب بها؛ لما نفدت كلمات اللَّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]»[3].

«وفي هاتين الآيتين أكبر دليل على أن كلام اللَّه غير مخلوق، وأنه من صفاته، إذ المخلوق لابد أن يكون له نهاية ونفاد، فإنه مسبوق بالعدم، فلابد أن يلحقه العدم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٨٦-٨٧).

(٢) لقمان: الآية (٢٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠٤).

أما كلام اللَّه تعالى فلا نهاية له ولا نفاد، وقد قرب تعالى إلى أفهام المخاطبين بما ضرب من المثل بما ذكر من كون البحار كلها ويزاد معها مثلها مرات كثيرة، وكون جميع ما وجد على وجه الأرض من عود أقلامًا يكتب بها كلامه تعالى لنفد البحر، وأمسحت الأقلام، وكلمات اللَّه كما هي لم تنقص، وليس معنى قوله: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ أن كلمات اللَّه لها نهاية، وأنها يمكن أن تنفد، بل المعنى أنها لا نهاية لها أبدًا؛ لأنها من صفاته تعالى»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في إثبات الكلمات لله تعالى، وأنها غير مخلوقة

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تكفل اللَّه لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته؛ أن يدخله الجنة، أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة**»[(٢)].

⋆ فوائد الحديث:

الغرض من الحديث هنا قوله «**وتصديق كلمته**» «إذ هي غير الجهاد في سبيله، وغير التصديق، سواء قيل هي كلمة الدينية الشرعية، أو الكونية القدرية، فكلمته من صفاته.. وهي غير خلقه»[(٣)].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/ ١٤٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٩) والبخاري (١٣/ ٥٤٥/ ٧٤٦٣) ومسلم (٣/ ١٤٩٦/ ١٨٧٦[١٠٤]) والنسائي (٦/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٣١٢٢).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول لرسوله محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أني كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ»[1].

قال الخازن: «﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: لا يرائي بعمله، ولما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله ﷻ وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان، أحدهما: يراد به ﷻ والثاني: أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعًا»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الشرك بالرياء، ونفي الثواب على الأعمال في الآخرة لمن أشرك بالله فيها

* عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه؛ نادى مناد:**

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠٥).
(٢) لباب التأويل (٣/ ٢١٤).

من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله؛ فإن اللَّه أغنى الشركاء عن الشرك»(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا أجر له**» فأعظم ذلك الناس وقالوا للرجل: عُدْ لرسول اللَّه ﷺ فلعلك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه، وهو يبتغي عرضًا من عرض الدنيا فقال: «**لا أجر له**»، فقالوا للرجل: عد لرسول اللَّه ﷺ، فقال له الثالثة: فقال له: «**لا أجر له**»(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال اللَّه -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٣).

* عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء. يقول اللَّه عز وجل لهم يوم القيامة إذا جُزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(٤).

* عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من غزا في سبيل اللَّه ولم ينو إلا عقالا فله ما نوى**»(٥).

* عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلا غزا

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٦)، الترمذي (٥/ ٢٩٤/ ٣١٥٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب، ابن ماجه (٢/ ١٤٠٦/ ٤٢٠٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ١٣٠/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، أبو داود (٣/ ٣٠-٣١/ ٢٥١٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٤٩٤/ ٤٦٣٧)، والحاكم (٢/ ٨٥) ووافقه الذهبي، ويشهد له حديث أبي أمامة الآتي.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١)، مسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥)، ابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٣٠٢) بنحوه.

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٢٨)، البيهقي (٢/ ٢٩٠-٢٩١) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣/ ٤٣٠١)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٦٧/ ٩٣٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٥) والنسائي (٦/ ٣٣٢/ ٣١٣٨-٣١٣٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان١٠/ ٤٩٥/ ٤٦٣٨) والحاكم (٢/ ١٠٩) ووافقه الذهبي.

يلتمس الأجر والذكر؛ ما له؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا شيء له». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول اللَّه ﷺ: «لا شيء له». ثم قال: «إن اللَّه لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه»[1].

* عن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من سمّع سمّع اللَّه به، ومن يرائي يرائي اللَّه به»[2].

* عن أبي هند الداري رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من قام مقام رياء أو سمعة، راءى اللَّه به يوم القيامة وسمّع»[3].

* عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول اللَّه ﷺ الشرك الأصغر[4].

★ فوائد الأحاديث:

هذه الأحاديث تؤكد ما دلت عليه الآية من وجوب الإخلاص في الأعمال، واجتناب الإشراك فيها، والمراد بالشرك في الآية الشرك الأصغر، وهو الرياء، كما نص على ذلك كثير من المفسرين وساقوا الأحاديث في ذلك. والذي حققه الشنقيطي أن الشرك في الآية أعم من الرياء وغيره، حيث قال رحمه الله: «﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. ؛ أي: لا يعبد ربه رياء وسمعة، ولا يصرف شيئًا من حقوق خالقه لأحد من خلقه؛ لأن اللَّه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[5] الآية في

---

(١) أخرجه: النسائي (٦/ ٣٣٢/ ٣١٤٠)، وجود إسناده الحافظ في الفتح (٦/ ٣٥)، والعراقي في تخريج الإحياء (٥/ ١٩٧٩/ ٣١٢٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٣)، البخاري (١١/ ٤٠٨/ ٦٤٩٩)، مسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٧)، ابن ماجه (٢/ ١٤٠٧/ ٤٢٠٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٠)، البزار (الكشف ٢/ ٤٢٨/ ٢٠٢٦)، الطبراني (٢٢/ ٣١٩/ ٨٠٣-٨٠٤)، قال في المجمع (١٠/ ٢٢٣): «رواه أحمد والبزار إلا أنه قال: من قام بأخيه مقام رياء وسمعة أقامه اللَّه يوم القيامة وسمع به والطبراني بنحوه ورجال أحمد والبزار وأحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح».

(٤) أخرجه: الطبراني في الكبير (٧/ ٣٤٦/ ٧١٦٠)، البزار (الكشف ٤/ ٢١٧/ ٣٥٦٥)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٢): «رجالهما رجال الصحيح غير يعلى بن شداد وهو ثقة» اهـ. وفي سنده ابن لهيعة. والحديث جاء من وجه آخر صححه الحاكم (٤/ ٣٢٩) ووافقه الذهبي.

(٥) النساء: الآية (٤٨).

الموضعين، ويقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات»[٢].

فصل في حكم العبادة إذا خالطها الرياء:

قال ابن رجب: «اعلم أن العمل لغير اللَّه أقسام: فتارة يكون رياء محضًا، بحيث لا يراد به سوى مراآة المخلوقين لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾[٤]. وكذلك وصف اللَّه تعالى الكفار بالرياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٥].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من اللَّه والعقوبة وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضًا.. وممن روي عنه هذا المعنى وأن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلًا: طائفة من السلف، منهم: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، والحسن، وسعيد بن المسيب وغيرهم.. ولا نعرف عن السلف في هذا خلافًا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين. فإن خالط نية الجهاد مثلا نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم لم يبطل بالكلية.. وقد ذكرنا فيما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضا من الدنيا أنه لا أجر له، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا.. وأما إن كان أصل العمل لله وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان

---

(١) الحج: الآية (٣١).
(٢) الأضواء (٣/ ٣٥٦).
(٣) النساء: الآية (١٤٢).
(٤) الماعون: الآيات (٤-٦).
(٥) الأنفال: الآية (٤٧).

خاطرا ودفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره.. وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية.. فأما إذا كان العمل لله خالصًا ثم ألقى اللَّه له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل اللَّه ورحمته، واستبشر بذلك لم يضره ذلك.. وبالجملة فما أحسن قول سهل بن عبداللَّه التستري: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب»[1].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (ص٧٩-٨٤).



سُورَةُ مَرْيَم

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل هذه السورة، وإقرار من كان على الدين الصحيح كالنجاشي وغيره بنبوة نبينا محمد ﷺ

* عن أم سلمة: أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب: «هل معك مما جاء به يعني رسول اللَّه ﷺ عن اللَّه من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأ علي. فقرأ عليه صدرا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قالت: فبكى واللَّه النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة[1].

★ **غريب الحديث:**

النجاشي: أصحمة أبجر النجاشي: ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقب له، أسلم على عهد النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، وكان ردءًا للمسلمين نافعا وقصته مشهورة في المغازي في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاته ﷺ عليه صلاة الغائب من طرق[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) مطولا، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤-٢٧): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

تنبيه: في الأصل: غير إسحاق، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الإصابة (١/ ١٧٧).

والنجاشي بفتح النون على المشهور، وقيل تكسر عن تغلب، وتخفيف الجيم وأخطأ من شددها عن المطرزي، وبتشديد آخره.

أخضلوا: خضل وأخضل الشيء نداه وبله، أي بلوها بالدموع.

والذي جاء به موسى: قال السندي: لم يقل: عيسى مع أنه نبيهم، لما فيه من خلاف اليهود، بخلاف موسى، فلم يختلف أحد من الطوائف المعلومة في نبوته[١].

من مشكاة واحدة: المشكاة الكوة غير النافذة، وقيل: هي الحديدة التي يعلق عليها القنديل، أراد أن القرآن والإنجيل كلام اللَّه تعالى، وأنهما من شيء واحد.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر من آمن بالنبي ﷺ من رؤساء النصارى:

قد بينا أن الذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين أكثر من الذين لم يسلموا، وأنه إنما بقي منهم أقل القليل، وقد دخل في دين الإسلام من ملوك الطوائف ورؤسائهم في حياة رسول اللَّه ﷺ خلق كثير، وهذا ملك النصارى على إقليم الحبشة في زمن النبي ﷺ لما تبين له أنه رسول اللَّه آمن به دخل في دينه، وآوى أصحابه ومنعهم من أعدائهم، وقصته أشهر من أن تذكر. ولما مات أعلم رسول اللَّه ﷺ أصحابه بالساعة التي توفي فيها، وبينهما مسيرة شهر. ثم خرج بهم إلى المصلى وصلى عليه»[٢].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا ملك النصارى قد صدّق رسول اللَّه ﷺ وآمن به واتبعه، وكم مثله ومن هو دونه ممن هداه اللَّه من النصارى قد دخل في الدين، وهم أكثر بأضعاف مضاعفة ممن أقام على النصرانية»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان قبل قصة نجران قد آمن به كثير من اليهود والنصارى، رؤساؤهم وغير رؤسائهم، لما تبين لهم أنه رسول اللَّه إليهم. كما آمن به النجاشي ملك الحبشة وكان نصرانيًا هو وقومه، وكان إيمانه به في أول أمر النبي ﷺ لما كان أصحابه مستضعفين بمكة، وكان الكفار يظلمونهم ويؤذونهم

(١) حاشية مسند الإمام أحمد (٣/ ٢٧٠).
(٢) هداية الحيارى (٥٣-٥٤).
(٣) هداية الحيارى (٥٩).

ويعاقبونهم على الإيمان باللَّه ورسوله، فهاجر منهم طائفة مثل عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعبد اللَّه بن مسعود وجعفر بن أبي طالب وغيرهم من الرجال والنساء إليه، وكان ملكا عادلا، فأرسل الكفار خلفهم رسلًا بهدايا ليردهم إليهم، فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبي ﷺ آمن بالنبي ﷺ وآواهم، ولما سمع القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. ولما سألهم عن قولهم في المسيح عليه السلام قالوا: نشهد أنه عبد اللَّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التي لم يمسها رجل، فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب: واللَّه ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت هذا العود فنخرت أصحابه فقال: وإن نخرتم وإن نخرتم، وبعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب، وقدم جعفر على النبي ﷺ عام خيبر. وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ كأحمد ابن حنبل في المسند، وابن سعد في الطبقات، وأبي نعيم في الحلية وغيرهم. وذكرها أهل التفسير والحديث والفقه وهي متواترة عند العلماء»[(١)].

وقال أيضًا: «وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة إما صدقه وإما كذبه، وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهارون وغيره: إن اللَّه أرسلني، علموا صدقه قبل أن يظهر لهم الآيات. ولما قال لهارون إن اللَّه قد أمرك أن تؤازرني صدقه هارون في هذا لما يعلم من حاله قديما، ولما رأى من تغير حاله الدال على صدقه. وكذلك النبي ﷺ لما ذكر حاله لخديجة وغيرها وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان عالما بالكتاب الأول، فذكر له النبي ﷺ ما يأتيه، علم أنه صادق، وقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك. قال رسول اللَّه ﷺ: «**أومخرجي هم**»، قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[(٢)]. وكذلك النجاشي لما سمع القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٢٤٧-٢٤٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣) والبخاري (٨/ ٩٢٦-٩٢٧/ ٤٩٥٣) ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ليخرج من مشكاة واحدة»[١].

وقال أيضًا: «والمسلك الأول النوعي هو مما استدل به النجاشي على نبوته، فإنه لما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن فقرؤوه عليه قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكذلك قبله ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه، وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الإنجيل بالعبرانية، فقالت له خديجة: يا ابنَ عمّ، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي ﷺ بخبره فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وإن قومك سيخرجونك، فقال النبي ﷺ: «**أو مخرجي هم**»، فقال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي»[٢].

أغراض هذه السورة

«يظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير..

ثم التنويهِ بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم. والإنحاء على بعض خلفهم من ذرياتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير من أهل الكتاب والمشركين، وأتوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولدا، وأنكر المشركون منهم البعث، وأثبت النصارى ولدا لله تعالى. والتنويهِ بشأن القرآن في تبشيره ونذارته. وأن اللَّه يَسَّرَه بكونه عربيًّا ليُسْرِ تلك اللغة.

والإنذارِ مما حل بالمكذبين من الأمم من الاستئصال. واشتملت على كرامة زكريا إذ أجاب اللَّه دعاءه فرزقه ولدا على الكبر وعقر امرأته.

وكرامةِ مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها وهو إرهاص لنبوءة عيسى عليه السلام ومثله كلامه في المهد.

والتنويهِ بإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

ووصفِ الجنة وأهلها.

---

(١) النبوات (٢/ ٨٨٥-٨٨٦).

(٢) الأصفهانية (١٢٦).

وحكايةِ إنكار المشركين البعث بمقالة أبي بن خلف والعاص بن وائل وتبجحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم .

وإنذارِ المشركين أن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها .

ووعدِ الرسول ﷺ النصر على أعدائه .

وذكرِ ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى .

والتنويهِ بالقرآن وبِمِلته العربية وأنه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم .

وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ستَّ عشرةَ مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف اللّه تعالى بصفة الرحمن . والرد على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى اللّه تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[1]»[2] .

* * *

(١) الفرقان: الآية (٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٥٨-٦٠).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ
نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في سورة البقرة وغيرها.

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدإ محذوف أي هذا ذكر رحمة ربك. وقيل: مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: فيما يتلى عليكم ذكر رحمة ربك، والأول أظهر.. وقوله: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل من قوله: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ أو عطف بيان عليه.

وقد بين -جل وعلا- في هذه الآية: أن هذا الذي يتلى في أول هذه السورة الكريمة هو ذكر اللَّه رحمته التي رحم بها عبده زكريا حين ناداه نداء خفيًّا؛ أي: دعاه في سر وخفية»[1].

قال الرازي: «يحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أعني عبده زكرياء، ثم في كونه رحمة وجهان:

أحدهما: أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات.

والآخر: أن يكون رحمة على نبينا محمد ﷺ، وعلى أمة محمد؛ لأن اللَّه تعالى لما شرح لمحمد ﷺ طريقه في الإخلاص والابتهال في جميع الأمور إلى اللَّه تعالى صار ذلك لفظًا داعيًا له ولأمته إلى تلك الطريقة، فكان زكرياء رحمة، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكرياء»[2].

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾:

قال القرطبي: «النداء الدعاء والرغبة، أي ناجى ربه بذلك في محرابه؛ دليله

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٨٠-١٨١).

قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾[1] فبين أنه استجاب له في صلاته كما نادى في الصلاة، واختلف في إخفائه هذا النداء فقيل: أخفاه من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن، ولأنه أمر دنيوي، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد. وقيل: مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا اللَّه تعالى. وقيل: لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه. وقيل: ﴿خَفِيًّا﴾ سرا من قومه في جوف الليل، والكل محتمل والأول أظهر واللَّه أعلم. وقد تقدم أن المستحب من الدعاء الإخفاء في سورة الأعراف، وهذه الآية نص في ذلك لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا»[2].

قال الشنقيطي: «وثناؤه -جل وعلا- عليه بكون دعائه خفيًّا يدل على أن إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه. وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرحًا به في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[3] الآية، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[4]. وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء. فقول من قال: إن سبب إخفائه دعاءه أنه خوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد، في حالة لا يمكن فيها الولد عادة لكبر سنه وسن امرأته، وكونها عاقرًا. وقول من قال: إنه أخفاه لأنه طلب أمر دنيوي، فإن أجاب اللَّه دعاءه فيه نال ما كان يريد. وإن لم يجبه لم يعلم ذلك أحد، إلى غير ذلك من الأقوال، كل ذلك ليس بالأظهر. والأظهر أن السر في إخفائه هو ما ذكرنا من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء. ودعاء زكريا هذا لم يبين اللَّه في هذا الموضع مكانه ولا وقته، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة آل عمران في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ﴾[5] الآية.

فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم.

---

(١) آل عمران: الآية (٣٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٧٦).
(٣) الأنعام: الآية (٦٣).
(٤) الأعراف: الآية (٥٥).
(٥) آل عمران: الآيتان (٣٧و٣٨).

وقال بعضهم: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الوقت، بناء على أن (هنا) ربما أشير بها إلى الزمان»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في التعريف بزكرياء نبي اللَّه عليه الصلاة والسلام

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**كان زكريا نجارًا**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقوله: «**كان زكريا نجارا**» يدل على شرف النِّجارة، وعلى أن التحرف بالصناعات لا يَغُضُّ من مناصب أهل الفضائل، بل نقول: إن الحِرَف والصناعات غير الركيكة زيادة في فضيلة أهل الفضل ليحصل لهم بذلك التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي من الامتنان الذي هو خير المكاسب، كما نص عليه النبي ﷺ حيث قال: «**إن خير ما أكل الرجل من عمل يده، وإن نبي اللَّه داود كان يأكل من عمل يده**»[٣]. وقد نقل عن كثير من الأنبياء أنهم كانوا يحاولون الأعمال.. وكلهم قد رعى الغنم كما قال ﷺ وعليهم أجمعين[٤]»[٥].

قال المناوي: «فيه إشارة إلى أن كل أحد لا ينبغي له أن يتكبر عن كسب يده؛ لأن نبي اللَّه مع علو درجته اختار هذه الحرفة»[٦].

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦ و٤٠٥ و٤٨٥)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧/ ٢٣٧٩)، وابن ماجه (٢/ ٧٢٧/ ٢١٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٦/ ٥٦٠/ ٣٤١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٦) والبخاري (٦/ ٥٤١-٥٤٢/ ٣٤٠٦) ومسلم (٣/ ١٦٢١/ ٢٠٥٠) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

(٥) المفهم (٦/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٦) فيض القدير (٤/ ٥٤٤-٥٤٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وهن: ضعف، يقال: وهن يهن وهنًا: إذا ضعف.

اشتعل: الاشتعال: انتشار شعاع النار. والمعنى: انتشر الشيب في الرأس.

قال لبيد:

إن تَـرَى رَأسِيَ أَمْـسَـى واضـحًـا ... سُـلِّـطَ الـشَّـيـب عَـلـيـه فـاشْـتَـعَـل

دعائك: الدعاء: طلب الفعل من المدعو، يقابله الإجابة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الزمخشري: «إنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر وهو أنه لم يَهن منه بعض عظامه ولكن كلها»[1].

قال ابن كثير: «أي: اضطرم المشيب في السواد، كما قال ابن دُرَيد في مقصورته:

إمَّـا تَـرَى رأسِـي حَـاكـى لـونُـهُ ... طُـرَّةَ صُـبْـحٍ تَـحـتَ أذْيَـال الـدُّجـى

واشْـتَـعَـل الـمُـبْـيَـضُّ فـي مُـسْـوَدّه ... مِثْلَ اشتِعَال النَّارِ في جمر الغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة»[2].

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١١-٢١٢).

قال الشنقيطي: «الألف واللام في «الرأس» قاما مقام المضاف إليه. إذ المراد: واشتعل رأسي شيبا. والمراد باشتعال الرأس شيبًا: إنتشار بياض الشيب فيه»(١).

وقال: «وهذا الذي ذكره اللَّه هنا عن زكريا في دعائه من إظهار الضعف والكبر جاء في مواضع أخر؛ كقوله هنا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقوله في آل عمران: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾(٢) الآية. وهذا الذي ذكره هنا من إظهار الضعف يدل على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم أكن بدعائي إياك شقيا، أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، يعني أنك عودتني الإجابة فيما مضى. والعرب تقول: شقي بذلك إذا تعب فيه ولم يحصل مقصوده. وربما أطْلَقَت الشقاء على التعب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾(٣) وأكثر ما يستعمل الشقاء في ضد السعادة. ولا شك أن إجابة الدعاء من السعادة، فيكون عدم إجابته من الشقاء»(٤).

قال القرطبي: «قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نعم اللَّه تعالى عليه وما يليق بالخضوع؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ إظهار للخضوع وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته، أي لم أكن بدعائي إياك شقيًّا؛ أي: لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك؛ أي: إنك عودتني الإجابة فيما مضى، يقال: شقي بكذا أي تعب فيه ولم يحصل مقصوده»(٥).

قال الألوسي: «وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه تعالى من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة من كبر السن وضعف الحال، فإنه تعالى بعد ما عوّد عبده الإجابة دهرًا طويلًا لا يكاد يخيبه أبدًا، لاسِيَّما عند اضطراره وشدة افتقاره، وفي هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم اللَّه عز وجل ما فيه»(٦).

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٢١).

(٢) آل عمران: الآية (٤٠).

(٣) طه: الآية (١١٧).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٧٧).

(٦) روح المعاني (١٦/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الموالي: أي: الذين يَلُونَه في النسب. والمراد: بنو عمِّه وعصبته.

عاقرا: العاقر: المرأة التي لا تلد، يقال: امرأة عاقر ورجل عاقر، قال الشاعر:

لَبِئْسَ الفَتَى إِنْ كُنت أعوَرَ عَاقِرًا   جبانًا فَمَا عذري لَدَى كُل محضرِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: « ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أي من بعدي إذا مت أن يغيروا في الدين، وقد قدمنا أن الموالي الأقارب والعصبات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾[1] الآية. والمولى في لغة العرب: يطلق على كل من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به. وكثيرًا ما يطلق في اللغة على ابن العم؛ لأن ابن العم يوالي ابن عمه بالقرابة العصبية. ومنه قول طرفة بن العبد:

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ   إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهْوَ ذَلِيلُ

يعني إذا ذلت بنو عمِّه فهو ذليل. وقول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَهْلًا بَنِي عَمِّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا   لاَ تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونَا

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ ظاهر في أنها كانت عاقرًا في زمن شبابها. والعاقر: هي العقيم التي لا تلد، وهو يطلق على الذَّكر والأنثى. فمن إطلاقه على الأنثى هذه الآية، وقوله تعالى عن زكريا أيضًا: ﴿وَقَدْ

---

(١) النساء: الآية (٣٣).

﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾[١]. ومن إطلاقه على الذكر قول عامر بن الطفيل:

لَبِئْسَ الفَتَى إِنْ كُنت أعوَرَ عَاقرًا جبانًا فَمَا عذري لَدَى كُل محضرِ

وقد أشار تعالى إلى أنه أزال عنها العقم، وأصلحها، فجعلها ولودًا بعد أن كانت عاقرًا في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾[٢] فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيمًا. وقول من قال: إن إصلاحها المذكور هو جعلها حسنة الخلق بعد أن كانت سيئة الخلق، لا ينافي ما ذكر لجواز أن يجمع له بين الأمرين فيها، مع أن كون الإصلاح هو جعلها ولودًا بعد العقم هو ظاهر السياق، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير، ومجاهد وغيرهم. والقول الثاني يروى عن عطاء».

قال القرطبي: «قوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ سؤال ودعاء، ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة، قال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقال مقاتل: خمس وتسعين سنة، وهو أشبه، فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكِبَرِه، ولذلك قال: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ وقالت طائفة: بل طلب الولد ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه تحفظا من أن تقع الإجابة في الولد، ولكن يخترم ولا يتحصل منه الغرض»[٣].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ يعني بهذا الولي الولد خاصة دون غيره من الأولياء. بدليل قوله تعالى في القصة نفسها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾[٤] الآية، وأشار إلى أنه الولد أيضًا بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[٥] فقوله ﴿لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي واحدًا لا ولد له»[٦].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٤٠).
(٢) الأنبياء: الآية (٩٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٧٩-٨٠).
(٤) آل عمران: الآية (٣٨).
(٥) الأنبياء: الآية (٨٩).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

اختلف المفسرون في المراد بالإرث المذكور في هذه الآية على أقوال:

القول الأول: «أن المراد بالميراث في الموضعين هو وراثة المال، وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك»(١).

ويؤيد ذلك ما رواه الطبري في تفسيره عن النبي ﷺ قال: «**رحم اللَّه أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾**» لكنه من مراسيل الحسن، وفي سنده جابر بن نوح وهو ضعيف، ورواه من وجه آخر عن قتادة مرسلًا.

القول الثاني: «أن المراد به في الموضعين وراثة النبوة وهو قول أبي صالح»(٢)، وهو اختيار الحافظ ابن كثير وجماعة من المحققين.

القول الثالث: أن المراد: «يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوة، وهو قول السدي ومجاهد والشعبي، وروي أيضًا عن ابن عباس والحسن والضحاك»(٣).

وهذا اختيار ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾: «وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئًا، فسأل اللَّه ولدا يكون نبيا من بعده لِيَسُوسهم بنبوته وما يوحَى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبيَّ أعظمُ منزلة وأجلُّ قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عَصَبَاته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم. هذا وجه. الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٨٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٨٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٨٥).

هذا لا يجمع مالا، ولاسيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «**نحن معشر الأنبياء لا نورث**»، وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[1] أي في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي مرضيًا عندك وعند خَلْقِكَ في دِينِهِ وخُلُقِهِ»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الوراثة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ هي وراثة العلم والدين لا وراثة المال

* عن مالك بن أوس قال: سمعت عمر يقول لعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد: نَشَدْتُكُمْ باللَّه الذي تقوم السماء والأرض به، أَعَلِمْتُمْ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنا لا نورث، ما تركنا صدقة؟**» قالوا: اللهم نعم[4].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقتسم ورثتي دينارا ولا درهما، ما تركت بعدَ نفقةِ نسائي ومَؤُونَةِ عامي فهو صدقة**»[5].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها جاءت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما تطلب ميراثها من

---

(١) النمل: الآية (١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٢-٢١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٥ و٤٨ و١٦٢ و١٦٤ و١٧٩ و١٩١) واللفظ له، والبخاري (٦/ ٢٤٢/ ٣٠٩٤)، ومسلم (٣/ ١٣٧٨/ ١٧٥٧)(٤٩)، وأبو داود (٣/ ٣٦٦/ ٢٩٦٣)، والترمذي (٤/ ١٣٥/ ١٦١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. والنسائي في الكبرى (٤/ ٦٥/ ٦٣١٠).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٢) والبخاري (٥/ ٤٠٦/ ٢٧٧٦) ومسلم (٣/ ١٣٨٢/ ١٧٦٠) وأبو داود (٣/ ٣٧٩-٣٨٠/ ٢٩٧٤).

رسول اللَّه ﷺ، فقالا: إنا سمعنا رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إني لا أورث**»[١].

* عن عائشة ﵂ أن أزواج النبيِّ ﷺ حين توفي أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن، فقالت عائشة: أليس قال النبي ﷺ: «**ما تركنا صدقة**»[٢].

* عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول اللَّه ﷺ، ما جئت لحاجة، قال: فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك اللَّه به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنّما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[٣].

⋆ غريب الأحاديث:

لا نورث ما تركنا صدقةٌ: قال النووي: «هو برفع صدقة، و(ما) بمعنى الذي، أي الذي تركناه فهو صدقة. وقد ذكر مسلم بعد حديث يحيى بن يحيى عن مالك من حديث عائشة رفعته: «**لا نورث ما تركناه فهو صدقة**» وإنما نبهت على هذا لأن بعض جهلة الشيعة يصَحّفه»[٤].

وقال الحافظ ابن حجر: «هو بالرفع، أي صدقةٌ، وادعى الشيعة أنه بالنصب على أن (ما) نافية، ورُدَّ عليهم بأن الرواية ثابتة بالرفع، وعلى التنزل فيجوز النصب على تقدير حذف تقديره: ما تركنا مبذول صدقة، قاله ابن مالك. وينبغي الإضراب عنه، والوقوف مع ما ثبتت به الرواية».

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٣) والترمذي (٤/ ١٣٥/ ١٦٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤)، والبخاري (١٢/ ٤/ ٦٧٢٧)، ومسلم (٣/ ١٣٧٩-١٣٨٠-١٣٨١/ ١٧٥٨)، وأبو داود (٣/ ٢٩٦٨-٢٩٦٩)، والنسائي (٧/ ١٥٠/ ٤١٥٢) مختصرًا.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، أبو داود (٤/ ٥٧-٥٨/ ٣٦٤١) واللفظ له، الترمذي (٥/ ٤٧/ ٢٦٨٢)، ابن ماجه (١/ ٨١/ ٢٢٣)، ابن حبان (١/ ٢٨٩/ ٨٨) وصححه.

(٤) شرح مسلم (١٢/ ٦٥-٦٦).

وقال أيضًا: «الراء من قوله «**لا نورَث**» بالفتح في الرواية، ولو روي بالكسر لصح المعنى أيضًا»[١].

بحظ وافر: أي: نصيب كامل.

★ **فوائد الحديث:**

«فهذه الأحاديث ظاهرة في أن الأنبياء لا يورث عنهم المال بل العلم والدين»[٢].

قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي حديثنا المذكور في أول هذا الباب من الفقه تفسير لقول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٣] وعبارة عن قول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حاكيا عن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٤]، وتخصيص للعموم في ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالًا خلَّفه داود بعده، وإنما ورث منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب، وهكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن والسنة، واستدلوا مع سنة رسول اللَّه ﷺ المذكورة بقول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾[٥]؛ قال المفسرون: يعني علم التوراة والزبور والفقه في الدين وفصل القضاء وعلم كلام الطير والدواب، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[٦]، فورث سليمان من داود النبوة والعلم والحكمة وفصل القضاء، وعلى هذا جماعة أهل العلم وسائر المسلمين إلا الروافض، وكذلك قولهم في: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٧] لا يختلفون في ذلك إلا ما روي عن الحسن أنه قال: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحكمة، والدليل على صحة ما قال علماء المسلمين في تأويل هاتين الآيتين ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقةٌ**»، وكل قول يخالفُ قول رسول اللَّه ﷺ ويدفعه فهو مدفوع مهجور»[٨].

«ومما يدلك على أنه أراد بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٩] النبوة والعلم

---

(١) الفتح (١٢/ ٦).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٢٤).
(٣) النمل: الآية (١٦).
(٤) مريم: الآيتان (٥و٦).
(٥) النمل: الآية (١٥).
(٦) النمل: الآيتان (١٥و١٦).
(٧) مريم: الآية (٥).
(٨) فتح البر (١٢/ ٥٦٣-٥٦٤).
(٩) النمل: الآية (١٦).

والسياسة ولم يرد المال؛ لأنه لو أراد المال لم يقتض الخبر عن ذلك فائدة؛ لأنه معلوم أن الأبناء يرثون الآباء أموالهم، وليس معلوما أن كل ابن يقوم مقام أبيه في الملك والعلم والنبوة»[1].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «لا نورث ما تركنا صدقة»؛ جميع الرواة لهذه اللفظة في الصحيحين وفي غيرهما يقولون: لا نورث بالنون- وهي نون جماعة الأنبياء، كما قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

و«صدقةٌ»: مرفوعة على أنه: خبر المبتدإ الذي هو: «ما تركنا»، والكلام جملتان: الأولى: فعلية، والثانية: اسمية. لا خلاف بين المحدثين في هذا. وقد صحفه بعض الشيعة، فقال: لا يورث -بالياء- ما تركنا صدقةً بالنصب- وجعل الكلام جملة واحدة، على أن يجعل «ما» مفعولا لما لم يسم فاعله. و«صدقة» ينصب على الحال. ويكون معنى الكلام: إنما نتركه صدقة لا يورث. وإنما فعلوا هذا، واقتحموا هذا المحرم، لما يلزمهم على رواية الجمهور من إفساد قولهم، ومذهبهم، أنهم يقولون: إن النبي ﷺ يورث كما يورث غيره، متمسكين بعموم آية المواريث، معرضين عما كان معلوما عند الصحابة من الحديث الذي يدل على خصوصية النبي ﷺ: بأنه لا يورث.

وقد حكى الخطابي حكاية تدل على صحة مذهب أهل السنة، وعلى بطلان مذهب أهل البدع: حكي عن ابن الأعرابي: أن أبا العباس السفاح قام في أول مقام قامه خطيبا في قرية تسمى: العباسية -بالأنبار- فحمد اللَّه وأثنى عليه، فلما جاء عند الفراغ، قام إليه رجل، وفي عنقه المصحف، فقال: يا أمير المؤمنين! أذكرك اللَّه الذي ذكرته إلا ما قضيت لي على خصمي بما في كتاب اللَّه. فقال: ومن خصمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدك. فقال: هل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: ومن؟ قال: عمر. قال: فأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: فهل كان بعده أحد؟ قال: نعم: قال: فمن؟ قال: عثمان. قال: فأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: فهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: فمن؟ قال: علي بن أبي طالب. قال: فأقام على ظلمكم؟ قال: فأسكت الرجل، وجعل يلتفت يمينا وشمالا يطلب

---

(١) فتح البر (١٢/ ٥٦٥).

مخلصا . فقال أبو العباس : واللَّه الذي لا إله إلا هو لولا أنه أول مقام قمته ، ولم أكن تقدمت إليك ، لأخذت الذي فيه عيناك ، اجلس . ثم أخذ في خطبته .

وحاصل هذه الحكاية : أن الخلفاء ﷺ علموا وتحققوا صحة قول النبي ﷺ : «**لا نورث، ما تركنا صدقة**» ، وعملوا على ذلك إلى أن انقرضت أزمانهم الكريمة بلا خلاف في ذلك .

فأما طلب فاطمة ميراثها من أبيها من أبي بكر ، فكان ذلك قبل أن تسمع الحديث الذي دل على خصوصية النبي ﷺ بذلك ، وكانت متمسكة بما في كتاب اللَّه من ذلك ، فلما أخبرها أبو بكر بالحديث توقفت عن ذلك ، ولم تعد عليه بطلب ، وأما منازعة علي والعباس ، فلم تكن في أصل الميراث ، ولا طلبا أن يتملكا ما ترك النبي ﷺ من أموال بني النضير لأربعة أوجه :

أحدها : أنهما قد كانا ترافعا إلى أبي بكر في ذلك ، فمنعهما أبو بكر مستدلا بالحديث الذي تقدم ، فلما سمعاه أذعنا ، وسكنا ، وسلَّما ، إلى أن توفي أبو بكر ، وولي عمر ، فجاءاه ، فسألاه أن يوليهما على النظر فيها ، والعمل بأحكامها ، وأخذها من وجوهها ، وصرفها في مواضعها ، فدفعها إليهما على ذلك ، وعلى ألا ينفرد أحدهما عن الآخر بعمل حتى يستشيره ، ويكون معه فيه ، فعملا كذلك إلى أن شق عليهما العمل فيها مجتمعين ، فإنهما كانا بحيث لا يقدر أحدهما أن يستقل بأدنى عمل حتى يحضر الآخر ، ويساعده ، فلما شق عليهما ذلك جاءا إلى عمر ﷺ ثانية ، وهي هذه الكرة التي ذكرت هنا ، يطلبان منه أن يقسمها بينهما ، حتى يستقل كل واحد منهما بالنظر فيما يكون في يديه منها ، فأبى عليهما عمر ذلك ، وخاف إن فعل ذلك أن يظن ظان أن ذلك قسمة ميراث النبي ﷺ ، فيعتقد بطلان قوله : «**لا نورث**» لا سيما لو قسمها نصفين ، فإن ذلك كان يكون موافقا لسنة القسم في المواريث؛ فإن من ترك بنتًا ، وعما ، كان المال بينهما نصفين : للبنت النصف بالفرض ، وللعم النصف بالتعصيب . فمنع ذلك عمر حسما للذريعة ، وخوفا من ذهاب حكم قوله : «**لا نورث**» .

والوجه الثاني : أن عليًّا لما ولي الخلافة لم يغيرها عما عمل فيها في عهد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ولم يتعرض لتملكها ، ولا لقسمة شيء منها ، بل كان يصرفها في الوجوه التي كان مَنْ قبله يصرفها فيها ، ثم كانت بيد حسن بن علي ، ثم

بيد حسين بن علي، ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد الحسين بن الحسن، ثم بيد زيد بن الحسن، ثم بيد عبد اللَّه بن الحسن، ثم تولاها بنو العباس على ما ذكره أبو بكر البرقاني في صحيحه. وهؤلاء كبراء أهل البيت ﷺ وهم معتمد الشيعة وأئمتهم، لم يرو عن واحد منهم: أنه تملكها، ولا ورثها، ولا ورثت عنه، فلو كان ما يقوله الشيعة حقا لأخذها علي، أو أحد من أهل بيته لما ظفروا بها، وإلا فلا.

والوجه الثالث: اعتراف علي والعباس بصحة قوله ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**» وبعلم ذلك حين سألهما عن علم ذلك، ثم إنهما أذعنا، وسلَّما، ولم يبديا ولا أحدٌ منهما في ذلك اعتراضًا، ولا مدفعًا، ولا يحل لمن يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يقول: إنهما اتقيا على أنفسهما، لما يعلم من صلابتهما في الدين، وقوتهما فيه، ولما يعلم من عدل عمر، وأيضًا: فإن المحل محل مناظرة، ومباحثة عن حكم مال من الأموال، ليس فيه ما يفضي إلى شيء مما يقوله أهل الهذيان من الشيعة. ثم الذي يقطع دابر العناد ما ذكرناه من تمكن علي وأهل بيته من الميراث، ولم يأخذوه، كما قلناه.

والوجه الرابع: نص قول عمر لهما، وحكايته عنهما في آخر الحديث، حيث قال لهما: ثم جئتني أنت وهذا؛ وأنتما جميع؛ وأمركما واحد؛ فقلتم: ادفعها إلينا. فقلت: إن شئتما دفعتها إليكما، على أن عليكما عهد اللَّه أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول اللَّه ﷺ، فأخذتماها بذلك، قال: أكذلك؟ قالا: نعم. وهذه نصوص منهم على صحة ما ذكره. وإنما طولنا الكلام في هذا الموضع لاستشكال كثير من الناس لهذا الحديث؛ .. ولخوض الشيعة في هذا الموضع، ولتقولهم فيه بالعظائم على الخلفاء البررة الحنفاء»[1].

وقال الحافظ ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: لو سلَّمت فاطمة وعلي والعباس ذلك لقول أبي بكر، ما أتى علي والعباس في ذلك عمرَ بن الخطاب في خلافته يسألانه ذلك، وقد علمت أنهما أتيا عمر يسألانه ذلك، ثم أتيا عثمان بعدُ وذلك معلوم، قيل له:

أما تشاجر علي والعباس وإقبالهما إلى عمر فمشهور، لكنهما لم يسألا ذلك

(١) المفهم (٣/ ٥٦١-٥٦٥).

ميراثا، وإنما سألا ذلك من عمر ليكون بأيديهما منه ما كان بيد رسول اللَّه ﷺ أيام حياته، ليعملا في ذلك بالذي كان رسول اللَّه ﷺ يعمل به في حياته، وكان رسول اللَّه ﷺ يأخذ منه قوت عامه، ثم يجعل ما فَضُل في الكراع والسلاح عُدة في سبيل اللَّه، وكذلك صنع أبو بكر رضي الله عنه، فأرادا عمرَ على ذلك؛ لأنه موضع يسوغ فيه الاختلاف.

وأما الميراث والتمليك فلا يقوله أحد إلا الروافض، وأما علماء المسلمين فعلى قولين:

أحدهما: وهو الأكثر وعليه الجمهور، أن النبي ﷺ لا يورث وما تركه صدقة.

والآخر: أن نبينا ﷺ لم يورث لأنه خصه اللَّه عز وجل بأن جعل ماله كله صدقة، زيادة في فضيلته. كما خصه في النكاح بأشياء حرمها عليه وأباحها لغيره، وأشياء أباحها له وحرمها على غيره، وهذا القول قاله بعض أهل البصرة، منهم ابن علية. وسائر علماء المسلمين على القول الأول.

وأما الروافض فليس قولهم مما يُشتَغَل به، ولا يُحكى مثله، لما فيه من الطعن على السلف، والمخالفة لسبيل المؤمنين»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «قوله: «**إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورَّثُوا العلم**» هذا من كمال الأنبياء وعظم نصحهم للأمم، وتمام نعمة اللَّه عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها، فحماهم اللَّه عز وجل من ذلك أتم الحماية، ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده، سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله، وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيرا من النفوس التي تقول: فلعله إن لم يطلب الدنيا لنفسه، فهو يحصلها لولده، فقال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»، فلم تورث الأنبياء دينارًا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، وأما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٢] فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من

---

(١) فتح البر (١٢/ ٥٥٣).

(٢) النمل: الآية (١٦).

المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود ﷺ كان له أولاد كثير سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به.

وأيضا فإن كلام اللَّه يصان عن الإخبار بمثل هذا، فإنه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾[1]، وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه اللَّه به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة؛ ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]. وكذلك قول زكريا ﷺ: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[3]، فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى اللَّه، وإلا فلا يُظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله، فيسأل اللَّه العظيم ولدا يمنعهم ميراثه، ويكون أحق به منهم، وقد نزه اللَّه أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله. فبعدا لمن حرف كتاب اللَّه ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم بُرآء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته»[4].

قال النووي: «قال العلماء: والحكمة في أن الأنبياء -صلوات اللَّه عليهم- لا يورثون؛ أنه لا يؤمَن أن يكون في الورثة من يتمنى موته فيهلك، ولئلا يظن بهم الرغبة في الدنيا لوارثهم فيهلك الظان وينفر الناس عنهم»[5].

قال الحافظ: «وقيل: لكون النبي كالأب لأمته فيكون ميراثه للجميع»[6].

قلت: هذه القضية ظاهرها الاختلاف، وحاصل ما ورد في ذلك من النصوص الواضحة الاتفاق من أهل العلم المعتبرين أن الأنبياء لا يورثون، وميراثهم هو العلم النافع والدعوة الصالحة والقيادة الحكيمة إلى الهدى والصلاح، وهذا إن دل

---

(١) النمل: الآيتان (١٥و١٦).
(٢) النمل: الآية (١٦).
(٣) مريم: الآيتان (٥و٦).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٢-٢٦٤).
(٥) شرح مسلم (١٢/ ٦٦).
(٦) الفتح (١٢/ ٨).

على شيء فإنما يدل على إخلاص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأنهم جميعًا تبرءوا من سؤال المال على دعوتهم، وأن دعوتهم يقصد بها الهدى والرشاد، فلا شك أن التجرد للدعوة من كل ما قد يعكر صفوها؛ من جاه ومال ورئاسة، يجعلها ناجحة نافعة، فينبغي للداعية أن يستغني عن الناس بقدر ما يستطيع، فلا يحتاج إليهم في نفقة ولا في شيء يجعله ذليلًا عندهم؛ فإن علماء الإسلام لم يؤثر عن واحد منهم أنه كان يحتاج إلى أحد في نفقة أو مال، والله -تبارك وتعالى- ييسر للعبد سبلًا لا يدري عنها فيغنيه الله بأنواع الغنى، ويسخِّر له الخلق تسخيرًا، ويعتبرون خدمته قربةً وشرفًا، فنرجو الله أن يغنينا من فضله، وأن لا يحوجنا إلى غيره إنه سميع مجيب.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

★ غريب الآية:

سَمِيًّا: السَّمي: المسَمَّى، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مسمًّى بيحيى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ في الكلام حذف أي فاستجاب اللَّه دعاءه فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة، الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة، الثالث: أن يفرد بتسميته»[1].

قال الشنقيطي: «وقد أوضح -جل وعلا- في موضع آخر هذا الذي أجمله هنا، فبين أن الذي ناداه بعض الملائكة، وأن النداء المذكور وقع وهو قائم يصلي في المحراب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال بعض العلماء: أطلق الملائكة وأراد جبريل. ومَثَّلَ به بعض علماء الأصول للعام المراد به الخصوص قائلًا: إنه أراد بعموم الملائكة خصوص جبريل، وإسناد الفعل للمجموع مرادًا بعضه. وقد بيَّنَّاه فيما مضى مرارًا.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ يدل على أن اللَّه هو الذي سماه، ولم يَكِل تسميته إلى أبيه. وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ اعلم أولًا أن السَّمي يطلق في اللغة العربية إطلاقين: الأول قولهم: فلان سميُّ فلان أي مسمًّى باسمه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٨٢).

(٢) آل عمران: الآية (٣٩).

فمن كان اسمهما واحدًا فكلاهما سمي الآخر أي مسمى باسمه.

والثاني: إطلاق السَّمي يعني المسامي؛ أي: المماثل في السمو والرفعة والشرف، وهو فعيل بمعنى مفاعل من السمو بمعنى العلو والرفعة، ويكثر في اللغة إتيان الفعيل بمعنى المفاعل. كالقعيد والجليس بمعنى المقاعد والمجالس. والأكيل والشريب بمعنى المؤاكل والمشارب، وكذلك السمي بمعنى المسامي أي المماثل في السمو. فإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله هنا: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نجعل من قبله أحدًا يتسمى باسمه، فهو أول من كان اسمه يحيى. وقول من قال: إن معناه لم نجعل له سميًا أي نظيرًا في السمو والرفعة غير صواب؛ لأنه ليس بأفضل من إبراهيم وموسى ونوح، فالقول الأول هو الصواب. وممن قال به ابن عباس وقتادة والسدي وابن أسلم وغيرهم. ويروى القول الثاني عن مجاهد وابن عباس أيضًا. وإذا علمت أن الصواب أن معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نسم أحدًا باسمه قبله، فاعلم أن قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[1] معناه: أنه تعالى ليس له نظير ولا مماثل يساميه في العلو والعظمة والكمال على التحقيق. وقال بعض العلماء: -وهو مروي عن ابن عباس- ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هل تعلم أحدًا يسمى باسمه الرحمن -جل وعلا-. والعلم عند الله تعالى»[2].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسامي السُّنع جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية، لكونها أنبه وأنزه عن النبز، حتى قال قائل:

سُنْعُ الأَسَامِي مُسْبِلِي أُزُرٍ حُمْرٌ تَمَسُّ الأَرْضَ بِالهُدُبِ»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير هذه الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال: لم يسم أحد

(١) مريم: الآية (٦٥).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٣١-٢٣٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٨٣).

قبله يحيى[١].

★ **فوائد الحديث:**

أفاد الحديث أن معنى قوله ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، وهذا المعنى أشبه بتأويل الآية كما قال ابن جرير واختاره غير واحد من المفسرين[٢].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٥/ ٣١٩٠١)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٧٢) ووافقه الذهبي.

(٢) انظر ابن جرير (١٦/ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عِتِيًّا: العتي: النهاية في الكِبَر، واليُبْس والجفاف. قال الشاعر:

إنَّما يعذر الوليدُ ولا يعـ ـذر من كان في الزمان عتيا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال زكريا لما بشره اللَّه بيحيى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ومن أيّ وجه يكون لي ذلك، وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضَعُفْت من الكِبَر عن مباضعة النساء، بأن تقوّيني على ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولودا، فإنك القادر على ذلك وعلى ما تشاء، أم بأن أنكح زوجة غير زوجتي العاقر، يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون من قبله له الولد، الذي بشره اللَّه به، لا إنكارا منه ﷺ حقيقة كون ما وعده اللَّه من الولد، وكيف يكون ذلك منه إنكارا لأن يرزقه الولد الذي بشَّره به، وهو المبتدئ مسألة ربه ذلك بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾..

وقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يقول: وقد عتوت من الكبر فصرت نَحِل العظام يابسها، يقال منه للعود اليابس، عود عاتٍ وعاسٍ، وقد عتا يعتو عِتِيًّا وعُتُوّا، وعسى يعسو عِسِيًّا وعُسوًّا، وكلُّ متناه إلى غايته في كبر أو فساد، أو كفر، فهو عاتٍ وعاس»[1].

قال أبو السعود: «إنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٠-٥١).

بقدرة اللَّه تعالى عليه، لا سيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد المذكورة في سورة آل عمران، استعظامًا لقدرة اللَّه سبحانه، وتعجيبًا منها، واعتدادًا بنعمته تعالى عليه في ذلك بأنه من محض لطف اللَّه عز وعلا وفضله، مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة، لا استبعادًا له. وقيل: إنما قاله ليجاب بما أجيب به، فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون، وقيل: كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه، وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنةً وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٥٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

★ غريب الآية:

سوِيًّا: أي: مستوي الخلقة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال اللَّه لزكريا مجيبًا له ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ يقول: هكذا الأمر كما تقول من أنّ امرأتك عاقر، وأنك قد بلغت من الكبر العتيّ، ولكن ربك يقول: خَلْق ما بشَّرتك به من الغلام الذي ذكرت لك أن اسمه يحيى عليّ هين، فهو إذن من قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كناية عن الخلق.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك، وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشرا سويا من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهب لك من الولد، ولم تك شيئًا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عِتيك ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك»[1].

وقال: «وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال زكريا: يا ربّ اجعل لي علما ودليلا على ما بشَّرتني به ملائكتك من هذا الغلام عن أمرك ورسالتك، ليطمئنّ إلى ذلك قلبي.. ﴿قَالَ﴾ اللَّه ﴿ءَايَتُكَ﴾ لذلك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ يقول جلّ ثناؤه: علامتك لذلك، ودليلك عليه أن

(١) جامع البيان (١٦/ ٥١-٥٢).

لا تكلم الناس ثلاث ليال وأنت سويّ صحيح، لا علة بك من خرس ولا مرض يمنعك من الكلام.. وقال آخرون: السويّ من صفة الأيام، قالوا: ومعنى الكلام: قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال متتابعات»[1].

وقال: «يقول -تعالى ذكره-: فخرج زكريا على قومه من مصلاه حين حُبس لسانه عن كلام الناس، آية من الله له على حقيقة وعده إياه ما وعد..

وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ يقول: أشار إليهم، وقد تكون تلك الإشارة باليد وبالكتاب وبغير ذلك، مما يفهم به عنه ما يريد»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٢-٥٣).

(٢) جامع البيان (١٦/ ٥٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حنانًا: الحنان: الرحمة والشفقة والعطف. قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاسْتَبْقِ بَعْضَنَا ... حنانيك بعضُ الشر أهون من بعض

وقال الحطيئة لعمر رضي الله عنه:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هداكَ المليكُ ... فإن لكل مقام مقالًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فولد لزكريا يحيى، فلما ولد، قال اللَّه له: يا يحيى، خذ هذا الكتاب بقوة، يعني كتاب اللَّه الذي أنزله على موسى، وهو التوراة بقوّة، يقول: بِجِدّ.. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأعطيناه الفهم لكتاب اللَّه في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال»[1].

قال ابن كثير: « ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة، أي بجد وحرص واجتهاد، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث السن»[2].

قال ابن جرير: «وقوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ورحمة منا ومحبة له آتيناه الحكم صبيًّا. وقد اختلف أهل التأويل في معنى الحنان، فقال بعضهم: معناه: الرحمة، ووَجهوا الكلام إلى نحو المعنى الذي وجهناه إليه..

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٦).

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ورحمة من عندنا لزكريا ، آتيناه الحكم صبيا ، وفعلنا به الذي فعلنا . . وقال آخرون : معنى ذلك : وتعطفا من عندنا عليه ، فعلنا ذلك . . وقال آخرون : بل معنى الحنان : المحبة . ووجهوا معنى الكلام إلى : ومحبة من عندنا فعلنا ذلك . . وقال آخرون معناه تعظيما منا له»[١] .

قال ابن كثير : «والظاهر من هذا السياق أن ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ معطوف على قوله : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي : وآتيناه الحكم وحنانًا ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي وجعناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب : حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها ومنه سميت المرأة حنة من الحنة ، وحن الرجل إلى وطنه ، ومنه التعطف والرحمة كما قال الشاعر :

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هداكَ المليكُ فإن لكل مقام مقالًا

وقوله : ﴿وَزَكَوٰةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب . وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح . وقال الضحاك وابن جريج : العمل الصالح الزكي . وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿وَزَكَوٰةً﴾ قال : بركة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ذا طهر فلم يهم بذنب . وقوله : ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقىً ، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ومجانبته عقوقهما قولا وفعلا ، أمرا ونهيا ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال ، وقال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم . قال : فأكرم اللَّه فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فقال : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة ابن الفضل عنه»[٢] .

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٥-٥٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٦-٢١٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في ذكر نبي اللَّه يحيى -عليه الصلاة والسلام-

* عن مالك بن صعصعة أن نبي اللَّه ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت، فردا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح[1].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الغرض منه ذكر يحيى بن زكريا، وقال فيه وفي عيسى ابن مريم إنهما ابنا خالة»[2].

قال الحافظ: «والسبب فيه أن ابني الخالة أم كل منهما خالة الآخر لزوما، بخلاف ابني العمة»[3].

قال الحافظ ابن كثير: «وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث، فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران. وقيل: بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم واللَّه أعلم»[4].

قال الأبي: «والحديث.. يرد أن ما قيل: إن أم يحيى خالة لمريم لا لعيسى»[5].

وقوله: «**ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح**» قال ابن أبي جمرة: «إنما قال له ذلك لأن الأنبياء ﷺ كالإخوة، كما أخبر ﷺ حيث قال: «**لا تفضلوا**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٧-٢٠٨) والبخاري (٧/ ٢٥٥-٢٥٧/ ٣٨٨٧) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٤٩-١٥٠/ ١٦٤) والترمذي (٥/ ٤١٢/ ٣٣٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٢١٧-٢١٨/ ٤٤٧).

(٢) الفتح (٦/ ٥٧٩).

(٣) الفتح (٧/ ٢٦٦).

(٤) البداية والنهاية (٢/ ٥٠).

(٥) إكمال الإكمال (١/ ٥٠٥).

الأنبياء بعضهم على بعض، نحن جميع الأنبياء أولاد علات»[١] وأولاد العلات في لغة العرب أن يكون الأب واحدًا والأمهات مختلفة»[٢].

قال النووي: «فيه استحباب لقاء أهل الفضل بالبشر والترحيب والكلام الحسن والدعاء لهم وإن كانوا أفضل من الداعي. وفيه: جواز مدح الإنسان في وجهه إذا أمن عليه الإعجاب وغيره من أسباب الفتنة»[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤) والبخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٤) ومسلم (٤/ ١٨٤٣/ ٢٣٧٣) وأبو داود (٥/ ٥٣/ ٤٦٧١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٧).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٩٢).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/ ١٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

انتبذت: ابتعدت وتَنَحَّتْ. من قولك: انتبذ فلان ناحية: إذا صار إليها.

مكانًا شرقيًا: أي: كائنا في جهة الشرق.

سويًا: أي مستوي الخلقة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر اللَّه تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[١] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في سورة آل

(١) آل عمران: الآية (٣٧).

(٢) آل عمران: الآية (٣٧).

عمران. فلما أراد اللَّه تعالى وله الحكمة والحجة البالغة أن يوجِد منها عبدَه ورسولَه عيسى عليه السلام أحدَ الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت إلى شرق المسجد المقدس»[١].

قال ابن جرير: «فتنحت واعتزلت من أهلها في موضع قبل مشرق الشمس دون مغربها»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت فأرسل اللَّه تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل»[٣].

قال الشنقيطي: «أظهر الأقوال أن المراد بقوله (﴿رُوحَنَا﴾ جبريل. ويدل لذلك قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٥]، وإضافته إلى اللَّه إضافة تشريف وتكريم. قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ تمثله لها بشرًا سويًا المذكور في الآية يدل على أنه ملك وليس بآدمي. وهذا المدلول صرح به تعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[٦]. وهذا الذي بشرها به هو الذي قال لها هنا ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾»[٧].

قال ابن كثير: «﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافَتْه، وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي إن كنت تخاف اللَّه، تذكيرا له باللَّه، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولا باللَّه عز وجل»[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٥).
(٢) جامع البيان (١٦/ ٥٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٦).
(٤) الشعراء: الآية (١٩٣).
(٥) النحل: الآية (١٠٢).
(٦) آل عمران: الآية (٤٥).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٢٥٥).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٦).

قال ابن كثير: «فقال لها الملك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها، لستُ مما تظنين، ولكني رسول ربك، أي بعثني اللّه إليك»[١].

قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن ذلك الروح الذي هو جبريل قال لها إنه رسول ربها ليهب لها، أي ليعطيها غلامًا، أي ولدًا زكيا، أي طاهرًا من الذنوب والمعاصي، كثير البركات. وبيَّن في غير هذا الموضع كثيرًا من صفات هذا الغلام الموهوب لها، وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾[٣] الآية، إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على صفات هذا الغلام. وقرأ هذا الحرفَ أبو عمرو وورش عن نافع وقالون عنه أيضًا بخلف عنه (ليَهَب) بالياء المفتوحة بعد اللام أي ليهب لَكِ هو، أي ربُّك غلامًا زكيًا. وقرأ الباقون ﴿لِأَهَبَ﴾ بهمزة المتكلم أي لأهب لَكِ أنا أيها الرسول من ربك غلامًا زكيًا. وفي معنى إسناده الهبة إلى نفسه على قراءة الجمهور خلاف معروف بين العلماء. وأظهر الأقوال في ذلك عندي: أن المراد بقول جبريل لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي لأكون سببًا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع الذي وصل إلى الفرج، فصار بسببه حملها عيسى. وبين تعالى في سورة التحريم أن هذا النفخ في فرجها في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[٤] الآية. والضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى فرجها، ولا ينافي ذلك قوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[٥] لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٦).

(٢) آل عمران: الآيتان (٤٥و٤٦).

(٣) آل عمران: الآيتان (٤٨و٤٩).

(٤) التحريم: الآية (١٢).

(٥) الأنبياء: الآية (٩١).

حمل عيسى»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اخبار نبي الله عيسى -عليه الصلاة والسلام-

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان، غير مريم وابنها. ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٢]»[٣].

★ فوائد الحديث:

تقدم شرحه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ من سورة (آل عمران).

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى. وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي، فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تُرِيَهُ وجوهَ المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها، فولدت غلاما، فقالت: مِن جريج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسَبُّوه، فتوضأ وصلَّى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شَارَة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يَمَصُّه، قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يَمَصُّ إصبعه، ثم مر بأمة فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبَّار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سَرَقْتِ زَنَيتِ ولم تفعل»[٤].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٥٥-٢٥٦). (٢) آل عمران: الآية (٣٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٣-٢٧٤-٢٧٥). والبخاري (٨/ ٢٦٨/ ٤٥٤٨). ومسلم (٤/ ١٨٣٨/ ٢٣٦٦).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٧-٣٠٨). والبخاري (٦/ ٥٨٩/ ٣٤٣٦). ومسلم (٤/ ١٩٧٦-١٩٧٨/ ٢٥٥٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «الغرض منه ذكر الذين تكلموا في المهد، وأورده في ترجمة عيسى لأنه أوَّلُهم»(١).

ومطابقته للآيات من حيث إنَّها في قصة مريم، وفيها التعرض لميلاد عيسى ﷺ وأنه كان يكلم الناس وهو في المهد صبي(٢).

قال القرطبي: «فأما عيسى عليه السلام فخلق اللَّه له في مهده ما خلق للعقلاء والأنبياء في حال كمالهم في العقل الكامل، والفهم الثاقب، كما شهد له بذلك القرآن»(٣).

وقد تقدم شرح الحديث وبيان فوائده غير ما مرة، فلا معنى لإعادة ذلك.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رَجل ضرب رَجِل كأنه من رجال شَنُوءَة، ورأيت عيسى فإذا هو رجل رَبعَة أحمر كأنما خرج من دِيمَاس، وأنا أشبه وَلَد إبراهيم ﷺ به، ثم أُتِيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل: أخذت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غَوَتْ أُمَّتك»**(٤).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«رأيت عيسى وموسى وإبراهيم. فأما عيسى فأحمر جَعد عَرِيض الصدر، وأما موسى فآدَمُ جسيم سَبْط كأنه من رجال الزُّط»**(٥).

* عن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«أراني ليلةً عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من أُدْمِ الرجال له لِمَّةٌ كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجَّلَها فهي تقطر ماء، متكئا على رجلين أو على عواتق رجلين يطوف بالبيت، فسألت: من هذا؟ فقيل هذا المسيح بن مريم، ثم إذا أنا برجل جَعْد قَطَط أَعوَر**

---

(١) الفتح (٦/ ٥٩٩).

(٢) أفاد معناه العيني (١١/ ١٨٩).

(٣) المفهم (٦/ ٥١٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٢)، والبخاري (٦/ ٥٢٩/ ٣٣٩٤)، ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٦)، والبخاري (٦/ ٥٩٠/ ٣٤٣٨)، ومسلم (١/ ١٥٣/ ١٦٦[٢٧٠]).

العين اليمنى كأنها عِنَبَة طافية، فسألت: من هذا؟ فقيل: هذا المسيح الدجال»[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

تقدم شرح هذه الأحاديث وبيان غريبها في سورة النساء.

ونقتصر من ذلك على ما له علاقة بذكر صفة عيسى عليه السلام.

قال الحافظ: «قوله في صفة عيسى «**رَبعة**» هو بفتح الراء وسكون الموحدة ويجوز فتحها وهو المربوع. والمراد أنه ليس بطويل جدًّا ولا قصيرًا جدًّا بل وسط»[٢].

قال النووي: «وأما الديماس فبكسر الدال وإسكان الياء والسين في آخره مهملة، وفسره الراوي بالحمَّام، والمعروف عند أهل اللغة أن الديماس هو السِّرْب، وهو أيضًا الكَنّ. قال الهروي في هذا الحديث: قال بعضهم: الديماس هنا هو الكَنُّ، أي كأنه مُخْدَر لم ير شمسًا. قال: وقال بعضهم المراد به السرب، ومنه دمسته إذا دفنته. وقال الجوهري في صحاحه في هذا الحديث: قوله: «**خرج من ديماس**» يعني في نضارته وكثرة ماء وجهه، كأنه خَرَجَ من كَنّ؛ لأنه قال في وصفه: «**كأن رأسه يقطر ماء**»»[٣].

قال الحافظ: «والمراد من ذلك وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه حتى كأنه كان في موضع كَنٍّ فخرج منه وهو عرقان، وسيأتي في رواية ابن عمر بعد هذا: «**ينطف رأسه ماء**»، وهو محتمل لأن يراد الحقيقة، وأنه عرق حتى قطر الماء من رأسه، ويحتمل أن يكون كنايةً عن مزيد نضارة وجهه، ويؤيده أن في رواية عبدالرحمن بن آدم عن أبي هريرة عند أحمد وأبي داود: «**يقطر رأسه ماءً وإن لم يصبه بلل**»»[٤].

قال النووي: «وأمَّا وصف عيسى -صلوات اللَّه عليه وسلامه- في هذه الرواية وهي رواية أبي هريرة رضي الله عنه، بأنه أحمر، ووصفه في رواية ابن عمر رضي الله عنهما بعدها بأنه

---

(١) أخرجه أخرجه أحمد (٢/ ١٢٢و١٤٤) والبخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٤٣٩)، ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٩) من طريق ابن شهاب عن سالم عن أبيه.

(٢) الفتح (٦/ ٥٩٩).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠٠).

(٤) الفتح (٦/ ٥٩٩).

آدم، والآدم الأسمر، وقد روى البخاري عن ابن عمر ﷺ أنه أنكر رواية: أحمر، وحلف أن النبي ﷺ لم يَقُله، يعني أنه اشتبه على الراوي، فيجوز أن يتأول الأحمر على الآدَم، ولا يكون المراد حقيقة الأُدْمة والحمرة، بل وما قاربها والله أعلم»[١].

قال الحافظ: «الأحمر عند العرب الشديد البياض مع الحمرة، والآدم الأسمر.

ويمكن الجمع بين الوصفين بأنه احْمَرَّ لونه بسبب كالتعب، وهو في الأصل أسمر، وقد وافق أبو هريرة على أن عيسى أحمر، فظهر أن ابن عمر أنكر شيئًا حفظه غيره.

وأما قول الداودي: إن رواية من قال آدم أثبت، فلا أدري من أين وقع له ذلك مع اتفاق أبي هريرة وابن عباس على مخالفة ابن عمر، وقد وقع في رواية عبدالرحمن بن آدم عن أبي هريرة في نعت عيسى: أنه مربوع إلى الحمرة والبياض، والله أعلم»[٢].

قال السنوسي: «**قوله في صفة عيسى**: «**جعد مربوع**» قال العلماء: المراد بكونه جعدا أنه جعد الجسم أي مجتمعه وشديده، فهو صفة مدح. وقد يكون صفة ذم كما في حق الدجال. ويحتمل أن يرجع إلى الشَّعر ويكون المراد به المدح أيضًا، أي رجل بين السبط والقَطَط كما جاء في صفة شعر النبي ﷺ»[٣].

قال الحافظ: «قوله «**تضرب لمته**» بكسر اللام أي شعر رأسه، ويقال له إذا جاوز شحمة الأذنين وأَلَمَّ بالمنكبين: لِمّة، وإذا جاوزت المنكبين فهي: جُمَّة وإذا قَصُرَت عنهما فهي وَفْرَة»[٤].

قال الحافظ: «قوله: «**رَجِلُ الشَّعَر**» بكسر الجيم أي قد سرحه ودهنه، وفي رواية مالك: «**له لِمَّة قد رجلها فهي تقطر ماء**»»[٥].

قال عياض: «وقوله: «**رَجَّلَها**»: يريد والله أعلم بالماء وبالمشط، يقال شعر مُرجل إذا مُشط، وشعر رَجِل إذا كان في خلقته وتكسيره على هيئته الممشوط.

وقوله: «**تقطر ماءً**» يحتمل أن يكون على ظاهره، أي يقطر بالماء الذي رجلها به لقرب ترجيله إياه، وإلى هذا نحا القاضي الباجي، وقال: لعله نبه بذلك على أن ذلك

---

(١) شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠٠).
(٢) الفتح (٦/ ٦٠١).
(٣) مكمل الإكمال (١/ ٥٢٥-٥٢٦).
(٤) الفتح (٦/ ٦٠١).
(٥) الفتح (٦/ ٦٠١).

مشروع لطواف الورود. ومعناه عندي: أن يكون ذلك عبارة عن نضارته وحسنه وترجيله واستعارة لجماله»[١].

قال الحافظ: «ووقع في رواية سالم الآتية في نعت عيسى أنه آدم سَبِط الشَّعَر، وفي الحديث الذي قبله في نعت عيسى أنه جَعْد، والجعد ضد السبط، فيمكن أن يجمع بينهما بأنه سبط الشعر، ووصفه لجعودة في جسمه لا شعره، والمراد بذلك اجتماعه واكتنازه. وهذا الاختلاف نظير الاختلاف في كونه آدم أو أحمر»[٢].

قال القاضي عياض: «وقوله في عيسى: المسيح، وكذلك في الدجال، قال الإمام: قال عيسى بن دينار وغيره: سمي الدجال مسيحًا؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، فهو فعيل بمعنى مفعول، وسمي عيسى مسيحًا من أجل سياحته في الأرض، وأنه لم يكن له موضع يستقر فيه من أرض. قال الهروي: قال ابن الأعرابي: المسيح الصديق، وبه سمي عيسى، والمسيح الأعور، وبه سمي الدجال. قال الحربي: سمي عيسى مسيحًا بمسح زكريا إياه، أو يكون اسمًا خصه اللَّه به، وقال ابن عباس: سمي بذلك لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، قال غيره: من قال في الدجال مسيح -على وزن فعيل- بكسر الميم فليس بشيء. قال القاضي: وقيل في تسميته مسيحًا ما ذكر، وقول ابن الأعرابي: المسيح الصديق، هو في صحيح البخاري من قول إبراهيم، وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين لا أخمص له، وقيل: لأن اللَّه مسحه؛ أي: خلقه حسنًا، فيكون بمعنى: جميل وحسن، وقيل: سُمِّي بذلك لمسحه الأرض، أي قطعها، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وقيل: مسح بالبركة حين ولد. وأما تسمية الدجال بذلك فقيل ما تقدم، وقيل: بمسحه الأرض حين خروجه، وقال أبو الهيثم: المسيح -بالحاء- ضد المسيخ -بالخاء- فبالحاء مسحه اللَّه، أي خلقه حسنا وبالخاء مسخه، أي خلقه خلقا ملعونا. ولا خلاف عند أحد من الرواة في اسم عيسى أنه بفتح الميم وكسر السين مخففة، واختلف في الدجال، فأكثرهم يقول: هو مثله، وأنه لا فرق بينهما، وأن عيسى مسيح هدى، والدجال مسيح ضلالة، وكان عند بعض شيوخنا وهو أبو إسحاق بن جعفر في كتابه: الْمِسِّيح بكسر الميم والسين وتشديدها، وكذلك عند

---

(١) الإكمال (١/ ٥٢١). (٢) الفتح (٦/ ٦٠١).

غير واحد، وبعضهم يقوله كذا -بالخاء المعجمة- وبعضهم بكسر الميم وتخفيف السين، وكذا وجدت الأصيلي ضبط هذا الحرف بخطه في صحيح البخاري، ورأيت بخط شيخنا القاضي أبي عبد اللَّه بن أحمد التجيبي عن أبي مروان ابن سراج: من كسر الميم شَدَّدَ السين»[١].

وقال: «وأما طواف عيسى بالبيت، فإن كانت رؤيا عين فعيسى عليه السلام حي لم يمت، وإن كانت رؤيا منام كما بينه ابن عمر في حديثه فهو محتمل لما تقدم، وللتأويل للرؤيا، وعلى هذا يحمل ما ذكر من طواف الدجال بالبيت، وأن ذلك رؤيا، إذ ورد في الصحيح أنه لا يدخل مكة ولا المدينة، مع أنه من رواية مالك لم يذكر طواف الدجال، وهو أثبت ممن رووا طوافه لما قلناه، وقد يقال: إن تحريم دخول المدينة عليه إنما هو زمن فتنته، وقد يحتج به من يجيز الطواف على الدابة وللمحمول بغير عذر، لما ذكر من طواف عيسى على مناكب رجلين. ومالك لا يجيزه إلا لعذر، وجوابه عن طواف النبي ﷺ على الراحلة أن ذلك كان لعذر، ففي كتاب أبي داود أنه ﷺ ورد مكة وهو يشتكي» وساق الحديث[٢]، وقد يقال: لأنه كان يُعَلم الناس أمور حجهم فركب ليظهر لجميعهم، ولا يخفى عمله عليهم كما أراهم صلاته على المنبر لئلا يخفى على جميعهم واللَّه أعلم، ولقوله ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»[٣] و«**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٤] ويجاب عنه في قصة عيسى بأنها منام أو محتملة للمنام، أو أنه ليس في الواجب، أو لعله لعذر، أو لأن شرع من قبلها غير لازم لنا»[٥].

---

(١) الإكمال (١/ ٥١٩-٥٢٠).

(٢) أخرجه: أبو داود (٢/ ٤٤٣/ ١٨٨١) من حديث ابن عباس في قصة استلام النبي ﷺ الحجر بالمحجن، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد الكوفي، وهو ضعيف كبر فتغير وصار يلقن، والحديث في الصحيحين بإسناد آخر عن ابن عباس، وليس فيه ذكر أنه يشتكي.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠١)، ومسلم (٢/ ٩٤٣/ ١٢٩٧)، وأبو داود (٢/ ٤٩٥-٤٩٦/ ١٩٧٠)، والترمذي (٣/ ٢٣٤/ ٨٨٦)، والنسائي (٥/ ٢٩٨/ ٣٠٦٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٦/ ٣٠٢٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٣)، والبخاري (٢/ ١٤٢/ ٦٣١)، ومسلم (١/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٦٧٤)، وأبو داود (١/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٩)، والترمذي (١/ ٣٩٩/ ٢٠٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٣٣٦/ ٦٣٤)، وابن ماجه (١/ ٣١٣/ ٩٧٩) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٥) الإكمال (١/ ٥٢٢-٥٢٣).

قلت: والمقصود من ذكره ﷺ أوصاف عيسى ابن مريم عليه السلام بيان أن عيسى كباقي الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- قد بلغوا في خَلْقِهم وخُلُقِهم غاية الكمال البشري[١].

وقال ابن كثير: «بين صلوات اللَّه وسلامه عليه صفة المسيحَيْن مسيحِ الهدي ومسيحِ الضلالة ليعرف هذا إذا نزل، فيؤمن به المؤمنون، ويُعْرَف الآخر فيحذره الموحِّدون»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «**أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

عَلاَّت: أولاد العَلات أولاد الضرات من رجل واحد. واحدها عَلَّة وهي الضرة، مأخوذ من العلل، وهو الشربة الثانية بعد الأولى. وكأن الزوج عل منها بعد ما كان ناهلا من الأخرى[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «الظاهر في معناه أن الأنبياء يختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، وبين بعضهم وبعضٍ أنبياء أخر، وإن شملتهم النبوة وكأنهم أولاد علات، إذ لم يجمعهم زمن واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد. وعيسى لما كان قريب الزمن منه ولم يكن بينهما نبي، فكأنهما في زمن واحد وابني أم واحدة فكان بخلاف غيرهما، فلذلك قال: «**أنا أولى به**»، وفسر ذلك بقوله: «**وليس بيني وبينه نبي**» وإنما ذكر في الحديث عندي: «**أمهاتهم شَتَّى ودينهم واحد**»، لشبههم بأولاد العَلاَّت لما ذكرنا»[٥].

وقوله: «**ليس بيني وبينه نبي**».

قال المناوي: «إنما دل بِهَذه الجملة الاستئنافية على الأولوية؛ لأن عدم الفصل

---

(١) أفاد معناه الحافظ في الفتح (٦/ ٥٤١).

(٢) البداية (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥).

(٤) الطيبي (١١/ ٣٦٢٠).

(٥) الإكمال (٧/ ٣٣٧).

بين الشريعتين، واتصال ما بين الدعوتين، وتقارب ما بين الزمانَين، صيرهما كالنسب الذي هو أقرب الأنساب»[١].

قال القرطبي: «يستفاد منه إبطال قول من قال: إنه كان بعد عيسى أنبياء ورسل، فقد قال بعض الناس: إن الحواريين كانوا أنبياء، وأنهم أُرسلوا إلى الناس بعد عيسى، وهو قول أكثر النصارى»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا واللَّه الذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت باللَّه، وكذَّبت عيني**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حَلِف ذلك الرجل، فظن أن أحدا لا يحلف بعظمة اللَّه كاذبا على ما شاهده منه عيانا، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنت باللَّه؛ أي: صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك»[٤].

قال ابن القيم: «وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز أن يكون قد أخذ من ماله فظنه المسيح سرقة، وهذا تكلف، وإنما كان اللَّه جل جلاله في قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له باللَّه عز وجل، وقال: ما ظننت أحدا يحلف باللَّه تعالى كاذبا»[٥].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد اللَّه ورسوله**»[٦].

---

(١) الفيض (٣/ ٤٧). (٢) المفهم (٦/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٤)، والبخاري (٦/ ٥٩١/ ٣٤٤٤)، ومسلم (٤/ ١٨٣٨/ ٢٣٦٨)، والنسائي (٨/ ٢٤٩)، وابن ماجه (١/ ٦٧٩/ ٢١٠٢).

(٤) البداية والنهاية (٢/ ٩٠).

(٥) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٣).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٣-٢٤)، والبخاري (٦/ ٥٩١/ ٣٤٤٥)، والترمذي في الشمائل (٢٨٤).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرحه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾(١).

* **عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى ثم آمن بي فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران»(٢).**

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائده مبسوطة في سورة القصص الآية (٥٤).

* **عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غُرْلًا. ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٣) فأول من يكسى إبراهيم. ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال، فأقول أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٤)»(٥).**

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرحه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ من سورة المائدة فليراجع.

* * *

---

(١) النساء: الآية (١٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢-٤٠٥)، والبخاري (١/ ٢٥٢/ ٩٧)، ومسلم (١/ ١٣٤-١٣٥/ ١٥٤)، والترمذي (٣/ ٤٢٤/ ١١١٦) وقال: «حديث أبي موسى حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٤٢٥/ ٣٣٤٤)، وفي الكبرى (٣/ ٣١٢/ ٥٥٠٢)، وابن ماجه (١/ ٦٢٩/ ١٩٥٦).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٤) المائدة: الآيتان (١١٧و١١٨).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٣ و٢٢٩ و٢٣٥ و٢٥٣)، والبخاري (٨/ ٥٥٩-٥٦٠/ ٤٧٤٠)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥/ ٢٨٦٠[٥٨])، والترمذي (٤/ ٥٣٢/ ٢٤٢٣)، والنسائي (٤/ ٤٢٣/ ٢٠٨٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: « ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والبَغِيُّ هي الزانية، ولهذا جاء في الحديث: «نهى عن مهر البَغِيّ». ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيُوجِد منك غلامًا وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر. ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوَّعَ في خلقهم فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبيًّا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1] أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته.. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها

(١) آل عمران: الآيتان (٤٥و٤٦).

كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[١] وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[٢]، قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، أي إن اللَّه قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضًا ابن جرير في تفسيره، ولم يحك غيره واللَّه أعلم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم مهر البغي

* عن أبي مسعود الأنصاري ﵁: «أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن»[٤].

★ غريب الحديث:

البغي: الأمة أو الحرة الفاجرة.

حلوان: الحلوان -بضم الحاء- الرشوة وهو ما يعطى الكاهن ويجعل له على كهانته.

★ فوائد الحديث:

ووجه إيراد هذا الحديث تحت هذه الآية هو بيان أن المراد بالبَغِيّ: الزانية الفاجرة تبغي الرجال.

قال الحافظ: «الحكم الثاني: مهر البَغِيّ، وهو ما تأخذه الزانية على الزنا، سماه مهرا مجازا، والبَغِي بفتح الموحدة وكسر المعجمة وتشديد التحتانية، وهو فعيل بمعنى فاعلة وجمع البَغِيّ بَغَايَا والبِغَاء بكسر أوله الزنا والفجور، وأصل البغاء أنه أكثر ما يستعمل في الفساد. واستدل به على أن الأمة إذا أكرهت على الزنا فلا مهر لها، وفي وجه للشافعية يجب للسيد»[٥].

---

(١) التحريم: الآية (١٢). (٢) الأنبياء: الآية (٩١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١١٩ و١٢٠)، والبخاري (٤/ ٥٣٦/ ٢٢٣٧)، ومسلم (٣/ ١١٩٨/ ١٥٦٧)، وأبو داود (٣/ ٧٥٣/ ٣٤٨١)، والترمذي (٣/ ٥٧٥/ ١٢٧٦)، والنسائي (٧/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٤٦٨٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٣٠/ ٢١٥٩).

(٥) الفتح (٤/ ٤٢٧).

قال الصنعاني: «وللفقهاء تفاصيل في حكمه (أي مهر البغي) تعود إلى كيفية أخذه، والذي اختاره ابن القيم أنه في جميع كيفياته يجب التصدق به، ولا يرد إلى الدافع؛ لأنه دفعه باختياره في مقابل عوض لا يمكن صاحب العوض استرجاعه، فهو كسب خبيث يجب التصدق به، ولا يعان صاحب المعصية بحصول غرضه ورجوع ماله»[١].

* * *

(١) سبل السلام (٥/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قصيًا: أي بعيدًا. والقاصي خلاف الداني.

فأجاءها: أي جَاءَهَا. قال زهير:

وجارٍ سار معتمدًا علينا　　　أجاءته المخاوف والرجاء

المخاض: اشتداد وجع الولادة والطلق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن اللَّه تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء اللَّه تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل ﷺ عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن اللَّه تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعًا ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن مريم حملت عيسى. فقوله ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي عيسى ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾: أي انتحت به وبَعُدت معتزلة عن قومها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي في مكان بعيد.. ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي ألجأها الطلق إلى جذع النخلة، أي جذع نخلة في ذلك المكان.. والمخاض: الطلق، وهو وجع الولادة، وسمي مخاضًا من المخض، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج.

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٨).

وقوله: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنت أن تكون قد ماتت قبل ذلك ولم تكن شيئًا يذكر. فإذا عَرَفْت معنى هاتين الآيتين فاعلم أنه هنا لم يبين كيفية حملها به، ولم يبين هل هذا الذي تنحت عنهم من أجله، وتمنت من أجله أن تكون ماتت قبل ذلك، وكانت نسيًا منسيًّا: وهو خوفها أن يتهموها بالزنى، وأنها جاءت بذلك الغلام من زنى وقعت فيه أو سلمت منه. ولكنه تعالى بيَّن كل ذلك في غير هذا الموضع، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[1] وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[2]»[3].

وقال: «وقد بين تعالى في مواضع أخر، أن ذلك الذي خافت منه وهو قذفهم لها بالفاحشة قد وقعت فيه، ولكن اللّه برأها، وذلك كقوله عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ يعنون الفاحشة، وقوله عنهم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ يعنون فكيف فجرت أنت وجئت بهذا الولد؟ وكقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[4]»[5].

وقال: «وقوله في هذه الآية الكريمة عنها: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ النسي والنِّسي -بالكسر وبالفتح-: هو ما من حقه أن يطرح وينسى لحقارته، كخرق الحيض، وكالوتد والعصا، ونحو ذلك. ومن كلام العرب إذا ارتحلوا عن الدار قولهم: انظروا أنساءكم؟ جمع نسي، أي الأشياء الحقيرة التي من شأنها أن تترك وتنسى كالعصا والوتد ونحو ذلك. فقولها: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي شيئًا تافهًا حقيرًا من حقه أن يترك وينسى عادة. وقولها ﴿مَّنسِيًّا﴾ تعني أن ذلك الشيء التافه الذي من عادته أن يترك وينسى قد نسي وطرح بالفعل، فوجد فيه النسيان الذي هو حقه. وأقوال المفسرين في الآية راجعة إلى ما ذكرنا»[6].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى إخبارا عنها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى

(١) التحريم: الآية (١٢).
(٢) الأنبياء: الآية (٩١).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٦٠-٢٦١).
(٤) النساء: الآية (١٥٦).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٢٦١).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٢٦٢).

وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي لم أُخْلَق ولم أك شيئا»[1].

وقد مضت هذه المسألة مستوفاة في سورة يوسف عند قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الخلق والأمر كله بيد الله

* عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللّه وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اللّه ملكا يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة**»[3].

★ غريب الحديث:

يجمع: المراد بالجمع ضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار.

علقة: قطعة دم جامد غليظ، سمي بذلك للرطوبة التي فيه وتعلقه بما مرّ به.

مضغة: قطعة اللحم، سميت بذلك لأنها قَدْر ما يمضغ الماضغ.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام؛ فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٠). (٢) يوسف: الآية (١٠١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢ و ٤٣٠)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جريج أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد اللَّه الثقفي سمع ابن عباس وسئل عن حبل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت، وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾[1] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها، وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يومًا، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[2] فالمشهور الظاهر واللَّه على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن»[3].

قال الطيبي: «قال المظهر: اعلم أن اللَّه تعالى يحوّل الإنسان في بطن أمه حالة بعد حالة، مع أنه قادر على أن يخلقه في لمحة البصر؛ وذلك أن في التحويل فوائد وعبرًا، منها: أنه لو خلقه دفعة لشق على الأم؛ لأنها لم تكن معتادة لذلك، وربما يظن علة، فجعلت أولًا نطفة لتعتاد بها مدة، ثم علقة مدة، وهلمّ جرًّا إلى الولادة. ومنها: إظهار قدرة اللَّه تعالى ونعمته ليعبدوه ويشكروا له، حيث قلبهم من تلك الأطوار، إلى كونهم إنسانًا حسن الصورة، متحليًا بالعقل والشهامة، متزينًا بالفهم والفطانة. ومنها: إرشاد الناس وتنبيههم على كمال قدرته على الحشر والنشر؛ لأن من قدر على خلق الإنسان من ماء مهين، ثم من علقة، ومضغة مهيأة لنفخ الروح فيه؛ يقدر على تصييره ترابًا، ونفخ الروح فيه، وحشره في المحشر للحساب والجزاء»[4].

قال ابن رجب: «فهذا الحديث يدل على أنه يتقلب في مائة وعشرين يومًا، في ثلاثة أطوار، في كل أربعين منها يكون في طور، فيكون في الأربعين الأولى نطفة، ثم في الأربعين الثانية علقة، ثم في الأربعين الثالثة مضغة، ثم بعد المائة وعشرين يوما ينفخ الملك فيه الروح، ويكتب له هذه الأربع كلمات.

---

(١) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).
(٢) الحج: الآية (٦٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٢١٦-٢١٧).
(٤) شرح المشكاة (٢/ ٥٣٤).

وقد ذكر اللَّه في القرآن في مواضع كثيرة تقلب الجنين في هذه الأطوار، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1]. وذكر هذه الأطوار الثلاثة: النطفة والعلقة والمضغة في مواضع متعددة من القرآن، وفي موضع آخر ذكر زيادة عليها، فقال في سورة المؤمنين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2].

فهذه سبع تارات ذكرها اللَّه في هذه الآية لخلق ابن آدم قبل نفخ الروح فيه»[3].

* * *

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٥-١٥٦).

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سريًّا: السري: النهر؛ لأن الماء يسري فيه بجريانه. قال لبيد:

فتوسطا عُرْضَ السَّرِيِّ فَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلاَّمُهَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الحجاز والعراق ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ بمعنى: فناداها جبرائيل من بين يديها على اختلاف منهم في تأويله؛ فمن متأوّل منهم إذا قرأه ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ كذلك؛ ومن متأوّل منهم أنه عيسى، وأنه ناداها من تحتها بعد ما ولدته. وقرأ ذلك بعض قرّاء أهل الكوفة والبصرة: «فناداها مَنْ تَحْتَهَا» وبفتح التاءين من تحت، بمعنى: فناداها الذي تحتها، على أن الذي تحتها عيسى، وأنه الذي نادى أمه.. وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال: الذي ناداها ابنها عيسى، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فردُّه على الذي هو أقرب إليه أولى من ردِّه على الذي هو أبعد منه. ألا ترى في سياق قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يعني به: فحملت عيسى فانتبذت به، ثم قيل: فناداها نسقا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه. ولعلة أخرى، وهي ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ولم تشر إليه إن شاء اللَّه إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وما أخبر اللَّه عنه أنه قال لها أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولا من جبرائيل، لكان خليقًا أن يكون في ظاهر الخبر، مبينًا أن عيسى سينطق، ويحتجّ عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله.

فإذا كان ذلك هو الصواب من التأويل الذي بينا، تبين أن كلتا القراءتين؛ أعني ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بالكسر، و«مَنْ تَحْتَهَا» بالفتح صواب. وذلك أنه إذا قرئ بالكسر كان

في قوله ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ ذكر من عيسى، وإذا قرئ مَنْ تَحْتَها بالفتح كان الفعل لـ(مَن) وهو عيسى. فتأويل الكلام إذن: فناداها المولود من تحتها أن لا تحزني يا أمّه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾»[1].

قال القرطبي: «وكان ذلك معجزة وآية وتسكينا لقلبها»[2].

قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في المعنيّ بالسريّ في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى به: النهر الصغير.. وقال آخرون: عنى به عيسى.. وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عنى به الجدول، وذلك أنه أعلمها ما قد أتاها اللّه من الماء الذي جعله عندها، وقال لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى﴾ من هذا الرطب ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من هذا الماء ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ بولدك، والسريّ معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير»[3].

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ٦٧-٦٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٤).

(٣) جامع البيان (١٦/ ٦٧-٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جنيّا: أي مَجْنيًّا من جَنَيْتُ الثَّمَرَ وأَجْنَيْتُها إذا قطعتها. قال الشاعر:

هــذا جَــنَــايَ وخــيــارُهُ فــيــهْ إذْ كُــلُّ جَــانٍ يَــدُهُ إلــى فِــيــهْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يصرح -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة ببيان الشيء الذي أمرها أن تأكل منه، والشيء الذي أمرها أن تشرب منه. ولكنه أشار إلى أن الذي أمرها أن تأكل منه هو الرطب الجني المذكور. والذي أمرها أن تشرب منه هو النهر المذكور المعبر عنه بالسري كما تقدم، هذا هو الظاهر.

وقال بعض العلماء: إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جذعًا يابسًا؛ فلما هزته جعله اللَّه نخلة ذات رطب جني. وقال بعض العلماء: كان الجذع جذع نخلة ثابتة إلا أنها غير مثمرة، فلما هزته أنبت اللَّه فيه الثمر وجعله رطبًا جنيًا. وقال بعض العلماء: كانت النخلة مثمرة، وقد أمرها اللَّه بهزها ليتساقط لها الرطب الذي كان موجودًا. والذي يفهم من سياق القرآن: أن اللَّه أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة. ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا إن الجذع كان يابسًا أو نخلة غير مثمرة، إلا أن اللَّه أنبت فيه الثمر وجعله رطبًا جنيًّا.

ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به. فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر، وإنبات الرطب، وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة، وبذلك يكون قرَّةَ عينٍ لها؛ لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسيًا منسيًّا، لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر.

وخَرْقُ اللَّه لها العادةَ بتفجير الماء، وإنباتِ الرطب، وكلامِ المولود لا غرابة فيه، وقد نص اللَّه -جل وعلا- في آل عمران على خرقه لها العادة في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

قال العلماء: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وإجراء النهر وإنبات الرطب ليس أغرب من هذا المذكور في سورة آل عمران»[٢].

قال القرطبي: «استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما، فإن اللَّه تعالى قد وَكَّل ابنَ آدم إلى سعيٍ ما فيه؛ لأنه أمر مريم بِهَزِّ النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تَهُز»[٣].

قال الشنقيطي: «أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ الآية أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا، وأنه لا ينافي التوكل على اللَّه -جل وعلا-. وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا لا ينافي التوكل على اللَّه بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء اللَّه وقوعه. فهو متوكل على اللَّه، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب اللَّه له من خير أو شر. ولو شاء اللَّه تَخَلُّفَ تأثير الأسباب عن مسبباتِها لتَخَلّف.

ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤] الآية. فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزَّأ إلى معان مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادًا من حرها في الوقت الذي كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم. فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب،

---

(١) آل عمران: الآية (٣٧).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٦٩-٢٧٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٥).
(٤) الأنبياء: الآية (٦٩).

وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته -جل وعلا-.

ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سببًا لشيء آخر مع أنه مناف له؛ كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سببًا لحياته، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته. إذ لا تكسب الحياة من ضربٍ بِميت؟ وذلك يوضحه أنه -جل وعلا- يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، ولا يقع تأثيرٌ البتة إلا بمشيئته -جل وعلا-.

ومما يوضح أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله: قوله تعالى عن يعقوب: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[1]، أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في ذلك بالأمر به؛ لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين؛ لأنهم أحد عشر رجلًا أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام. فدخولهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين، فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيًا للسبب في السلامة من إصابة العين؛ كما قال غير واحد من علماء السلف. ومع هذا التسبب فقد قال اللّه عنه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2]. فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ وبين التوكل على اللّه في قوله: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وهذا أمر معلوم لا يخفى إلا على من طمس اللّه بصيرته. واللّه -جل وعلا- قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هز الجذع، ولكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجذع. وقد قال بعضهم في ذلك:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمٍ ... وَهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ ... جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ»[3].

وقال أيضًا: «وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية: أن خير ما تطعمه النفساء الرطب، قالوا: لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه اللّه مريم وقت نفاسها بعيسى»[4].

---

(١) يوسف: الآية (٦٧).
(٢) يوسف: الآية (٦٧).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٧١-٢٧٢).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٢٧٢).

قال القرطبي: «قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم اللّه شيئًا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم، ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فائدة أكل التمر

* عن عائشة ﵂ قالت: «توفي رسول اللّه ﷺ وقد شبعنا من الأسودين: التمر والماء»[٢].

* عن جابر بن عبد اللّه ﵁ قال: كان بالمدينة يهودي، وكان يسلفني في تمري إلى الجذاذ، وكانت لجابر الأرض التي بطريق رومة، فجلست، فخَلاَ عامًا، فجاءني اليهودي عند الجَذَاذ ولم أجد منها شيئًا، فجعلت أستنظره إلى قابل، فيأبى، فأُخبر بذلك النبي ﷺ، فقال لأصحابه: «**امشوا نستنظر لجابر من اليهودي**». فجاؤوني في نخلي، فجعل النبي ﷺ يكلم اليهودي، فيقول: أبا القاسم لا أُنظِره. فلما رأى النبي ﷺ قام فطاف في النخل، ثم جاءه فكلَّمه، فأبى، فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدي النبي ﷺ، فأكل، ثم قال: **أين عريشك يا جابر؟** فأخبرته، فقال: **أفرش لي فيه**، ففرشته، فدخل فرقد، ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها؛ ثم قام فكلم اليهودي فأَبَى عليه، فقام في الرطاب في النخل الثانية، ثم قال: **يا جابر، جُذَّ واقض**. فوقف في الجذاذ، فجذذت منها ما قضيته وفَضُل منه. فخرجت حتى جئت النبي ﷺ فبشرته، فقال: «**أشهد أني رسول الله**»[٣].

★ **غريب الحديثين:**

الأسودان: هما التمر والماء، أما التمر فأسود، وهو الغالب على تمر المدينة، فأضيف الماء إليه ونعت بنعته إتباعا. والعرب تفعل ذلك في الشيئين يصطحبان فيسمَّيَان معا باسم الأشهر منهما، كالقمرين والعُمَرَين[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٢٨)، والبخاري (٩/ ٥٦٦/ ٥٤٤٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٣/ ٢٩٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٣)، والبخاري (٩/ ٥٦٦/ ٥٤٤٣)، وأبو داود (٣/ ٣٠٣/ ٢٨٨٤)، والنسائي (٦/ ٥٥٥/ ٣٦٣٨) وابن ماجه (٢/ ٨١٣-٨١٤/ ٢٤٣٤).

(٤) النهاية (٢/ ٤١٩).

جذاذ: جذ النخل ؛ أي: صَرَمَه، وبابه رَدَّ، وأجذ النخل حان له أن يجذ، وهذا زمن الجذاذ بفتح الجيم وكسرها.

استنظره: الإنظار التأخير والإمهال، يقال: أنظَرْتَه واستنْظَرته إذا طلبت منه أن يُنْظِرك[1].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «الرطب والتمر من طيب ما خلق اللَّه وأباحه لعباده، فهو جُلُّ طعام أهل الحجاز وعمدةُ أقواتهم، وقد دعا إبراهيم ﷺ لتمر مكة بالبركة، ودعا النبي ﷺ لتمر المدينة بمثل ما دعا به إبراهيم لمكة ومثلِه معه، فلا تزال البركة في تمرهم وثمارهم إلى قيام الساعة»[2].

قال ابن القيم مبرزا منافع التمر: «والتمر حارّ في الثانية يابس في الأولى، وقيل رطب فيها، وقيل معتدل وهو غذاء فاضل حافظ للصحة لا سيما لمن اعتاد الغذاء به كأهل المدينة وغيرهم، وهو من أفضل الأغذية في البلاد الباردة والحارة التي حرارتها في الدرجة الثانية، وهو لهم أنفع منه لأهل البلاد الباردة لبرودة بواطن سكانها وحرارة بواطن سكان البلاد الباردة، ولذلك يكثر أهل الحجاز واليمن والطائف وما يليهم من البلاد المشابهة لها من الأغذية الحارة ما لا يتأتى لغيرهم كالتمر والعسل، وشاهدناهم يضعون في أطعمتهم من الفلفل والزنجبيل فوق ما يضعه غيرهم نحو عشرة أضعاف أو أكثر، ويأكلون الزنجبيل كما يأكل غيرهم الحلوى، ولقد شاهدت من ينتقل به منهم كما ينتقل بالنقل.. ويوافقهم ذلك ولا يضرهم لبرودة أجوافهم وخروج الحرارة إلى ظاهر الجسد، كما تشاهد مياه الآبار تبرد في الصيف وتسخن في الشتاء، وكذلك تنضج المعدة من الأغذية الغليظة في الشتاء ما لا تنضجه في الصيف، وأما أهل المدينة فالتمر لهم يكاد أن يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم، وهو قوتهم ومادتهم. وتمر العالية من أجود أصناف

---

(١) النهاية (٥/ ٧٨).

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٤٩٩).

تمرهم، فإنه متين الجسم لذيذ الطعم صادق الحلاوة، والتمر يدخل في الأغذية والأدوية والفاكهة وهو يوافق أكثر الأبدان، مُقَوّ للحار الغريزي، ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة، بل يمنع لمن اعتاده من تعفن الأخلاط وفسادها»[1].

* * *

(١) زاد المعاد (٤/ ٩٧).

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قَرِّي عَيْنًا: أي: اِهْنَئي واطْمَئِنِّي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك، واشربي من ماء السريّ الذي جعله ربك تحتك، لا تخشي جوعًا ولا عطشًا ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ يقول: وطيبي نفسًا وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني. ونُصبت العين لأنها هي الموصوفة بالقرار»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: فكلي من الجني، واشربي من السَّرِيّ، وقرِّي عينًا برؤية الولد النبي»[2].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يقول: فإن رأيت من بني آدم أحدا يكلمك أو يسائلك عن شيء من أمركِ وأمرِ ولَدِك وسبب ولادَتِكِه ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ يقول: فقولي: إني أوجبت على نفسي لله صمتًا ألا أُكَلِّم أحدًا من بني آدم اليوم»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتا، وكذا قال ابن عباس

(١) جامع البيان (١٦/ ٧٣-٧٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٦).

(٣) جامع البيان (١٦/ ٧٤).

والضحاك، وفي رواية عن أنس: صومًا وصمتًا، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نَصّ على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد»[١].

قال ابن جرير: «واختلفوا في السبب الذي من أجله أمرها بالصوم عن كلام البشر، فقال بعضهم: أمرها بذلك لأنه لم يكن لها حجة عند الناس ظاهرة، وذلك أنها جاءت وهي أيِّم بولد فأمرت بالكفّ عن الكلام ليكفِيَهَا الكلامَ ولدُهَا.. وقال آخرون: إنما كان ذلك آية لمريم وابنها.. وقال آخرون: بل كانت صائمة في ذلك اليوم، والصائم في ذلك الزمان كان يصوم عن الطعام والشراب وكلام الناس، فأذن لمريم في قدر هذا الكلام ذلك اليوم وهي صائمة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصوم عن الكلام منهي عنه في شرعنا

* عن عكرمة عن ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نَذَرَ أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: «**مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّم ولْيَستَظِل ولْيَقْعُد ولْيُتِمَّ صومَه**»[٣].

* عن قيس بن أبي حازم قال: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب، فرآها لا تَكَلَّم فقال ما لها لا تَكَلَّم؟ قالوا حجت مصمتة، قال لها: تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية. فتكلمت فقالت: من أنت؟ قال امرؤ من المهاجرين. قالت أي المهاجرين؟ قال: من قريش. قالت: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لَسَؤُول، أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء اللَّه به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال: فهم أولئك على الناس»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٥-٢٢٦). (٢) جامع البيان (١٦/ ٧٥-٧٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٨) والبخاري (١١/ ٧١٨/ ٦٧٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٦-١٨٧/ ٣٨٧٣).

* عن عبد اللَّه بن أبي أحمد قال: قال علي بن أبي طالب حفظت عن رسول اللَّه ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام، ولا صُمَات يوم إلى الليل**»[1].

⋆ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال: إنه قربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس ونحوه، وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا»[2].

وفي حديث أبي إسرائيل من الفوائد: «أن السكوت عن المباح ليس من طاعة اللَّه.. وفيه أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلا مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة كالمشي حافيا والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة اللَّه فلا ينعقد به النذر، فإنه ﷺ أمر أبا إسرائيل بإتمام الصوم دون غيره وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه، وأَمَرَه أن يقعد ويتكلم ويستظل، قال القرطبي: في قصة أبي إسرائيل هذه أوضح الحجج للجمهور في عدم وجوب الكفارة على من نذر معصية، أو ما لا طاعة فيه، فقد قال مالك لَمَّا ذكره: ولم أسمع أن رسول اللَّه ﷺ أمره بالكفارة»[3].

قول أبي بكر رضي الله عنه: «**تكلمي فإن هذا لا يحل**» **قال الحافظ**: «يعني ترك الكلام، ووقع عند الإسماعيلي من وجه آخر عن أبي بكر الصديق أن المرأة قالت له: كان بيننا وبين قومك في الجاهلية شر فحلفت إِنِ اللَّه عافانا من ذلك أن لا أكلم أحدا حتى أحج، فقال: إن الإسلام يهدم ذلك فتكلمي، وللفاكهي من طريق زيد بن وهب عن أبي بكر نحوه. وقد استدل بقول أبي بكر هذا من قال بأن من حلف أن لا يتكلم استُحِبَّ له أن يتكلم ولا كفارة عليه؛ لأن أبا بكر لم يأمرها بالكفارة، وقياسه أن من نذر أن لا يتكلم لم ينعقد نذره؛ لأن أبا بكر أطلق أن ذلك لا يحل، وأنه مِن فعل الجاهلية، وأن الإسلام هدم ذلك، ولا يقول أبو بكر مثل هذا إلا عن توقيف، فيكون في حكم المرفوع.. وفي التتمة لأبي سعيد المتولي: من قال: شرع من قبلنا شرع لنا جعل ذلك قربة، وقال ابن الرفعة في قول الشيخ أبي إسحاق في التنبيه:

---

(١) أخرجه أبوداود (٣/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٢٨٧٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٨).
(٣) فتح الباري (١١/ ٧٢٣).

ويكره له صمت يوم إلى الليل، قال في شرحه إذ لم يؤثر ذلك بل جاء في حديث ابن عباس النهي عنه، ثم قال: نعم قد ورد في شرع من قبلنا، فان قلنا إنه شرع لنا لم يكره، إلا أنه لا يستحب، قاله ابن يونس. . قال: وحيث قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا فذاك إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه. انتهى. وهو كما قال وقد ورد النهي. .

وقد قال الروياني في البحر في آخر الصيام: فرع، جرت عادة الناس بترك الكلام في رمضان، وليس له أصل في شرعنا بل في شرع من قبلنا، فيخرج جواز ذلك على الخلاف في المسألة. انتهى. وليتعجب ممن نسب تخريج مسألة النذر إلى نفسه من المتأخرين، وأما الأحاديث الواردة في الصمت وفضله كحديث: «**من صمت نجا**»[(١)] أخرجه الترمذي من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وحديث: «**أيسر العبادة الصمت**»[(٢)] أخرجه بن أبي الدنيا بسند مرسل رجاله ثقات إلى غير ذلك فلا يعارض ما جزم به الشيخ أبو إسحاق من الكراهة لاختلاف المقاصد في ذلك، فالصمت المرغَّب فيه ترك الكلام الباطل، وكذا المباح إن جرَّ إلى شيء من ذلك، والصمت المنهي عنه ترك الكلام في الحق لمن يستطيعه، وكذا المباح المستوي الطرفين واللَّه أعلم»[(٣)].

قال القرطبي: «ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»»[(٤)].

قال الخطابي: «قوله: «**ولا صمات يومٍ إلى الليل**»، وكان أهل الجاهلية من نسكهم الصمات، وكان الواحد منهم يعتكف اليوم والليلة فيصمت ولا ينطق، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالذكر والنطق بالخير»[(٥)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٨) والترمذي (٤/ ٥٦٩/ ٢٥٠١) وقال: «حديث غريب»، والحديث ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (٥٣٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت وآداب اللسان» (رقم٢٧) عن صفوان بن سليم مرسلًا.

(٣) فتح الباري (٧/ ١٩٠-١٩١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٨).

(٥) معالم السنن (٤/ ٨١).

قلت: فضيلة الإسلام تتجلى في كثير من المظاهر، فمنها هذا المظهر الذي ذكر في الأحاديث عن الرسول ﷺ وعن أبي بكر رضي الله عنه، فإن الإنسان لا يجوز له أن يعرض نفسه لأمور لا فائدة من ورائها، فالصمت ممدوح عند العقلاء ولكن ليس على كل حال فكما قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[1]، فجارحة اللسان خلقت للعبادة؛ فهي للذكر وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والموعظة الحسنة، والإرشاد بما يحتاج إليه الإنسان في أمر دنياه، فهي جارحة نافعة، لكن تبقى دائمًا مقيدة في حدود نفعها، فيحرم عليها الكذب والزور، والنطق بالبدعة، والفحش، وكل ما فيه ذنب أو معصية وأذًى للغير. وأما اتخاذ الصمت عبادة كما يفعله جهلة المتصوفة وغيرهم؛ فهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٥)، ومسلم (١/ ٦٨/ ٧٤)، وأبو داود (٥/ ٣٥٨/ ٥١٥٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٩/ ٢٥٠٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧١).

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

فَرِيًّا: أي: عظيمًا. وقيل: مصنوعًا مختلقًا. وأَصْلُ الفَرْيِ: قَطْعُ الجِلْدِ لِلْخَرْزِ. قال زهير:

وَلأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ... ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ، ثم لا يَفْرِي

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحدًا من البشر، فإنَّها ستُكفَى أمرَها ويُقَام بحجتها، فسَلَّمَت لأمر اللَّه ﷻ، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جدًّا، وقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: أمرًا عظيمًا. قاله مجاهد، وقتادة والسدي، وغير واحد»[١].

وقال: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أي: شبيهة هارون في العبادة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة»[٢].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، ومن كان هارون هذا الذي ذكره اللَّه، وأخبر أنهم نسبوا مريم إلى أنها أخته، فقال بعضهم: قيل لها ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ نسبة منهم لها إلى الصلاح؛ لأن أهل الصلاح فيهم كانوا يُسَمون هارون، وليس بهارون أخي موسى..

وقال بعضهم: عنى به هارون أخو موسى، ونُسبت مريم إلى أنها أخته لأنها من ولده، يقال للتميميّ: يا أخا تميم، وللمُضَرِيّ: يا أخا مُضَر..

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٣). (٢) التفسير (٥/ ٢٢١).

وقال آخرون: بل كان ذلك رجلا منهم فاسقا معلن الفسق، فنسبوها إليه.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك.. أنها نسبت إلى رجل من قومها»[١].

وقال: «وقوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ يقول: ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ يقول: وما كانت أمك زانية»[٢].

قال القرطبي: «ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟! وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التسمية بالأنبياء والعلماء وبالصالحين

* عن المغيرة بن شعبة قال: لما قَدِمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول اللَّه ﷺ سألته عن ذلك فقال: «**إنهم كانوا يُسَمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «قوله «**أخت هارون**»: ليس هو هارون النبيّ أخا موسى عليهما السلام، بل المراد بِهارون هذا رجل آخر مسمى بِهارون؛ لأنهم كانوا يسمون أولادهم بأسماء الأنبياء والصالحين قبلهم»[٥].

وقال القرطبي: «وحديث المغيرة يدل على أن مريم -صلوات اللَّه عليها- إنما سميت أخت هارون، بأخ لها كان اسمه ذلك، ويبطل قول من قال من المفسرين: إنها إنما قيل لها ذلك لأنها شبهت بِهارون أخي موسى في عبادته ونسكه. وفيه ما يدل على جواز التسمية بأسماء الأنبياء، واللَّه تعالى أعلم»[٦].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٧٨).
(٢) جامع البيان (١٦/ ٧٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٠١).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٢)، ومسلم (٣/ ١٦٨٥/ ٢١٣٥)، والترمذي (٥/ ٢٩٥/ ٣١٥٥) وقال: «هذا حديث صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣/ ١١٣١٥).
(٥) تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٧).
(٦) المفهم (٥/ ٤٦٠-٤٦١).

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قالت كلموه، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيا، وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَّتها بنا حتى تَأْمُرَنا أن نكلِّم هذا الصبيَّ أَشَدُّ علينا من زِنَاها، ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم؟»[1].

قال الرازي: «قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: حصل في المهد. فكان ههنا بمعنى حصل ووجد. وهذا هو الأقرب في تأويل هذا اللفظ، وإن كان الناس قد ذكروا وجوهًا أخر»[2].

وقال: «اختلفوا في المهد؛ فقيل: هو حجرها؛ لما روي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها، فلما رأوها قالوا لها ما قالوا، فأشارت إليه وهو في حجرها، ولم يكن لها منزل مُعَدّ حتى يُعَدَّ لها المهد. أو المعنى: كيف نكلم صبيًّا سبيله أن ينام في المهد»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٠٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٠٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإشارة تقوم مقام الكلام في الحكم

* عن أنس بن مالك يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه. قال: بنو النجار، ثم الذين يلونهم بنو عبد الأشهل، ثم الذين يلونهم بنو الحارث بن الخزرج، ثم الذين يلونهم بنو ساعدة. ثم قال بيده فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: وفي كل دور الأنصار خير**»[1].

* عن سهل بن سعد الساعدي صاحب رسول اللَّه ﷺ يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى**»»[2].

* عن ابن عمر يقول: قال النبي ﷺ: «**الشهر هكذا وهكذا وهكذا**، يعني ثلاثين، ثم قال: **وهكذا وهكذا وهكذا**، يعني تسعًا وعشرين يقول مرة ثلاثين، ومرة تسعًا وعشرين»[3].

* عن أبي مسعود قال: وأشار النبي ﷺ بيده نحو اليَمَن: «**الإيمان ههنا مرتين، ألا وإن القسوةَ وغِلَظَ القلوب في الفَدَّادِين حيث يطلع قرنا الشيطان ربيعةُ ومُضَر**»[4].

* عن سهل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**، وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئًا»[5].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥٦)، والبخاري (٩/ ٤٣٩/ ٥٣٠٠)، ومسلم (٤/ ١٩٤٩/ ٢٥١١)، والترمذي (٥/ ٧١٦/ ٣٩١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٠و٣٣٥و٣٣٨)، والبخاري (٩/ ٥٤٨/ ٥٣٠١)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣). والبخاري (٤/ ١٥٩/ ١٩١٣). ومسلم (٢/ ٧٦١/ ١٠٨٠[١٥]). وأبو داود (٢/ ٧٣٩-٧٤٠/ ٢٣١٩). والنسائي (٤/ ٤٤٦/ ٢١٣٩) من طريق سعيد بن عمرو عن ابن عمر ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١١٨)، والبخاري (٩/ ٤٣٩/ ٥٣٠٣)، ومسلم (١/ ٧١/ ٥١).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٣) والبخاري (٩/ ٥٤٩/ ٥٣٠٤) وأبو داود (٥/ ٣٥٦/ ٥١٥٠) والترمذي (٤/ ٢٨٣/ ١٩١٨).

★ غريب الأحاديث:

الفدّادين: الفدّادون مشدد الدال جمع فدَّاد؛ قال أبو عبيد: هم المكثرون من الإبل، وهم جُفاةٌ أهل خُيَلاء، واحدهم: فدّاد، وهو الذي يملك من المائتين إلى الألف.

وقال أبو العباس: هم الجمَّالُون والبَقَّارُون والحمَّارُون والرّعيان. وقال الأصمعي: هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم وأموالهم ومواشيهم.

★ فوائد الأحاديث:

احتج البخاري بهذه الأحاديث على صحة مذهب أهل الحجاز ومن قال بقولهم في أن الأخرس إذا قذف امرأته بكتابة أو إشارة أو بإيماء معروف فهو كالمتكلم.

قال البخاري: «فإذا قذف الأخرس امرأته بكتابة أو إشارة أو إيماء معروف فهو كالمتكلم؛ لأن النبي ﷺ قد أجاز الإشارة في الفرائض، وهو قول بعض أهل الحجاز وأهل العلم، وقال اللَّه تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، وقال الضحاك: إلا رمزًا: إشارة، وقال بعض الناس: لا حَدَّ ولا لِعان، ثم زعم أن الطلاق بكتاب أو إشارة أو إيماء جائز، وليس بين الطلاق والقذف فرق، فإن قال: القذف لا يكون إلا بكلام قيل له: كذلك الطلاق لا يجوز إلا بكلام، وإلا بطل الطلاق والقذف، وكذلك الأصمُّ يلاعن. وقال الشعبى وقتادة: إذا قال: أنت طالق، فأشار بأصابعه؛ تَبِينُ منه بإشارته. وقال إبراهيم: الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه. وقال حماد: الأخرس والأصم إن قال برأسه جاز». ثم ذكر الأحاديث[1].

قال العيني: «أراد البخاري بهذا الكلام كله بيان الاختلاف بين أهل الحجاز وبين الكوفيين في حكم الأخرس في اللعان والحد، فلذلك قال: فإذا قذف الأخرس إلى آخره، بالفاء عَقِيب ذكر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾[2] وأخذ بعموم قوله: يرمون؛ لأن الرامي أعم من أن يكون باللفظ أو بالإشارة المفهمة،

---

(١) الفتح (٩/ ٥٤٨).

(٢) النور: الآية (٦).

وبني على هذا كلامه»(١).

قال ابن بطال: «اختلف العلماء في لعان الأخرس وقذفه. فقال مالك وأبو ثور: يلاعن الأخرس إذا عقل الإشارة وفهم الكتابة وعُلم ما يقوله وفهم منه، وكذلك الخرساء تلاعن أيضًا بالكتاب. وقال الكوفيون: لا يصح قذفه ولا لعانه؛ فإذا قذف الأخرس امرأته بإشارة لم يحد ولم يلاعن، وكذلك لو قذف بكتاب. وروي مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحاق. واحتجوا بأن هذه المسألة مبنية لهم على أصل وهو أن صحة القذف تتعلق بصريح الزنا دون معناه. ألا ترى أن من قذف آخر فقال له: قد وطئت وطئًا حرامًا ووطئت بلا شبهة. لم يكن قاذفا، فإن أتى بمعنى الزنا كان قاذفا، فبان أن المعتبر في هذا الباب صريح اللفظ، وهذا المعنى لا يحصل من الأخرس ضرورة. فلم يكن قاذفًا ولا يتميز بالإشارة الزنا من الوطء الحلال والشبهة. وأيضًا فإن إشارته لما تضمنت وجهين لم يجز إيجاب الحد بها كالكتابة والتعريض، قالوا: واللعان عندنا شهادة، وشهادة الأخرس عندنا لا تقبل بالإجماع.

قال ابن القصار: فيقال لهم: قولكم: إن القذف لا يصح إلا بالتصريح. فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية، فإنها كلها قائمة مقام العربية، ويصح بكل واحد منها القذف، فكذلك إشارة الأخرس. وقولهم: إنه لا يتميز بالإشارة الزنا من الوطء الحلال والشبهة. فإنه باطل؛ إذا أقر بقتل عمد فإنه مقبول منه بالإشارة، وصورته غير صورة قتل الخطأ. وما حكوه من الإجماع في شهادة الأخرس فهو غلط. و قد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة لا تقع منه إلا باللفظ، وعلى أنهم يصححون لعان الأعمى ولا يجيزون شهادته فقد فرّقوا بين الشهادة واللعان. واحتج ابن القصار بأن إشارة الأخرس إذا فهمت قامت مقام النطق بما احتج به البخاري من قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ يعني: مريم، فعرفوا بإشارتها ما يعرفونه من نطقها، وبقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾(٢) أي: إيماء وإشارة، فلولا أنه يفهم منها ما يفهم من النطق لم يقل تعالى: ألا تكلمهم إلا رمزا، فجعل الرمز

---

(١) عمدة القاري (١٤/ ٣١٥).

(٢) آل عمران: الآية (٤١).

كلاما، وأيضًا فإن النبي ﷺ كبر للصلاة، وذكر أنه لم يغتسل فأشار إليهم أن اثبتوا مكانكم، وكذلك أشار إلى أبي بكر في الصلاة، والأحاديث في هذا أكثر من أن تحصى، فصح أنه يعقل من الإشارة ما يعقل من النطق. قال المهلب: وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام مثل قوله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**». ومتى كان يبلغ البيان إلى ما بلغت إليه الإشارة، والإعراب بما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة. وفي إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام.

قال ابن المنذر: والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك. واتفق مالك والكوفيون والشافعي أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه. وقال الكوفيون: إذا كان رجل أصمت أيامًا فكَتَب لم يجز من ذلك شيء»[1].

* * *

(١) شرح البخاري (٧/ ٤٥٨-٤٦٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع:

الصفة الأولى: قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية؛ فإن كان صادقًا في مقاله فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية، بل قوة شيطانية، فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن اللَّه تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن اللَّه تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن اللَّه سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن اللَّه تعالى فكان

الاشتغال بذلك أولى»[١].

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

قال القرطبي: «أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل وإن لم يكن الكتاب منزلا في الحال وهذا أصح»[٢].

قال الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ التحقيق فيه إن شاء الله: أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلًا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع. ونظائره في القرآن كثيرة. كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾[٤] إلى قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾[٦].

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل. تنزيلًا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن. وهذا الذي ذكرنا من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الخ بمعنى المستقبل هو الصواب إن شاء الله. خلافًا لمن زعم أنه نُبِّئ وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ»[٧].

قال الرازي: «اختلفوا في ذلك الكتاب؛ فقال بعضهم هو التوراة لأن الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود، والكتاب المعهود لهم هو التوراة. وقال أبو مسلم: المراد هو الإنجيل لأن الألف واللام ههنا للجنس، أي آتاني من هذا الجنس. وقال قوم: المراد هو التوراة والإنجيل لأن الألف واللام تفيد الاستغراق»[٨].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢١٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٠٣).
(٣) النحل: الآية (١).
(٤) الزمر: الآيات (٦٨-٧٠).
(٥) الزمر: الآية (٧١).
(٦) الزمر: الآية (٧٣).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٢٩٥).
(٨) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢١٥).

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

قال الرازي: «قال بعضهم أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولًا لأنه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة، ومعنى كونه نبيًا أنه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف؛ لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه اللَّه بالنبوة وبالرسالة، خصوصًا إذا قُرن إليه ذكر الشرع، وهو قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾»[1].

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾

قال الرازي: «ذكروا في تفسير المبارك وجوهًا: أحدها: أن البركة في اللغة هي الثبات، وأصله من بروك البعير، فمعناه جعلني ثابتًا على دين اللَّه مستقرًا عليه. وثانيها: أنه إنما كان مباركًا لأنه كان يُعَلِّم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق، فإن ضلوا فمن قِبَل أنفسهم لا من قِبَله.. وثالثها: البركة الزيادة والعلو فكأنه قال: جعلني في جميع الأحوال غالبًا مفلحًا منجحًا لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعليًا بالحجة، فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني اللَّه تعالى بالرفع إلى السماء. ورابعها: مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.. أما قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فهو يدل على أن حاله لم يتغير»[2].

وروى ابن جرير بسنده إلى وهيب بن الورد قال: «لما لقي عالم عالما هو فوقه في العلم، قال له: يرحمك اللَّه، ما الذي أعلن من علمي، قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين اللَّه الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد اجتمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان»[3].

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

قال القرطبي: «أي: لأؤديهما إن أدركني التكليف وأمكنني أداؤهما»[4].

قال ابن جرير: «وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعنى المحافظة على

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢١٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢١٥-٢١٦).
(٣) جامع البيان (١٦/ ٨٠-٨١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٠٣).

حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤدّيها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي.

وقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقول: ما كنت حيا في الدنيا موجودا، وهذا يُبِينُ عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب؛ لأن الذي يوصف به عيسى -صلوات اللَّه وسلامه عليه- أنه كان لا يدّخر شيئًا لغد، فتجب عليه زكاة المال، إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكلّ ما فضل عن قوته، فيكون ذلك وجهًا صحيحًا»[1].

قال الألوسي: «الظاهر المتبادر من المدة المذكورة مدة كونه -عليه الصلاة والسلام- حيًّا في الدنيا على ما هو المتعارف، وذلك لا يشمل مدة كونه ﷺ في السماء»[2].

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾

قال ابن كثير: «أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة اللَّه ربه؛ لأن اللَّه تعالى كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[3] وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[4]»[5].

قال الرازي: «قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورًا بتعظيمها»[6].

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.

قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يقبل على الغضب.. وقال بعض

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٨١).
(٢) روح المعاني (١٦/ ٩٠).
(٣) الإسراء: الآية (٢٣).
(٤) لقمان: الآية (١٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٦).
(٦) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢١٦).

السلف: لا تجد أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًا، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال: ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالا فخورًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[1]»[2].

الصفة الثامنة: قولة تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

قال ابن جرير: «يقول: والأمنة من اللَّه عليّ من الشيطان وجنده يوم ولدت أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة، من الطعن فيه، ويوم أموت، من هول المطلع، ويوم أبعث حيا يوم القيامة أن ينالني الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: إثبات منه لعبوديته لله ﷿، وأنه مخلوق من خلق اللَّه يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات اللَّه وسلامه عليه[4]»[5].

* * *

(١) النساء: الآية (٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٦).

(٣) جامع البيان (١٦/ ٨٢).

(٤) لم يذكر الرازي الصفة التاسعة، فليتنبه.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٦).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي بيَّنت لكم صفته، وأخبرتكم خبره، من أمر الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفة صفته، وهذا الخبر خبره، وهو ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحقّ، والكلام الذي تلوته عليكم قول اللّه وخبره، لا خبر غيره، الذي يقع فيه الوهم والشكّ، والزيادة والنقصان على ما كان يقول اللّه -تعالى ذكره-: فقولوا في عيسى أيها الناس، هذا القول الذي أخبركم اللّه به عنه، لا ما قالته اليهود، الذين زعموا أنه لغير رشدة، وأنه كان ساحرًا كذّابا، ولا ما قالته النصارى، من أنه كان لله ولدا، وإن اللّه لم يتخذ ولدا، ولا ينبغي ذلك له.. وأما قوله -تعالى ذكره-: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ فإنه يعني: الذي فيه يختصمون ويختلفون. من قولهم: ماريت فلانا: إذا جادلته وخاصمته»[1].

قال الشنقيطي: «وهذا القول الحق الذي أوضح اللّه به حقيقة الأمر في شأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بعد نزوله على نبينا ﷺ أمره ربه أن يدعو من حاجَّهُ في شأن عيسى إلى المباهلة. ثم أخبره أن ما قص عليه من خبر عيس هو القصص الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[2] الآية. ولما نزلت ودعا النبي ﷺ وفد نجران إلى المباهلة خافوا الهلاك وأدوا الجزية كما هو مشهور»[3].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٨٣).
(٢) آل عمران: الآيتان (٦١و٦٢).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ الآية:

قال الشنقيطي: «اعلم أولًا أن لفظ ﴿مَا كَانَ﴾ يدل على النفي، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾[1] الآية. وتارة يدل على التعجيز، كقوله تعالى: ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾[2] الآية. وتارة يدل على التنزيه؛ كقوله هنا ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ وقد أعقبه بقوله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزيهًا له عن اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله. فقوله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه -جل وعلا- أن يتخذ ولدًا، ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا. والآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[3]. وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم: «**عيسى ابن الله**» وما نزَّه عنه -جل وعلا- نفسه هنا من الولد المزعوم كذبًا كعيسى نزه عنه نفسه في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[4] الآية. والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه: إنما ابتدأ الله خلق عيسى ابتداء، وأنشأه إنشاء من غير فحل افتحل أمه، ولكنه قال له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها، إنما يقول إذا قضى خلق شيء أو إنشاءه: كن فيكون موجودًا حادثًا، لا يعظم عليه خلقه؛ لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة، ولا ينشئه بمعالجة وشدّة»[7].

---

(١) التوبة: الآية (١٢٠).
(٢) النمل: الآيتان (٥٩و٦٠).
(٣) مريم: الآية (٩٢).
(٤) النساء: الآية (١٧١).
(٥) مريم: الآيات (٨٨-٩٢).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٧) جامع البيان (١٦/ ٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

قال ابن كثير: «أي: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن اللَّه ربهم وربه، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن اللَّه صراط مستقيم؛ أي: قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختصاص عيسى -عليه الصلاة والسلام- بكونه كلمة اللَّه وانه عبد اللَّه ورسوله

* عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللَّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله اللَّه الجنة على ما كان من العمل**»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا الحديث مقصوده إفادة التنبيه على ما وقع للنصارى من الغلط في عيسى وأمّه عليهما السلام، والتحذير عن ذلك بأن عيسى عبد اللَّه لا إله، ولا ولد، وأمه أَمَة اللَّه تعالى، ومملوكة له لا زوجة، تعالى اللَّه عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا»(٣).

قال سليمان بن عبدالوهاب: «قوله: «**وأن عيسى عبد اللَّه ورسوله**» وفي رواية: «**وابن أمته**» أي: خلافا لما يعتقده النصارى أنه اللَّه، أو ابن اللَّه، تعالى اللَّه عن ذلك علوا كبيرا ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤) فيشهد بأنه عبد اللَّه أي عابد مملوك لله لا مالك، فليس له من الربوبية

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٥٨٦/ ٣٤٣٥)، ومسلم (١/ ٥٧/ ٢٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣١/ ١١١٣٢).

(٣) المفهم (١/ ٢٠٠).

(٤) المؤمنون: الآيتان (٩١و٩٢).

ولا من الإلهية شيء، ورسول صادق خلافا لقول اليهود إنه ولد بغي، بل يقال فيه ما قال عن نفسه كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآيات وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[(١)]، قال القرطبي: ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم. قوله: «**وكلمته**» إنما سمي عليه السلام كلمة اللَّه لصدوره بكلمة: كن بلا أب، قاله قتادة وغيره من السلف، قال الامام أحمد فيما أملاه في الرد على الجهمية: الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له بكن فكان عيسى بكُن، وليس عيسى هو كُن، ولكن بِكُن كان، فكن من اللَّه قول، وليس كن مخلوقًا، وكذب النصارى والجهمية على اللَّه في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت عيسى روح اللَّه وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح اللَّه من ذات اللَّه وكلمة اللَّه من ذات اللَّه كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة انتهى. يعني به ما قال قتادة وغيره.

قوله: «**ألقاها إلى مريم**» قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن اللَّه عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأبِ الأمَّ، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة اللَّه وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له كن فكان، والروح التي أرسل بِها جبرائيل عليه السلام. قوله: «**وروح منه**». سمي روحًا لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام. وقال الإمام أحمد: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[(٢)] يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[(٣)] يقول: من أمره»[(٤)].

* * *

---

(١) النساء: الآية (١٧٢).

(٢) النساء: الآية (١٧١).

(٣) الجاثية: الآية (١٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص٧٢-٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصَمَّمَت طائفة -وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله- على أنه ولد زنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم اللّه. وقال آخرون: هو ابن اللّه، وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد اللّه ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد اللّه إليه المؤمنين. وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبدالرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتاروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو اللّه هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء -وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل أنت فيه، قال: هو ابن الله- وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: اللّه إله، وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى، عليهم لعائن اللّه. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد اللّه ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكانَ لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا فظُهِرَ على المسلمين، وذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، وقال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ﴾ قال:

---

(١) آل عمران: الآية (٢١).

اختلفوا فيه فصاروا أحزابًا .

وقد روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريبًا من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلفوا في عيسى ابن مريم، ﷺ، اختلافًا متباينًا، فقالت كل شرذمة فيه قولا، فمائة تقول فيه قولا، وسبعون تقول فيه قولًا آخر، وخمسون تقول فيه شيئًا آخر، ومائة وستون تقول شيئًا، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصَمَّموا عليه ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفًا، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء وابتدعوا بدعًا كثيرة، وحَرَّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم الكنائس الكبار في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمَامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا، بل رفعه اللَّه إلى السماء»[1].

قال البيضاوي: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هولُه وحسابه وجزاؤه، وهو يوم القيامة أو من وقت الشهود أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأرجلهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل: هو ما شهدوا به في عيسى وأمه»[2].

قال الشنقيطي: «إن اللَّه توعد الذين كفروا منهم بالويل لهم من شهود يوم القيامة، وذلك يشمل من كفر بالتفريط في عيسى كالذي قال إنه ابن زنى، ومن كفر بالإفراط فيه كالذين قالوا إنه اللَّه أو ابنه. وقوله: «وَيْلٌ»: كلمة عذاب، فهو مصدر لا فعل له من لفظه. وسوغ الابتداء به وهو نكرة: كونه في معنى الدعاء. والظاهر

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٧-٢٣٨).
(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ١٨).

أن المشهد في الآية مصدر ميمي، أي فويل لهم من شهود ذلك اليوم، أي حضوره، لما سيلاقونه فيه من العذاب، خلافًا لمن زعم أن المشهد في الآية اسم مكان، أي فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأهوال والعذاب، والأول هو الظاهر وهو الصواب إن شاء اللَّه تعالى.

وهذا المعنى الذي ذكره، ذكره أيضًا في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] وما أشار إليه في الآيتين: من أن الذين كفروا بالإفراط أو التفريط في عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أنه لم يعاجلهم بالعذاب، وأنه يؤخر عذابهم إلى الوقت المحدد لذلك: أشار له في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[3]، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4]. وبالجملة فاللَّه تعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يهمله»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان هذه الآيات

* عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من اللَّه، إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليعافيهم ويرزقهم»**[6].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «ومما يبين خذلان اللَّه لأهل البدع، المخالفين للكتاب والسنة، أن هذين الأصلين: أمر الولادة، وأمر المعاد، هما من أعظم أصول أهل الضلال كالدهرية من الفلاسفة وغيرهم، الذين يقولون: إن العقول تولدت عن اللَّه،

(١) الزخرف: الآيات (٦٣-٦٥).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٢).
(٣) هود: الآية (١٠٤).
(٤) العنكبوت: الآية (١٥٣).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٣٠٠-٣٠١).
(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥ و ٤٠١ و ٤٠٥)، والبخاري (١٠/ ٦٢٦/ ٦٠٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤-٤٤٥/ ١١٤٤٥).

وينكرون إحياء اللَّه الموتى.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول اللَّه تعالى: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك. فأما شتمه إياي فقوله: إني اتخذت ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته**»[1]. وهذا في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ، من حديث أبي هريرة، وابن عباس.

وهؤلاء الملاحدة شتموه بما ذكروه من تولد الموجودات عنه، وكذبوه بقولهم: لن يعيدنا كما بدأنا، وضاهوا في ذلك أشباههم من ملاحدة العرب.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ فذكر سبحانه في هذا الكلام الرد على من أنكر المعاد وعلى من قال: إنه اتخذ ولدا كما جمع النبي ﷺ بينهما في الحديث. . واللَّه تعالى له المثل الأعلى فلا يضرب له المثل المساوي إذا لا كفؤ ولا ند فضلا عن أن يضرب له المثل الناقص، ولا يكتفي في حقه بالمثل العالي، بل له المثل الأعلى إذ هو الأعلى سبحانه، والعلم به أعلى العلوم، وذكره أعلى الأذكار، وحبه أعلى الحب»[2].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال: ثم قرأ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧) والبخاري (٨/ ٩٥٨/ ٤٩٧٤) والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٨٦-٣٨٨).

ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[(١)][(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معنى يملي: يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان بضم الميم وكسرها وفتحها. ومعنى لم يفلته لم يطلقه ولم ينفلت منه، قال أهل اللغة: يقال أفلته أطلقه وانفلت تخلص منه»[(٣)].

قال الحافظ: «"لم يفلته" بضم أوله من الرباعي أي لم يخلصه، أي إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك، وهذا على تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به، وقيل معنى لم يفلته لم يؤخره، وفيه نظر لأنه يتبادر منه أن الظالم إذا صرف عن منصبه وأهين لا يعود إلى عزه، والمشاهد في بعضهم بخلاف ذلك، فالأولى حمله على ما قدمته»[(٤)].

ووجه مطابقة الحديث للآية هو أن: «قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدا. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلمًا وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يعجل على من عصاه»[(٥)].

* * *

---

(١) هود: الآية (١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٣)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١١٢).

(٤) فتح الباري (٨/ ٤٥٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة أنهم أسْمَعُ شيء وأبْصَرُه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(١) أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئًا، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب اللَّه، ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودَخل كل إلى ما صار إليه مخلدًا فيه، ﴿وَهُمْ﴾ أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصَدِّقون به»(٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وأنذر يا محمد هؤلاء المشركين باللَّه يوم حسرتهم وندمهم على ما فرطوا في جنب اللَّه، وأورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان باللَّه والطاعة له، وأدخلوهم مساكن أهل الإيمان باللَّه من النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها

---

(١) السجدة: الآية (١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٢-٢٣٣).

حسرة وندامة»[1].

قال الشنقيطي: «الحسرة: أشد الندم والتلف على الشيء الذي فات ولا يمكن تداركه. والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ أي: أنذر الناس يوم القيامة، وقيل له يوم الحسرة لشدة ندم الكفار فيه على التفريط.

وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[3].

وأشار إلى ما يحصل فيه من الحسرة في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[4] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[5] الآية، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: في غفلة الدنيا معرضون عن الآخرة»[7].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدّعي مُلْكًا ولا تصرفًا، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئًا ولا جناحَ بعوضة، ولا مثقالَ ذرة»[8].

قال الشنقيطي: «وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[9] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٨٧).
(٢) غافر: الآية (١٨).
(٣) سبأ: الآية (٤٦).
(٤) الزمر: الآية (٥٦).
(٥) الأنعام: الآية (٣١).
(٦) البقرة: الآية (١٦٧).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٣٠٢-٣٠٣).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤١).
(٩) الرحمن: الآيتان (٢٦و٢٧).

وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرَئِبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، وكلهم قد رآه فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.** ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[(٣)].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ قال: **ينادي: يا أهل الجنة فيشرئبون فينظرون وينادي: يا أهل النار فيشرئبون فينظرون فيقال: هل تعرفون الموت؟ فيقولون: نعم فيجاء بالموت في صورة كبش أملح فيقال: هذا الموت، فيقدم فيذبح. قال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويقال: يا أهل النار خلود لا موت**، قال: ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[(٤)].

★ غريب الحديثين:

فيشرئبون: بمعجمة وراء مفتوحة ثم همزة مكسورة ثم موحدة ثقيلة مضمومة من الاشرِئْبَاب؛ أي: يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم للنظر.

★ فوائد الحديثين:

«قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ معنى أنذرهم: أعلمهم ونذرهم، والنذارة: إعلام بالشر، والبشارة: إعلام بالخير، ويوم الحسرة: يعني به زمن ذبح

---

(١) الحجر: الآية (٢٣). (٢) أضواء البيان (٤/ ٣٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٩)، والبخاري (٨/ ٥٤٧/ ٤٧٣٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩)، والترمذي (٤/ ٥٩٧/ ٢٥٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣/ ١١٣١٦).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣-١٩٤/ ١١٣١٧)، وبنحوه: أحمد (٢/ ٢٦١ و ٣٧٧ و ٥١٣)، والترمذي (٤/ ٥٩٦-٥٩٧/ ٢٥٥٧) مطولا وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٧٤٥٠).

الموت إذا سمعوا: خلود فلا موت، وقضي: بمعنى أحكم وتمم. والأمر: يعني به خلود أهل النار فيها.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استئناف خبر عما كانوا عليه في الدنيا، لا تعلق له بما قبله، يدل عليه قوله في الحديث، وأشار بيده إلى الدنيا، يعني أنهم كانوا كذلك في الدنيا، والله تعالى أعلم»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأً قبيحًا، وقال: الموت عَرَض، والعرض لا يتجسم فضلا عن أن يذبح! وهذا لا يصح، فإن الله سبحانه يُنْشِئ من الموت صورة كبش يُذبح، كما يُنشئ من الأعمال صورا معاينة يثاب بها ويعاقب، والله تعالى يُنشئ من الأعراض أجساما تكون الأعراض مادة لها، وينشئ من الأجسام أعراضا كما ينشئ ﷻ من الأعراض أعراضًا، ومن الأجسام أجسامًا، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى، ولا يستلزم جمعا بين النقيضين، ولا شيئًا من المحال، ولا حاجة إلى تكلف من قال إن الذبح لملك الموت، فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يُوجبه عقل ولا نقل، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه.

فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العَرَض يذبح، وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه، وأن الله سبحانه يُنشئ من الأعراض أجساما، و يجعلها مادة لها، كما في الصحيح عنه ﷺ: «**تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان**»[2] الحديث. فهذه هي القراءة التي يُنشئها الله ﷻ غمامتين، وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده و تهليله يتعاطفن حول العرش لهن دَوِي كدَوِيِّ النحل يذكرن بصاحبهن**»[3] ذكره أحمد.

---

(١) المفهم (٧/ ١٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٩) ومسلم (١/ ٥٥٣/ ٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٢/ ٣٨٠٩) وقال البوصيري في الزوائد (١٢٦٧): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

وكذلك قوله في حديث عذاب القبر ونعيمه للصورة التي يراها فيقول: «من أنت؟ **فيقول: أنا عملك الصالح، وأنا عملك السيء**»[١]. وهذا حقيقة لا خيال، ولكن اللَّه سبحانه أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة.

وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ اللَّه سبحانه لهم منه نورا يسعى بين أيديهم، فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص. فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل.

وقال سعيد عن قتادة: بلغنا أن نبي اللَّه ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة حسنة، وبشارة حسنة، فيقول له: من أنت، فواللَّه إني لأراك امرأ الصدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة. وأما الكافر إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فواللَّه إني لأراك امرأ السوء، فيقول له: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار**» وقال مجاهد مثل ذلك، وقال ابن جريج: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نورا بين يديه حتى يدخله الجنة. فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾[٢]، والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلازم صاحبه ويقذفه في النار، وقال ابن المبارك: ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن أنه ذكر هذه الآية ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٣] قال: علموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: لا، قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤] وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه: أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش، وآمنوا من الأسقام فهناهم في جوار اللَّه طول المقام، ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته»[٥].

* * *

(١) أخرجه مطولا: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨) وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣) والحاكم (١/ ٣٧-٣٨) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه مختصرا: النسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠) وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٩) كلهم من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) يونس: الآية (٩).

(٣) الصافات: الآيتان (٥٨و٥٩).

(٤) الصافات: الآية (٦٠).

(٥) حادي الأرواح (٢/ ٨١٥-٨١٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

صِدِّيقًا: أي: كثير الصدق؛ لأنه من أبنية المبالغة.

أَرَاغِبٌ: الرغبة عن الشيء نقيض الرغبة فيه.

لم تنته: لم تمتنع. يقال: نهاه عن الأمر فانتهى: إذا امتنع عنه.

لأرجمنك: الرجم: أصله الرمي بالحجارة.

مليًّا: الملي: الدهر الطويل. قال الشاعر:

فتصدعت شُمُّ الجبالِ لموته ... وبَكَتْ عليه المرسلاتُ مَلِيًّا

أي: دهرًا طويلًا.

حَفيًّا: أي: مبالغًا في إيصال الخير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر في الكتاب إبراهيم واتلُه على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو كان صديقًا نبيًّا -مع أبيه- كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى

عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررًا»[١].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾؛ **قال ابن جرير**: «كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب»[٢].

وقال: «وقوله ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ يقول: اذكره حين قال لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ يقول: ما تصنع بعبادة الوثَن الذي لا يسمع ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئًا ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ يقول: ولا يدفع عنك ضرّ شيء، إنما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع، يقول ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك»[٣].

قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾

قال ابن كثير: «يقول: فإن كنت من صلبك وترى أني أصغر منك؛ لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من اللّه على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقا مستقيمًا موصلًا إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب»[٤].

قال ابن جرير: ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ يقول: أبصرك هدى الطريق المستوي الذي لا تضلّ فيه إن لزمته، وهو دين اللّه الذي لا اعوجاج فيه»[٥].

قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

قال الشنقيطي: «معنى عبادته للشيطان في قوله: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ﴾ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي. فذلك الشرك شرك طاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٦]..

والآية تدل على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء الشيطان؛ لقوله هنا: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ والآيات الدالة على أن الكفار أولياء الشيطان كثيرة، وقد قدمنا كثيرًا من ذلك في سورة الكهف وغيرها،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٤).
(٢) جامع البيان (١٦/ ٨٩).
(٣) جامع البيان (١٦/ ٨٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٤).
(٥) جامع البيان (١٦/ ٩٠).
(٦) يس: الآيتان (٦٠و٦١).

كقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾[2] الآية، أي يخوفكم أولياءه. وقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3] الآية، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم. وكل من كان الشيطان يزين له الكفر والمعاصي فيتبعه في ذلك في الدنيا، فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[4]، ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة»[5].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ أي: مخالفًا مستكبرًا عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله»[6].

قال ابن كثير: « ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾»[7].

قال ابن جرير: «يقول: يا أبت إني أعلم أنك إن متّ على عبادة الشيطان أنه يَمَسَّك عذاب من عذاب اللّه ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ يقول: تكون له وليًّا دون اللّه ويتبرأ اللّه منك، فتهلك، والخوف في هذا الموضع بمعنى العلم، كما الخشية بمعنى العلم، في قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾[8]»[9].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ يعني: إن كنت لا تريد

---

(١) النساء: الآية (٧٦).
(٢) آل عمران (١٧٥).
(٣) الأعراف: الآية (٣٠).
(٤) النحل: الآية (٦٣).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٣٠٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٥).
(٨) الكهف: الآية (٨٠).
(٩) جامع البيان (١٦/ ٩٠).

عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس، والسدي، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم»[١].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: واهجرني حينا طويلا ودهرا. ووجَّهوا معنى الملّي إلى المُلاوة من الزمان، وهو الطويل منه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: واهجرني سويًّا سليمًا من عقوبتي إياك، ووجّهوا معنى المليّ إلى قول الناس: فلان مليّ بهذا الأمر: إذا كان مضطلعًا به غنيًّا فيه. وكأن معنى الكلام كان عندهم: واهجرني وعرضك وافر من عقوبتي، وجسمك معافى من أذاي»[٢].

قال الشنقيطي: «والتحقيق في قوله ﴿مَلِيًّا﴾ أن المراد به الزمن الطويل ومنه قول مهلهل:

فَتَصَدَّعَت صُمُّ الجِبَالِ لِمَوْتِهِ ... وَبَكَتْ عَلَيْهِ المرسلات مَلِيًّا

وأصله واوي اللام؛ لأنه من الملاوة وهي مدة العيش، ومن ذلك قيل لليل والنهار، الملوان: ومنه قول ابن مقبل:

أَلاَ يَا دِيَارَ الحَيِّ بِالسَّبعانِ ... أَمَلَّ عَلَيْهَا بِالبِلَي المَلَوَان

وقول الآخر:

نَهَارٌ وَلَيْلٌ دَائِمٌ مَلَوَاهُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالِ المرْءِ يَخْتَلِفَانِ

وقيل الملوان في بيت ابن مقبل: طرفا النهار»[٣].

قال الرازي: «في قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قولان: أحدهما: المراد واهجرني بالقول. والثاني: بالمفارقة في الدار والبلد وهي هجرة الرسول والمؤمنين، أي تباعَدْ عني لكي لا أراك، وهذا الثاني أقرب إلى الظاهر»[٤].

وقال أيضًا: «اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٥).
(٢) جامع البيان (١٦/ ٩١).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٣١٢).
(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٢٩).

فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ، وأورد كل ذلك مقرونًا باللطف والرفق، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك، فقابل حجته بالتقليد، فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فأصَرَّ على ادعاء إلهيتها جهلًا وتقليدًا، وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم، وقابل رفقه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بالعنف حيث لم يقل له يا بني بل قال: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وإنما حكى اللَّه تعالى ذلك لمحمد ﷺ ليخفف على قلبه ما كان يصل إليه من أذى المشركين فيعلم أن الجهال كانوا على هذه السيرة المذمومة.

أما قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فإن كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة، وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة، فما فائدة هذا القول. وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجة لا فائدة فيها، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها، فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها، فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهة، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه»[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

قال ابن كثير: «فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[3] ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: ولكن سأسأل اللَّه تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفًا؛ أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له. وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٢٨-٢٢٩).
(٢) الفرقان: الآية (٦٣).
(٣) القصص: الآية (٥٥).

حَفِيًّا﴾ قال: وعوّده الإجابة.

وقال السدي: «الحفي»: الذي يَهْتَم بأمره.

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1].

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك، حتى أنزل اللَّه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[2] الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[3]»[4].

قال الرازي في قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾: «هذا دليل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج، وعلى أنه تحسن مقابلة الإساءة بالإحسان»[5].

قال الزمخشري: «انظر حين أراد أن ينصح أباه ويَعِظَهُ فيما كان متورّطًا فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أَمْرَ العقلاء وانسلَخَ عن قضية التمييز، ومن الغَباوة التي ليس بعدها غباوة؛ كَيفَ رَتَّبَ الكَلاَم معه في أحسن اتِّسَاق، وسَاقَهُ أَرْشَقَ مَسَاق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن، منتصحًا في ذلك بنصيحة ربّه عز وعلا.. وذلك أنه طلب منه أوّلًا العلة في خطئه طَلَبَ مُنَبِّهٍ على تَمَادِيه، مُوقِظٍ لإفْرَاطِه وتناهيه؛ لأن المعبود لو كان حيًا مميزًا، سميعًا بصيرًا، مقتدرًا على الثواب والعقاب، نافعًا

---

(١) إبراهيم: الآية (٤١).
(٢) الممتحنة: الآية (٤).
(٣) التوبة: الآيتان (١١٣و١١٤).
(٤) تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٣٥-٢٣٦).
(٥) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٢٩).

ضارًا، إلا أنه بعضُ الخلق: لاستَخَفَّ عَقل من أَهَّلَهُ للعبادة ووصَفَهُ بالربوبية، وَلَسَجَّلَ عليه بِالغَيّ المبينِ والظلم العظيم، وَإِن كان أشرفَ الخلقِ وأعْلاَهُم مَنْزِلَةً كالملائكة والنبيين؛ قَالَ اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام: وهو الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، الذي منه أصول النعم وفروعها. فإذا وُجِّهت إلى غيره وتعالى علوًا كبيرًا أن تكون هذه الصفة لغيره- لم يكن إلا ظلمًا وعتوًا وغيًا وكفرًا وجحودًا، وخروجًا عن الصحيح النَّيِّر إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وَجَّهَ عِبَادته إلى جَمَاد ليس به حِس ولا شعور؟ فَلاَ يسمع يَا عَابده- ذِكْرَكَ له وثناءَكَ عليه، ولا يَرَى هَيْآتِ خُضُوعِك وخشوعِك له فضلًا أن يُغني عنك بأن تستدفعه بلاء فَيَدْفَعَه، أو تَسْنَحَ لَكَ حاجة فَيَكْفِيكَهَا. ثم ثَنَّى بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفًا، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفْسَه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك، وذلك علمُ الدلالةِ على الطريق السَّوِي فلا تستنكف، وَهَبْ أني وإياك في مَسِير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أُنْجِك من أن تَضِل وَتَتِيه.

ثم ثَلَّثَ بتثبيطه ونهيه عما كان عليه: بأن الشيطان -الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوّك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال، وعدوُّ أبيك آدم وأبناءِ جنسك كلهم- هو الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايَتَي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره.

ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذرّيته كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غَمَرَ فكره وأطبق على ذهنه. ثم ربع بتخويفه سوءَ العاقبة وبما يجرُّه ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يَخْلُ ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: أخاف أن يمسك عذاب، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر

---

(١) آل عمران: الآية (٨٠).

من العذاب، وذلك أن رضوان اللَّه أكبر من الثواب نفسه، وسماه اللَّه تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان اللَّه، أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ توسلًا إليه واستعطافًا».

وقال: «لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل ﴿يَا أَبَتِ﴾ بـ(يا بنيّ)، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول اللَّه ﷺ عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه»[2].

* * *

(١) التوبة: الآية (٧٢).

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل (٢/ ٥١٠-٥١١).

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاعتزال للشيء هو التباعد عنه، والمراد أني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضًا، وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر، والذي خلقني وأنعم علي، فإنكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك، فواجب عليَّ مجانبتكم. ومعنى قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ أرجو أن لا أكون كذلك، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾(1). وأما قوله: ﴿شَقِيّٗا﴾ مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم على ما قرره أولًا في قوله: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾»(2).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الدعاء هو العبادة

* عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾(3)»(4).

★ فوائد الحديث:

قال الصنعاني: «وهو (أي: الدعاء) يتضمن حقيقة العبودية والاعتراف بغنى الرب تعالى وافتقار العبد وقدرته تعالى وعجز العبد، وإحاطته تعالى بكل شيء

---

(١) الشعراء: الآية (٨٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٣٠-٢٣١).
(٣) غافر: الآية (٦٠).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، أبو داود (٢/ ١٦١/ ١٤٧٩)، الترمذي (٥/ ٣٤٩/ ٣٢٤٧)، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠/ ١١٤٦٤)، ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٨)، ابن حبان (الإحسان ٣/ ١٧٢/ ٨٩٠). الحاكم (١/ ٤٩٠-٤٩١)، وصححه ووافقه الذهبي.

علما، فالدعاء يزيد العبد قربًا من ربه تعالى، واعترافا بحقه، ولذا حث ﷺ على الدعاء، وعلَّم اللَّه عباده دعاءه بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1] الآية ونحوها. وأخبرنا بدعوات رسله وأنبيائه وتضرعهم؛ فقال أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2] وقال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾[3]، وقال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[4] وقال أبو البشر: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[5]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[6]، وقال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[7]، ودعا نبينا ﷺ في مواقف لا تنحصر؛ عند لقاء الأعداء وغيرها، ودعواته في الصباح والمساء والصلوات وغيرها معروفة»[8].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، كما حققه غير واحد منهم شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما، ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر اللَّه تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، كقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[9] وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[10]، وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعُلم أن النوعين متلازمان؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذ احتج عليهم بما ذكر اللَّه في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له. قالوا: المراد به العبادة، فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٨٣).
(٣) الأنبياء: الآية (٨٩).
(٤) مريم: الآية (٥).
(٥) الأعراف: الآية (٢٣).
(٦) يوسف: الآية (١٠١).
(٧) الأنبياء: الآية (٨٧).
(٨) سبل السلام (٨/ ٣٨٢-٣٨٣).
(٩) المائدة: الآية (٧٦).
(١٠) يونس: الآية (١٨).

أَحَدًا﴾[١] أي: لا تعبدوا مع اللَّه أحدًا، فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة؛ لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكر اللَّه في القرآن في غير موضع، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[٧]، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[٨]، وقال عنه أيضًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٩] الآية. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[١٣]، وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟

---

(١) الجن: الآية (١٨).
(٢) الأعراف: الآية (٥٥).
(٣) الأعراف: الآية (٥٦).
(٤) آل عمران: الآية (١٣٥).
(٥) النساء: الآية (٣٢).
(٦) الأنعام: الآيتان (٤٠و٤١).
(٧) الرعد: الآية (١٤).
(٨) إبراهيم: الآية (٣٩).
(٩) مريم: الآيتان (٤٨و٤٩).
(١٠) النحل: الآية (٥٣-٥٤).
(١١) الإسراء: الآية (٥٦).
(١٢) الإسراء: الآية (٦٧).
(١٣) الإسراء: الآية (١١٠).
(١٤) مريم: الآية (٤).

شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾[١] الآية. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٢]، فكفى بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهانا في الفرق بين التوحيد والشرك عموما، وفي هذه المسألة خصوصا. وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٦]، وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ مالا يحصى؛ منها قوله ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»، رواه مسلم[٧]. وقوله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»، رواه البخاري ومسلم[٨].

وقوله: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»، رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه[٩].

---

(١) القصص: الآية (٦٤).
(٢) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٣) العنكبوت: الآية (١٧).
(٤) الزمر: الآية (٨).
(٥) فاطر: الآيتان (١٣و١٤).
(٦) غافر: الآية (٦٠).
(٧) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).
(٨) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٧). البخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥). ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨). وأبو داود (٢/ ٧٦-٧٧/ ١٣١٥). والترمذي (٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٦). والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٨). وابن ماجه (١/ ٤٣٥/ ١٣٦٦).
(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢) والترمذي (٥/ ٤٢٥/ ٣٣٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٩) وصححه ابن حبان (٣/ ١٥١-١٥٢/ ٨٧٠) والحاكم (١/ ٤٩٠).

وقوله: «**من لم يدع اللَّه يغضب عليه**»[١] رواه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم.

. . . والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا اللَّه تعالى، فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجلِّ العبادات، بل هو أكرمها على اللَّه كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء وهو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول اللَّه ﷺ، فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند اللَّه، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا اللَّه يا اللَّه، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر. وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٢]، فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج ﷻ عليهم بذلك على أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٣]، فهذه حال المشركين الأوَّلين، وأما عُبّاد القبور اليوم فلا إله إلا اللَّه كم بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برا وبحرا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون اللَّه، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه وهِجِّيرَاه إن قام وإن قعد وإن عثر، هذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا عبدالقادر، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يدعو البدوي، وهذا يدعو العيدروس. وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب وترجيح الميزان ودخول الجنة والنجاة من النار والتثبيت عند الموت والسؤال وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨)، والترمذي (٥/ ٤٢٦/ ٣٣٧٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٧)، والحاكم (١/ ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في التفسير (٧/ ١٥٤): «إسناده لا بأس به»، كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) النمل: الآية (٦٢). (٣) العنكبوت: الآية (٦٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٨٠-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لسان صدق: أي: كلام حق فيه قوة يقبله الناس. ويعبر باللسان عن الرسالة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فلما اعتزل إبراهيم قومَه وعبادةَ ما كانوا يعبدون من دون اللَّه من الأوثان، آنسنا وحشته من فراقهم، وأبدلناه منهم بمن هو خير منهم وأكرم على اللَّه منهم، فوهبنا له ابنَه إسحاق، وابنَ ابنه يعقوبَ بنَ إسحاق ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فَوَحَّد، ولم يقل أنبياء، لتوحيد لفظ كلّ، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ يقول جلّ ثناؤه: ورزقنا جميعهم، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمتنا، وكان الذي وهب لهم من رحمته: ما بسطالهم في عاجل الدنيا من سعة رزقه، وأغناهم بفضله.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ورزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الثناء على إسحاق ويعقوب

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**». قالوا: يا نبي اللَّه ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**أفعن معادن العرب تسألونني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم**

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٩٣).

في الإسلام إذا فقهوا»[١].

★ غريب الحديث:

أكرم: الكريم ضد اللئيم، وقال النووي: قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير.

معادن العرب: أصولهم التي يُنسبون إليها ويتفاخرون بها، وإنما جُعلت معادنَ لما فيها من الاستعداد المتفاوت، أو شبههم بالمعادن لكونهم أوعية الشرف، كما أن المعادن أوعية الجواهر.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الجواب الأول من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح»[٢].

«وقد تضمن الحديث في الأجوبة الثلاثة أن الكرمَ كلَّه عمومَه وخصوصَه ومجمَلَه ومبينه إنما هو الدين من التقوى والنبوة والأعراق فيها والإسلام مع الفقه»[٣].

قال القرطبي: «معنى هذا الحديث أن من اجتمع له خصال الشرف في الجاهلية من شرف الآباء، ومكارم الأخلاق، وصنائع المعروف، مع شرف دين الإسلام، والتفقه فيه، فهو الأحق بهذا الاسم. وقد تقدم أن الكرم: كثرة الخير والنفع. ولما كان تقوى اللَّه تعالى هو الذي حصل به خير الدنيا والآخرة مطلقا كان المتصف به أحق؛ فإنه أكرم الناس، لكن هذه قضية عامة، فلما نظر النبي ﷺ فيمن تعين في الوجود بهذه الصفة، ظهر له أن الأنبياء أحق بهذا المعنى؛ إذ لا يبلغ أحد درجتهم، وإن أحقهم بذلك من كان مُعْرِقًا في النبوة»[٤].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٠ و٣٩١ و٤١٦ و٤٣١)، والبخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٧٣)، ومسلم (٤/ ١٨٤٦-١٨٤٧/ ٢٣٧٨)، والترمذي (٥/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٣١١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٧/ ١١٢٤٩).

(٢) الفتح (٦/ ٤١٤).

(٣) شرح مسلم (١٥/ ١١٠).

(٤) المفهم (٦/ ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نجيًّا: يقال: ناجاه: إذا خَصَّه بالكلام دون غيره في سر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «اعلم أن في قوله ﴿مُخْلَصًا﴾ قراءتين سَبْعِيَّتين: قرأه عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام بصيغة اسم المفعول، والمعنى على هذه القراءة أن اللَّه استخلصه واصطفاه؛ ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1] الآية. ومما يماثل هذه القراءة في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[2] فالذين أخلصهم اللَّه هم المخْلَصون بفتح اللام. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «**مخلِصًا**» بكسر اللام بصيغة اسم الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، جُمِع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات اللَّه وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٤).
(٢) ص: الآية (٤٦).
(٣) البينة: الآية (٥).
(٤) الزمر: الآية (١٤).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٣١٣).

جانب الطور الأيمن منه، عند شاطئ الوادي. فكلمه اللّه تعالى، وناداه وقربه وناجاه»[١].

قال عبدالرحمن السعدي: « ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه؛ من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًّا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٣]، وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[٤]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[٥]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًّا، قال اللّه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في التعريف بالنبي موسى -عليه الصلاة والسلام-

* عن عروة قال: قالت عائشة ﵂: «فرجع النبي ﷺ إلى خديجة يرجف فؤاده، فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل وكان رجلا تنصر، يقرأ الإنجيل بالعربية، فقال ورقة: ماذا ترى؟ فأخبره، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل اللّه على موسى، وإن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا»[٧].

★ غريب الحديث:

يرجف فؤاده: الرجفان: الاضطراب وكثرة الحركة، ومنه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١١٧).
(٣) القصص: الآية (٣٤).
(٤) طه: الآية (٣٦).
(٥) الشعراء: الآيتان (١٣و١٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٨).
(٧) أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

وَٱلْجِبَالُ﴾[١][٢].

الناموس: قال أبو عبيد: الناموس: هو صاحب سر الرجل الذي يطلعه على باطن أمره ويَخُصُّه بما يستره عن غيره، يقال منه نمس الرجل ينمس نمسًا وقد نامسه منامسة إذا سَتَره.

وقال أبو عمرو الشيباني: الناموس: صاحب سر الخير، والجاسوس: صاحب سر الشر. وقال بعض العلماء: إنما سمي جبريل ناموسا لأنه مخصوص بالوحي والغيب الذي لا يَطّلِع عليه غيره[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال السنوسي: «قوله «**الذي أنزل اللّه على موسى**» إنما خص موسى عليه السلام بالذكر دون عيسى وإن كان على شريعته؛ لأنه لم يكن في غير هذه الشريعة أكثر تكاليف من قوم موسى، فكان يكثر عليه تردد جبريل عليه السلام، ولأن عيسى جاء بتصديق موسى والتوراة، ولم تنسخ شريعته من أحكامها إلا قليلا، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٤]. ولأنه أرسل إلى بني إسرائيل كموسى وهذا أولى ما قيل.

وقال بعضهم: خص موسى لأنه بعث بالنقمة على فرعون، وبعث محمد بالنقمة على فرعون هذه الأمة وهو أبو جهل. ولاتفاق أهل الكتابين على نزوله على موسى عليه السلام، وأما عيسى عليه السلام فكثير من اليهود ينكرون نبوته، وفيهما نظر، أما الأول فلأن هذا القول من ورقة قبل أن يعرف هل ينتقم اللّه من أبي جهل على يد النبي ﷺ أم لا.

وأما الثاني: فهو على خلاف ما نطق به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[٥]».

ثم قال رحمه الله بعد ذكره لوجوه أخرى غير ما تقدم: «وهذا الاعتذار كله باعتبار ما ورد في الصحيح، وإلا فعند الزبير بن بكار من طريق عبد اللّه بن معاذ عن الزهري أنه قال: ناموس عيسى. إلا أن عبد اللّه بن معاذ ضعيف. وفي دلائل أبي نعيم بإسناد

---

(١) المزمل: الآية (١٤).
(٢) إكمال المعلم (١/ ٤٨٤).
(٣) كشف المشكل لابن الجوزي (٤/ ٢٧٥).
(٤) آل عمران (٥٠).
(٥) البقرة: الآية (١١٣).

حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه: أن خديجة أتت ورقة أولا فأخبرته الخبر فقال: إن صَدَقْتِ إنه لَيأتيه ناموس عيسى الذي لا يُعَلِّمه بنو إسرائيل أبناءهم. فعلى هذا فورقة تارة يقول: موسى، وتارة: عيسى.

قال بعض الشيوخ: ووجه ذلك إن صح[1] إنما هي أخبرته بمجيء الملك ومخاطبته إياه على الجملة، ولم تذكر له ما أمر به من القراءة، فاقتصر لها على عيسى، وهو ﷺ أخبره على التفصيل. فرأى ورقة ما أفاده مطلع السورة الكريمة من العلوم الكثيرة التي تكاد تحتوي على علم التوراة وتكون براعة استهلال له من الإشارة إلى إثبات الربوبية والوحدانية لقيام الدليل العقلي على تفرده -جل وعلا- بخلق العالم كله، وإلى جميع الكائنات الغائبة والحاضرة الْمُعلم كتبُهَا بالقلم. فهذه إشارة إلى علم كل معلوم. فلا يقصر إجمال هذا المطلع وحده عن علم التوراة، ويؤيد هذا ما قيل: إن أول سورة الأنعام أول التوارة، وهو قريب من معنى: اقرأ. فرأى ورقة أنه بما أنزل إلى موسى أقوى مناسبة، فارتقى عن التشبيه الأول إلى التشبيه به. والجواب على قدر السؤال، ولكل مقام مقال»[2].

قال ابن أبي جمرة: «قول ورقة: «هذا الناموس الذي نزّل اللَّه على موسى»..
في هذا دليل للوجه الذي قدمناه وهو الحكم بالعادة التي أجراها اللَّه ﷻ لعباده، وأن يحلف عليها؛ لأن ورقة ما أخبر بأن الآتي هو الملك لَمَّا أن ذكَرَتْ له الصفاتِ والعلامات إلا لِمَا يَعهَد من عادة اللَّه ﷻ أن لا يرسله إلا للنبيين والمرسلين»[3].

* * *

(١) قال الكرماني: «روي في غير هذا الصحيح بدل موسى عيسى وكلاهما صحيح» (شرح البخاري ١/ ٣٩). وكذا قال النووي في شرحه على مسلم (٢/ ١٧٧).
(٢) مكمل إكمال الإكمال (١/ ٤٨٢-٤٨٤).
(٣) بهجة النفوس (١/ ٢١).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره، إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعد ربه، أو عبدًا من عباده وعدًا وفّى به»[1].

قال الرازي: «هذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين اللَّه تعالى، ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس. أما الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئًا مما يؤمر به من طاعة ربه، وذلك لأن اللَّه تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع؛ فلا بد من ظهور وَعْدٍ منهم يقتضي القيامَ بذلك، ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة. وأما الثاني: فهو أنه ﷺ كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، فاللَّه تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وُصِفَ بالنبوة فقط، وإسماعيل وُصِفَ بالنبوة والرسالة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سيرة إسماعيل عليه الصلاة والسلام وما تميز به من الوفاء بالوعد وأن هذا ما أكده ديننا

* عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان**».

(١) جامع البيان (١٦/ ٩٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٣٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).

قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«ما لكم لا ترمون؟»** فقالوا: يا رسول اللَّه نرمي وأنت معهم؟ قال: **«ارموا وأنا معكم كلكم»**[1].

★ غريب الحديث:

مِن أسلم: أسلم: قبيلة مشهورة.

ينتضلون: أي: يترامون، والنضال الرمي مع الأصحاب.

★ فوائد الحديث:

بوب البخاري على هذا الحديث في كتاب المناقب من صحيحه بقوله: (باب نسبة اليمن إلى إسماعيل) **قال الحافظ:** «احتج به المصنف على أن اليمن من بني إسماعيل»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد خاطب النبي ﷺ بني أسلم بأنهم من بني إسماعيل كما في حديث سلمة بن الأكوع الذي في هذا الباب، فدل على أن اليمن من بني إسماعيل.

وفي هذا الاستدلال نظر لأنه لا يلزم من كون بني أسلم من بني إسماعيل أن يكون جميعُ من يُنسب إلى قحطان من بني إسماعيل، لاحتمال أن يكون وقع في أسلم ما وقع في إخوتهم خزاعة من الخلاف: هل هم من بني قحطان أو من بني إسماعيل، وقد ذكر ابن عبدالبر من طريق القعقاع بن أبي حدرد في حديث الباب: أن النبي ﷺ مَرَّ بناس من أسلم وخزاعة وهم يتناضلون، فقال: **«ارموا بني إسماعيل»**، فعلى هذا فَلَعَلَّ من كان هناك من خزاعة كانوا أكثر، فقال ذلك على سبيل التغليب، وأجاب الهمداني النَّسَّابة عن ذلك بأن قوله لهم: **«يا بني إسماعيل»** لا يدل على أنهم من ولد إسماعيل من جهة الآباء، بل يحتمل أن يكون ذلك لكونهم من بني إسماعيل من جهة الأمهات؛ لأن القحطانية والعدنانية قد اختلطوا بالصهارة، فالقحطانية من بني إسماعيل من جهة الأمهات. .

ومما استدل به على أن اليمن من ولد إسماعيل قول ابن المنذر بن عمرو بن حرام جد حسان بن ثابت:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٥٠)، والبخاري (٦/ ٥١٠/ ٣٣٧٣).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥١٠).

وَرِثْنَا مِنَ البَهْلُولِ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ وَحَارِثَةَ الغِطْرِيفِ مَجْدًا مُؤَثَّلاَ
مَآثِرُ مِنْ آلِ ابْنِ بِنْتِ ابْنِ مَالِكٍ وَبِنْتِ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ مَا إِنْ تَحَوَّلاَ

وهذا أيضًا مما يمكن تأويله كما قال الهمداني، والله أعلم»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه أن الجد الأعلى يسمى أبًا. وفيه التنويه بذكر الماهر في صناعته ببيان فضله وتطييب قلوب من هم دونه. وفيه حسن خلق النبي ﷺ ومعرفته بأمور الحرب. وفيه الندب إلى اتباع خصال الآباء المحمودة والعمل بمثلها. وفيه حسن أدب الصحابة مع النبي ﷺ»[2].

* عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[3].

★غريب الحديث:

اصطفى: اختار وفَضّلَ.

★فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**إن الله اصطفى من ولد إسماعيل**»: اصطفى: اختار. وصفوة الشيء: خياره. ووزنه: افتعل، والطاء فيه بدل التاء لقرب مخرجيهما. ومعنى اختيارِ الله تعالى لمن شاء من خلقه: تخصيصُهُ إياه بصفات كمال نوعه، وجعله إياه أصلا لذلك النوع، وإكرامه له على ما سبق في علمه، ونافذ حكمه من غير وجوب عليه، ولا إجبار، بل على ما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[4]. وقد اصطفى الله تعالى من هذا الجنس الحيواني نوع بني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[5]. ويكفيك من ذلك كله: أن الله تعالى خلق العالم كله لأجله،

---

(١) فتح الباري (٦/ ٦٦٨-٦٦٩). (٢) فتح الباري (٦/ ١١٥).
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٦)، والترمذي (٥/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٣٦٠٥-٣٦٠٦).
(٤) القصص: الآية (٦٨).
(٥) الإسراء: الآية (٧٠).

كما قد صرح بذلك عنه لما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(١). ثم إن اللّه تعالى اختار من هذا النوع الإنساني مَن جعله معدن نبوته، ومحل رسالته، فأولهم: آدم عليه الصلاة والسلام. ثم إن اللّه تعالى اختار من نطفته نطفة كريمة، فلم يزل ينقلها من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، فكان منها الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢). ثم إن اللّه تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق كما قال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾(٣)»(٤).

* عن عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبي(٥).

⋆ غريب الحديث:

العفاف: أي: الكف عن المحارم وخوارم المروءة.

⋆ فوائد الحديث:

«صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين، وضده وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين»(٦).

* عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما قال: «لما مات النبي ﷺ جاء أبا بكر مالٌ من قِبَل العلاء بن الحضرمي، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دَين، أو كانت له قِبَلَهُ عِدَة فليأتنا. قال جابر: فقلت: وعدني رسول اللّه ﷺ أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا، فبسط يديه ثلاث مرات، قال جابر: فعَدَّ في يدي خمسمائة ثم خمسمائة ثم خمسمائة»(٧).

---

(١) الجاثية: الآية (١٣).
(٢) آل عمران: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٣) النساء: الآية (١٦٣).
(٤) المفهم (٦/ ٤٦-٤٧).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (٥/ ٣٦٢/ ٢٦٨١)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩-٣١١/ ١١٠٦٤).
(٦) تفسير القرطبي (١١/ ٧٧).
(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٧-٣٠٨)، والبخاري (٥/ ٣٦٢/ ٢٦٨٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٦-١٨٠٧/ ٢٣١٤).

★ **غريب الحديث:**

قِبَلَه: بكسر القاف وفتح الموحدة: جهته.

عِدَة: بتخفيف الدال؛ أي: وعد.

★ **فوائد الحديث:**

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجه الدلالة أن أبا بكر جعل العِدَة كالدَّيْنِ، وأنجز لجابر ما وعده النبي ﷺ من المال، فدل ذلك على وجوبِ الوفاء بالعهد»[١].

* عن سعيد بن جبير قال: «**سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أَقْدُم على حَبْرِ العرب فأسْأَلَه. فقَدِمْتُ فسألت ابنَ عباس فقال: قضى أكثَرهما وأطيَبَهُما، إنَّ رسول اللَّه ﷺ إذا قَالَ فَعَلَ**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

من أهل الحيرة: بكسر الحاء المهملة: بلد معروف بالعراق.

حَبْر العرب: الحبر جمع أحبار وحبور، وهو العالم الماهر.

★ **فوائد الحديث:**

بيان توكيد الوفاء بالوعد؛ لأن موسى ﷺ لم يجزم بوفاء العشر، ومع ذلك وفَّاها، فكيف لو جزم[٣].

الحكم هنا للعموم. قال ابن حجر: «قوله: «إنَّ رسول اللَّه ﷺ إذا قال فعل» المراد برسول اللَّه ﷺ من اتصف بذلك ولم يرد شخصا بعينه»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[٥].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٠٤) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٣٦٢-٣٦٣/ ٢٦٨٤).

(٣) فتح الباري (٥/ ٣٦٥).

(٤) فتح الباري (٥/ ٣٦٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٧)، والبخاري (١/ ١٢٠/ ٣٣)، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٩)، والترمذي (٥/ ٢٠/ ٢٦٣١)، والنسائي (٨/ ٤٩١/ ٥٠٣٦).

★ **غريب الحديث:**

آية: قال ابن حجر: «الآية العلامة، وإفراد الآية إما على إرادة الجنس، أو أن العلامة إنما تحصل باجتماع الثلاث، والأول أليق بصنيع المؤلف، ولهذا ترجم بالجمع، وعقب بالمتن الشاهد لذلك»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال القسطلاني: «قوله «**وإذا وعد**» بالخير في المستقبل «**أخلف**» فلم يفِ، وهو من عطف الخاص على العام؛ لأن الوعد نوع من التحديث، وكان داخلًا في قوله: «**وإذا حدث**» ولكنه أفرده بالذكر معطوفا؛ تنبيها على زيادة قبحه.

فإن قلت: الخاص إذا عطف على العام لا يخرج من تحت العام، وحينئذ تكون الآية اثنتين لا ثلاثا. أجيب: بأن لازم الوعد الذي هو الإخلاف الذي قد يكون فعلا، ولازم التحديث الذي هو الكذب الذي لا يكون فعلا متغايران، فبهذا الاعتبار كان الملزومان متغايرين، وخُلْفُ الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارنا للوعد، أما لو كان عازما ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا لم يوجد منه صورة النفاق.. وهذا في الوعد بالخير، أما الشر فيُستحب إخلافه وقد يَجِب»(٢).

* عن المسور بن مخرمة أن النبي ﷺ ذكر صهرا له من بني عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته إياه، قال: «**حدثني فصدقني، ووعدني فوَفَّى لِي**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

صهرا: الصهر القريب بالزوج، ويوصف، يقال: هو صهري، جمع أصهار(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وقد أجمع العلماء على أن من وعد إنسانا شيئًا ليس بمنهي عنه؛ فينبغي أن يفي بوعده، وهل ذلك واجب أم مستحب؟ فيه خلاف بينهم؛ ذهب

---

(١) فتح الباري (١/ ١٢١). (٢) إرشاد الساري (١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٢٦)، والبخاري (٦/ ٢٦١/ ٣١١٠)، ومسلم (٤/ ١٩٠٣/ ٢٤٤٩[٩٥])، وأبو داود (٢/ ٥٥٦/ ٢٠٦٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٧/ ٨٣٧٢) مختصرا، وابن ماجه (١/ ٦٤٤/ ١٩٩٩).

(٤) المعجم الوسيط (٥٢٧).

الشافعي وأبو حنيفة والجمهور إلى أنه مستحب، فلو تركه، فاته الفضل، وارتكب المكروه كراهةَ تنزيهٍ شديدة، ولكن لا يأثم.

وذهب جماعة إلى أنه واجب؛ قال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي: أَجَلُّ من ذهب إلى هذا المذهب عمر بن عبدالعزيز.

قال: وذهبت المالكية مذهبا ثالثا: أنه إن ارتبط الوعد بسبب، كقوله: تزوَّجْ ولك كذا، أو احلف أنك لا تشتمني ولك كذا، أو نحو ذلك؛ وجب الوفاء، وإن كان وعدًا مطلقًا لم يجب»[1].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد سرده لهذه الأحاديث: «اعلم أن الذي يظهر لي في هذه المسألة والله تعالى أعلم: أن إخلاف الوعد لا يجوز، لكونه من علامات المنافقين، ولأن الله يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، وظاهر عمومه يشمل إخلاف الوعد، ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم عليه به، ولا يلزم به جبرًا؛ بل يؤمر به ولا يجبر عليه؛ لأن أكثر علماء الأمة على أنه لا يجبر على الوفاء به لأنه وعدٌ بمعروف محض، والعلم عند الله تعالى»[3].

* * *

---

(١) صحيح الأذكار (٢/ ٧٧٧-٧٧٨).

(٢) الصف: الآية (٣).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٣٠٤-٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾: هذا أيضًا من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابرًا على طاعة ربه آمرًا بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[2] الآيـة؛ أي: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تَدَعُوهم هملا فتأكُلَهُم النار يوم القيامة»[3].

قال السعدي: «﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يُرضيه، ارتضاه اللَّه وجعله من خواصِّ عباده وأوليائه المقربين، فرضي اللَّه عنه، ورضي هو عن ربه»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أمر الأهل والأبناء بالصلاة وحثهم عليها وأن هذا مما تميز به نبي اللَّه إسماعيل عليه السلام

* عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا، أو صلَّى ركعتين جميعًا كتبا في الذاكرين والذاكرات»**[5].

---

(١) طه: الآية (١٣٢).
(٢) التحريم: الآية (٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٤) تيسير الكريم المنان (٥/ ١١٨).
(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٣-٧٤/ ١٣٠٩) و(٢/ ١٤٧/ ١٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١/ ٤١٣/ ١٣١٠) و(٦/ ٤٣٢/ ١١٤٠٦)، وابن ماجه (١/ ٤٢٣-٤٢٤/ ١٣٣٥)، وصححه ابن حبان (٦/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٢٥٦٨-٢٥٦٩) والحاكم (١/ ٣١٦) و(٢/ ٤١٦) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو الطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**«إذا أيقظ الرجل أهله»** أي: امرأته أو نسائه وأولاده وأقاربه وعبيده وإماءه «**من الليل**» أي في بعض أجزاء الليل، «**فصليا**» أي: الرجل والمرأة، أو الرجل وأهله، «**أو صلى**» أي كل واحد منهما «**ركعتين جميعا**». . وفي الحديث إشارة إلى تفسير الآية الكريمة ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]»[2].

قال المناوي: «**قوله: «إذا استيقظ الرجل من الليل**» أي: انتبه من نومه من الليل أو في الليل أو ليلا، فمن تبعيضية أو بمعنى في، قال العراقي: ويحتمل أنها لابتداء الغاية من غير تقدير، وهذا معنى التهجد عرفًا، فإنه صلاة تطوع بعد نوم، «**وأيقظ أهله**» حليلته، وزعم أنه شامل للأبوين والولد والأقارب، ولا يلائم قوله: «**وصليا**» بألف التثنية، وفي رواية: «**فقاما وصليا ركعتين فأكثر**» ولفظ رواية أبي داود وابن ماجه: «**فصليا أو صلى ركعتين جميعا**» قال الطيبي: وقوله: «**جميعًا**» حال مؤكدة من فاعل فصليا على التثنية لا الإفراد؛ لأنه ترديد من الراوي، والتقدير: فصليا له ركعتين جميعًا، «**كتبا**» أي أمر اللَّه الملائكة بكتابتهما «**من الذاكرين اللَّه كثيرا والذاكرات**» الذين أثنى اللَّه تعالى عليهم في القرآن ووعدهم بالغفران، أي يلحقان بهم ويبعثان يوم القيامة معهم ويعطيهما ما وعدوا به. ومن تبعيضية، فيفيد أن الذاكرين أصناف، وهذا من تفسير الكتاب بالسنة، فإنه بيان لقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال الزمخشري: الذاكرون اللَّه من لا يكاد يخلو بلسانه أو بقلبه أو بهما عن الذكر والقراءة. قال العراقي: وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم الشرعي من الذكر. والمعنى: والذاكرين اللَّه كثيرا والذاكرات، فحذف لدلالة الظاهر عليه»[3].

* عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**رحم اللَّه رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم اللَّه امرأة قامت من**

(١) الأحزاب: الآية (٣٥).

(٢) عون المعبود (٤/ ١٩٤).

(٣) الفيض (١/ ٢٧٧-٢٧٨).

الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[1].

★ غريب الحديث:

فإن أبت: أي: امتنعت لغلبة النوم وكثرة الكسل.

نضح: أي: رَشَّ.

★ فوائد الحديث:

قال أبو الطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد التلطفُ معها والسعيُ في قيامها لطاعة ربها مهما أمكن، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[2]، وقال ابن الملك: وهذا يدل على أن إكراه أحد على الخير يجوز بل يستحب، «**رحم اللَّه امرأة قامت من الليل**» أي: وُفِّقَت بالسبق فَصَلَّت وأيقظت زوجها. والواو لِمُطلق الجمع، وفي الترتيب الذِّكْرِي إشارة لطيفة لا تخفى، وفيه بيانُ حسنِ المعاشرة وكمالِ الملاطفة والموافقة»[3].

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: ««**رحم الله**» هو ماضي بمعنى الطلب، «**رجلا قام من الليل**» أي بعد النوم، إذ لا يسمى تهجدًا إلا صلاة بعد نوم «**فصلى**» أي: ولو ركعة. . «**وأيقظ امرأته**» في رواية «**أهله**» وهي أعم «**فَصَلَّت، فإن أبت أن تستيقظ نضح**» أي: رش «**في وجهها الماء**» ونَبَّهَ به على ما في معناه من نحو ماء ورد أو زهر، وخص الوجه بالنضح لشرفه، ولأنه محل الحواس التي بها يحصل الإدراك.

وفيه ندب أمر الزوجة بالصلاة وإيقاظها لذلك. وعكسه: «**رحم اللَّه امرأة قامت من الليل فَصَلَّت وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت في وجهه الماء**» أفاد كما قال الطيبي: أن من أصاب خيرا ينبغي أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، فيأخذ به الأقرب فالأقرب، فقوله: «**رحم اللَّه رجلًا فعل كذا**» تنبيه للأمة بمنزلة رَشِّ الماء على الوجه لاستيقاظ النائم، وذلك أن المصطفى ﷺ لَمَّا نال ما نال بالتهجد من الكرامة أراد

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود (٢/ ٧٣/ ١٣٠٨)، والنسائي (٣/ ٢٢٦/ ١٦٠٩)، وابن ماجه (١/ ٤٢٤/ ١٣٣٦)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ١٨٣/ ١١٤٨)، وابن حبان (الإحسان ٦/ ٣٠٦/ ٢٥٦٧)، والحاكم (١/ ٣٠٩) ووافقه الذهبي.

(٢) المائدة: الآية (٢).

(٣) عون المعبود (٤/ ١٣٥).

أن يحصل لأمته حظٌّ من ذلك فحثهم عليه عادلا عن صيغة الأمر للتلطف»[١].

فضلُ الصلاة وعظمُ منزلتها

قال الإمام محمد بن نصر المروزي: «فلا نعمة أعظم على المؤمنين بالله من نعمة الإيمان، والخضوع لربوبيته، ثم النعمة الأخرى ما افترض عليهم من الصلاة خضوعًا لجلاله، وخشوعًا لعظمته، وتواضعا لكبريائه، ولم يفترض عليهم بعد توحيده، والتصديق برسله، وما جاء من عنده فريضةً أوَّلَ من الصلاة، وأخبر أن ذلك أمرُهُ لهم، وللأنبياءِ والأمم قبل أن يبعث محمدًا ﷺ؛ فقال ﷻ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٢].

فجعل أول فريضة نصَّها بالتسمية بعد الإخلاص بالعبادة لله: الصلاة، وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ﴾[٣] وقال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ﴾[٤] وبنظير ذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ.. وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم من قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ فقوله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ﴾»[٥].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما دَلَّ الله تعالى به على تعظيم قدر الصلاة ومبايَنَتِها لسائر الأعمال إيجابُه إياها على أنبيائه ورسله، وإخباره عن تعظيمهم إياها، فمن ذلك أنه

(١) فيض القدير (٤/ ٢٥-٢٦).
(٢) البينة: الآيات (١-٥).
(٣) التوبة: الآية (٥).
(٤) التوبة: الآية (١١).
(٥) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٨٥-٨٧).

جل وعز قَرَّب موسى نجيا، وكلمه تكليما، فكان أوَّلَ ما افترض عليه بعد افتراضه عليه عبادته؛ إقامُ الصلاة، ولم ينص له فريضة غيرها، فقال -تبارك وتعالى- مخاطبًا لموسى بكلماته ليس بينه وبينه ترجمان: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1] فدل ذلك على عظم قدر الصلاة وفضلها على سائر الأعمال، إذ لم يبد مناجيه وكليمه بفريضة أول منها، ثم ما أخبر عن سحرة فرعون بعد شركهم وعنادهم إذ يحلفون بعزة فرعون متخذين إلهًا من دون اللَّه، ولم يأتهم رسول قبل ذلك، ولا سمعوا كتابًا، فلما أراهم موسى الآية حين ألقى عصاه فقلبها اللَّه حية تسعى، فالتقفت حبالهم وعصيهم، فعلموا أن ذلك ليس بسحر ولا يشبهه فعل بني آدم، انقادوا للإيمان باللَّه ﷻ، فلم يلهموا طاعة يرجعون بها إلى اللَّه ويترضونه بها ظنا أن يغفر لهم عما كان منهم إلا السجود، وهو أعظم الصلاة، قال اللَّه ﷻ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2] فَعَفَّرُوا وجوههم للّه في التراب خضوعًا له، فلم يجعل اللَّه لهم مفزعًا إلا إلى الصلاة مع الإيمان به، وهي مفزع كل منيب.

ثم كان من أول ما أمر به موسى أن يأمر بني إسرائيل بعد أن آمنوا به الصلاة، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3].

وحكى عن عيسى ﷺ حين تكلم في المهد صبيًّا أنه قال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[4] وحكى عن إبراهيمَ خليله أنه لما ذهب بإسماعيل صلى اللَّه عليهما وسلم فأسكنه بواد ليس به أنيس، دعا ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[5] ولم يذكر عملًا غير الصلاة، فدل ذلك أنه لا عمل أفضل من الصلاة، ولا يوازيها، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ

---

(١) طه: الآيتان (١٣و١٤).
(٢) الشعراء: الآيات (٤٦-٤٨).
(٣) يونس: الآية (٨٧).
(٤) مريم: الآيتان (٣٠و٣١).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٧).

ٱلسُّجُودِ﴾(١).

وقــال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾(٢) وقـال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾(٣) وقال في قصة زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾(٤)..

وقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(٥).

ثم داود نبي اللَّه وصفيُّه لما أصاب الخطيئة وأراد التوبة لم يجد لتوبته مفزعا إلا إلى الصلاة، قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾(٦).

ثم سليمان بن داود عرض الخيل بالعَشِيّ فأشغله النظر إليها عن صلاة العصر حتى تأخر وقتها، فأَسِفَ ونَدِمَ، فعاقب نفسه بأن حرَمَهَا الخيلَ التي أشغلته حتى جاوز وقت صلاته، فاعترضها يُعَرْقِبُهَا عقوبة لنفسه، ليَغُم عليها بدلا من لهوه بها حين اعترضها، فألهاه النظر إلى حسنها وسرعة سيرها، فلما عاقب نفسه بتضريبه أعناق الخيل شكر اللَّه له ذلك، فعوضه من الخيل الريح، أسرع في السير، وأوطأ في الركوب من فوقها، وأشرف في القدر، وأرفع في المنزلة، وأعجب في الأحدوثة..

وقال اللَّه في قصة يونس حين التقمه الحوت: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٧)..

وقال في قصة شعيب لما نهى قومه عن عبادة غير اللَّه، ونهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن فقالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾(٨) وفي ذلك دليل على أنهم لم يكونوا يرونه يعظم شيئًا من الأعمال تعظيم الصلاة، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾(٩) ثـم ذكـر ﷻ

(١) الحج: الآية (٢٦).
(٢) مريم: الآيتان (٥٤-٥٥).
(٣) الأنبياء: الآيتان (٧٢-٧٣).
(٤) آل عمران: الآية (٣٩).
(٥) مريم: الآية (٤٣).
(٦) ص: الآية (٢٤).
(٧) الصافات: الآيتان (١٤٣-١٤٤).
(٨) هود: الآية (٨٧).
(٩) المائدة: الآية (١٢).

الأنبياء نبيا نبيا، فوصفهم ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1] فأخبر عن جميع الأنبياء أن مفزعهم كان إلى الصلاة، يعبدون اللَّه، ويتقربون إليه بها، ثم قال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2]»[3].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم وَكَّدَها اللَّه في الوجوب بفرضها بنص التنزيل، فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[4]»[5].

قال: «ثم توعد بالعذاب من أضاعها، أو سها عنها فصلاها في غير وقتها، أو رايا بها فقال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾.. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[6]»[7].

«وحكى عن الكفار أنهم لما سئلوا بعد دخولهم النار فقيل لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[8] فلم يذكروا شيئًا من الأعمال عذبوا عليها قبل تركهم الصلاة، وقال اللَّه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[9]»[10].

«وقال اللَّه -تبارك وتعالى- فيما يوبخ به الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾[11] ولم يضم إلى التصديق شيئًا غير الصلاة ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[12] فالكذب ضد التصديق، والتولي ترك الصلاة وغيرها من الفرائض. ثم أوعده وعيدا بعد وعيد، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[13] ويقال: إنها نزلت في أبي جهل»[14].

«وقال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[15]

---

(١) مريم: الآية (٥٨).
(٢) مريم: الآية (٥٩).
(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٩٦-١١٣).
(٤) النساء: الآية (١٠٣).
(٥) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١١٧-١١٨).
(٦) الماعون: الآيات (٤-٦).
(٧) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١١٨-١٢٤).
(٨) المدثر: الآيتان (٤٢-٤٣).
(٩) المنافقون: الآية (٩).
(١٠) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٧).
(١١) القيامة: الآية (٣١).
(١٢) القيامة: الآية (٣٢).
(١٣) القيامة: الآيتان (٣٤-٣٥).
(١٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٩).
(١٥) المرسلات: الآيتان (٤٨-٤٩).

وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(١) ولقد شدد تبارك وتعالى الوعيد في تركها ووكده على لسان نبيه ﷺ بأن أخرج تاركها من الإيمان بتركها، ولم تُجْعل فريضةٌ من أعمال العباد علامةً بين الكفر والإيمان إلا الصلاةُ، فقال: «**ليس بين العبد وبين الكفر من الإيمان إلا ترك الصلاة**» فأخبر أنها نظام للتوحيد، وأَكْفَرَ بتركها كما أكفر بترك التوحيد، ثم أخرج من الإيمان من عاهد من جميع العباد على الإيمان فقال «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**» وإن كانت العلماء مختلفة في الإكفار بتركها، فإنهم مجمعون على الرواية بإكفار من تركها، ثم ما غلظ في تركها وجوب النار، وإيجاب المغفرة والرحمة لمن قام بها»(٢).

«ونعت اللَّه المؤمنين في أول سورة البقرة فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٣) فلم يبدأ بعد الإيمان بالغيب بذكر فريضة قبل الصلاة»(٤).

«ومدح اللَّه عباده المؤمنين فبدأ بذكر الصلاة قبل كل عمل فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾(٥) فمدحهم في أول نعتهم بالخشوع فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر القصة إعظاما لقدرها في القربة إليه، ولما أعد للقائمين بها المحافظين عليها من جزيل الثواب، ونعيم المآب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾(٦).

ولم نجد اللَّه ﷻ مدح أحدًا من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مدح من واظب على الصلوات في أوقاتها، ألا تراه كيف ذكرها مبتدأة من بين سائر الأعمال، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(٧) ثم لم يبرئ أحدا من هذين الخلقين المذمومين من جميع الناس قبل المصلين فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾(٨) ثم أعاد ذكرهم في

---

(١) السجدة: الآية (١٥).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٣٢-١٣٣).
(٣) البقرة: الآيات (١-٣).
(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٣٤).
(٥) المؤمنون: الآيتان (١-٢).
(٦) المؤمنون: الآيات (٩-١١).
(٧) المعارج: الآيات (١٩-٢١).
(٨) المعارج: الآيتان (٢٢-٢٣).

آخر الآية بذكرٍ آخر فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[2] في كل ذلك يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، تبعها ما تبعها من سائر الطاعات، فكرر الثناء عليهم، ومدحهم بالمحافظة عليها ليدوموا عليها، كل ذلك تأكيدا لها، وتعظيما لشأنها»[3].

«ثم لم يخص اللَّه تعالى عملًا من أعمال الدين فجعله يُكَفّر به الخطايا ويطهر به المذنبين كما خص الصلاة بذلك، فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[4] فجاءت الأخبار أنها نزلت في الصلوات الخمس.. عن عبد اللَّه قال: «قال رجل يا رسول اللَّه، إني لقيت امرأة في البستان فضممتها إلي فقبلتها وباشرتها، ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها، فسكت رسول اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[5] فدعاه رسول اللَّه ﷺ وقرأها عليه، فقال عمر: يا رسول اللَّه، أله خاصة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**بل للناس كافة**»[6]»[7].

«عن محمد بن كعب القرظي قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[8] قال محمد بن كعب: وهذا في القرآن ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[9] وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ فطرفا النهار: الفجر والظهر والعصر، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وهن الصلوات الخمس»[10].

«وعن أبان بن عثمان بن عفان، يقول: قال عثمان بن عفان: سمعت

---

(١) المعارج: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٢) فاطر: الآية (٢٩).
(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٣٥-١٣٦).
(٤) هود: الآية (١١٤).
(٥) هود: الآية (١١٤).
(٦) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٦) والبخاري (٨/ ٤٥٣/ ٤٦٨٧) ومسلم (٤/ ٢١١٥-٢١١٦/ ٢٧٦٣) وأبو داود (٤/ ٦١١-٦١٢/ ٤٤٦٨) والترمذي (٥/ ٢٧٠/ ٣١١٢).
(٧) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٣٩-١٤٠).
(٨) أخرجه من طريق محمد بن كعب القرظي هكذا مرسلًا: ابن المبارك في الزهد (٢/ ٦٨١-٦٨٢/ ٨٥٢)، وأخرجه موصولًا: أحمد (٢/ ٤٠٠) ومسلم (١/ ٢٠٩/ ٢٣٣[١٦])، والترمذي (١/ ٤١٨/ ٢١٤)، وابن ماجه (١/ ٣٤٥/ ١٠٨٦) من حديث أبي هريرة.
(٩) النساء: الآية (٣١).
(١٠) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٤٧-١٤٨).

رسول اللَّه ﷺ يقول: «**أرأيت لو كان بفناء أحدكم نهر يجري يغتسل منه كل يوم خمس مرار، ماذا كان مبقيًا من درنه؟**» قالوا: لا شيء، قال: «**فإن الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب كما يذهب الماء الدرن**»[(١)]»[(٢)].

«وجعل اللَّه كل خطوة إليها حسنة وكفارة وطهارة للذنوب.. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من حين يخرج أحدكم من بيته إلى المسجد فرجل تكتب حسنة، والأخرى تمحو سيئة**»[(٣)].

وعن أبي هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا خرج المسلم إلى المسجد كتب اللَّه له بكل خطوة خطاها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، حتى يأتي مقامه**»[(٤)]»[(٥)].

«وجعل اللَّه الفرائض كلها لازمة في بعض الأوقات من الزمان، وساقطة في بعضها كالصيام المفترض شهرا من السنة، وعلى من ملك ما تجب فيه الزكاة، والحج على من وجد السبيل إليه في العمر مرة واحدة، وكذلك جميع الفرائض، رفع فرض وجوبها في حال، ولم يوجب فرضه في كل حال إلا الصلاة وحدها، فإن اللَّه تعالى ألزم عباده خمس صلوات في كل يوم وليلة، وإنما منع الحائض من الصلاة تعظيما لقدر الصلاة، لا تقربها إلا هي طاهرة من الحيض، إلا أنه خفف شطرها عن المسافر رحمة له لما علم من تعب السفر وشدته، وألزمه على كل حال فرض الشطر الباقي.

فلم يزل فرضها إذا حضر وقتها في حال من الأحوال إلا في الحال التي تزول فيها العقول، والزائل العقل كالميت الذي لا يلزمه وجوب فرض اللَّه في بدنه من الفرائض كلها، وجعلها واجبة في كل شديدة وسقم أن يؤديها العاقل البالغ قائمًا إن استطاع، وجالسًا إن لم يستطع القيام، ومضطجعًا إن لم يقدر على القعود، وموميًا إن لم يقدر على الركوع والسجود، حتى أوجب فرضها عند المخاطرة بتلف النفوس

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧١) وابن ماجه (١/ ٤٤٧/ ١٣٩٧)، قال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٩) والنسائي (٢/ ٣٧٢/ ٧٠٤)، وصححه ابن حبان (٤/ ٥٠٣/ ١٦٢٢)، وقال الحاكم (١/ ٢١٧): صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه ابن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٦٠/ ١٠٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣/ ٥١/ ١٠٦٣).

(٥) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٦٠).

عند الخوف من المشركين، ولم يرفعها اللَّه عن عباده في حال أمن ولا خوف، ولا صحة ولا سقم.

فاعقلوا ما عظم اللَّه قدرها لشدة إيجابه إياها، وإلزامها عباده في كل الأحوال لتُعَظِّمُوهَا إذ عظَّمها اللَّه، وتجزعوا أن تضيعوها وتنقصوها، ولتؤدوها بإحضار العقول، وخشوع الأطراف.

ثم لم يرخص لأحد إن غلب بنوم أو نسيان أن يدع أن يأتي بها، كما افترضت عليه لو لم يغلب عليها، فقال النبي ﷺ: «**من نام عن صلاته فليصلها إذا انتبه لها، ومن نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها**»[1].

ثم جعل جميع الطاعات من الفرض والتنفل متقبلة بغير طهارة ولا ينقضها الأحداث ولا يفسدها إلا الصلاة وحدها لإيجاب حقها، وإعظام قدرها، إلا الطواف بالبيت، فإن السنة أن يؤتى على طهارة؛ لأنه صلاة.

ومن الدليل على أنها أرفع الأعمال أن اللَّه ﷻ أوجب أن لا تؤتى إلا بطهارة الأطراف، ونظافة الجسد كله واللباس من جميع الأقذار، ونظافة البقاع التي يصلى عليها، ثم زاد تعظيما أنه أمرهم إذا عدموا الماء عند حضور وقت الصلاة أن يضربوا بأيديهم على الصعيد فيمسحوا مكارم وجوههم بالتراب، إعظاما لقدرها أن لا تؤدى إلا بطهارة»[2].

«ومن الدليل على عظم قدرها وفضلها على سائر الأعمال؛ أن كل فريضة افترضها اللَّه فإنما افترضها على بعض الجوارح دون بعض، ثم لم يأمر بإشغال القلب به إلا الصلاة، فإنه أمر أن يقام بجميع الجوارح كلها، وذلك أن ينتصبه العبد ببدنه كله، ويشغل قلبه بها ليعلم ما يتلو وما يقول فيها، ولم يفعل ذلك بشيء من الفرائض، لم يمنع أن يشتغل العبد في شيء من الفرائض بعمل سواه إلا الصلاة وحدها، فإن الصائم له أن يلتفت وينام ويتكلم بغير ذكر الصوم، ويعمل بجوارحه ويشغلها فيما أحب من منافع الدنيا ولذاتها مما أحل له، والمقاتل في سبيل اللَّه له

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٩)، والبخاري (٢/ ٨٩/ ٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١٧٨)، والنسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٢)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧/ ٦٩٦).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٦٨-١٧٠).

أن يلتفت ويتكلم، والحاج في قضاء مناسكه قد أبيح له أن يتكلم كذلك فيما بين ذلك، وينام ويشتغل بما أحب من منافع الدنيا المباحة له، وله أن يتكلم في الطواف، وكذلك إعطاء الزكاة، وجميع الطاعات، له أن يعمل فيها ويتفكر في غيرها، ومنع المصلي من الأكل والشرب، وجميع أعمال الدنيا من الالتفات، والأفعال بالجوارح إلا بالصلاة وحدها، ومن التفكر إلا فيما يتلو ويقول، إلا أن العمل في الصلاة بغيرها مختلف في الضرر في الدين، فمنه ما يفسد الصلاة، ومنه ما يلزم به سجود السهو، ومنه ما يكون منقوصًا من الثواب على صلاته، إلا أن أهل العلم مجتمعون على أنه إذا شغل جارحة من جوارحه بعمل من غير عمل الصلاة، أو بفكر، وشغل قلبه بالنظر في غير أمر الصلاة، أنه منقوص من ثواب من لم يفعل ذلك تاركًا جزءًا من تمام صلاته وكمالها.

فالمصلي كأنه ليس في الدنيا ولا في شيء منها، إذا كان بجميع قلبه وجميع بدنه في الصلاة، فكأنه ليس في الأرض، إلا أن ثقل بدنه عليها، وذلك أنه يناجي الملك الأكبر، فلا ينبغي أن يخلط مناجاة الإله العظيم بغيرها، وكيف يفعل ذلك والنبي ﷺ قد أخبر أن اللَّه مقبل عليه بوجهه، فكيف يجوز لمن صدق بأن اللَّه مقبل عليه بوجهه أن يلتفت أو يغيب أو يتفكر أو يتحرك بغير ما يحب المقبل عليه بوجهه؛ لأن اشتغاله في صلاته بغيرها من الالتفات أو العبث أو التفكر في شيء من الدنيا هو إعراض عمن أقبل عليه، وما يقوى قلب عاقل لبيب أن يقبل عليه من الخلق من له عنده قدر فيراه يولي عنه بمعنى من المعاني، وكل مقبل سوى اللَّه لا يطلع على ضمير من ولى عنه بضميره، واللَّه تعالى مقبل على المصلي بوجهه، يرى إعراضه بضميره، وبكل جارحة من جوارحه، سوى صلاته التي أقبل عليه بوجهه من أجلها، فكيف يجوز لمؤمن عاقل أن يَمَلَّها أو يلتفت أو يتشاغل بغير الإقبال على رب العالمين، إذ أخبره النبي ﷺ أن اللَّه مقبل عليه بوجهه، فهل يفعل ذلك من فعله إلا قلة مبالاة بالمقبل عليه، أو كيف يجوز لمن عرف أن اللَّه مقبل عليه وهو مناج له أن يعرض عنه بما قل أو كثر»(١).

* «ثم جاءنا الخبر الثابت عن رسول اللَّه ﷺ أنه سئل: أي العمل أفضل؟ فقال:

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٧١-١٧٣).

«**الصلاة لوقتها**»[١] وقال ﷺ: «**خير عملكم الصلاة**»[٢].. عن عبد اللَّه بن مسعود قال: سألت رسول اللَّه ﷺ: أي العمل أفضل؟ فقال: «**الصلاة لميقاتها**».. [وعن] ثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»[٣]»[٤].

* «ومن الدليل على تقدمها على سائر الأعمال قوله ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة**».. عن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء**»[٥]... عن أنس بن حكيم الضبي، قال: قال لي أبو هريرة: إذا أتيت أهل مصرك فأخبرهم أني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول ما يحاسب به العبد صلاته، فإن أتمها وإلا نظر هل له من تطوع، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثم ترفع سائر الأعمال على ذلك**»[٦]»[٧].

* «وأمر اللَّه عباده أن يفزعوا إلى الصلاة، والاستعانة بالصلاة على كل أمرهم من أمر دنياهم وآخرتهم، ولم يخص بالاستعانة بها شيئًا دون شيء، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٨]، وإنما بدأ بالصبر قبلها لأن الإيمان وجميع الفرائض والنوافل من الصلاة وغيرها لا تتم إلا بالصبر، ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٩]، وهم المنكسرة قلوبهم إجلالا لله، ورهبة منه، فشهد لمن حقت عليه أن يقيمها له، إنه من الخاشعين، وكيف لا يفزع المؤمنون إلى الصلاة وهي عماد

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠ و ٤٣٩)، والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٢)، ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٥)، والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣)، والنسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧ و ٢٨٢). وابن ماجه (١/ ١٠١-١٠٢/ ٢٧٧). وصححه الحاكم (١/ ١٣٠) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٢) والدارمي (١/ ٥٢٠/ ٦٨٢) والطبراني (٢/ ١٠١/ ١٤٤٤) وصححه ابن حبان (٣/ ١١٣/ ١٠٣٧).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٠٠-٢٠٣).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨)، والبخاري (١٢/ ٢٣٠/ ٦٨٦٤) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٠٤/ ١٦٧٨)، والترمذي (٤/ ١٠/ ١٣٩٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٩٦/ ٤٠٠٤)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٥).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥) وأبو داود (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٨٦٤) وصححه الحاكم (١/ ٢٦٢) ووافقه الذهبي.

(٧) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٠٨-٢١٠).

(٨) البقرة: الآية (٤٥).

(٩) البقرة: الآية (٤٥).

دينهم، كذلك أخبر النبي ﷺ أن الصلاة عمود الدين. . وما زال مفزع المؤمنين عند كل مهم من أمر الدنيا والآخرة إلى مناجاة ربهم في الصلاة حتى آدم فمن دونه من الأنبياء»(١).

«ولقد ذكر أن النبي ﷺ كان إذا رأى بأهله شدة أو ضيقا أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾(٢) وأمر الله عباده أن يأتموا بمحمد ﷺ، وأمرهم محمد إذا رأوا الآيات التي يخافون فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه، فإذا انكسفت فافزعوا إلى الصلاة**»(٣)، وفزع هو إلى الصلاة، ولا نعلم طاعة يدفع اللّه بها العذاب مثل الصلاة، فصلى عند الكسوف بزيادة في الركوع، وبكى في سجوده، وتضرع»(٤).

«فالصلاة مفزع كل مريد عند الشدائد، وعند حوادث عظيم النعم شكرا لله، فإذا لم تمكن الصلاة فالسجود له عند حوادث النعم، وذلك لما عرّفهم من عظم قدر الصلاة عنده، حتى إن الملائكة في السماوات السبع إذا رعبوا فأصابهم هول اعتصموا بالسجود»(٥).

«وأما الصلاة والسجود عند حوادث النعم شكرا لله ﷿ فمن ذلك أن اللّه لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمان ركعات شكرا لله ﷿»(٦).

«فلا عمل بعد توحيد اللّه أفضل من الصلاة لله؛ لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على اللّه، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثناء عليه، وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعا له وتواضعا، ورفع اليدين عند الافتتاح

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢١٨-٢٢٤).

(٢) طه: الآية (١٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦٢٠-٦٢١/ ٩٠١)، وأبو داود (١/ ٦٩٥-٦٩٦/ ١١٧٧)، والنسائي (٣/ ١٤٧/ ١٤٦٩)، من طريق عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة.

(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٠).

(٥) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٦) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٤٠).

والركوع، ورفع الرأس تعظيما لله وإجلالا له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللًا له، وإذعانًا بالعبودية، ثم النبي ﷺ يبتهج ويخبر أمته تعظيم نعمة اللَّه عليه، مما يخصه به يوم القيامة بأن يجعله أول مأذون له بالسجود يوم القيامة، وأخبر أنه إذا قصد إلى اللَّه ﷻ ليشفع لأهل التوحيد خر ساجدا بين يدي اللَّه ﷻ، فلا يزال كذلك حتى يؤمر برفع رأسه، ويجاب إلى ما سأل»[1].

«ومن فضل الصلاة على سائر الأعمال أن من دخل النار من المؤمنين لم يجدوا شيئًا من الأعمال التي عملوها بجوارحهم تمنع شيئًا من أجسامهم من الاحتراق إلا السجود له في الدنيا، فإن النار لم تصب مواضع السجود من المصلين خاصة، كذلك أخبر النبي ﷺ»[2].

«ومن ذلك أن المنافقين ميزوا يوم القيامة من المؤمنين بالسجود، قال الله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[3] وذلك أن المؤمنين لما نظروا إلى ربهم خروا له سجدا، ودعي المنافقون إلى السجود فأرادوه فلم يستطيعوا، حيل بينهم وبين ذلك عقوبة لتركهم السجود لله في الدنيا، قال الله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ يعني في الدنيا، ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[4] مما حدث في ظهورهم، مما حال بينهم وبين السجود»[5].

«ولو لم يستدل المؤمن على أن الصلاة أحب الأعمال إلى اللَّه إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد ﷺ من حب الصلاة، وجعل قرة عينه فيها دون سائر الأعمال كلها، وإن كان ﷺ محبا لجميع الطاعات، ولكنه خص الصلاة فأخبر أن قرة عينه جعل في الصلاة لربه، لكفاه بذلك دليلا»[6].

«ثم لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه فصار إلى الحال التي انكسر فيها لسانه، لم يكن له وصية أكثر من الصلاة»[7].

* «وشهد اللَّه بالإيمان لمن أقام الصلاة لربه فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٨-٢٦٩).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٩٢).
(٣) القلم: الآيتان (٤٢-٤٣).
(٤) القلم: الآية (٤٣).
(٥) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٩٦).
(٦) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١).
(٧) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣٢).

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[(١)]»[(٢)].

* «وسماها اللَّه إيمانًا وإسلامًا ودينًا فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[(٣)].. وقال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(٤)] وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[(٥)]، وقال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾[(٦)] الذي ارتضاه واصطفاه هو الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[(٧)] فدل بذلك أن الإيمان المقبول الذي وعد اللَّه عليه الثواب هو الإسلام؛ لأنه لو كان غير الإسلام لكان من دان اللَّه بالإيمان غير مقبول منه إياه، لقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فلما اجتمعت الأمة على أن من دان اللَّه بالإيمان فجائز أن يقبل منه ثبت بذلك أن الإيمان هو الإسلام، وهو الدين المرتضى، وثبت بذلك أيضًا أن الصلاة والزكاة وسائر ما يدان اللَّه به إسلام وإيمان؛ لأنها لو لم تكن إيمانا وإسلاما لم يجز أن يقبل ممن دان اللَّه بها لقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فلما كانت الصلاة والزكاة وسائر الفرائض مقبولة من المسلمين إذا دانوا اللَّه بها عند جميع الأمة، ثبت أنها كلها من الإسلام والإيمان، لا غيره؛ لأنها لو كانت غير الإسلام لم تجز أن تقبل من أحد دان اللَّه بها لقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ثم أبان اللَّه ﷻ أن الطاعات كلها دين لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[(٨)] ومعقول في اللغة وعند العلماء أن عبادة اللَّه هي التقرب إليه بطاعته، والاجتهاد في ذلك.. وقال الله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[(٩)]..

فلما قال اللَّه - تبارك وتعالى - : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كانت الطاعات كلها اللاتي يتقرب بها إلى اللَّه داخلة في عبادته، ثم خص الصلاة

---

(١) التوبة: الآية (١٨).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٤٠).
(٣) البقرة: الآية (١٤٣).
(٤) آل عمران: الآية (١٩).
(٥) المائدة: الآية (٣).
(٦) البقرة: الآية (١٣٢).
(٧) آل عمران: الآية (٨٥).
(٨) البينة: الآية (٥).
(٩) الأنبياء: الآيتان (١٩-٢٠).

والزكاة من بينهما فأعاد ذكرهما تأكيدًا لأمرهما، وتعظيما لشأنهما، كما قال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[١] والوسطى داخلة في الصلوات، إلا أنه أعاد ذكرها فخصها بالأمر بالمحافظة عليها تأكيدًا لأمرها، وقال الله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢] فأخبر اللّه تبارك وتعالى أنه أكمل للمؤمنين دينهم في ذلك اليوم، ولو كان قبل ذلك اليوم مكملا تاما لم يكن لإكمال ما أُكْمِل وَتَمَّ معنى»[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «الصلاة قد اختصت من بين سائر الأعمال بخصائص ليست لغيرها: فهي أول ما فرض اللّه من الإسلام، ولهذا أمر النبي ﷺ نوابه ورسله أن يبدؤوا بالدعوة إليها بعد الشهادتين فقال لمعاذ: «**ستأتي قوما أهلَ كتاب فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، وأنَّ اللّه فَرَضَ عليهم خمسَ صلوات في اليوم والليلة**»[٤].

ولأنها أول ما يحاسب عليها العبد من عمله، ولأن اللّه فرضها في السماء ليلة المعراج، ولأنها أكثر الفروض ذكرا في القرآن، ولأن أهل النار لما يسألون ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾[٥] لم يبدؤوا بشيء غير ترك الصلاة، ولأن فرضها لا يسقط عن العبد بحال دون حال ما دام عقله معه، بخلاف سائر الفروض فإنها تجب في حال دون حال، ولأنها عمود فسطاط الإسلام، وإذا سقط عمود الفسطاط وقع الفسطاط، ولأنها آخر ما يفقد من الدين، ولأنها فرض على الحر والعبد والذكر والأنثى والحاضر والمسافر والصحيح والمريض والغني والفقير.. ولأن قبول سائر الأعمال موقوف على فعلها، فلا يقبل اللّه من تاركها صوما ولا حجا ولا صدقة ولا جهادا ولا شيئًا من الأعمال، كما قال عون بن عبد الله: «**إن العبد إذا دخل قبره سئل عن صلاته أول شيء يسأل عنه، فإن جازت له نُظر فيما سوى ذلك من عمله،**

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٨).
(٢) المائدة: الآية (٣).
(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٤١-٣٤٩).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٣) والبخاري (٣/ ٣٣٣/ ١٣٩٥) ومسلم (١/ ٥٠/ ١٩) وأبو داود (٢/ ٢٤٢-٢٤٣/ ١٥٨٤) والترمذي (٣/ ٢١/ ٦٢٥) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (٥/ ٥٨-٥٩/ ٢٥٢١) وابن ماجه (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣).
(٥) المدثر: الآية (٤٢).

وإن لم تجز له لم ينظر في شيء من عمله بعد»، ويدل على هذا الحديث الذي في المسند والسنن من رواية أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد من عمله يحاسب بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر**»[١]، ولو قبل منه شيء من أعمال البر لم يكن من الخائبين الخاسرين»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات، ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها، كان عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى عماله: إن أهمَّ أَمْرِكُم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة، وهي أول ما أوجبه اللَّه من العبادات.

والصلوات الخمس تولى اللَّه إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج، وهي آخر ما وصَّى به النبي ﷺ أمته وقت فِراق الدنيا؛ جعل يقول: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**» وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله، وآخر ما يفقد من الدين، فإذا ذهبت ذهب الدين كله، وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين. قال النبي ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»[٣]، وقد قال اللَّه في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[٤]، قال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ وغيره: إضاعتها تأخيرها عن وقتها، ولو تركوها كانوا كفارًا. وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٥] والمحافظة عليها فعلها في أوقاتها. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٦] وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت. وقد اتفق

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٠)، وأبو داود (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٨٦٤)، والترمذي (٢/ ٢٦٩-٢٧٠/ ٤١٣) وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. والنسائي (١/ ٢٥١/ ٤٦٤)، وابن ماجه (١/ ٤٥٨/ ١٤٢٥)، والحاكم (١/ ٢٦٢) وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) الصلاة وحكم تاركها (٣١-٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٥-٢٤٦)، والترمذي (٥/ ١٣/ ٢٦١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥/ ٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤)، والحاكم (٢/ ٤١٢-٤١٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) مريم: الآية (٥٩).

(٥) البقرة: الآية (٢٣٨).

(٦) الماعون: الآيتان (٤-٥).

المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل، ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار، لا لمسافر ولا لمريض ولا غيرهما، لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار وهي الظهر والعصر في وقت إحداهما، ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداهما، وذلك لمثل المسافر والمريض وعند المطر ونحو ذلك من الأعذار. وقد أوجب اللَّه على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1] فعلى الرجل أن يصلي بطهارة كاملة وقراءة كاملة وركوع وسجود كامل، فإن كان عادمًا للماء أو يتضرر باستعماله لمرض أو برد أو غير ذلك وهو مُحدِث أو جُنُب يَتَيَمَّم الصعيد الطيب وهو التراب؛ يمسح به وجهه ويديه ويصلي ولا يؤخرها عن وقتها باتفاق العلماء.

وكذلك إذا كان محبوسًا أو مقيدًا أو زَمِنًا أو غير ذلك صلى على حسب حاله، وإذا كان بإزاء عدوه صلى أيضًا صلاة الخوف؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ إلى قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[2] إلى قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[3]. ويجب على أهل القدرة من المسلمين أن يأمروا بالصلاة كل أحد من الرجال والنساء حتى الصبيان؛ قال النبي ﷺ: «**مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع**»[4]، والرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس، أو ترك بعض فرائضِها المتفَقِ عليها فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل. فمن العلماء من يقول: يكون مرتدًّا كافرًا لا يصلَّى عليه ولا يُدفَن بين المسلمين، ومنهم من يقول: يكون كقاطع الطريق وقاتل النفس والزاني المحصن. وأمر الصلاة عظيمٌ. فإنها قوامُ الدين وعِمادُه، وتعظيمُهُ تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات، فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة،

---

(١) التغابن: الآية (١٦).

(٢) النساء: الآيتان (١٠١-١٠٢).

(٣) النساء: الآية (١٠٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧). أبو داود (١/ ٣٣٤/ ٤٩٥). وصححه الحاكم (١/ ١٩٧).

ويقرنها بالزكاة تارة، وبالصبر تارة، وبالنسك تارة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1] وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[2] وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[3] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4] وتارة يفتتح بها أعمال البر ويختمها بها كما ذكره في سورة سأل سائل، وفي أول سورة المؤمنين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[5]»[6].

وقال شيخ الإسلام أيضًا: «فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال، وَتَبَيَّنَ ذلك من وجوه نَذْكر بعضها مما انتزعه الإمام أحمد وغيرُه: أحدها: أن اللَّه سمى الصلاة إيمانا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[7] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس؛ لأن الصلاة تُصَدِّق عملَه وقولَه وتُحَصِّل طمأنينةَ القلب واستقرارَه إلى الحق، ولا يصح أن يكون المراد به مجرد تصديقهم بفرض الصلاة؛ لأن هذه الآية نزلت فيمن صلى إلى بيت المقدس ومات ولم يدرك الصلاة إلى الكعبة، ولو كان مجرد التصديق لشاركهم في ذلك كل الناس.

وفي يوم القيامة فإنهم مصدقون بأن الصلاة إلى بيت المقدس إذ ذاك كانت حقا، ولم يتأسفوا على تصديقهم بفرض معين لم يترك، كما لم يتأسفوا على ترك تصديقهم بالحج وغيره من الفرائض، ولم يكن اعتماد تصديقهم بالصلاة فقط أولى من تصديقهم بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، هذا مع أنه خروجٌ عما عليه أهل التفسير، وعما يدل عليه كلام الباري؛ لأن اللَّه افتتح أعمال المفلحين بالصلاة فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[8] وختمها بالصلاة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

---

(١) البقرة: الآية (٤٣).
(٢) البقرة: الآية (٤٥).
(٣) الكوثر: الآية (٢).
(٤) الأنعام: الآيتان (١٦٢-١٦٣).
(٥) المؤمنون: الآيات (١-١١).
(٦) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢٧-٤٣٠).
(٧) البقرة: الآية (١٤٣).
(٨) المؤمنون: الآيتان (١-٢).

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[١] وكذلك في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[٢] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٣] وهاتان الآيتان جمعتا خصال أهل الجنة وملاكها. الثاني: أن اللَّه تعالى قال لنبيه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤] وتلاوةُ الكتاب اتباعُهُ والعملُ بما فيه من جميع شرائع الدين، ثم قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٥] فخصها بالذكر تمييزًا لها، فسبحانه خصها بالأمر بعد دخولها في عموم المأمور به، وكذلك قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٦] خصها بالذكر مع دخولها في جميع الخيرات، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٧] وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٨] فإن في طاعة اللَّه ورسوله فعل جميع الفرائض، وخص الصلاة والزكاة بالذكر وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٩] تعم جميع الطاعات، وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها، وكذلك ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١٠] وكذلك قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[١١] فإن الصبر وإن كان هو الحبس عن المكروهات فإن فيه فعل جميع العبادات، وكذلك قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[١٢] فإن الصلاة تَعُمُّ العملَ الصالح كلَّه، وإن خص بالصدقة وغيرها، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[١٣] فإن عبادة اللَّه تعم جميع الأعمال الصالحة، ثم خص الصلاة بالذكر. وقوله لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾[١٤] ينتظم جميع الفرائض، ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[١٥].

---

(١) المؤمنون: الآية (٩).
(٢) المعارج: الآيتان (٢٢-٢٣).
(٣) المعارج: الآية (٣٤).
(٤) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٥) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٦) الأنبياء: الآية (٧٣).
(٧) الأنبياء: الآية (٩٠).
(٨) المجادلة: الآية (١٣).
(٩) الحجر: الآيات (٩٧-٩٩).
(١٠) الحج: الآية (٧٧).
(١١) البقرة: الآية (٤٥).
(١٢) الأعلى: الآيتان (١٤-١٥).
(١٣) طه: الآية (١٤).
(١٤) البقرة: الآية (٤٠).
(١٥) البقرة: الآية (٤٣).

الثالث: أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها، فإن العبادة تعم جميع الطاعات، وقد خصت الصلاة بذلك الأمر، والاصطبار عليها، فإذا ذكرت الزكاة قيل: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وإذا ذكرت المناسك قيل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[1]، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾[2] وإن ذكر الصوم قيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[3] فإن الصبر المعدود في المثاني هو الصوم. .

الرابع: أن اللَّه أمر نبيه أن يأمر أهله بالصلاة فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾[4] مع أنه مأمور بالاصطبار على جميع العبادات لقوله: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[5] وبإنذارهم بجميع الأشياء لقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[6].

الخامس: أن اللَّه فرضها ليلة الإسراء وأمر بها نبيه ﷺ بلا توسط رسول ولا غيره.

السادس: أنه أوجبها على كل حال ولم يعذر بها مريضًا ولا خائفًا ولا مسافرًا ولا منكسرًا به ولا غير ذلك، بل وقع التخفيف تارة في شرائطها، وتارة في عددها، وتارة في أفعالها ولم تسقط مع ثبات العقل.

السابع: أنه اشترط لها أكمل الأحوال من الطهارة والزينة باللباس والاستقبال مما لم يشترط في غيرها.

الثامن: أنه استعمل فيها جميع أعضاء الإنسان من القلب واللسان وسائر الجوارح وليس ذلك بغيرها.

التاسع: أنه نهى أن يشتغل فيها بغيرها حتى بالخطرة واللفظة والفكرة.

العاشر: أنها أول ما يجب من الأعمال وآخر ما يسقط وجوبه.

الحادي عشر: أنها دين اللَّه الذي يدين به أهل السماوات والأرض، وهي مفتاح شرائع الأنبياء كلهم، فإن كل من دان لله من العقلاء فإن عليه الصلاة، ولم يبعث نبي إلا بالصلاة، بخلاف الصوم والحج والزكاة. .

---

(١) الكوثر: الآية (٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٢).
(٣) البقرة: الآية (٤٥).
(٤) طه: الآية (١٣٢).
(٥) مريم: الآية (٦٥).
(٦) الشعراء: الآية (٢١٤).

الثاني عشر: أنها مقرونة بالتصديق بقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[(١)] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٧١ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾[(٣)] وخصائص الصلاة كثيرة جدا، فكيف تقاس بغيرها؟!»[(٤)].

* * *

(١) القيامة: الآيتان (٣١-٣٢).

(٢) الأنعام: الآية (٩٢).

(٣) الأنعام: الآيتان (٧١-٧٢).

(٤) شرح العمدة (٤/ ٨٦-٩١).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

★ غريب الآية:

عليًّا: أي: عظيمًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واذكر يا محمد في كتابنا هذا إدريس ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ لا يقول الكذب، ﴿نَّبِيًّا﴾ نوحي إليه من أمرنا ما نشاء»[(١)].

قال السعدي: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفع اللَّه ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعريف بإدريس -عليه الصلاة والسلام- وأن اللَّه رفعه مكانا عليا

* عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه، قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَير، قال اللَّه ﷻ:** ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾»[(٣)].

* عن قتادة في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: حدثنا أنس بن مالك، أن نبي اللَّه ﷺ قال: «**لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة**»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٩٦). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١١٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٣-١٤٤)، والبخاري (١/ ٦٠٥-٦٠٦/ ٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٨-١٤٩/ ١٦٣)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٠/ ٣١٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٦/ ٣١٥٧)، وقال: «هذا حديث حسن وقد رواه سعيد بن أبي عروبة وهمام وغير=

★ **فوائد الحديثين:**

ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: باب ذكر إدريس عليه السلام. وقول اللَّه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[١].

قال الحافظ: «كأنه أشار بالترجمة إلى ما وقع فيه أنه وجده في السماء الرابعة، وهو مكان عَلِيٌّ بغير شك»[٢].

قال القسطلاني: «ولا ريب أنه موضع عَلِيّ وإن كان غيزه من الأنبياء أرفع مكانا منه»[٣].

اختلف العلماء هل كان إدريس في زمان نوح أو في زمان بني إسرائيل:

قال المازري: «ذكر المؤرخون أن إدريس جد نوح، فإن قام دليل على أن إدريس أرسل لم يصح قول النّسَّابين: إنه جد نوح، لإخبار نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «**إيتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض**»[٤]، وإن لم يقم دليل جازم، قال: وصح أن إدريس كان نبيًّا ولم يرسل. قال السهيلي: وحديث أبي ذر الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان»[٥].

قال القسطلاني: «وفي مصحف ابن مسعود (وإن إدريس لمن المرسلين)»[٦].

قال البخاري: «يذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس»[٧].

قال الحافظ: «أما قول ابن مسعود فوصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه، قال: إلياس هو إدريس ويعقوب هو إسرائيل. وأما قول ابن عباس فوصله جويبر في تفسيره عن الضحاك عنه، وإسناده ضعيف، ولهذا لم يجزم به البخاري. وقد أخذ أبو بكر بن العربي من هذا أن إدريس لم يكن جدًّا لنوح وإنما هو من بني إسرائيل؛ لأن إلياس قد ورد أنه من بني إسرائيل. واستدل على ذلك بقوله عليه السلام للنبي ﷺ: «**مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح**»، ولو كان من أجداده

= واحد عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ حديث المعراج بطوله وهذا عندنا مختصرا من ذلك».

(١) الفتح (٦/ ٤٦١).
(٢) الفتح (٦/ ٤٦٢).
(٣) إرشاد الساري (٧/ ٢٨٩).
(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٥) عمدة القاري (٣/ ٢٥٢).
(٦) إرشاد الساري (٧/ ٢٨٦).
(٧) الفتح (٦/ ٤٦٨).

لقال له كما قال له آدم وإبراهيم: «**والابن الصالح**» وهو استدلال جيد إلا أنه قد يجاب عنه بأنه قال ذلك على سبيل التواضع والتلطف، فليس ذلك نصا فيما زعم»[١].

قال ابن كثير: «وهذا لا يدل ولا بد لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيدا أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات اللَّه عليهم أجمعين»[٢].

* * *

(١) الفتح (٦/ ٤٦٠).

(٢) البداية (١/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

★ غريب الآية:

بكيًا: جمع باكٍ. يقال: البكاء والبُكى بالمد والقصر. قال حسان:

بَكَتْ عيني وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا وَمَا يُغْنِي البكاءُ ولا العويلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: هؤلاء الذين اقتصصتُ عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد، الذين أنعم اللَّه عليهم بتوفيقه، فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء من ذريّة آدم، ومن ذرّية من حملنا مع نوح في الفُلك، ومن ذرّية إبراهيم خليل الرحمن، ومن ذرّية إسرائيل، وممن هدينا للإيمان باللَّه والعمل بطاعته واجتبينا: يقول: وممن اصطفينا واخترنا لرسالتنا ووحينا، فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم. .

وقوله -تعالى ذكره-: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يقول: إذا تتلى على هؤلاء الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين أدلة اللَّه وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه، خروا لله سجدًا، استكانة له وتذللًا وخضوعا لأمره وانقيادًا، ﴿وَبُكِيًّا﴾ يقول: خرُّوا سجدًا وهم باكون، والبُكِيّ: جمع باك، كما العُتِيّ جمع عات والجُثِيّ: جمع جاث»[1].

(١) جامع البيان (١٦/ ٩٧-٩٨).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: هؤلاء النبيون، وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام. استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾»[1].

وقال: «الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليه السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «**مرحبا بالنبي الصالح، والأخ الصالح**»، ولم يقل: «**والولد الصالح**»، كما قال آدم وإبراهيم، عليهما السلام..

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2] إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾[4]»[5].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ بين فيه أن هؤلاء الأنبياء المذكورين إذا تتلى عليهم آيات ربهم بكَوا وسجدوا.

وأشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر بالنسبة إلى المؤمنين لا خصوص الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾[6]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤١).
(٢) الأنعام: الآيات (٨٣-٨٧).
(٣) الأنعام: الآية (٩٠).
(٤) غافر: الآية (٧٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٢).
(٦) الإسراء: الآيات (١٠٧-١٠٩).

﴿مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[(٣)]. فكل هذه الآيات فيها الدلالة على أنهم إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تأثرًا عظيمًا، يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود. ولبعضهم قشعريرة الجلد ولين القلوب والجلود، ونحو ذلك»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بكائه ﷺ

* عن عبد اللَّه بن الشخير قال: «**رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ**»[(٥)].

⋆ غريب الحديث:

أزيز الرحا: صوتها وجرجرتها.

⋆ فوائد الحديث:

قال القاري: «**«من البكاء»** أي: من أجله أو بسببه، وهذا دليل على كمال خوفه وخشيته وخضوعه في عبوديته، ومن ثم قال الرسول ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»[(٦)]، وقال: «**إني لأعلمكم باللَّه وأشدكم له خشية**»[(٧)] رواهما البخاري، وروى مسلم: «**والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت**

---

(١) المائدة: الآية (٨٣).

(٢) الأنفال: الآية (٢).

(٣) الزمر: الآية (٢٣).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٣٣٠).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود (١/ ٥٥٧/ ٩٠٤)، والترمذي في «الشمائل» (٢٧٦ المختصر)، والنسائي (٣/ ١٨/ ١٢١٣)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٥٣/ ٩٠٠)، وابن حبان (٢/ ٤٣٩/ ٦٦٥). الحاكم (١/ ٢٦٤) ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٣)، والبخاري (١١/ ٦٤٣/ ٦٦٣٧)، والترمذي (٤/ ٤٨٢/ ٢٣١٣).

(٧) أخرجه أحمد (٦/ ١٦)، والبخاري (١/ ٩٥/ ٢٠)، ومسلم (٢/ ٧٨١/ ١١١٠)، وأبو داود (٢/ ٧٨٢-٧٨٣/ ٢٣٨٩).

لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[1] قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**رأيت الجنة والنار**»، فجمع له بين علم اليقين وعين اليقين، فلمع له حق اليقين. والخشية أخص من الخوف؛ إذ هي خوف مقرون بتعظيم ناشئ عن معرفة كاملة»[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٢)، ومسلم (١/ ٣٢٠/ ٤٢٦)، والنسائي (٣/ ٩٢/ ١٣٦٢).

(٢) جمع الوسائل في شرح الشمائل (٢/ ١١٦).

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠ ﴾

★ غريب الآية:

خَلْفٌ: الخَلْفُ: بسكون اللام الذي يَخْلُف سَلَفَهُ في الشر. وبفتحها الذي يَخْلُفه في الخير. قال لبيد:

ذهب الذين يُعَاشُ في أكنافهم ... وبقيت في خَلْف كجلد الأجرب

غَيًّا: أي: هلاكًا وضلالًا. وضد الغي: الرشد. قال طرفة:

سادرًا أحسبُ غيّي رشدا ... فتناهيت وقد صابتْ بقُرْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حزْبَ السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود اللَّه وأوامره، المؤدين فرائض اللَّه، التاركين لزواجره، ذكر أنه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي: قرون أخر، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا؛ أي: خَسَارًا يوم القيامة»[1].

قال القرطبي: «قال أبو حاتم: الْخَلْفُ بسكون اللام: الأولاد؛ الواحد والجميع فيه سواء. والْخَلَفُ بفتح اللام: البدل ولدا كان أو غريبًا، وقال ابن الأعرابي: الخَلَفُ بالفتح الصالح وبالجزم الطالح قال لبيد:

ذهب الذين يُعَاشُ في أكنافهم ... وبقيت في خَلْف كجلد الأجرب

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٣).

ومنه قيل للرديء من الكلام: خَلْف، ومنه المثل السائر: سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خَلْفًا، فَخَلْف في الذم بالإسكان، وخَلَف بالفتح في المدح، هذا هو المستعمل المشهور؛ قال ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**»[١]، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر»[٢].

قال الشنقيطي: «اختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها تأخيرها عن وقتها. وممن يروى عنه هذا القول ابن مسعود، والنخعي، والقاسم بن مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح.

وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج.

وقال بعضهم: المراد بإضاعتها حجد وجوبها. ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي، وقيل: إضاعتها إقامتها في غير الجماعات. وقيل: إضاعتها تعطيل المساجد، والاشتغال بالصنائع والأسباب.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه وغفر له-: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها، كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت.

واختلف العلماء أيضًا في الخلف المذكورين من هم؟ فقيل: هم اليهود؛ ويروى عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: هم اليهود والنصارى، ويروى عن السدي. وقيل: هم قوم من أمة محمد ﷺ يأتون عند ذهاب الصالحين منها، يركب بعضهم بعضا في الأزقة زنًى. ويروى عن مجاهد وعطاء وقتادة ومحمد بن كعب القرظي. وقيل: إنهم البربر، وقيل: إنهم أهل الغرب. وفيهم أقوال أخر.

قال مقيدة عفا اللَّه عنه: وكونهم من أمة محمد ﷺ ليس بوجيه عندي؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ صيغة تدل على الوقوع في الزمن الماضي، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى. والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحيهم قبل نزول الآية،

---

(١) تقدم تخريجه في سورة آل عمران.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣١٠-٣١١).

فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات. وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية، واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر اللَّه وعن الصلاة»[١].

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ اعلم أولًا أن العرب تطلق الغي على كل شر. والرشاد على كل خير. قال المرقش الأصغر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لاَ يُعْدَمْ عَلَى الغَيِّ لاَئِمًا

فقوله: (ومن يغو) يعني ومن يقع في شر. والإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال. وفي المراد بقوله: ﴿غَيًّا﴾ في الآية أقوال متقاربة، منها: أن الكلام على حذف مضاف، أي فسوف يلقون جزاء غَيٍّ، ولا شك أنهم سيلقون جزاء ضلالتهم..

ومنها: أن الغي في الآية الخسران والحصول في الورطات.. وقال بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿غَيًّا﴾ في الآية: واد في جهنم من قيح؛ لأنه يسيل فيه قيح أهل النار وصديدهم.. والظاهر أنه لم يصح في ذلك شيء عن النَّبي ﷺ.. وقيل: إن معنى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي ضلالًا في الآخرة عن طريق الجنة.. وفيه أقوال أخر، ومدار جميع الأقوال في ذلك على شيء واحد، وهو: أن أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات سوف يلقون يوم القيامة عذابًا عظيمًا.

فإذا عرفت كلام العلماء في هذه الآية الكريمة، وأن اللَّه تعالى توعد من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغي الذي هو الشر العظيم والعذاب الأليم؛ فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[٢]، وقوله في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣]، وقوله فيهم أيضًا: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٣٢-٣٣٣).
(٢) الماعون: الآيات (٤-٧).
(٣) النساء: الآية (١٤٢).

وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[١]، وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتبعون الشهوات وتهديدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن اللّه يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وذلك لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، وفي الحديث الآخر: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٦]؛ ولهذا لا يُنْقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئًا، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هَدَرًا وترك نسيا، وذهب مَجَّانا، من كرم الكريم، وحلم الحليم.

وهذا الاستثناء هاهنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٧]»[٨].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ يقول: ولا يُبْخسون من جزاء أعمالهم شيئًا، ولا يجمع بينهم وبين الذين هلكوا من الخلف السوء منهم قبل

---

(١) التوبة: الآية (٥٤).
(٢) محمد: الآية (١٢).
(٣) الحجر: الآية (٣).
(٤) المرسلات: الآيتان (٤٦و٤٧).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٣٣٣-٣٣٥).
(٦) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤١٩-١٤٢٠/ ٤٢٥٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٥/ ١٠٢٨١) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٧/ ١٠٨). قال السندي في حاشيته على ابن ماجه: «الحديث ذكره صاحب الزوائد في زوائده وقال: إسناده صحيح رجاله ثقات. ثم ضرب على ما قال، وأبقى الحديث على الحال. وفي المقاصد الحسنة: رواه ابن ماجه والطبراني في الكبر والبيهقي في الشعب من طريق أبي عبد اللّه بن عبد اللّه بن مسعود عن أبيه رفعه، ورجاله ثقات، بل حسنه شيخنا. يعني لشواهده، وإلا فأبو عبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع من أبيه».
(٧) الفرقان: الآيات (٦٨-٧٠).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٦).

توبتهم من ضلالهم، وقبل إنابتهم إلى طاعة ربهم في جهنم، ولكنهم يدخلون مدخل أهل الإيمان»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حكم تارك الصلاة

* عن بشير بن أبي عمرو الخولاني، أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ تلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ فقال ﷺ: **«يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر»**.

قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به[٢].

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»**[٣].

* عن بريدة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»**[٤].

★ فوائد الأحاديث:

هذه الأحاديث استدل بها من ذهب إلى تكفير تارك الصلاة، وهذه مسألة اختلف فيها أهل العلم رحمهم اللَّه، وفيما يلي بيان لذلك:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨)، الحاكم (٢/ ٣٧٤) وصححه ووافقه الذهبي. وابن حبان (٣/ ٣٢/ ٧٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٨٨/ ٨٢)، وأبو داود (٥/ ٥٨-٥٩/ ٤٦٧٨)، والترمذي (٥/ ١٤-١٥/ ٢٦٢٠)، والنسائي (١/ ٢٥١/ ٤٦٣)، وابن ماجه (١/ ٣٤٢/ ١٠٧٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦ و٣٥٥)، والترمذي (٥/ ١٥/ ٢٦٢١)، وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي (١/ ٢٥٠/ ٢٦٢)، وابن ماجه (١/ ٣٤٢/ ١٠٧٩)، وصححه ابن حبان (٤/ ٣٠٥/ ١٤٥٤)، والحاكم (١/ ٦-٧)، ووافقه الذهبي.

أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثْمَه عند اللَّه أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة اللَّه وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة. ثم اختلفوا في قتله وفي كيفية قتله وفي كفره»[١].

أدلة من كفَّر تارك الصلاة، والكلام على ذلك:

استدل القائلون بكفر تارك الصلاة بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع:

أولًا: الأدلة من القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[٢].

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «فوجه الدلالة من الآية: أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحُكمه، ثم ذكر أحوال المجرمين، الذين هم ضد المسلمين، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.. وأنهم يُدْعون إلى السجود لربهم تبارك وتعالى، فيُحال بينهم وبينه، فلا يستطيعون السجود مع المسلمين، عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا، وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين، الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون، كميامن البقر، ولو كانوا من المسلمين؛ لأُذن لهم بالسجود، كما أُذن للمسلمين»[٣].

وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾[٤].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال، هو الذي سلكهم في سقر، وجعلهم من المجرمين، أو مجموعها:

فإن كان كل واحد منها مستقلًا بذلك؛ فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة؛ فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم، وإلا فكل واحد منها، مقتضٍ للعقوبة، إذ لا يجوز أن يُضَم ما لا تأثير له في العقوبة، إلى ما هو مستقل بها،

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص: ١٦).
(٢) القلم: الآيتان (٤٢-٤٣).
(٣) الصلاة وحكم تاركها (ص ٣٧-٣٨).
(٤) المدثر: الآيات (٤٢-٤٧).

ومعلوم أن ترك الصلاة، وما ذُكر معه، ليس شرطا في العقوبة على التكذيب بيوم الدين، بل هو وحده كافٍ في العقوبة، فدلّ على أن كل وصف ذُكر معه كذلك، إذْ لا يمكن لقائل أن يقول: لا يُعذَّب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة، فإذا كان كل واحد منها موجبًا للإجرام، وقد قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾[٢]، فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين[٣].

وقال محمد بن نصر المروزي بعد أن ذكر الآيات: «فلم يذكروا شيئًا من الأعمال عُذِّبوا عليها، قبل تركهم الصلاة»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... إذا عُرف هذا؛ فالوعيد بالويل اطرد في القرآن للكفار، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٧] وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٨]. إلا في موضعين، وهما: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٩]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[١٠]، فعلق الويل بالتطفيف وبالهمز واللمز، وهذا لا يكفر به بمجرده، فَوَيْلُ تارك الصلاة؛ إما أن يكون ملحقًا بويل الكفار، أو بويل الفساق»[١١].

قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[١٢]:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فوجه الدلالة من الآية: أن اللَّه سبحانه، جعل هذا

---

(١) القمر: الآيتان (٤٧-٤٨).
(٢) المطففين: الآية (٢٩).
(٣) الصلاة وحكم تاركها (ص ٣٨).
(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٧).
(٥) الماعون: الآيتان (٤-٥).
(٦) فصلت: الآيتان (٦-٧).
(٧) الجاثية: الآيات (٧-٩).
(٨) إبراهيم: الآية (٢).
(٩) المطففين: الآية (١).
(١٠) الهمزة: الآية (١).
(١١) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٤٠).
(١٢) مريم: الآية (٥٩).

المكان من النار، لمن أضاع الصلاة، واتبع الشهوات، ولو كان مع عصاة المسلمين؛ لكانوا في الطبقة العليا من طبقات النار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو أسفلها، فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام، بل من أمكنة الكفار، وفي الآية دليل آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[1]، فلو كان مضيع الصلاة مؤمنًا؛ لم يُشترط في توبته الإيمان، وأنه يكون تحصيلًا للحاصل»[2].

قال المروزي: «ثنا إسحاق بن إبراهيم أنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ إهـ، قال: أضاعوها عن مواقيتها»[3].

وقال: «ثم توعد بالعذاب من أضاعها أو سها عنها فصلاها في غير وقتها أو رَايَا بها فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[4]»[5].

قال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: «اختلف أهل التأويل في إضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: كانت إضاعتهموها تأخيرهم إياها عن مواقيتها وتضييعهم أوقاتها.. وقال آخرون: بل إضاعتهموها تركها.. وأولى التأويلين في ذلك عندي بتأويل الآية قول من قال: إضاعتهموها تركها إياها لدلالة قول الله -تعالى ذكره- بعده على أن ذلك كذلك، وذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين؛ لم يستثن منهم من آمن، وهم مؤمنون، ولكنهم كانوا كفارًا، لا يصلون لله، ولا يؤدون له فريضة، فَسَقَةً، قد آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله»[6].

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[7]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعلَّق أُخُوَّتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا؛ لم

---

(١) مريم: الآيتان (٥٩-٦٠).

(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص ٤١).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٢/ ٣٩).

(٤) مريم: الآية (٥٩).

(٥) رواه الطبري (١٦/ ٧٤).

(٦) جامع البيان (١٦/ ٩٨-٩٩).

(٧) التوبة: الآية (١١).

يكونوا إخوة للمؤمنين، فلا يكونون مؤمنين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]»[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين: «ووجه الدلالة من الآية الأولى -آية سورة التوبة- أن اللَّه تعالى اشترط لثبوت الأخوة بيننا وبين المشركين ثلاثة شروط:

أن يتوبوا من الشرك.

أن يقيموا الصلاة.

أن يؤتوا الزكاة.

فإن تابوا من الشرك، ولم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، فليسوا بإخوة لنا. وإن أقاموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، فليسوا بإخوة لنا.

والأخوة في الدين لا تنتفي إلا حيث يخرج المرء من الدين بالكلية، فلا تنتفي بالفسوق والكفر دون الكفر.

ألا ترى إلى قوله تعالى في آية القتل: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[٣]. فجعل اللَّه القاتل عمدًا أخًا للمقتول، مع أن القتل عمدًا من أكبر الكبائر، لقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٤]، ثم ألا تنظر إلى قوله تعالى في الطائفتين من المؤمنين إذا اقتتلوا: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[٥]، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٦]. فأثبت اللَّه تعالى الأخوة بين الطائفة المصلحة والطائفتين المقتتلتين، مع أن قتال المؤمن من الكفر، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[٧].

---

(١) الحجرات: الآية (١٠).

(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٤١-٤٢).

(٣) البقرة: الآية (١٧٨).

(٤) النساء: الآية (٩٣).

(٥) الحجرات: الآية (٩).

(٦) الحجرات: الآية (١٠).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٥ و٤٣٣ و٤٣٩ و٤٤٦ و٤٥٤-٤٥٥). والبخاري (١/ ١٤٧/ ٤٨). ومسلم (١/ ٨١/ ٦٤). الترمذي (٤/ ٣١١/ ١٩٨٣) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (٨/ ١٣٧-١٣٩/ ٤١١٥-٤١٢٤). وابن ماجه (١/ ٢٧/ ٦٩). وفي الباب عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن النعمان بن مقرن وعبد اللَّه بن مغفل.

لكنه كفر لا يخرج من الملة، إذ لو كان مخرجًا من الملة ما بقيت الأخوة الإيمانية معه. والآية الكريمة قد دلت على بقاء الأخوة الإيمانية مع الاقتتال.

وبهذا علم أن ترك الصلاة كفر مخرج عن الملة، إذ لو كان فسقًا أو كفرًا دون كفر، ما انتفت الأخوة الدينية به، كما لم تنتف بقتل المؤمن وقتاله.

فإن قال قائل: هل ترون كفر تارك إيتاء الزكاة كما دل عليه مفهوم آية التوبة؟

قلنا: كفر تارك إيتاء الزكاة قال به بعض أهل العلم، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

ولكن الراجح عندنا أنه لا يكفر، لكنه يعاقب بعقوبة عظيمة، ذكرها اللَّه تعالى في كتابه، وذكرها النبي ﷺ في سنته، ومنها ما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ ذكر عقوبة مانع الزكاة، وفي آخره: «**ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار**». وقد رواه مسلم بطوله في: باب إثم مانع الزكاة[١]، وهو دليل على أنه لا يكفر، إذ لو كان كافرًا ما كان له سبيل إلى الجنة.

فيكون منطوق هذا الحديث مقدمًا على مفهوم آية التوبة؛ لأن المنطوق مقدم على المفهوم كما هو معلوم في أصول الفقه»[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلما كان الإسلام تصديق الخبر، والانقياد للأمر؛ جعل سبحانه له ضدين، عدم التصديق، وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فكما أن المكذِّب كافر، فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب؛ يزول بالتولي عن الصلاة، قال سعيد عن قتادة: لا صدَّق ولا صَلَّى: لا صدق بكتاب اللَّه ولا صلى لله ولكن كذب بآيات اللَّه وتولى عن طاعته»[٤].

قال المروزي: «وقال اللَّه تعالى فيما يوبخ به الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ ولم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٢-٣٨٣)، ومسلم (٢/ ٦٨٠/ ٩٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٨/ ١١٦٢١) مختصرًا.

(٢) رسالة في حكم تارك الصلاة (ص٤-٦).

(٣) القيامة: الآيتان (٣١-٣٢).

(٤) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٤٢).

يضم إلى التصديق غير الصلاة ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فالكذب ضد التصديق، والتولي ترك الصلاة وغيرها من الفرائض، ثم أوعده وعيدًا بعد وعيد فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[1] ويقال إنها نزلت في أبي جهل»[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووجه الاستدلال بالآية أن الله حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن الصلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلا للكفار، فإن المسلم ولو خسر بذنوبه ومعاصيه فآخر أمره إلى الربح؛ يوضحه أنه ﷺ أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد: أحدهما: إتيانه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه دون الفعل الدال على التجدد والحدوث. الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم، فإنك إذا قلت زيد العالم الصالح أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له بخلاف قولك: عالم صالح. الثالث: إتيانه سبحانه بالمبتدأ والخبر معرفتين وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[6]»[7].

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[8].

قال المروزي: «فبيَّن أن علامة أن يكون من المشركين، ترك الصلاة»[9].

وقد بوب البخاري في كتاب الصلاة من صحيحه بهذا الآية، وأورد بعدها حديث وفد عبد القيس على النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر: «هذه الآية مما استدل به من يرى تكفير تارك الصلاة لما يقتضيه مفهومها. وأجيب بأن المراد أن ترك الصلاة من أفعال المشركين، فورد النهي

---

(١) القيامة: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٢) تعظيم قدر الصلاة: (١/ ١٢٩).
(٣) المنافقون: الآية (٩).
(٤) البقرة: الآية (٥).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٦) الأنفال: الآية (٤).
(٧) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٤٢-٤٣).
(٨) الروم: الآية (٣١).
(٩) تعظيم قدر الصلاة: (٢/ ١٠٠٥-١٠٠٦).

عن التشبه بهم، لا أن من وافقهم في الترك صار مشركا . وهي من أعظم ما ورد في القرآن في فضل الصلاة . ومناسبتها لحديث وفد عبد القيس أن في الآية اقتران نفى الشرك بإقامة الصلاة، وفي الحديث اقتران إثبات التوحيد باقامتها»[1] .

قال ابن بطال: «قرن اللَّه التُّقى ونفى الإشراك به تعالى بإقامة الصلاة، فهي أعظم دعائم الإسلام بعد التوحيد، وأقرب الوسائل إلى اللَّه تعالى، ومفهوم هذه الآية يدل أنه من لم يقم الصلاة فهو مشرك، ولذلك قال عمر: «**ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**»»[2] .

الأدلة من السنة:

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن بين الرجل، وبين الشرك والكفر؛ ترك الصلاة**»[3] .

وورد هذا الحديث بألفاظ منها:

«**بين الكفر والإيمان؛ ترك الصلاة**» وهذا لفظ الترمذي.

«**ليس بين العبد، وبين تركه الإيمان؛ إلا تركه الصلاة**» عند أحمد وغيره.

«**ليس بين العبد وبين الكفر أو قال الشرك إلا أن يدع صلاة مكتوبة**» عند المروزي في كتابه تعظيم قدر الصلاة[4] .

قال الشنقيطي: «وهو واضح في أن تارك الصلاة كافر؛ لأن عطف الشرك على الكفر فيه تأكيد قوي لكونه كافرا»[5] .

قال البيهقي: «ليس من العبادات بعد الإيمان الرافع للكفر عبادة سماها اللَّه ﷻ إيمانا، وسمى رسول اللَّه ﷺ تركها كفرا إلا الصلاة»[6] .

قال الشوكاني: «والحق أنه كافر يقتل، أما كفره فلأن الأحاديث قد صحت أن

(١) فتح الباري (٢/ ٧).
(٢) شرح صحيح البخاري (٣/ ١٩٠).
(٣) أخرجه مسلم (١/ ٨٨/ ٨٢)، وأبو داود (٥/ ٥٨-٥٩/ ٤٦٧٨)، والترمذي (٥/ ١٤-١٥/ ٢٦٢٠)، والنسائي (١/ ٢٥١/ ٤٦٣)، وابن ماجه (١/ ٣٤٢/ ١٠٧٨).
(٤) تعظيم قدر الصلاة (٨٩٠).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٣٣٦).
(٦) شعب الإيمان (٣/ ٣٣).

الشارع سمى تارك الصلاة بذلك الاسم وجعل الحائل بين الرجل وبين جواز إطلاق هذا الاسم عليه هو الصلاة، فتركها مقتض لجواز الإطلاق»[١].

* عن بريدة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»**[٢].

قال العراقي: «الضمير في قوله: بينهم، يعود على الكفار أو المنافقين؛ معناه: بين المسلمين والكافرين والمنافقين ترك الصلاة. . فالمراد أنهم ما داموا يصلون فالعهد الذي بينهم وبين المسلمين من حقن الدم باق»[٣].

* وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ليس بين العبد والشرك، إلا ترك الصلاة، فإذا تركها؛ فقد أشرك»**[٤].

* وعن ثوبان ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك»**[٥].

* عن بُسْر بن محجن عن أبيه محجن، أنه كان في مجلس مع رسول اللَّه ﷺ، فأُذِّن بالصلاة، فقام رسول اللَّه ﷺ فصلى، ثم رجع، ومحجن في مجلسه، لم يصلِّ معه، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«ما منعك أن تصلي مع الناس؟ ألست برجل مسلم؟»** قال: بلى، يا رسول اللَّه، ولكني صليت في أهلي، فقال له: **«إذا جئت؛ فصلِّ مع الناس، وإن قد كنت صليت»**[٦].

قال ابن عبد البر: «في هذا واللَّه أعلم دليل على أن من لا يصلي؛ ليس بمسلم،

---

(١) نيل الأوطار (١/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦ و٣٥٥) والترمذي (٥/ ١٥/ ٢٦٢١) وابن ماجه (١/ ٣٤٢/ ١٠٧٩) وصححه ابن حبان (٤/ ٣٠٥/ ١٤٥٤) والحاكم (١/ ٤٨).

(٣) طرح التثريب (٢/ ١٤٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٣٤٢/ ١٠٨٠) وابن نصر المروزي (٢/ ٨٧٩/ ٨٩٧) ولفظه: «عن يزيد الرقاشي قال: قلت لأنس ﷺ: إن ههنا قوما يكذبون بالحوض والشفاعة ويشهدون علينا بالكفر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: بين العبد والكفر ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك، ثم ذكر أمر الحوض والشفاعة». قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي. لكن للحديث شواهد يتقوى بها.

(٥) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٩٠٢-٩٠٣/ ١٥٢١) وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤ و٣٣٨) والنسائي (٢/ ٤٤٧/ ٨٥٦) وصححه ابن حبان (٦/ ١٦٥/ ٢٤٠٥) والحاكم (١/ ٢٤٤) وحسنه البغوي في شرح السنة (٣/ ٤٣٠/ ٨٥٦).

وإن كان موحدًا، وهذا موضع اختلاف بين أهل العلم، وتقرير هذا الخطاب في هذا الحديث: أن أحدًا لا يكون مسلمًا؛ إلا أن يصلي، فمن لم يصل؛ فليس بمسلم»[١].

قال ابن القيم: «جعل الفارق بين المسلم والكافر؛ الصلاة، وأنت تجد تحت ألفاظ الحديث: «**إنك لو كنت مسلمًا؛ لصليت**»، وهذا كما تقول: مالك لا تتكلم؟ ألسْت بناطق؟ وما لك لا تتحرك، ألسْت بحيٍّ؟ ولو كان الإسلام يثبت مع عدم الصلاة؛ لما قال لمن رآه لا يصلي: «**ألسْت برجل مسلم**»»[٢].

* عن عبد اللَّه بن عَمرو ﵄ عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا، فقال: «**من حافظ عليها؛ كانت له نورًا، وبرهانًا، ونجاة من النار يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها؛ لم تكن له نورًا، ولا نجاة، ولا برهانًا، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبيّ بن خلف**»[٣].

قال الشنقيطي: «هذا الحديث أوضح دليل على كفر تارك الصلاة؛ لأن انتفاء النور والبرهان والنجاة، والكينونة مع فرعون وهامان وقارون وأُبَي بن خلف يوم القيامة أوضح دليل على الكفر كما ترى»[٤].

قال ابن القيم: «وإنما خص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم من رؤوس الكفرة، وفيه نكتة بديعة وهو أن تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رئاسته أو تجارته، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رئاسةُ وِزَارَةٍ فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أُبَيّ بن خلف»[٥].

* عن أم سلمة ﵂ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ستكون أمراء، فتعرفون وتُنكرون، فمن عرف، برئ، ومن أنكر؛ سلم، ولكن من رضي وتابع**» قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلَّوْا**»[٦].

---

(١) التمهيد (٤/ ٢٢٤).

(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص ٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩) والدارمي (٢/ ٣٠١-٣٠٢) وصححه ابن حبان (٤/ ٣٢٩/ ١٤٦٧) من حديث عبد اللَّه ابن عمرو بن العاص ﵁.

(٤) أضواء البيان (٤/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٥) الصلاة وحكم تاركها (ص ٤٦-٤٧).

(٦) رواه أحمد (٦/ ٢٩٥). ومسلم (٣/ ١٤٨٠/ ١٨٥٤). وأبو داود (٥/ ١١٩/ ٤٧٦٠) والترمذي (٤/ ٤٥٨/ ٢٢٦٥).

* عن عوف بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**»، قيل يا رسول اللَّه، أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»[1].

* عن عبادة بن الصامت قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: «**أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأُثْرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم من اللَّه فيه برهان**»[2].

قال الشنقيطي: «"ما" في قوله "ما صلوا" مصدرية ظرفية. أي لا تقاتلوهم مدة كونهم يصلون. ويفهم منه أنهم إن لم يصلوا قوتلوا، وهو كذلك، مع أنه ﷺ قال في حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من اللَّه فيه برهان**»، فحديث أم سلمة هذا ونحو حديث عوف بن مالك الآتي يدل على قتل من لم يصل، وبضميمة حديث عبادة بن الصامت إلى ذلك يظهر الدليل على الكفر بترك الصلاة؛ لأنه قال في حديث عبادة بن الصامت: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا..**» الحديث. وأشار في حديث أم سلمة وعوف بن مالك: إلى أنهم إن تركوا الصلاة قوتلوا. فدل ذلك على أن تركها من الكفر البواح. وهذا من أقوى أدلة أهل القول الأول»[3].

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بسبع: «**لا تشرك باللَّه شيئًا وإن قطعت أو حرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدا فمن تركها عمدا فقد برئت منه الذمة**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٥)، ومسلم (٣/ ١٤٨١/ ١٨٥٤(٦٣))، وأبو داود (٥/ ١١٩/ ٤٧٦٠)، والترمذي (٤/ ٤٥٨/ ٢٢٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٤)، والبخاري (١٣/ ٦/ ٧٠٥٥-٧٠٥٦)، ومسلم (٣/ ١٤٧٠/ ١٧٠٩)، والنسائي (٧/ ١٥٥/ ٤١٦٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٧/ ٢٨٦٦).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٩/ ٤٠٣٤)، والبيهقي في الشعب (٥/ ١١/ ٥٥٨٩)، وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٠٤): «هذا إسناد حسن، شهر مختلف فيه». وله شاهد من=

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو كان باقيًا على إسلامه؛ لكانت له ذمة الإسلام»[١].

* عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم، الذي له ذمة اللَّه وذمة رسوله، فلا تُخْفِروا اللَّه في ذمته**».

وفي رواية: «**أمرت أن أقاتل الناس؛ حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله**».

وفي رواية: «**من شهد أن لا إله إلا اللَّه، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم**»[٢].

قال ابن عبدالبر: «قالوا: هذا دليل على أن من لم يصل صلاتنا، ولم يستقبل قبلتنا، فليس بمسلم»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووجه الدلالة فيه من وجهين: أحدهما: أنه إنما جعله مسلما بهذه الثلاثة، فلا يكون مسلما بدونها. الثاني: أنه إذا صلى إلى الشرق، لم يكن مسلما حتى يصلي إلى قبلة المسلمين فكيف إذا ترك الصلاة بالكلية»[٤].

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أمتي يُدْعَوْن أو يأتون يوم القيامة، غُرًّا مُحَجلين من أثر الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته؛ فليفعل**»[٥].

= حديث معاذ رضي الله عنه رواه: أحمد (٥/ ٢٣٨) بإسناد فيه انقطاع. ورواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٢-٨٣/ ١٥٦)، والأوسط (٨/ ٤٦٠/ ٧٩٥٢)، وفيه عمرو بن واقد القرشي وهو كذاب. وشاهد من حديث أم أيمن مولاة رسول اللَّه ﷺ رواه: البيهقي في الشعب (٦/ ١٨٨/ ٧٨٦٥)، وله شاهد آخر من حديث أميمة مولاة رسول اللَّه ﷺ رواه: الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٩٠/ ٤٧٩)، وفيه يزيد بن سنان الرهاوي. قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٧): «وثقه البخاري وغيره. والأكثر على تضعيفه وبقية رجاله ثقات». ورواه عبدالرزاق (١١/ ١٣٢/ ٢٠١٢٢) عن إسماعيل بن أمية مرسلا. ورواه الطبراني و ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٩). قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٦): «وفيه سلمة بن شريح قال الذهبي: لا يعرف، وبقية رجاله رجال الصحيح». فالحديث بهذه الشواهد صحيح واللَّه تعالى أعلم.

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٦٥٣-٦٥٤/ ٣٩١-٣٩٣). والنسائي (٨/ ٤٧٩/ ٥٠١٢).

(٣) التمهيد (٤/ ٢٢٨).

(٤) الصلاة وحكم تاركها (ص٤٨-٤٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٤و٣٦٢و٤٠٠و٥٢٣)، والبخاري (١/ ٣١٣/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ٢١٦/ ٢٤٦[٣٥])، =

قال شيخ الإسلام: «فدل ذلك على أن من لم يكن غرا محجلا، لم يعرفه النبي ﷺ، ومن لم يعرفه النبي ﷺ فلا يكون من أمته»[1].

* عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[2].

قال الإمام أحمد: «ألست تعلم أن الفسطاط[3] إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطُّنُب ولا بالأوتاد، وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطُّنُب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام»[4].

قال ابن القيم: «ووجه الاستدلال به أنه أخبر أن الصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الخيمة، فكما تسقط الخيمة بسقوط عمودها فهكذا يذهب الاسلام بذهاب الصلاة، وقد احتج أحمد بهذا بعينه»[5].

* عن عبد اللَّه بن مسعود يقول: «إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وإن آخر ما يبقى من دينكم الصلاة، وليصلينّ القوم (الذين) لا دين لهم، ولَيُنْزعَنّ القرآن من بين أظهركم»، قالوا: يا أبا عبدالرحمن، ألسنا نقرأ القرآن، وقد أثبتناه في مصاحفنا؟ قال: «يُسرى عليه ليلًا، فيُذْهب به من أجواف الرجال، فلا يبقى منه شيء»[6].

= قال الحافظ المنذري في الترغيب (١/ ١٤٩): وقد قيل إن قوله: «من استطاع..» إلى آخره إنما هو مدرج من كلام أبي هريرة موقوف عليه ذكره غير واحد من الحفاظ واللَّه أعلم. وقال الحافظ في الفتح (١/ ٣١٤): ..ثم إن ظاهره أنه من بقية الحديث، لكن رواه أحمد من طريق فليح (٢/ ٣٣٤و٥٢٣) عن نعيم وفي آخره: قال نعيم: لا أدري قوله «من استطاع..» إلخ من قول النبي ﷺ أو من قول أبي هريرة، ولم أر هذه الجملة في رواية أحد ممن روى هذا الحديث من الصحابة وهم عشرة ولا ممن رواه عن أبي هريرة غير رواية نعيم هذه واللَّه أعلم. اهـ.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٥-٢٤٦)، والترمذي (٥/ ١٣/ ٢٦١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥/ ٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤)، والحاكم (٢/ ٤١٢-٤١٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) الفُسطَاطُ بيت من شعر وفيه لغات فَسْطاطٌ و فُسْتاطٌ و فُسَّاطٌ بتشديد السين وكسر الفاء لغة فيهن فصارت ست لغات.

(٤) نقله عنه ابن القيم في كتاب الصلاة (ص: ٢١).

(٥) الصلاة وحكم تاركها (ص٤٨).

(٦) أخرجه عبدالرزاق (٣/ ٣٦٣/ ٥٩٨١)، والطبراني في الكبر (٩/ ١٤١/ ٨٦٩٨)، والحاكم (٤/ ٥٠٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٥١-٥٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٩).

قال الإمام أحمد: «فصلاتنا آخر ديننا وهي أول ما نسأل عنه غدا من أعمالنا يوم القيامة فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام». وقال: «كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه»(١).

* عن أنس ﷺ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ، يُغِيرُ إذا طلع الفجر، وكان يسمع الأذان، فإن سمع أذانًا؛ أمسك، وإلا أغار»(٢).

«ووجه الدلالة منه: أن عدم الأذان، دليل على عدم الصلاة، وأن عدم الصلاة دليل على أن القرية مشركة باللَّه ﷻ، وظاهر هذا في الإغارة على المشركين، لا على القرية المسلمة التي تمتنع عن الأذان، ولكنها تؤدي الصلاة، ولفظ البخاري: «**كان إذا غزا بنا قومًا، لم يكن يغزو بنا حتى يصبح، وينظر: فإن سمع أذانًا؛ كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذانًا؛ أغار عليهم. .**» الحديث، والمراد أن الأذان شعار القرى المسلمة، فمن تركه من القرى في ذلك الوقت، فليس من القرى المسلمة، ولذلك أغار عليهم النبي ﷺ، كبيرهم وصغيرهم، ولو كان هذا الحديث دليلًا على القتل فقط، لا التكفير؛ لكان القتل لمن وجبت عليه الصلاة فقط، والواقع أن الرسول ﷺ أغار على الجميع، وجعل حكم الذرية حكم المقاتلة، وهذا لا يكون إلا مع الكفر، واللَّه أعلم»(٣).

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بعث علي بن أبي طالب ﷺ إلى رسول اللَّه ﷺ من اليمن بذهبية في أديم مقروظ، لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك ﷺ فقال: «**ألا تأمنونني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء**». قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث

---

(١) نقله عنه ابن القيم في كتاب الصلاة (ص٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٦و٢٦٣)، والبخاري (٢/ ١١٤-١١٥/ ٦١٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢٧/ ١٣٦٥)، والنسائي (١/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٥٤٧)، والترمذي (٤/ ٤٠٢/ ١٥٥٠).

(٣) سبيل النجاة في بيان حكم تارك الصلاة (ص٤٨,).

اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول اللَّه اتق اللَّه، قال: «**ويلك، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**». قال: ثم ولَّى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول اللَّه، ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**»[(١)].

وقال ﷺ: «**إني نهيت عن قتل المصلين**»[(٢)].

«فجعل النبي ﷺ إقامة الصلاة مانعا من قتل من هَمَّ الصحابة بقتلهم لما رأوا فيهم من احتمال كفرهم، ولو لم يكونوا مقيمين للصلاة لم يمنع الصحابة من ذلك، كما هو ظاهر الحديثين، ولكان قتلهم إياهم لأجل أنهم كفار ليس لدمائهم عصمة، ولا يقال هنا أن تارك الصلاة يقتل حدًّا لا كفرًا، بدلالة هذين الحديثين السابقين، فإنهما لا يدلان على ذلك، وإنما يدلان على خلافه، والذي يبين ذلك أن الرسول ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة**».

وليس تارك الصلاة من أصحاب الحدود من المسلمين، بل لا يكون ذلك إلا في الزاني المحصن وليس قاتل نفس، فلم يبق إلا أن يكون إباحة دم ترك الصلاة من أجل ردته»[(٣)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلي، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[(٤)].

«قال إسحاق: واجتمع أهل العلم على أن إبليس إنما ترك السجود لآدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان في نفسه خيرًا من آدم عليه السلام فاستكبر عن السجود لآدم فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[(٥)] فالنار أقوى من الطين، فلم يشك إبليس في أن اللَّه قد أمره، ولا جحد السجود، فصار كافرا بتركه أمر اللَّه تعالى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٦٨). والبخاري (٨/ ٨٤/ ٤٣٥١) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٤١/ ١٠٦٤). وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٤٧٦٤). والنسائي (٧/ ١٣٤-١٣٥/ ٤١١٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٥/ ٢٢٤/ ٤٩٢٨).

(٣) نواقض الإيمان القولية والعملية لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف (ص٤٦٨-٤٦٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٣)، ومسلم (١/ ٨٧/ ٨١)، وابن ماجه (١/ ٣٣٤/ ١٠٥٢).

(٥) الأعراف: الآية (١٢).

واستنكافه أن يذل لآدم بالسجود له، ولم يكن تركه استنكافا عن اللَّه تعالى ولا جحودا منه لأمره، فاقْتَاسَ قوم ترك الصلاة على هذا، قالوا: تارك السجود لله تعالى وقد افترضه عليه عمدا وإن كان مقرا بوجوبه أعظم معصية من إبليس في تركه السجود لآدم؛ لأن اللَّه تعالى افترض الصلوات على عباده، اختصها لنفسه فأمرهم بالخضوع لهم بها دون خلقه، فتارك الصلاة أعظم معصية واستهانة من إبليس حين ترك السجود لآدم عليه السلام، فكما وقعت استهانة إبليس وتكبره عن السجود لآدم موقع الحجة فصار بذلك كافرا، فكذلك تارك الصلاة عمدا بغير عذر حتى يذهب وقتها كافر»[1].

الإجماع:

استدل القائلون بكفر تارك الصلاة بإجماع الصحابة رضي الله عنهم على ذلك:

* عن سليمان بن يسار أن المسور بن مخرمة أخبره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ طعن دخل عليه هو وابن عباس رضي الله عنهما، فلما أصبح من غد فزعوا فقالوا: الصلاة، ففزع فقال: نعم، لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى والجرح يثعب دما»[2].

قال ابن القيم: «فقال هذا بمحضر الصحابة ولم ينكروا عليه»[3].

وعن عبد اللَّه بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ لا يرون شيئًا من

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٣٤).

(٢) أخرجه المروزي (٢/ ٨٩٢-٨٩٦).

(٣) كتاب الصلاة (ص٥٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ١٤/ ٢٦٢٢) وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٠٥/ ٩٤٨). قال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٢٢٧): «فيه قيس بن أنيف ولم أعرفه، وقد خالفه الترمذي فلم يذكر فيه أبا هريرة وهو الصواب، لكني وجدت له شاهدا عن جابر بن عبد اللَّه بنحوه أخرجه المروزي في الصلاة».
وحديث جابر الذي أشار إليه الشيخ رواه المروزي (٢/ ٩٠٤/ ٩٤٧) واللالكائي (٢/ ٨٢٨-٨٢٩) عن أبي الزبير قال: سمعت جابرا رضي الله عنه وسأله رجل: أكنتم تعدون الذنب فيكم شركا؟ قال: لا، قال: وسئل: ما بين العبد وبين الكفر؟ قال: ترك الصلاة.

الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[1].

قال الشوكاني تعليقًا على أثر عبد اللَّه بن شقيق: «والظاهر من الصيغة أن هذه المقالة اجتمع عليها الصحابة؛ لأن قوله: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ» جمع مضاف وهو من المشعرات بذلك»[2].

قال محمد بن نصر المروزي: «ذكرنا الأخبار المروية عن النبي ﷺ في إكفار تاركها وإخراجه إياه من الملة وإباحة قتال من امتنع من إقامتها، ثم جاءنا عن الصحابة رضي اللَّه عنهم مثل ذلك ولم يجئنا عن أحد منهم خلاف ذلك»[3].

قال إسحاق بن راهويه: «قد صح عن رسول اللَّه ﷺ أن تارك الصلاة عمدًا كافر، وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر»[4].

وقال: «وقد أجمع العلماء أن من سب اللَّه ﷻ، أو سب رسوله ﷺ، أو قتل نبيًّا من أنبياء اللَّه، هو مع ذلك مقر بما أنزل اللَّه أنه كافر، فكذلك تارك الصلاة حتى يخرج وقتها عامدا»[5].

أدلة من قال بعدم كفر تارك الصلاة:

استدل من قال من أهل العلم بعدم كفر تارك الصلاة بأدلة من القرآن والسنة:

فمن القرآن:

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[6]

قالوا: فتارك الصلاة قد ارتكب كبيرة من الكبائر، وهو مسلم يشهد أن لا إله إلا اللَّه، فهو داخل تحت مشيئة اللَّه تعالى.

قال الشنقيطي: «أما أدلة أهل هذا القول على عدم كفره فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ

وسنده صحيح لأن فيه تصريحا بسماع أبي الزبير من جابر ﷺ.

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧) وقال الذهبي: «إسناده صالح».

(٢) نيل الأوطار (١/ ٣٥٥).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٢٥).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٢٩).

(٥) التمهيد (٤/ ٢٢٦).

(٦) النساء: الآية (٤٨).

ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾»[(١)].

أما من السنة:

* عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خمس صلوات، افترضهن اللَّه على عباده، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، فأتم ركوعهن، وسجودهن، وخشوعهن؛ كان له عند اللَّه عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل؛ فليس له عند اللَّه عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأجود ما اعتمدوا عليه قوله: **خمس صلوات كتبهن اللَّه..**»[(٣)]. ثم ذكر حديث عبادة رضي الله عنه.

قال ابن عبد البر: «وفيه دليل على أن من لم يصل من المسلمين في مشيئة اللَّه إذا كان موحدًا مؤمنًا بما جاء به محمد ﷺ مصدقًا مقرًّا وإن لم يعمل»[(٤)].

قال الطحاوي: «دل على أنه لم يخرج بذلك عن الإسلام فيجعله مرتدًّا مشركًا؛ لأن اللَّه تعالى لا يدخل الجنة من أشرك به لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾[(٥)] ولا يغفر له لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾»[(٦)].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده، ما منكم من أحد بأشدَّ مُنَاشَدَة لله في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة، لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون، ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه.**

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٢/ ١٣٠/ ١٤٢٠)، والنسائي (١/ ٢٤٨/ ٤٦٠)، وابن ماجه (١/ ٤٤٨-٤٤٩/ ١٤٠١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/ ١٧٤-١٧٥/ ٢٤١٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٤).

(٤) التمهيد (٢٣/ ٢٩٠).

(٥) المائدة: الآية (٧٢).

(٦) شرح مشكل الآثار (٤/ ٢٢٦).

ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير؛ فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار في خير؛ فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير؛ فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها خيرًا إلى أن قال: فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة».

إلى أن قال: «فَيَخْرُجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء اللَّه، الذين أدخلهم اللَّه الجنة، بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه...» الحديث[1].

قال الشيخ الألباني: «فالحديث دليل قاطع على أن تارك الصلاة إذا مات مسلمًا يشهد أن لا إله إلا الله: أنه لا يخلد في النار مع المشركين.

ففيه دليل قوي جدًّا أنه داخل تحت مشيئة اللَّه تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2]»[3].

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يَدْرُس الإسلام كما يَدْرُس وشي الثوب، حتى لا يُدْرَى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليُسرى على كتاب اللَّه عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا اللَّه، فنحن نقولها» فقال صلة بن زفر: ما تغني عنهم «لا إله إلا الله»، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، قال: يا صلة، تنجيهم

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦-١٧)، والبخاري (٨/ ٣١٦/ ٤٥٨١)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٦٩/ ١٨٣).

(٢) النساء: الآية (٤٨).

(٣) حكم تارك الصلاة (ص١٧).

من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار»[١].

قال الشيخ الألباني: «وفي الحديث فائدة فقهية هامة، وهي أن شهادة أن لا إله إلا الله؛ تنجي قائلها من الخلود في النار يوم القيامة، ولو كان لا يقوم بشيء من أركان الإسلام الخمسة الأخرى، كالصلاة وغيرها». ثم قال بعد أن ذكر الخلاف في حكم تارك الصلاة: «وأنا أرى أن الصواب رأي الجمهور، وأن ما ورد عن الصحابة؛ ليس نصًا على أنهم كانوا يريدون بالكفر هنا الكفر الذي يخلد صاحبه في النار، ولا يحتمل أن يغفره اللَّه له، كيف ذلك، وهذا حذيفة بن اليمان، وهو من كبار أولئك الصحابة، يرد على صلة بن زفر، وهو يكاد يفهم الأمر، على نحو فهم أحمد له، فيقول: «ما تغنى عنهم: لا إله إلا اللَّه، وهم ما يدرون لا صلاة...» فيجيبه حذيفة بعد إعراضه عنه: «يا صلة، تنجيهم من النار... ثلاثًا» قال: «فهذا نص من حذيفة ﷺ على أن تارك الصلاة، ومثلها بقية الأركان، ليس بكافر، بل هو مسلم ناج من الخلود في النار يوم القيامة، فاحفظ هذا، فإنه قد لا تجده في غير هذا المكان»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم؛ الصلاة، يقول ربنا ﷻ لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي؛ أتمها، أم نقصها؟ فإن كانت تامة؛ كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا؛ قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع؛ قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم**»[٣].

قال الشوكاني: «والحديث يدل على أن ما لحق الفرائض من النقص كملته النوافل، وأورده المصنف -يعني المجد ابن تيمية- في حجج من قال بعدم الكفر؛ لأن نقصان الفرائض أعم من أن يكون نقصا في الذات، وهو ترك بعضها، أو في

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٤٤/ ٤٠٤٩) وقال البوصيري في الزوائد: إسناد صحيح. رجاله ثقات. والحاكم (٤/ ٥٠٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وقوى إسناد ابن ماجه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٩).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٢٩/ ٨٧).

(٣) أحمد (٢/ ٤٢٥) وأبو داود (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٨٦٤) وصححه الحاكم (١/ ٢٦٢) ووافقه الذهبي.

الصفة وهو عدم استيفاء أذكارها، أو أركانها وجبرانها بالنوافل مشعر بأنها مقبولة مثاب عليها والكفر ينافي ذلك»[١].

قال الشنقيطي: «ووجه الاستدلال بالحديث المذكور على عدم كفر تارك الصلاة أن نقصان الصلوات المكتوبة وإتمامها من النوافل يتناول بعمومه ترك بعضها عمدا، كما يقتضيه عموم ظاهر اللفظ كما ترى»[٢].

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يا أبا ذر إنه سيكون بعدي أمراء يميتون الصلاة، فصل الصلاة لوقتها فإن صليت لوقتها كانت لك، وإلا كنت قد أحرزت صلاتك»**[٣].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«أُمر بعبد من عباد اللَّه أن يضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة، فجلد جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارًا، فلما ارتفع عنه أفاق، قال: عَلاَمَ جلدتموني، قالوا: إنك صليت صلاة واحدة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره»**[٤].

قال الإمام الطحاوي: «في هذا الحديث ما دل على أن تارك الصلاة لم يكن بذلك كافرا؛ لأنه لو كان كافرا لكان دعاؤه باطلا لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[٥]»[٦].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«إن للإسلام صُوى ومنارًا كمنار الطريق، منها: أن تؤمن باللَّه، ولا تشرك به شيئًا، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تسلم على أهلك، إذا دخلت عليهم، وأن تسلم على القوم، إذا مررت بهم، فمن ترك من ذلك شيئًا؛ فقد ترك سهمًا من الإسلام، ومن تركهن؛ فقد ولى الإسلام ظهره»**[٧].

---

(١) نيل الأوطار (١/ ٣٥٧).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٣٤٤).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩) ومسلم (١/ ٤٤٨/ ٦٤٨)، وأبو داود (١/ ٢٩٩/ ٤٣١)، والترمذي (١/ ٣٣٢/ ١٧٦).
(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٨/ ٢١٢/ ٣١٨٥) وجود إسناده الألباني في الصحيحة (٢٧٧٤).
(٥) الرعد: الآية (١٤).
(٦) مشكل الآثار (٤/ ٢٣١).
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٢١) مختصرا وقال: صحيح على شرط البخاري، وأبو عبيد في الإيمان وانظر الصحيحة (٣٣٣).

* عن عائشة ﵂ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ثلاث أحلف عليهن: لا يجعل اللَّه ﷻ من له سهم في الإسلام، كمن لا سهم له، فأسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة، والصوم، والزكاة، ولا يتولى اللهُ ﷻ عبدًا في الدنيا، فيوليه غيره يوم القيامة، ولا يحب رجل قومًا؛ إلا جعله اللَّه ﷻ معهم، والرابعة: لو حلفت عليها؛ لرجوت أن لا آثم، لا يستر اللَّه ﷻ عبدًا في الدنيا؛ إلا ستره يوم القيامة**»[1].

«ووجه الدلالة أن الحديث قد جعل لمن أدى الزكاة وترك الصلاة والصوم سهما في الإسلام، وكذلك جعل لمن أتم الصوم ولم يؤد الزكاة وترك الصلاة سهما في الإسلام، فلو كان ترك الصلاة مخرجًا عن الملة، لما كان لتاركها وإن صام وإن زكى سهم في الإسلام فدل هذا على أن ترك الصلاة ليس كفرًا أكبر»[2].

واحتجوا أيضًا بعموم أدلة أخرى، منها:

* عن عبادة بن الصامت ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللَّه وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق؛ أدخله اللَّه من أي أبواب الجنة الثمانية إن شاء**»[3].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فمن قالها؛ عصم مني ماله ونفسه، إلا بحق الإسلام، وحسابه على الله**»[4].

* عن أنس أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، صدقًا من قلبه، إلا حرمه اللَّه على النار**» قال: يا رسول اللَّه،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٥) وأبو يعلى (٨/ ٤٩-٥٠/ ٤٥٦٦) والطحاوي في مشكل الآثار (٥/ ٤٢٨-٤٢٩/ ٢١٨٥) وصححه الحاكم (١/ ١٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٧): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) سبيل النجاة.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٣-٣١٤)، والبخاري (٦/ ٥٨٦/ ٣٤٣٥)، ومسلم (١/ ٥٧/ ٢٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٨/ ١٠٩٧٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣)، والبخاري (٦/ ١٣٨/ ٢٩٤٦)، ومسلم (١/ ٥٢/ ٢١)، وأبو داود (٣/ ١٠١/ ٢٦٤٠)، الترمذي (٥/ ٥/ ٢٦٠٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٣١١-٣١٢/ ٣٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥/ ٣٩٢٧). وفي الباب عن عمر وابن عمر وأنس وجابر وأوس بن أبي أوس وجرير بن عبد اللَّه وأبي بكرة والنعمان بن بشير وابن عباس وأبي مالك الأشجعي وسهل بن سعد ﵃.

أفلا أخبر به الناس، فيستبشروا؟ قال: «إذًا يتكلوا». وأخبر بها معاذ عند موته تأثُّمًا[١].

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث: «أن عمومها يدل على أنه لا يخلد في النار؛ إلا المشرك، ولم تذكر هذه الأدلة تارك الصلاة من المخلدين في النار، وأن بعض هذه الأدلة علق السعادة والشفاعة لأهل كلمة لا إله إلا اللَّه، ولم يذكر المصلين، وأن العصمة تكون لأهل كلمة التوحيد، دون تعرض لأمر الصلاة، وأن بعض الأحاديث فرق بين شهادة لا إله إلا اللَّه، والصلاة، مما يدل على المغايرة، . . . ونحو ذلك من أقوال لبعض أهل العلم»[٢].

واحتجوا أيضًا بالإجماع فقالوا: «ولأن ذلك إجماع المسلمين فإننا لا نعلم في عصر من الأعصار أحدا من تاركي الصلاة ترك تغسيله والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين ولا منع ورثته ميراثه ولا منع هو ميراث مورثه، ولا فرق بين زوجين لترك الصلاة مع أحدهما لكثرة تاركي الصلاة، ولو كان كافرا لثبتت هذه الأحكام كلها، ولا نعلم بين المسلمين خلافًا في أن تارك الصلاة يجب عليه قضاؤها، ولو كان مرتدا لم يجب عليه قضاء صلاة ولا صيام»[٣].

أجوبة القائلين بعدم التكفير على أدلة المكفرين:

قال ابن القيم: «قال المانعون من التكفير: يجب حمل هذه الأحاديث وما شاكلها على كفر النعمة دون كفر الجحود كقوله ﷺ: «**من تعلم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها**»[٤]، وقوله: «**لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم**»[٥]، وقوله: «**تبرؤ من نسب وإن دق كفر بعد إيمان**»[٦]، وقوله: «**سباب المسلم فسوق وقتاله**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٩، ١٢٨) ومسلم برقم (٣٢).

(٢) سبيل النجاة.

(٣) المغني لابن قدامة (٣/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٠١/ ٤١٨٩) وفي الصغير (١/ ٢١٥/ ٥٣٤)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٤٨): «رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط بإسناد حسن».

(٥) أخرجه البخاري (١٢/ ١٧٥/ ٦٨٣٠) عن ابن عباس عن عمر في خطبته الطويلة.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٥) وابن ماجه (٢/ ٩١٦/ ٢٧٤٤) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح. وأخرجه الدارمي (٤/ ١٨٩٠/ ٢٩٠٣) والبزار (١/ ١٣٩/ ٧٠) من حديث قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ﷺ. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٩١).

كفر»[١]. . »[٢].

وقالوا: إن كفر تارك الصلاة إنما هو كفر دون كفر، فلا يمنع أن يكون بعض أنواع الكفر غير مانع من المغفرة واستحقاق الشفاعة[٣].

قالوا: إن الأحاديث الواردة في تكفير تارك الصلاة كحديث جابر وبريدة رضي الله عنهما إنما هي على سبيل التغليظ والزجر الشديد لا على الحقيقة، فظاهرها غير مراد.

قال ابن قدامة في المغني: «أما الأحاديث المتقدمة فهي على سبيل التغليظ والتشبه بالكفار لا على الحقيقة»[٤].

وقالوا: إن مثل هذه النصوص محمولة على أنه شَارَكَ الكافر في بعض أحكامه وهو وجوب القتل:

قال النووي: «وهذا التأويل متعين للجمع بين نصوص الشرع وقواعده»[٥].

قالوا: المراد من هذه الأحاديث من استحل ترك الصلاة، أو تركها جحودا بلا عذر:

قال ابن عبدالبر: «واعتلوا في دفع الآثار المروية في تكفير تارك الصلاة بأن قالوا: معناها: من ترك الصلاة جاحدا لها معاندا مستكبرا غير مقر بفرضها»[٦].

وقد تقدمت أجوبتهم على الأحاديث التي ظاهرها التكفير في معرض الكلام على أدلة المكفرين.

أجوبة المكفِّرين على أدلة القائلين بعدم التكفير:

أجاب القائلون بكفر تارك الصلاة عن أدلة مخالفيهم بما يلي:

أما حديث عبادة بن الصامت: «**خمس صلوات كتبهن الله**» «فالنبي ﷺ إنما

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٥ و٤٣٣ و٤٣٩ و٤٤٦ و٤٥٤-٤٥٥). والبخاري (١/ ١٤٧/ ٤٨). ومسلم (١/ ٨١/ ٦٤). والترمذي (٤/ ٣١١/ ١٩٨٣) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (٨/ ١٣٧-١٣٩/ ٤١١٥-٤١٢٤). وابن ماجه (١/ ٢٧/ ٦٩).

(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٥١).

(٣) شرح مشكل الآثار (٤/ ٢٢٧)، العواصم من القواصم (٩/ ٧٩).

(٤) المغني (٣/ ٣٥٨).

(٥) المجموع (٣/ ١٧).

(٦) التمهيد (٤/ ٢٣٥-٢٣٦).

أدخل تحت المشيئة من لم يحافظ عليها، لا من ترك، ونفي المحافظة يقتضي أنهم صلوا ولم يحافظوا عليها، وقوله ﷺ: «**ومن لم يفعل فليس على اللَّه عهد**» معناه: أنه لم يأت بهن على الكمال، وإنما أتى بهن ناقصات من حقوقهن، كما جاء مفسرًا في بعض الروايات: «**ومن جاء بهن، وقد انتقص من حقهن شيئًا، جاء وليس له عند اللَّه عهد إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**»»[1].

قال المروزي: «ومن حقوق الصلاة الطهارة من الأحداث، وطهارة الثياب التي تصلى فيها، وطهارة البقاع التي تصلى عليها، والمحافظة على مواقيتها التي كان يحافظ عليها النبي ﷺ وأصحابه رضى اللَّه عنهم، والخشوع فيها من ترك الالتفات والعبث وحديث النفس، وترك الفكرة فيما ليس من أمر الصلاة، وإحضار القلب واشتغاله بما يقرأ ويقول بلسانه، وإتمام الركوع والسجود، فمن أتى بذلك كله كاملا على ما أمر به فهو الذي له العهد عند اللَّه تعالى بأن يدخله الجنة، ومن أتى بهن لم يتركهن وقد انتقص من حقوقهن شيئًا فهو الذي لا عهد له عند اللَّه تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فهذا بعيد الشبه من الذي يتركها أصلا لا يصليها»[2].

أما حديث حذيفة الذي ورد فيه: «**تنجيهم من النار**»؛ «فهو محمول على زمن الفترات حيث تضمن هذا الحديث الإخبار عما حصل في آخر الزمان من محو الإسلام، ولرفع القرآن حتى لا يبقى منه آية، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، فيغفر اللَّه لهؤلاء ما لا يغفر لغيرهم ممن قامت عليهم الحجة، وظهرت آثار الرسالة في وقتهم»[3].

ولذلك عده شيخ الإسلام من أدلة العذر بالجهل، فقال بعد ذكره حديث الذي أوصى أهله بحرقه: «وبيَّنَّا أن المؤمن الذي لا ريب في إيمانه، قد يخطئ في الأمور العلمية الاعتقادية، فيغفر له، كما يغفر له ما يخطئ فيه من الأمور العملية، وأن حكم الوعيد على الكفر، لا يثبت في حق الشخص المعين، حتى تقوم عليه حجة اللَّه التي بعث بها رسله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4]، وأن

---

(١) نواقض الإيمان القولية والعملية (ص٤٨٠-٤٨١). (٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٧١).

(٣) نواقض الإيمان القولية والعملية (ص٤٨١).

(٤) الإسراء: الآية (١٥).

الأمكنة والأزمنة التي تفتر فيها النبوة، لا يكون حكم من خفيت عليه آثار النبوة حتى أنكر ما جاءت به خطأ كما يكون حكمه في الأمكنة والأزمنة التي ظهرت فيها آثار النبوة، وذكرنا حديث حذيفة الذي فيه: . . (ثم ذكر الحديث»)[١].

قال الشيخ ابن عثيمين: «فإن هؤلاء الذين أنجتهم الكلمة من النار، كانوا معذورين بترك شرائع الإسلام؛ لأنهم لا يدرون عنها، فما قاموا به هو غاية ما يقدرون عليه، وحالهم تشبه حال من ماتوا قبل فرض الشرائع، أو قبل أن يتمكنوا من فعلها، كمن مات عقيب شهادته، قبل أن يتمكن من فعل الشرائع، أو أسلم في دار الكفر فمات قبل أن يتمكن من العلم بالشرائع»[٢].

ومما يدل على ذلك ويؤكده: ما ثبت عن صحابي هذا الحديث -وهو حذيفة ﵁- أنه رأى رجلًا لا يتم الركوع والسجود، فقال: «**ما صليت، ولو مت؛ مت على غير الفطرة التي فطر اللَّه محمدا ﷺ**»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «واستدل به على تكفير تارك الصلاة لأن ظاهره أن حذيفة نفى الإسلام عمن أخل ببعض أركانها، فيكون نفيه عمن أخل بها كلها أولى»[٤].

أما حديث أبي ذر ﵁: «**إنه سيكون بعدي أمراء يميتون الصلاة**» الحديث، فقال محمد بن نصر: «ليس في هذه الأخبار التي احتجَجْتُم بها دليل على أن تارك الصلاة عمدا حتى يخرج وقتها لا يكفر متعمدين لتركها حتى يذهب وقتها، إنما قال في حديث عبادة: «**يكون عليكم أمراء يشغلهم أشياء عن الصلاة**» فإنما أخروها عن الوقت الذي كَانَ تصلى فيه على عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين وهو الوقت الذي نختار، فكانوا يؤخرونها عن وقت الاختيار إلى وقت أصحاب العذر. . لم يكونوا يؤخرون الصلاة حتى يخرج الوقت كله، إنما كانوا يؤخرونها عن وقت الاختيار. . ويصلون في آخر وقت العذر، وذلك قبل غروب الشمس، فلذلك لم يثبتوا عليهم الكفر»[٥].

---

(١) بغية المرتاد (ص: ٣١١).
(٢) حكم تارك الصلاة (ص١٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٣٤٩/ ٧٩١).
(٤) فتح الباري (٢/ ٣٥٠).
(٥) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٥٧-٩٦٣).

أما قوله ﷺ: **«إن للإسلام صوى ومنارا كمنار الطريق»** «فهو دليل متنازع فيه، وذلك أنه ذكر عدة أمور، من ذلك الإيمان بالله، وعدم الشرك به، والصلاة. . . وفي آخر الحديث ذكر أن **«من ترك من ذلك شيئًا؛ فقد ترك سهمًا في الإسلام»** فهل تقولون بعدم كفر تارك الإيمان بالله؟

وجوابكم في هذا، هو جواب من كفر تارك الصلاة، والحديث لم يكفر إلا من ترك جميع هذه الأمور، فظاهره غير معمول به عند الجميع، ولعل هذا من نكارة المتن، والله أعلم»[1].

أما قوله ﷺ: **«ثلاث أحلف عليهن»** الحديث «فيجاب عن ذلك بما يلي:

أن الرواية التي فيها: **«أسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصيام سهم»** لا تصح من الناحية الحديثية. . إنما الذي صح عندنا في ذلك قوله ﷺ: **«ليس من له سهم في الإسلام، كمن لا سهم له»** ويشهد له أيضًا أثر سلمان الآتي -إن شاء الله تعالى-، ومع هذا؛ فلا يؤخذ منه حكم في موضع النّزاع، كما هو ظاهر، والله أعلم.

ولو صح فلا بد من الجمع بين هذا الحديث، وبين ما سبق من أدلة من يكفر تارك الصلاة، فلما كان في أدلة من يكفر تارك الصلاة، ما لا يقبل التأويل السالم من الإيراد. . فلا بد من تأويل هذا النص، حيث أن تأويله ممكن، وذلك أن قوله ﷺ: **«وليس من له سهم في الإسلام. . .»** الحديث، عام في الأسهم الثلاثة، فإنه يحتمل أن الباقي مع صاحب السهم؛ سهم الصلاة، أو سهم الزكاة، أو سهم الصيام، فأي هذه الأسهم كان باقيًا مع صاحبه، فهو في هذه الحالة، ليس كمن لا سهم له أصلًا، وليس في هذا الجزء من الحديث لو صح تصريح بأن السهم الباقي غير الصلاة ولا بد، فالأمر محتمل، فإذا كان هذا عامًا، وما سبق من أدلة التكفير خاص؛ فيحمل العام على الخاص، وهذا مقتضى الجمع بين الأدلة، والله أعلم.

. . . فيكون من ترك أي سهم من هذه الأسهم إلا الصلاة، فإنه لا يكفر، لوجود أدلة في الصلاة، لا توجد في غيرها من الأسهم، ولا يقال: نعكس المسألة، فنخصّص أحاديث: **«من تركها؛ فقد كفر»** بأنه الكفر العملي، أو غيره من

---

(١) سبيل النجاة.

التأويلات السابقة؛ لأنه ما من تأويل لهذه الرواية وما كان في معناها؛ إلا وعليه إيراد واعتراض، كما سبق، واللَّه أعلم.

إن هذا الحديث لو صح لما كان فيه دلالة لمن لا يكفر تارك الصلاة، فإن الذي لا يكفر تارك الصلاة؛ لا يكفِّر من ترك هذه الأسهم الثلاثة جميعها؛ لأنها عبارة عن واجبات، لا يُحكم بكفر تاركها كلها، إنما يحكم بفسقه فقط، فما هو ردهم على قوله ﷺ: «**كمن لا سهم له في الإسلام**»، فظاهره يفيد التكفير لمن لا سهم له في الإسلام؟

ومهما قالوا، فهو خروج منهم عن ظاهر الحديث أو عمومه، فلماذا ينكرون على من خرج عن ظاهره أو عمومه، بأدلة تكفير تارك الصلاة؟! فخلاصة هذا الوجه: أن هذا الحديث لو سلمنا بصحته ظاهره غير مراد، وغير معمول بعمومه عند الطرفين، وذلك لأدلة أخرى عند كل منهما، وما كان كذلك؛ فلا ينهض لرد ما سبق من أدلة، واللَّه أعلم.

أما حديث حذيفة، فمع أنه موقوف، ولو سلمنا بأن له حكم الرفع فليس فيه دليل أيضًا لكم، وذلك أن فيه: «**الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم...**» الحديث، ومعلوم أن سهم الإسلام المذكور في هذا الحديث، هو الشهادتان، فهل تقولون: من ترك الشهادتين، وبقية الأسهم، إلا سهم الصوم مثلًا، أنه مسلم؟! ولا أشك أنكم تنكرون هذا، فلماذا استبحتم ترك عموم الحديث في سهم الشهادتين؟ فإن قلتم: لأدلة أخرى، قيل: وكذا مخالفكم ترك عموم الحديث في سهم الصلاة لأدلة أخرى، قد سبق ذكرها، فما كان جوابًا لكم، فهو جواب لمنازعكم، واللَّه تعالى أعلم.

وكذلك لو قلنا: إن جملة: «**وقد خاب من لا سهم له**» عامة في جميع الأسهم، إلا ما خصّه الدليل، وسهم الصلاة قد وردت أدلة بكفر تاركه، فيحمل العام على الخاص، من غير عكس؛ لما كان هذا بعيدًا عن قواعد أهل العلم، واللَّه أعلم»[1].

أما قوله ﷺ: «**أمر بعبد من عباد اللَّه أن يضرب في قبره مائة جلدة**»، «فقد جاء في رواية هذا الحديث: «**صليت صلاة واحدة بغير طهور**» فهو إذن ليس تاركًا

(١) سبيل النجاة.

للصلاة بالكلية بتركه الوضوء، وإنما هي صلاة واحدة بغير طهور «فهو إذن ليس تاركًا للصلاة بالكلية بتركه الوضوء، وإنما هي صلاة واحدة.. وهناك فرق ظاهر بين من تركها بالكلية.. ومن ترك صلاة واحدة، وقد يفعل بعض المسلمين ذلك، فيصلي بغير وضوء، فيكون مستحقًا للذم والعقاب، وقد يفعله مع اعترافه بالذنب فلا يكفر، كما ظن بعض الأحناف عندما أطلقوا كفر من صلى بغير طهارة، ولكن لو فعله على سبيل الاستهانة والاستخفاف فهو كافر، فكيف بحال هذا الرجل الذي كان مداومًا على الوضوء والصلاة.. لكنه صلى صلاة واحدة بغير وضوء؟

وأما قوله: إن دعاء الكافرين داخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[(١)] فلا يستجاب لهم، فهذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل، فقد يدعو الكافر ربه فيستجاب له، كما جاء ذلك في آيات كثيرة من القرآن؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[(٢)]. وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[(٣)].

وأما دعاء الكافرين لغير اللّٰه تعالى فهو ضلال، كما هو ظاهر الآية التالية: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[(٤)].

أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(٥)] وبعموم الأدلة الدالة على نجاة أهل التوحيد ومن جملتهم تارك الصلاة، والدالة على أنه لا يخلد في النار إلا الكافر والمشرك:

فالجواب على ذلك: «أن الآية إنما تدل على أن الشرك لا يغفره اللّٰه تعالى، وأما ما دونه من الذنوب فقد يغفرها اللّٰه تعالى.

وإذا تقرر بالأدلة السابقة أن ترك الصلاة كفر، لم يمكن أن تكون من الذنوب الداخلة تحت المشيئة بالمغفرة؛ لأن غاية ما تدل عليه الآية التفريق بين ما لا يغفره اللّٰه من الذنوب وبين ما تمكن دخوله تحت المشيئة. وإنما يدخل تحت المشيئة من

---

(١) الرعد: الآية (١٤).
(٢) الأنعام: الآيتان (٤٠-٤١).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٤) الرعد: الآية (١٤).
(٥) النساء: الآية (٤٨).

الذنوب ما لا يكفر به صاحبه، وأما الذنوب المخرجة من الملة فإن اللَّه لا يغفرها. فليس في الآية دلالة على أن اللَّه يغفر الكفر الذي ليس من الشرك، كسب الرسول ﷺ وإهانة المصحف، ونحو ذلك. بل غاية ما فيها الدلالة على أن اللَّه يغفر ما دون الشرك، وأما ما سوى الشرك مما هو كفر فليس في الآية نص على غفرانه، بل ذلك مناقض لصريح الكتاب والسنة.

وأما الاستدلال بعموم الأحاديث التي فيها أن من قال لا إله إلا اللَّه دخل الجنة، ولم يشترط إقامة الصلاة لذلك فلا دلالة فيها أيضًا على أن تارك الصلاة لا يكفر.

وذلك أن المراد بقول لا إله إلا اللَّه تحقيقها، بالالتزام بمقتضياتها وترك نواقضها. وإذا تقرر أن الصلاة كفر فلا اعتبار بمجرد الإقرار بالشهادتين مع عدم الالتزام بأداء الصلاة»[1].

أما حديث الشفاعة: فالجواب عليه: أن «الروايات التي فيها: «**لم يعملوا خيرًا قط**»؛ محمولة على أنهم كانوا يقولون: لا إله إلا اللَّه، ولا بد، كما في الروايات الأخرى، والروايات التي جاءت بأنهم كانوا يقولون: «**لا إله إلا الله**»؛ محمولة على أنهم لم يأتوا بما يناقضها ولا بد، ويوضح ذلك:

.. أن ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ قال في «التوحيد»: هذه اللفظة: «**لم يعملوا خيرًا قط**» من الجنس الذي يقول العرب: ينفى الاسم عن الشيء، لنقصه عن الكمال والتمام، فمعنى هذه اللفظة على هذا الأصل: «**لم يعملوا خيرًا قط**» على التمام والكمال، لا على ما أُوجب عليه، وأُمر به[2]..

ويوضح ما نحن بصدده: أن من خرجوا بالقبضة؛ موحدون غير مشركين، كما هو صريح رواية أبي هريرة وغيره، ولو كانوا مشركين لخلِّدوا في النار، ولم يخرجوا منها، ومن المتفق عليه: أن الرجل لا يكون موحدًا، إلا إذا كان معه من عمل القلب ما يصح به إيمانه، والحديث الذي استدلوا به؛ لم يذكر عمل القلب أصلًا، فلو أخذنا بعمومه؛ لحكمنا بخروج المنافقين من النار، وعدم تخليدهم

---

(١) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة لعبد اللَّه بن محمد القرني (١/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) كتاب التوحيد (٢/ ٧٣٢).

فيها، وهذا باطل، فلا بد من تخصيص عموم حديث أبي سعيد هذا، والعموم إذا خُصِّص في بعض المواضع؛ ضعفت قوته على العمومية كما هو معروف.

.. فإن قيل: إن عمل القلب قد أدخلناه في صحة الإيمان بأدلة أخرى.

فالجواب: وإقامة الصلاة أدخلناها في صحة الإيمان بأدلة أخرى، كما سبق، والله أعلم.

وأيضًا إذا كنا متفقين على أن المشرك؛ ليس من أهل القبضة، فمنازعكم يدَّعي أن تارك الصلاة مشرك، فلا يخرج عنده في القبضة، فأين من حديث الشفاعة حجتكم الصريحة الملزمة لمنازعكم بأن تارك الصلاة خرج مع من خرج في القبضة»[1].

قال المروزي: «أفلا ترى أن تارك الصلاة، ليس من أهل ملة الإسلام، الذين يُرجى لهم الخروج من النار، ودخول الجنة بشفاعة الشافعين، كما قال ﷺ في حديث الشفاعة الذي رواه أبو هريرة وأبو سعيد جميعًا رضي الله عنهما: «**أنهم يخرجون من النار، يعرفون بآثار السجود**» قد بين لك أن المستحقين للخروج من النار بالشفاعة: هم المصلون»[2].

وقد أجاب الشيخ العلامة ابن عثيمين رحمه الله بجواب مفصل على هذه الأدلة المذكورة، وغيرها مما سبق ذكره، فقال:

«فإن قال قائل: ما هو الجواب عن الأدلة التي استدل بها من لا يرى كفر تارك الصلاة؟

قلنا: الجواب أن هذه الأدلة لم يأت فيها أن تارك الصلاة لا يكفر، أو أنه مؤمن أو أنه لا يدخل النار، أو أنه في الجنة. ونحو ذلك.

ومن تأملها وجدها لا تخرج عن خمسة أقسام كلها لا تعارض أدلة القائلين بأنه كفر.

القسم الأول: أحاديث ضعيفة غير صريحة حاول مُورِدُها أن يتعلق بها ولم يأت بطائل.

---

(١) سبيل النجاة، وقد ذكر أوجها أخرى في الرد على من استدل به على عدم كفر تارك الصلاة فانظرها هناك.

(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ١٠٠٩).

القسم الثاني: ما لا دليل فيه أصلا للمسألة؛ مثل استدلال بعضهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]. فإن معنى قوله تعالى: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ما هو أقل من ذلك، وليس معناه ما سوى ذلك، بدليل أن من كذب بما أخبر اللَّه به ورسوله، فهو كافر كفرًا لا يغفر له وليس ذنبه من الشرك.

ولو سلمنا أن معنى ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ما سوى ذلك، لكان هذا من باب العام المخصوص بالنصوص الدالة على الكفر بما سوى الشرك والكفر المخرج عن الملة من الذنب الذي لا يغفر وإن لم يكن شركًا.

القسم الثالث: عام مخصوص بالأحاديث الدالة على كفر تارك الصلاة؛ مثل قوله ﷺ في حديث معاذ بن جبل: «**ما من عبد يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله إلا حرمه اللَّه على النار**»[2]. وهذا أحد ألفاظه، وورد نحوه من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وعتبان بن مالك ﷺ.

القسم الرابع: عام مقيد بما لا يمكن معه ترك الصلاة.

مثل قوله ﷺ في حديث عتبان بن مالك: «**فإن اللَّه حرم على النار من قال لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه الله**»[3] رواه البخاري.

وقوله ﷺ، في حديث معاذ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه صدقًا من قلبه إلا حرمه اللَّه على النار**» رواه البخاري.

فتقييد الإتيان بالشهادتين بإخلاص القصد، وصدق القلب، يمنعه من ترك الصلاة، إذ ما من شخص يصدق في ذلك، ويخلص إلا حمله صدقه وإخلاصه على فعل الصلاة ولا بد، فإن الصلاة عمود الإسلام، وهي الصلة بين العبد وربه، فإذا كان صادقا في ابتغاء وجه اللَّه، فلا بد أن يفعل ما يوصله إلى ذلك، ويتجنب ما يحول بينه وبينه، وكذلك من شهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه صدقًا من قلبه، فلا بد أن يحمله ذلك إلى الصدق على أداء الصلاة مخلصًا بها لله تعالى متبعًا فيها رسول اللَّه ﷺ؛ لأن ذلك من مستلزمات تلك الشهادة الصادقة.

---

(١) النساء: الآية (٤٨).

(٢) أحمد (٥/ ٢٢٨). والبخاري (١/ ٣٠٠/ ١٢٨). ومسلم (١/ ٦١/ ٣٢). والترمذي (٥/ ٢٦-٢٧/ ٢٦٤٣).

(٣) أحمد (٥/ ٤٤٩)، والبخاري (١١/ ٢٩٠/ ٦٤٢٣)، ومسلم (١/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٣٣).

القسم الخامس: ما ورد مقيدا بحال يعذر فيها بترك الصلاة.

كالحديث الذي رواه ابن ماجه عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس الثوب**» -الحديث- وفيه: «**وتبقى طوائف من الناس؛ الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا اللَّه فنحن نقولها. فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا اللَّه وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟! فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار**» ثلاثًا.

فإن هؤلاء الذين أنجتهم الكلمة من النار، كانوا معذورين بترك شرائع الإسلام؛ لأنهم لا يدرون عنها، فما قاموا به هو غاية ما يقدرون عليه، وحالهم تشبه حال من ماتوا قبل فرض الشرائع، أو قبل أن يتمكنوا من فعلها، كمن مات عقيب شهادته، قبل أن يتمكن من فعل الشرائع، أو أسلم في دار الكفر فمات قبل أن يتمكن من العلم بالشرائع.

والحاصل: أن ما استدل به من لا يرى كفر تارك الصلاة لا يقاوم ما استدل به من يرى كفره؛ لأن ما استدل به أولئك، إما أن يكون ضعيفا غير صريح وإما ألا يكون فيه دلالة أصلا، وإما أن يكون مقيدا بوصف لا يتأتى معه ترك الصلاة، أو مقيدًا بحال يعذر فيها بترك الصلاة، أو عاما مخصوصًا بأدلة تكفيره!.

فإذا تبين كفره بالدليل القائم السالم عن المعارض المقاوم، وجب أن تترتب أحكام الكفر والردة عليه ضرورة، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا»[1].

قلت: الذي ينظر في الأدلة بجميع أطرافها يرى أن أدلة التكفير صحيحة صريحة، وقد أيدها إجماع الصحابة وظواهر نصوص القرآن، ولا يتصور في العقل ولا في الفطرة أن مسلمًا يترك الصلاة بغير نسيان أو ذهاب عقل أو نوم، فالصلاة روح الإسلام وهي التعبير الحقيقي للمسلم فلا يفرق بين مسلم وكافر إلا بأداء الصلاة، ومعظم ما استدل به المخالفون في هذه المسألة نصوص متشابهة كأحاديث خروج الموحدين من النار وغيرها، فيجب إرجاع المتشابه إلى المحكم، وقصة

---

(١) حكم تارك الصلاة (ص٧-٩).

عمر ﷺ نص في الموضوع، فلا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وإذا كان الشرع لم يرخص في ترك الصلاة للمجاهدين وهم في ساحة الوغى، والخوف يملأ قلوبهم، والرؤوس تتطاير من حولهم؛ فكيف يرخصها لغيرهم؟ وعلى أيٍّ فنصوص الوعيد كثيرة جدًّا، فعلى المسلمين أن يتقوا اللَّه في هذه الفريضة، وتشديد المقال على من تخلف عنها، وعدم إثارة الشبه التي تجرئ الناس على التهاون بها، فنرجو اللَّه أن يجعلنا من القائمين بها، وأن لا يسلك بنا سقر بسبب تركها، وأن لا يجعلنا مع قارون وفرعون بسبب التهاون بها، وأن لا يجعلنا من الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، واللَّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب؛ أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن اللَّه لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾[(١)] أي: كائنا لا محالة.

وقوله هاهنا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه.

ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى: آتيًا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد»[(٢)].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه وعد عباده المؤمنين المطيعين جنات عدن. ثم بين أن وعده مأتي، بمعنى أنهم يأتونه وينالون ما وعدوا به؛ لأنه -جل وعلا- لا يخلف الميعاد. وأشار لهذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾[(٥)] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا

---

(١) الإسراء: الآية (٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٦).
(٣) الروم: الآية (٦).
(٤) آل عمران: الآية (٩).
(٥) آل عمران: الآيتان (١٩٤-١٩٥).

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾[(٣)] إلى غير ذلك من الآيات»[(٤)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا»[(٥)].

قال القرطبي: «واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به، ومنه الحديث: «**إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت**»[(٦)]. قال ابن عباس: اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر اللَّه تعالى؛ أي: كلامهم في الجنة حمد اللَّه وتسبيحه»[(٧)].

وقال: «السلام اسم جامع للخير والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون»[(٨)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: في مثل وقت البُكْرات ووقت العَشيّات، لا أن هناك ليلًا أو نهارًا ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار»[(٩)].

قال الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: ما وجه ذكر البكرة والعشيّ مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها. وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة:

---

(١) الإسراء: الآيتان (١٠٧و١٠٨).
(٢) المزمل: الآيتان (١٧و١٨).
(٣) الفرقان: الآيتان (١٥و١٦).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٣٦٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٧).
(٦) أخرجه البخاري (٢/ ٥٢٥/ ٩٣٤) ومسلم (٢/ ٥٨٣/ ٨٥١ [١١]) وأحمد (٢/ ٢٧٢) وأبو داود (١/ ٦٦٥/ ١١١٢) والترمذي (٢/ ٣٨٧/ ٥١٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١١٥/ ١٤٠١) وابن ماجه (١/ ٣٥٢/ ١١١٠).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٢٦).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٢٦).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٧).

الأول: أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن، كقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[1] أي قدر شهر. ورُوي معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج وغيرهما.

الجواب الثاني: أن العرب كانت في زمنها ترى أن من وجد غذاءً وعشاءً فذلك الناعم، فنزلت الآية مرغبة لهم وإن كان ما في الجنة أكثر من ذلك. ويروى هذا عن قتادة، والحسن، ويحيى بن أبي كثير.

الجواب الثالث: أن العرب تعبر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل: أنا عند فلان صباحًا ومساءً، وبكرة وعشيًّا، يريد الديمومة ولا يَقصِد الوقتين المعلومين.

الجواب الرابع: أن تكون البكرة هو الوقت الذي قبل اشتغالهم بلذاتهم. والعشي: هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال. وهذا يرجع معناه إلى الجواب الأول»[2].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله ﷻ في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[3] إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4]»[5].

قال الشنقيطي: «وقد بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يورث المتقين من عباده جنته، وقد بين هذا المعنى أيضًا في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

---

(١) سبأ: الآية (١٢).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٣٦٦-٣٦٧).
(٣) المؤمنون: الآيتان (١-٢).
(٤) المؤمنون: الآيتان (١٠-١١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤٨).

﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[٢]، وقوله: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات. ومعنى إيراثهم الجنة: الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون اللَّه بكرة وعشيا»**[٥].

★ **غريب الحديث:**

زمرة: أي: جماعة.

الألوة: العود الذي يبخر به.

مخ سوقهما: «المخ بضم الميم وتشديد المعجمة ما في داخل العظم، والمراد به وصفها بالصفاء البالغ، وأن ما في داخل العظم لا يستتر بالعظم واللحم والجلد»[٦].

ووقع عند الترمذي: **«ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها»** ونحوه لأحمد من حديث أبي سعيد وزاد **«ينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة»** وهذه الرواية ضعيفة[٧].

---

(١) آل عمران: الآية (١٣٣).
(٢) الزمر: الآية (٧٣).
(٣) الأعراف: الآية (٤٣).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٣٦٨).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٧ و٣٤٥ و٤٢٠ و٤٢٢ و٥٠٧)، والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨-٢١٧٩/ ٢٨٣٤)، والترمذي (٤/ ٥٨٥/ ٢٥٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩/ ٤٣٣٣).
(٦) فتح الباري (٦/ ٤٠١).
(٧) المصدر السابق (٦/ ٤٠١).

على قلب رجل واحد: في الاتفاق والمحبة.

يسبحون اللّه بكرة وعشيًّا: أي قدرهما، قال الطبري: الإبكار: مصدر، تقول أبكر فلان في حاجته إذا خرج من بين طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وأما العشي فمن بعد الزوال[1].

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح هذا الحديث في سورة البقرة.

قال القرطبي: «قوله: «**يسبحون اللّه بكرة وعشيًّا**»، هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام؛ لأن الجنة ليست محل تكليف، وإنما هي محل جزاء، وإنما هو عن تيسير وإلهام، كما قال في الرواية الأخرى: «**يلهمون التسبيح، والتحميد، والتكبير، كما تلهمون النفس**». ووجه التشبيه: أن تنفس الإنسان لا بد له منه، ولا كلفة ولا مشقة عليه في فعله. وآحاد التنفيسات مكتسبة للإنسان، وجملتها ضرورية في حقه، إذ يتمكن من ضبط قليل الأنفاس، ولا يتمكن من جميعها، فكذلك يكون ذكر اللّه تعالى على ألسنة أهل الجنة، وسر ذلك: أن قلوبهم قد تنورت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغ نعمته، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ومخاللته. فألسنتهم ملازمة ذكره، ورهينة بشكره، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره»[2].

هناك فائدة مزيدة عند مسلم من حديث أبي هريرة واللفظ ليعقوب الدورقي: «**وما في الجنة عزب**» والعزب من لا زوجة له، قال القاضي: ظاهر هذا الحديث أن النساء أكثر أهل الجنة، وفي الحديث الآخر أنهن أكثر أهل النار، قال: فيخرج من مجموع هذا أن النساء أكثر ولد آدم[3].

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ٤٠١).
(٢) المفهم (٧/ ١٨١).
(٣) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي قال اللَّه سبحانه: قل يا جبريل: وما نتنزل، وذلك أن رسول اللَّه ﷺ استبطأ نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر اللَّه..

وقيل: إن هذا حكاية عن أهل الجنة، وأنهم يقولون عند دخولها: وما نتنزل هذه الجنان ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ والأوّل أولى بدلالة ما قبله، ومعناه يحتمل وجهين: الأوّل: وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. والثاني: وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك الذي يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك، والتنزل: النزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي ﷺ فقال: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: من الجهات والأماكن، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة، وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيئته، وقيل: المعنى: له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك، وهو ما بين النفختين وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التي نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن اللَّه سبحانه هو المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة، فلا نَقدم على أمر إلا بإذنه»[1].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فقال بعضهم: يعني بقوله ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الدنيا، وبقوله

(١) فتح القدير (٣/ ٤٨٤).

﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ النفختين. . وقال آخرون ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بين الدنيا والآخرة. . وقال آخرون: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ قال: ما مضى أمامنا من الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما يكون بعدنا من الدنيا والآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ قال: ما بين ما مضى أمامهم، وبين ما يكون بعدهم.

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يتأوّل ذلك له ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ قبل أن نخلق ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ بعد الفناء ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ حين كنا. .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة؛ لأن ذلك لم يجئ وهو جاء، فهو بين أيديهم، فإن الأغلب في استعمال الناس إذا قالوا: هذا الأمر بين يديك، أنهم يعنون به ما لم يجئ، وأنه جاء، فلذلك قلنا: ذلك أولى بالصواب. وما خلفنا من أمر الدنيا، وذلك ما قد خلفوه فمضى، فصار خلفهم بتخليفهم إياه، وكذلك تقول العرب لما قد جاوزه المرء وخلفه هو خلفه، ووراءه وما بين ذلك: ما بين ما لم يمض من أمر الدنيا إلى الآخرة؛ لأن ذلك هو الذي بين ذَينك الوقتين.

وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلات به؛ لأن ذلك هو الظاهر الأغلب، وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب من معانيه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب التسليم له. فتأمل الكلام إذن: فلا تستبطئنا يا محمد في تخلفنا عنك، فإنا لا نتنزل من السماء إلى الأرض إلا بأمر ربك لنا بالنزول إليها، لله ما هو حادث من أمور الآخرة التي لم تأت وهي آتية، وما قد مضى فخلفناه من أمر الدنيا، وما بين وقتنا هذا إلى قيام الساعة، بيده ذلك كله، وهو مالكه ومصرّفه، لا يملك ذلك غيره، فليس لنا أن نحدث في سلطانه أمرا إلا بأمره إيانا به ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يقول: ولم يكن ربك ذا نسيان، فيتأخر نزولي إليك بنسيانه إياك بل هو الذي لا يعزب عنه شيء في السماء ولا في الأرض فتبارك وتعالى ولكنه أعلم بما يدبر ويقضي في خلقه -جلّ ثناؤه-»[1].

(١) جامع البيان (١٦/ ١٠٤-١٠٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول هذه الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ لجبريل: «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية[١].

★ **فوائد الحديث:**

أفاد الحديث سبب نزول الآية وهو استبطاء النبي ﷺ جبريل، ورغبته أن يُكثر من زيارته له شوقا منه ﷺ واستئناسا بالوحي، فأفاده جبريل بأن نزوله ليس موكولًا إلى رغبته ومشيئته، وإنما ذلك إلى أمر اللَّه ﷻ وإذنه، وأنه كما نص ابن حجر لا ينزل إلاّ مصاحبًا لأمر اللَّه عباده بما أوجب عليهم أو حرّم[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

* عن أبي الدرداء رفع الحديث قال: «**ما أحل اللَّه في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من اللَّه العافية، فإن اللَّه لم يكن نسيّا**». ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[٣].

* عن سلمان رضي الله عنه قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال: «**الحلال ما أحل اللَّه في كتابه، والحرام ما حرم اللَّه في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣١ و٢٣٣-٢٣٤ و٣٥٧)، والبخاري (٦/ ٣٧٥/ ٣٢١٨)، والترمذي (٥/ ٢٩٦/ ٣١٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٤/ ١١٣١٩).

(٢) الفتح (٨/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه البزار (الكشف ١/ ٧٨/ ١٢٣)، وقال: «إسناده صالح»، البيهقي (١٠/ ١٢)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٧٥) ووافقه الذهبي. وقال في المجمع (١/ ١٧١): «رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون».

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ١٩٢/ ١٧٢٦)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه»، ابن ماجه (٢/ ١١١٧/ ٣٣٦٧)، وصححه الحاكم (٤/ ١١٥).

★ **فوائد الحديثين:**

«أما المسكوت عنه فهو ما لم يذكر حكمه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم، فيكون معفوا عنه لا حرج على فاعله، وعلى هذا دلت الأحاديث المذكورة ههنا»[1].

«إنما سكت عن ذكرها رحمة بعباده ورفقا حيث لم يحرمها عليهم حتى يعاقبهم على فعلها، ولم يوجبها عليهم حتى يعاقبهم على تركها، بل جعلها عفوا. فإن فعلوها فلا حرج عليهم، وإن تركوها فكذلك. وفي حديث أبي الدرداء ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ومثله قوله ﷻ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2]»[3].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٦٣).
(٢) طه: الآية (٥٢).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٧٠).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سميا: أي مثيلا ومشابهًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل؛ برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو: عبادته وحده لا شريك له، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة اللَّه تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾[1] إلى أن قال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾[2] الآية. ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي: هل تعلم لله مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مساميًا ولا مشابهًا؛ لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه اللَّه تعالى، فهذا برهان قاطع على أن اللَّه هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده

---

(١) طه: الآية (١٣١).

(٢) طه: الآية (١٣٢).

بالعظمة والأسماء الحسنى»[١].

قال الشوكاني: «المعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشارك استحق اللَّه سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبنيّ على أن المراد بالسميّ: هو الشريك في المسمى، وقيل: المراد به: الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل: المعنى إنه لم يسمّ شيء من الأصنام ولا غيرها باللَّه قط، يعني: بعد دخول الألف واللام التي عوّضت عن الهمزة ولزمت.

وقيل: المراد: هل تعلم أحدًا اسمه الرحمن غيره؟ قال الزجاج: تأويله واللَّه أعلم: هل تعلم له سميًّا يستحق أن يقال له: خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، وعلى هذا لا سميّ لله في جميع أسمائه؛ لأن غيره وإن سمي بشيء من أسمائه، فللّه سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا: نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٨٥).

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾

★ غريب الآية:

جثيًّا : جمع جَاثٍ، وهو الذي بَرَكَ على ركبتيه. قال الكميت :

هُمُو تركوا سراتهم جُثِيّا وهم دونَ السَّراةِ مُقَرَّنينا

شيعة : الشيعة : الجماعة إذا كانوا على أمر واحد. وتشايع القوم إذا تبع بعضهم بعضا.

عتيّا : أي تمردًا وعصيانًا.

صِلِيًّا : جمع صالٍ. وصلي النارَ : دخلها وذاق حرها. قال الشاعر :

لم أكن من حماتها علم اللـ ـهُ وإني لِحَرِّهَا اليومَ صَالِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي : «وقد بين في هذه الآية : أن هذا الإنسان الكافر يقول منكرًا البعث : أئذا مت لسوف أخرج حيًّا، زعمًا أنه إذا مات لا يمكن أن يحيا بعد الموت. وقد رد اللَّه عليه مقالته هذه بقوله : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ يعني : أيقول الإنسان مقالته هذه في إنكار البعث، ولا يذكر أنا أوجدناه الإيجاد الأول ولم يك شيئًا، بل كان عدمًا فأوجدناه، وإيجادنا له المرة الأولى دليل قاطع على قدرتنا على إيجاده بالبعث مرة أخرى.

وهذا البرهان الذي أشار له هنا قد قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة البقرة والنحل وغيرهما، كقوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ

رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[4]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه»[8].

وقال السعدي: «المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول -مستفهما على وجه النفي والعناد والكفر- ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي: كيف يعيدني اللّه حيا بعد الموت، وبعد ما كنت رميما؟ هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ، وعناده لرسل اللّه وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهانا قاطعا، ودليلًا واضحًا، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن اللّه خلقه أول مرة، ولم يك شيئًا، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئًا مذكورا، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك»[9].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ **قال الشوكاني**: «ثم لما جاء ﷺ بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافًا إلى رسوله تشريفًا له وتعظيمًا، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ

---

(١) يس: الآيتان (٧٨-٧٩).
(٢) ق: الآية (١٥).
(٣) الواقعة: الآية (٦٢).
(٤) الروم: الآية (٢٧).
(٥) الإسراء: الآية (٥١).
(٦) الحج: الآية (٥).
(٧) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٨) أضواء البيان (٤/ ٣٧٠-٣٧١).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٢٧-١٢٨).

لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ ومعنى ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ : لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والواو في قوله : ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ للعطف على المنصوب، أو بمعنى مع . والمعنى : أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم اللَّه مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للعهد، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ الجثي جمع جاث، من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثوًا، وهو منتصب على الحال، أي جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[(١)] . وقيل : المراد بقوله : ﴿جِثِيًّا﴾ : جماعات، وأصله، جمع جثوة، والجثوة هي : المجموع من التراب أو الحجارة . قال طرفة :

أَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا   صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدِ»[(٢)] .

قوله : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ ؛ قال ابن جرير : «القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ يقول -تعالى ذكره- : ثم لنأخذن من كلّ جماعة منهم أشدّهم على اللَّه عتوّا وتمرّدًا فلنبدأنّ بهم . . والشيعة هم الجماعة المتعاونون على الأمر من الأمور، يقال من ذلك : تشايع القوم : إذا تعاونوا ؛ ومنه قولهم للرجل الشجاع : إنه لمشيع : أي معان، فمعنى الكلام : ثم لننزعن من كل جماعة تشايعت على الكفر باللَّه، أشدّهم على اللَّه عتوّا، فلنبدأنّ بإصلائه جهنم . والتشايع في غير هذا الموضع : التفرّق ؛ ومنه قول اللَّه -عزّ ذكره- : ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾[(٣)] يعني : فرقا»[(٤)] .

قال الشنقيطي : «قوله في هذه الآية الكريمة ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ أي : لنستخرجن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي من كل أمة أهل دين واحد . وأصل الشيعة فعلة كفرقة، وهي الطّائفة التي شاعت غيرها أي تبعته في هدى أو ضلال ؛ تقول العرب : شاعه شياعًا : إذا تبعه .

---

(١) الجاثية : الآية (٢٨) .

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٨٥-٤٨٦) .

(٣) الأنعام : الآية (١٥٩) .

(٤) جامع البيان (١٦/ ١٠٧-١٠٨) .

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾؛ أي لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال. وهذا هو الظاهر في معنى الآية الكريمة: أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم.

وقد جاءت آيات من كتاب اللَّه تعالى تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[3] ولأجل هذا كان في أمم النار أولى وأخرى. فالأولى: التي يبدأ بعذابها وبدخولها النار. والأخرى التي تدخل بعدها على حسب تفاوتهم في أنواع الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (ثم) هاهنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلَّد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على منكري البعث من الملاحدة والشيوعيين والبعثيين من عباد الأوثان

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «قال اللَّه عز وجل: كذبني ابن آدم

---

(١) النحل: الآية (٨٨).
(٢) العنكبوت: الآية (١٣).
(٣) النحل: الآية (٢٥).
(٤) الأعراف: الآيتان (٣٨-٣٩).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٣٧٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يشتمني، أما تكذيبه إياي فقوله: إني لا أعيده كما بدأته، وليس آخر الخلق بأعز علي من أوله، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللَّه ولدًا، وأنا اللَّه الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد»[١].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**ليس يعيدني كما بدأني**» قال الحافظ: «والمراد من الحديث هنا قوله: «**ليس يعيدني كما بدأني**» وهو قول منكري البعث من الملاحدة»[٢].

قال السندي: «قوله: «**كذبني**» من التكذيب أي أنكرَ ما أخبرت به من البعث، وأنكرَ قدرتي عليه، «**بأعز**» بأثقل، بل الكل على حد سواء يمكن بكلمة كن، هذا بالنظر إليه تعالى، وأما بالنظر إلى عقولهم وعادتهم فآخِر الخلق أسهل؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٣] فلا وجه للتكذيب أصلا. «**وأما شتمه**» أي ذكره أسوأَ كلام وأشنَعَه في حقي، وإن كانت الشناعة في الأول أيضًا موجودة بنسبة الكذب إلى أخباره والعجز إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، لكنها دون الشناعة في هذا، يظهر ذلك إذا نظر الناظر إلى كيفية تحصيل الولد والمباشرة بأسبابه مع النظر إلى غاية نزاهته تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾. واللَّه تعالى أعلم»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧ و ٣٥٠ و ٣٩٣-٣٩٤)، والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٣)، والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧)، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن ابن عباس ﷺ عند البخاري (٨/ ٢١٢/ ٤٤٨٢).

(٢) الفتح (٦/ ٣٥٨).

(٣) الروم: الآية (٢٧).

(٤) حاشية السندي على سنن النسائي (٤/ ٤١٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

★ غريب الآية:

حَتْمًا: الحَتْمُ: القطع بالأمر والجزم به. وأَمْرٌ حَتْمٌ: أي: لازم وواجب لا مفر منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ الخطاب للناس من غير التفات، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتًا، أي ما منكم من أحد إلا واردها؛ أي: واصلها.

وقد اختلف الناس في هذا الورود. فقيل: الورود: الدخول ويكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورود: هو المرور على الصراط، وقيل: ليس الورود الدخول إنما هو كما يقول: وردت البصرة ولم أدخلها، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1]. قالوا: فلا يدخل النار من ضمن اللّه أن يبعده عنها، ومما يدلّ على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[2] فإن المراد: أشرف عليه لا أنه دخل فيه، ومنه قول زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقًا جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المتَخَيِّمِ

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو: المرور على الصرط، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنّة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك؛ لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من

(١) الأنبياء: الآية (١٠١).
(٢) القصص: الآية (٢٣).

المؤمنين مبعدًا من عذابها، أو بحمله على المضيّ فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كان ورودهم المذكور أمرًا محتومًا قد قضى سبحانه أنه لا بدّ من وقوعه لا محالة»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي، بحسبهم، نجى اللَّه تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم -وهي مواضع السجود- وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيُخرجون أولا من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج اللَّه من النار من قال يومًا من الدهر: «لا إله إلا الله» وإن لم يعمل خيرًا قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول اللَّه ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي استدل بها من قال بأن الورود هو المرور على الصراط

* عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «**لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم**»[٣].

قال أبو عبد الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

* عن أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار إن شاء اللَّه من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يا رسول الله!

(١) فتح القدير (٣/ ٤٨٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥٦-٢٥٧).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٩-٢٤٠)، والبخاري (٣/ ١٥٣/ ١٢٥١)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢)، وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٤/ ١١٣٢٠).

فانتهرها فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: «قد قال اللَّه ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾»[1].

* عن السدي قال: سألت مرة الهمداني عن قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فحدثني أن عبد اللَّه بن مسعود حدثهم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يرد الناس ثم يصدرون منها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب في رجله ثم كشد الرجل ثم كمشيه**»[2].

* عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا ثم ينجي اللَّه الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد اللَّه فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا، فأهوى بأصبعيه إلى اليسرى، وقال صُمَّتَا إن لم أكن سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار أو قال لجهنم ضجيجا من بردهم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[3].

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه عاد مريضا ومعه أبو هريرة من وعك كان به فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**أبشر إن اللَّه ﷻ يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظَّه من النار في الآخرة**»[4].

⋆ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «فصل: أحاديث هذا الباب تبين لك معنى الورود المذكور في القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. رُوي عن ابن عباس وابن مسعود

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٢)، ومسلم (٤/ ١٩٤٢/ ٢٤٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٥/ ١١٣٢١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٤-٤٣٥)، والترمذي (٥/ ٢٩٧/ ٣١٥٩-٣١٦٠)، وقال: «هذا حديث حسن»، وصححه الحاكم (٢/ ٣٧٥) (٤/ ٥٨٦) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وانظر الصحيحة (٣١١).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩)، والحاكم (٤/ ٥٨٧) وصححه ووافقه البيهقي. قال الهيثمي (٧/ ٥٥): «رواه أحمد ورجاله ثقات»، البيقهي في الشعب (١/ ٣٣٦/ ٣٧٠) وقال: «هذا إسناد حسن».

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٣٥٩/ ٢٠٨٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٤٩/ ٣٤٧٠)، والحاكم (١/ ٣٤٥) وصححه ووافقه الذهبي.

وكعب الأحبار أنهم قالوا الورود الممر على الصراط، رواه السدي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ . .

وقيل الورود: الدخول، روي عن ابن مسعود وعن ابن عباس أيضًا وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم، وحديث أبي سعيد الخدري نص في ذلك على ما يأتي، فيدخلها العصاة بجرائمهم والأولياء بشفاعتهم. وروى جابر بن عبد اللَّه قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** . .

وقال مجاهد: ورود المؤمنين هو الحمى الذي يصيب المؤمن في دار الدنيا، وهي حظ المؤمن من النار فلا يردها. وأسند أبو عمر بن عبدالبر في ذلك حديثًا في التمهيد عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ عاد مريضا من وعك به فقال النبي ﷺ: أبشر فإن اللَّه تعالى يقول: «**هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار**»، وقالت طائفة: الورود النظر إليها في القبر، فينجي منها الفائز ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة اللَّه تعالى . .

وقيل المراد بالورود: الإشراف على جهنم والاطلاع عليها والقرب منها، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب، ثم ينجي اللَّه الذين اتقوا مما نظروا إليه ويصار بهم إلى الجنة، ﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي يؤمر بهم إلى النار؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[1] أي: أشرف عليها لا أنه دخله.

وروت حفصة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية**» قالت: فقلت: يا رسول اللَّه، وأين قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾. خَرَّجه مسلم من حديث أم مبشر . .

وقيل: الخطاب للكفار في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ . .

---

(١) القصص: الآية (٢٣).

قال الشيخ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذي يجمع شتات الأقوال أن يقال: إن من وردها ولم يؤذ بلهبها وحرها فقد بعد عنها ونجي منها، نجانا اللَّه منها بفضله وكرمه، وجعلنا ممن وردها سالمًا وخرج منها غانما»[1].

وقال ابن أبي العز: «واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة**»، قالت حفصة: قلت: يا رسول اللَّه، أليس اللَّه يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: «**ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾** أشار ﷺ إلى أن ورودَ النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا يستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه اللَّه منهم، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾[2] ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾[3] ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾[4]. ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم اللَّه به من أسباب النجاة، لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي اللَّه الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيا، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط»[5].

* * *

(١) التذكرة (ص: ٣٣٣-٣٣٦).
(٢) هود: الآية (٥٨).
(٣) هود: الآية (٦٦).
(٤) هود: الآية (٩٤).
(٥) شرح الطحاوية (٢/ ١٥٦-١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نديًّا: النَّدي والنادي: مجلس القوم للتشاور والتحدي. ومنه: دار الندوة: وهي دار قصي بمكة كانت قريش تجتمع فيها للمشورة.

أثاثًا: الأثاث: المتاع من فراش وثياب.

رِئْيًا: أي منظرًا حسنًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم أنهم عارضوا حجة اللَّه بكلام فقالوا: لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسنَ وأطيبَ من حالنا؛ لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل، وأعداءه المعرضين عن خدمته في العز والراحة، ولما كان الأمر بالعكس، فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء، والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والذل؛ دل على أن الحق ليس مع المؤمنين، هذا حاصل شبهتهم في هذا الباب. ونظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾[1] ويروى أنهم كانوا

(١) الأحقاف: الآية (١١).

يُرَجِّلُونَ شُعُورَهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يدَّعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على اللَّه منهم . .

ثم أجاب اللَّه تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ وتقرير هذا الجواب أن يقال: إن من كان أعظم نعمة منكم في الدنيا قد أهلكهم اللَّه تعالى وأبادهم، فلو دل حصول نعم الدنيا للإنسان على كونه حبيبًا لله تعالى لوجب في حبيب اللَّه أن لا يوصل إليه غمًا في الدنيا ووجب عليه أن لا يهلك أحدًا من المنعمين في دار الدنيا، وحيث أهلكهم دل إما على فساد المقدمة الأولى وهي أن من وجد الدنيا كان حبيبًا لله تعالى، أو على فساد المقدمة الثانية وهي أن حبيب اللَّه لا يُوصل اللَّه إليه غمًا، وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة»[1].

قال الشنقيطي: «واستدلالهم هذا بحظهم في الحياة الدينا على حظهم يوم القيامة، وأن اللَّه ما أعطاهم في الدنيا إلا لمكانتهم عنده، واستحقاقهم لذلك لسخافة عقولهم، ذكره اللَّه تعالى في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[6]، وقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[7]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات.

فكل هذه الآيات دالة على أنهم لجهلهم يظنون أن اللَّه لم يعطهم نصيبًا من الدنيا

---

(١) مفاتح الغيب (٢١/ ٢٤٦-٢٤٧).
(٢) الأحقاف: الآية (١١).
(٣) الأنعام: الآية (٥٣).
(٤) سبأ: الآية (٣٥).
(٥) المؤمنون: الآيتان (٥٥-٥٦).
(٦) مريم: الآية (٧٧).
(٧) الكهف: الآيتان (٣٥-٣٦).
(٨) فصلت: الآية (٥٠).

إلا لرضاه عنهم، ومكانتهم عنده، وأن الأمر في الآخرة سيكون كذلك.

وقد أبطل اللَّه تعالى دعواهم هذه في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ والمعنى: أهلكنا قرونا كثيرة، أي أممًا كانت قبلهم وهم أكثر نصيبًا في الدنيا منهم، فما منعهم ما كان عندهم من زينة الدنيا ومتاعها من إهلاك اللَّه إياهم لما عصوا وكذبوا رسله، فلو كان الحظ والنصيب في الدنيا يدل على رضا اللَّه والمكانة عنده لما أهلك الذين من قبلكم، الذين هم أحسن أثاثًا ورئيًا منكم»[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾؛ قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضي أجله، ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ يصيبه، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي»[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة، وتقريره: لنفرض أن هذا الضال المتنعم في الدنيا قد مدّ اللَّه في أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم إلى النعمة العظيمة المدة الطويلة، فلا بد وأن ينتهي إلى عذاب في الدنيا أو عذاب في الآخرة، بعد ذلك سيعلمون أن نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك العذاب، فقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مذكور في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلة قولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فبين تعالى أنهم وإن ظنوا في الحال أن منزلتهم أفضل من حيث فضلهم اللَّه تعالى بالمقام والندي، فسيعلمون من بعد أن الأمر بالضد من ذلك وأنهم شر مكانًا، فإنه لا مكان شر من النار والمناقشة في الحساب. ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ فقد كانوا يظنون وهم في الدنيا أن اجتماعهم ينفع، فإذا رأوا أن لا ناصر لهم في الآخرة عرفوا عند ذلك أنهم كانوا في الدنيا مبطلين فيما ادعوه..

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٥).

قوله: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لأن قوله: ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ المراد منه يوم القيامة، ثم العذاب الذي يحصل قبل يوم القيامة يمكن أن يكون هو عذاب القبر، ويمكن أن يكون هو العذاب الذي سيكون عند المعاينة؛ لأنهم عند ذلك يعلمون ما يستحقون، ويمكن أيضًا أن يكون المراد تغير أحوالهم في الدنيا من العز إلى الذل، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الصحة إلى المرض، ومن الأمن إلى الخوف، ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم، ويمكن أيضًا أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر، وكل هذه الوجوه مذكورة»[1].

قال ابن كثير: «وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] أي: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطا، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[3] فنكلوا أيضًا عن ذلك»[4].

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ الآية؛ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ﴾ من سلك قصد المحجة، واهتدى لسبيل الرشد، فآمن بربه، وصدّق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهى عما نهاه عنه ﴿هُدًى﴾ بما يتجدّد له من الإيمان بالفرائض التي يفرضها عليه، ويقرّ بلزوم فرضها إياه، ويعمل بها، فذلك زيادة من الله في اهتدائه بآياته هدى على هداه، وذلك نظير قوله: ﴿وَإِذَا مَآ

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٤٨).
(٢) الجمعة: الآية (٦).
(٣) آل عمران: الآية (٦١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥٨).

أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[١] . . ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: والأعمال التي أمر اللَّه بها عباده ورضيها منهم، الباقيات لهم غير الفانيات الصالحات، خير عند ربك جزاء لأهلها ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ عليهم من مقامات هؤلاء المشركين باللَّه، وأنديتهم التي يفتخرون بها على أهل الإيمان في الدنيا»[٢].

وقد تقدم تفسير الباقيات الصالحات وبيان المراد منها، وذكر الأحاديث المتعلقة بها في تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٣].

* * *

(١) التوبة: الآية (١٢٤).

(٢) جامع البيان (١٦/ ١١٩-١٢٠).

(٣) الكهف: الآية (٤٦).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل أولًا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها، أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنًا في القول بالحشر فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ حججنا فلم يصدّق بها، وأنكر وعيدنا من أهل الكفر ﴿وَقَالَ﴾ وهو بالله كافر وبرسوله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾.

وذُكر أن هذه الآيات أنزلت في العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص»[٢].

وقال: «وقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ يقول عزّ ذكره: أَعَلِمَ هذا القائل هذا القول علمَ الغيب، فعلم أن له في الآخرة مالا وولدا باطلاعه على علم ما غاب عنه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ يقول: أم آمن بالله وعمل بما أمر به، وانتهى عما نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهدا أن يؤتيه ما يقول من المال والولد»[٣].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿كَلَّا﴾: هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٥٠).
(٢) جامع البيان (١٦/ ١٢٠).
(٣) جامع البيان (١٦/ ١٢٢).

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤتى في الدار الآخرة مالا وولدا، زيادة على الذي له في الدنيا؛ بل في الآخرة يُسلَب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: من المال والولد»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وصبر الصحابة على عقيدتهم واستهزاء أئمة الكفر بهذا الدين

* عن خباب رضي الله عنه قال: كنتُ قَيْنًا في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث. قال: دعني حتى أموت وأبعث، فَسَأُوتَى مالًا وولدًا فأقضيك. فنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[2].

★ **غريب الحديث:**

قينًا: قال ابن دريد: أصل القين الحدّاد، ثم صار كل صائغ عند العرب قينًا.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**لا أكفر حتى تموت ثم تبعث**»: **قال الحافظ**: «مفهومه أنه يكفر حينئذ، لكنه لم يرد ذلك لأن الكفر حينئذ لا يتصور، فكأنه قال: لا أكفر أبدًا. والنكتة في تعبيره بالبعث؛ تعيير العاص بأنه لا يؤمن به، وبهذا التقرير يندفع إيراد من استشكل قوله هذا، فقال: علق الكفر، ومن علق الكفر كفر. وأجاب بأنه خاطب العاص بما يعتقده، فعلّق على ما يستحيل بزعمه، والتقرير الأول يغني عن هذا الجواب»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١١٠)، والبخاري (٤/ ٣٩٨/ ٢٠٩١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٣/ ٢٧٩٥)، والترمذي (٥/ ٢٩٨/ ٣١٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٥/ ١١٣٢٢).

(٣) الفتح (٨/ ٤٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ «أي أنظر في اللوح المحفوظ فرأى أمنيته، أم أعطاه اللَّه مَوثقا بذلك، وهذا توبيخ له على جهله وتحكمه، ثم إنه تعالى نفى ذلك، وزجره عنه، وتوعده عليه بقوله: كلَّا! سنكتب ما يقول؛ أي: نكتب في ديوان أعماله، أو نريه ذلك مكتوبا عليه في القيامة. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي: نزيده منه أضعافا من قولهم: مد النهر، ومده نهر آخر. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: نسلبه ما يقول بالموت. ويقول: بمعنى قال، يعني به: ماله أو ولده. وعبر عن الحال بالماضي لقربه، أو لتماديه على ذلك القول. وفردًا: وحيدًا مسلوبًا، لا نصير له ولا مجير»[1].

وفيه: «أن الكلمة من الاستهزاء يتكلم بها المرء فيُكتب له بها سخطُه إلى يوم القيامة، ألا ترى وعيد اللَّه على استهزائه بقوله: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۝ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يعني: من المال والولد، بعد إهلاكنا إياه ويأتينا فردا؛ أي: نبعثه وحده تكذيبا لظنه»[2].

قال ابن بطال: «وكان العاص بن وائل لا يؤمن بالبعث، فلذلك قال له خباب: واللَّه لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث، ولم يرد خباب أنه إذا بعثه اللَّه بعد الموت أن يكفر بمحمد؛ لأن حينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ويتمنى العاص بن وائل وغيره أن لو كانوا ترابا ولم يكن كافرا، وبعد البعث يستوي يقين المكذب مع يقين المؤمن، ويرتفع الكفر وتزول الشكوك، فكان غرض خباب في قوله إياسَ العاص من كفره. وذكر ابن الكلبي عن جماعة في الجاهلية أنهم كانوا زنادقة منهم: العاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وأبي بن خلف»[3].

* * *

(١) المفهم (٧/ ٣٦١-٣٦٢).
(٢) عمدة القاري (٨/ ٣٦٢).
(٣) شرح ابن بطال (٦/ ٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تأزهم: الأَزُّ: التهييج والإغراء وشدة الإزعاج. وأَزَّتِ القِدْرُ: إذا سُمِعَ غَلَيَانُهَا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واتخذ يا محمد هؤلاء المشركون من قومك آلهة يعبدونها من دون اللَّه، لتكون هؤلاء الآلهة لهم عزًّا، يمنعونهم من عذاب اللَّه، ويتخذون عبادتَهُموها عند اللَّه زلفى. وقوله: ﴿كَلَّا﴾ يقول -عز ذكره-: ليس الأمر كما ظنوا وأمَّلوا من هذه الآلهة التي يعبدونها من دون اللَّه، في أنها تنقذهم من عذاب اللَّه، وتنجيهم منه، ومن سوءٍ إن أراده بهم ربهم. وقوله: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ﴾ يقول عزّ ذكره: ولكن سيكفر الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء المشركين يوم القيامة إياها، وكفرهم بها قيلهم لربهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[1] فجحدوا أن يكونوا عبدوهم أو أمروهم بذلك، وتبرّءُوا منهم، وذلك كفرهم بعبادتهم»[2].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار المتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[3] اتخذوا من دون اللَّه آلهة أي معبوداتٍ من أصنام وغيرها يعبدونها من دون اللَّه، وأنهم عبدوهم لأجل أن يكونوا لهم عزًّا أي أنصارًا وشفعاء ينقذونهم من عذاب الله؛ كما أوضح تعالى مرادهم ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[4]

---

(١) القصص: الآية (٦٣).
(٢) جامع البيان (١٦/ ١٢٣).
(٣) مريم: الآية (٧٢).
(٤) الزمر: الآية (٣).

فتقريبهم إياهم إلى اللَّه زلفى في زعمهم هو عزهم الذي أملوه بهم. وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[(١)] الآية، فالشفاعة عند الموت عند اللَّه عِزٌّ لهم بهم يزعمونه كذبًا وافتراءً على الله؛ كما بينه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(٢)].

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع لهم عن ذلك الظن الفاسد الباطل. أي ليس الأمر كذلك! لا تكون المعبودات التي عبدتم من دون اللَّه عزًّا لكم، بل تكون بعكس ذلك. فيكون عليكم ضدًّا، أي أعوانًا عليكم في خصوماتكم وتكذيبكم والتبرؤ منكم. وأقوال العلماء في الآية تدور حول هذا الذي ذكرنا، كقول ابن عباس: ﴿ضِدًّا﴾ أي أعوانًا، وقول الضحاك: ﴿ضِدًّا﴾ أي أعداء، وقول قتادة: ﴿ضِدًّا﴾ أي قرناء في النار يلعن بعضهم بعضًا، وكقول ابن عطية: ﴿ضِدًّا﴾: يجيئهم منهم خلاف ما أملوه فيؤول بهم ذلك إلى الذل والهوان، ضد ما أمّلوه من العز.

وهذا المعنى الذي ذكر اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: بينه أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[(٤)] إلى غير ذلك من الآيات»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر باللَّه ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ يقول: تحرّكهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي اللَّه، وتغريهم بها حتى يواقعوها. ﴿أَزًّا﴾ إزعاجًا وإغواء»[(٦)].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ الآية: أي: سلّطانهم عليهم

---

(١) يونس: الآية (١٨).
(٢) يونس: الآية (١٨).
(٣) الأحقاف: الآيتان (٥-٦).
(٤) فاطر: الآيتان (١٣-١٤).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٤١٨-٤١٩).
(٦) جامع البيان (١٦/ ١٢٥).

وقيضناهم لهم. .

وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: الأزّ والهز والاستفزاز بمعنى، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج. فقوله ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تهيجهم وتزعجهم إلى الكفر والمعاصي.

وأقوال أهل العلم في الآية راجعة إلى ما ذكرنا: كقول ابن عباس ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي تغويهم إغْواءً، وكقول مجاهد: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي: تشليهم إشلاءً، وكقول قتادة: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم إزعاجًا. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أنه سلط الشياطين على الكافرين، وقيضهم لهم يضلونهم عن الحق بيَّنه في مواضع أخر من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾[2] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات»[5].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب اللّه ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[6]، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[7]، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ﴾[8]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[9]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[10].

قال السدي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ السنين، والشهور، والأيام، والساعات.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا»[11].

---

(١) فصلت: الآية (٢٥).
(٢) الزخرف: الآيتان (٣٦-٣٧).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٤) الأعراف: الآية (٢٠٢).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٤٢٠-٤٢١).
(٦) إبراهيم: الآية (٤٢).
(٧) الطارق: الآية (١٧).
(٨) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٩) لقمان: الآية (٢٤).
(١٠) إبراهيم: الآية (٣٠).
(١١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٢).

قال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن هلاك الكفار حُدّد له أجل معدود ذكره في مواضع كثيرة من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[6]، وقوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾[7]، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات»[9].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٢) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٣) هود: الآية (١٠٤).
(٤) هود: الآية (٨).
(٥) إبراهيم: الآية (٤٢).
(٦) لقمان: الآية (٢٤).
(٧) البقرة: الآية (١٢٦).
(٨) الطارق: الآية (١٧).
(٩) أضواء البيان (٤/ ٤٢١-٤٢٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وفدًا: الوفد: جمع وافد. ووفد على الشيء وأَوْفَدَ عليه: إذا أَشْرَفَ عليه.

نسوق: السوق: الحث على السير. ومنه سميت الساق لاستمرار السير بها.

وردًا: أي: مُشَاةً عطاشًا مثل الإبل التي ترد الماء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه. والوفد: هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفًا إلى النار، ﴿وِرْدًا﴾ عطاشًا، قاله عطاء، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وهاهنا يقال: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[1]..

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عطاشًا»[2].

قال الشنقيطي: «هذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبينًا في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ

---

(١) مريم: الآية (٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٣-٢٦٤).

ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾[1] وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في الآية وجهان أو أوجه من التفسير كلها حق، وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإنا نذكر الجميع وأدلته من كتاب اللّٰه تعالى لأنه كله حق، فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة من ذلك النوع؛ قال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ راجعة إلى ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المذكورين في قوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: لا يملك المجرمون الشَّفاعة، أي لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب.

وهذا الوجه من التفسير تشهد له آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[5] مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الوجه يفهم منه بالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم؛ لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم غيرهم لكفرهم فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى. وعلى كون الواو في ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ راجعة إلى ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فالاستثناء منقطع و«من» في محل نصب؛ والمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا يملكون الشفاعة، أي بتمليك اللّٰه إياهم وإذنه لهم فيها، فيملكها الشافعون بما ذكرنا ويستحقها به المشفوع لهم، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[7]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[8].

---

(١) الزمر: الآيات (٧١-٧٣).
(٢) المدثر: الآية (٤٨).
(٣) الشعراء: الآيتان (١٠٠-١٠١).
(٤) غافر: الآية (١٨).
(٥) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٦) الزمر: الآية (٧).
(٧) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٨) النجم: الآية (٢٦).

وقال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ راجعة إلى «**المتقين والمجرمين**» جميعًا المذكورين في قوله ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ وعليه فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: متصل، و﴿مَنِ﴾ بدل من الواو في ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يملك من جميعهم أحد الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا وهم المؤمنون. والعهد: العمل الصالح. والقول بأنه لا إله إلا اللَّه وغيره من الأقوال يدخل في ذلك؛ أي: إلا المؤمنون فإنهم يشفع بعضهم في بعض؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[1]. وقد بيَّن تعالى في مواضع أخر: أن المعبودات التي يعبدونها من دون اللَّه لا تملك الشفاعة، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن اللَّه له في ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾[2] الآية: أي لكن من شهد بالحق يشفع بإذن اللَّه له في ذلك. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[3] الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾[4] الآية. والأحاديث في الشفاعة وأنواعها كثيرة معروفة. والعلم عند اللَّه تعالى»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النار والحشر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يُحشر الناس على ثلاث طرائق؛ راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيَّتَهُم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا**»[6].

---

(١) طه: الآية (١٠٩).
(٢) الزخرف: الآية (٨٦).
(٣) الروم: الآيتان (١٢-١٣).
(٤) يونس: الآية (١٨).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٤٢٥-٤٢٧).
(٦) أخرجه البخاري (١١/ ٤٥٩/ ٦٥٢٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٥/ ٢٨٦١)، والنسائي (٤/ ٤٢١-٤٢٢/ ٢٠٨٤).

★ **غريب الحديث:**

طرائق: جمع طريقة طرائق؛ قال تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾[1] إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم. وأطباق السماء يقال لها طرائق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾[2] والمراد بها في الحديث: ثلاث فرق.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي: «هذا الحشر هو في الدنيا قبيل قيام الساعة وهو آخر أشراطها كما ذكره مسلم بعد هذا في آيات الساعة، قال فيه: «**وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن تُرَحِّل الناس**» وفي رواية: «**تطرد الناس إلى محشرهم**». وفي حديث آخر: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز**» ويدل على أنها قبل القيامة[3].

قال الخطابي: «الحشر المذكور في هذا الحديث إنما يكون قبل قيام الساعة، يُحشر الناس أحياء إلى الشام، فأما الحشر الذي يكون بعد البعث من القبور فإنه على خلاف هذه الصورة من ركوب الإبل والمعاقبة عليها، إنما هو على ما ورد في الخبر أنهم يبعثون يوم القيامة حفاة عراة بهما غرلًا، وقد قيل: إن هذا البعث دون الحشر، فليس بين الحديثين تدافع ولا تضاد»[4].

وفي الحديث صفة الحشر.

* * *

(١) الجن: الآية (١١).
(٢) المؤمنون: الآية (١٧).
(٣) الإكمال (٨/ ٣٩١).
(٤) أعلام الحديث (٣/ ٢٢٦٩).

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا، وهو شهادة أن لا إله إلا اللّه، والقيام بحقها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا اللّه، ويبرأ إلى اللّه من الحول والقوة، ولا يرجو إلا اللّه ﷻ»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من جنح إلى أن المراد بالعهد المذكور في الآية هو المحافظة على الصلوات الخمس

* عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهن اللّه على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافا بحقهن كان له عند اللّه عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند اللّه عهد: إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

احتج بهذا الحديث من ذهب من المفسرين إلى أن المراد بالعهد في قوله تعالى:

---

(١) الشعراء: الآيتان (١٠٠-١٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٢/ ١٣٠/ ١٤٢٠)، والنسائي (١/ ٢٤٨/ ٤٦٠)، وابن ماجه (١/ ٤٤٨-٤٤٩/ ١٤٠١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/ ١٧٤-١٧٥/ ٢٤١٧).

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هو المحافظة على الصلوات الخمس؛ فيكون معنى الآية هو انتفاء الشفاعة عن هؤلاء المجرمين الذين يساقون إلى جهنم؛ فلا تنفعهم شفاعة الشافعين لأنهم لم يتخذوا عنده عهدا بأن يحافظوا على الصلوات فلا يضيعوها.

قال الشنقيطي: «ومن أقوال العلماء في العهد المذكور في الآية: أنه المحافظة على الصلوات الخمس، واستدل من قال ذلك بحديث عبادة بن الصامت»[(١)].

وقد قيل في هذا العهد أقوال أخرى:

قال القرطبي: «هو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التي يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع، وقال ابن عباس: العهد: لا إله إلا اللّه. وقال مقاتل وابن عباس أيضًا: لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا اللّه، وتبرأ من الحول والقوة إلا لله، ولا يرجوا إلا اللّه تعالى»[(٢)].

قال الشنقيطي: «والذي يظهر لي أن العهد في الآية يشمل الإيمان باللّه وامتثال أمره واجتناب نهيه، خلافًا لمن زعم أن العهد في الآية كقول العرب: عهد الأمير إلى فلان بكذا؛ أي أمره به، أي لا يشفع إلا من أمره اللّه بالشفاعة، فهذا القول ليس صحيحًا في المراد بالآية وإن كان صحيحًا في نفسه. وقد دلت على صحته آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٤٢٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٥٤).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٤) النجم: الآية (٢٦).
(٥) سبأ: الآية (٢٣).
(٦) طه: الآية (١٠٩).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٤٢٨-٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

★ غريب الآية:

إدًّا: الإدّ: الأمر العظيم، المنكر، الداهية. قال الراجز:

قَدْ لَقِيَ الأَعْدَاءُ مِنِّي نُكْراً   دَاهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا امْراً

يتفطرن: يشققن.

هدًّا: الهدّ: الهدم بشدة صوت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[1] وقالت العرب الملائكة بنات اللّه والكل داخلون في هذه الآية»[2].

قال ابن كثير: «لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدا -تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيرًا- فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي: في قولكم هذا، ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيمًا.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا

---

(١) التوبة: الآية (٣٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٥٤).

لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالًا؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

.. وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن فرقًا من عظمة اللَّه.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: غضبًا لله، ﷻ.

﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس: هدمًا.

وقال سعيد بن جبير: ﴿هَدًّا﴾ ينكسر بعضها على بعض متتابعات..

وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: لا ناصر له ولا مجير إلا اللَّه وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرّة، ولا يظلم أحدًا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن أعظم فرية صدرت عن بني آدم في حق خالقهم

* **عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس أحد -أو ليس شيء- أصبر على أذى سمعه من اللَّه، إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليعافيهم ويرزقهم»[2].**

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٥-٢٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥ و٤٠١ و٤٠٥)، والبخاري (١٠/ ٦٢٦/ ٦٠٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤-٤٤٥/ ١١٤٤٥).

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث وصف اللَّه بالحلم لقوله ﷺ: «**ليس أحد أصبر على أذى**» ومقتضى هذا الحلم أن اللَّه يرزق المشركين ويعافيهم وهو عليم بشركهم وأذاهم لله تعالى.

وسيأتي شرح هذا الحديث في سورة الأحزاب إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

★ غريب الآية:

لُدًّا: اللَّدَد: شدة الخصومة. وجمع الألد: لد. قال الشاعر:

إِنَّ تَحْت الأَشجَار حَزما وعزما وخصيما أَلَدَّ ذا معلاق

تُحِسُّ: أصل الإحساس: الإدراك بالحاسة.

رِكْزًا: الركز: الصوت الخفي. ومنه سمي الكنز ركاز لأنه ثابت مستقر خفي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي اللَّه ﷻ، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول اللَّه ﷺ من غير وجه..

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: يا محمد، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل..

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة كفروا بآيات اللَّه وكذبوا رسله ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ أي: هل ترى منهم أحدًا، أو تسمع لهم ركزًا.

قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتًا.

وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عينًا، أو تسمع صوتًا.

والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر:

فَتَوجست رِكْز الأنيس فَرَاعَها عَنْ ظَهْر غَيب والأنيسُ سَقَامُها»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في محبة اللَّه لعباده المؤمنين

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا أحب اللَّه عبدا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانا فأحِبَّه، قال: فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾، وإذا أبغض اللَّه عبدًا نادى جبريل: إني أبغضت فلانًا فينادي في السماء، ثم تنزل له البغضاء في الأرض»[2].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جميع طرق الأدلة نقلًا وعقلًا وخطرة وقياسًا وذوقًا واعتبارًا ووجدانًا، تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده»[3].

في الحديث: إثبات المحبة لله وهو قول جميع السلف، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعمًا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وهذا القول باطل ترده جميع أدلة الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام: «فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أثبتت محبة اللَّه لعباده المؤمنين ومحبتهم له؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[4]، وقوله:

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٧-٢٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٧ و٣٤١ و٤١٣ و٥٠٩ و٥١٤) بنحوه، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠/ ٢٦٣٧)، والترمذي (٥/ ٢٩٧-٢٩٨/ ٣١٦١) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٩).

(٤) البقرة: الآية (١٦٥).

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4]، ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[5]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[6]، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يلقى في النار»**، وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة اللَّه تعالى لعباده المؤمنين، ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام»[7].

قال الحافظ: «قوله **«إذا أحب اللَّه العبد»**: وقع في بعض طرقه بيان سبب هذه المحبة والمراد بها؛ ففي حديث ثوبان إن العبد ليلتمس مرضاة اللَّه تعالى فلا يزال كذلك حتى يقول: يا جبريل إن عبدي فلانًا يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي غلبت عليه.. الحديث»[8].

* * *

(١) المائدة: الآية (٥٤).
(٢) التوبة: الآية (٢٤).
(٣) التوبة: الآية (٤).
(٤) البقرة: الآية (١٩٥).
(٥) البقرة: الآية (٢٢٢).
(٦) المائدة: الآية (٤٢).
(٧) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٥٤).
(٨) الفتح (١٠/ ٥٦٦).

فهرس الموضوعات

سورة الكهف

سُورَةُ مَرْيَم

* * *